

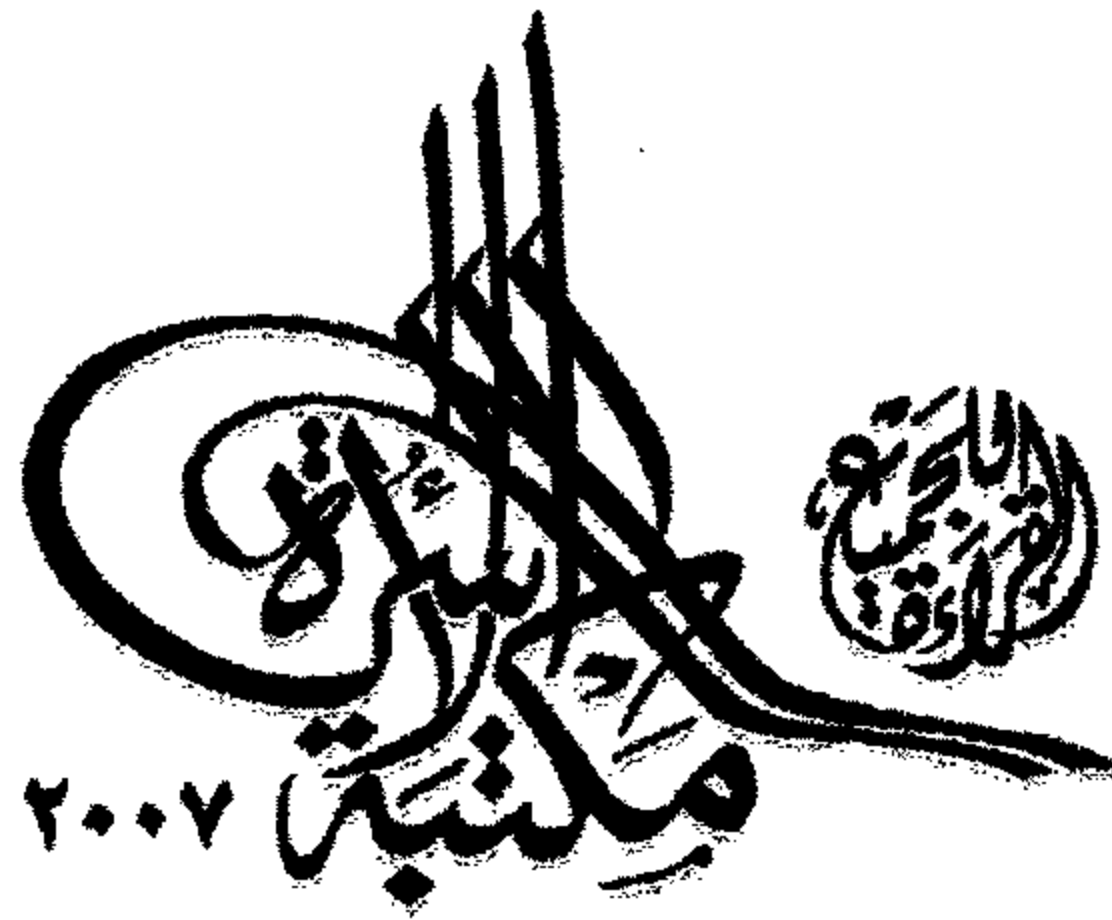
سلسلة المنويات

٢٠٠٧

دور جامعة القاهرة في بناء مصر الحديثة



دور جامعة القاهرة
في بناء مصر الحديثة



برعاية السيدة
وزراء بارك

الجهات المشاركة
جمعية الرعاية المتكاملة المركبة
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب

المشرف العام
د. ناصر الأنصاري

تصميم الغلاف
د. مدحت متولى

الإشراف الطباعي
محمود عبد المجيد

الإشراف الفني
علي أبو الخير
مهند عبد الكريم
صبري عبد الواحد

التفويض
الهيئة المصرية العامة للكتاب

دور جامعة القاهرة في بناء مصر الحديثة

دونا لدمالكولم ريد
ترجمة: اكرام يوسف



دور جامعة القاهرة فى بناء مصر الحديثة

لوحة للفنان: محمود مختار

كإضافة جديدة لمكتبة الأسرة قدمنا على غلاف كل كتاب لوحة تشكيلية لفنان مصرى معاصر من مختلف المدارس والأجيال وهذه اللوحات لا تعبر بالضرورة عن موضوع الكتاب. وتتقدم مكتبة الأسرة بالشكر لقطاع الفنون التشكيلية بوزارة الثقافة ومتحف الفن المصرى الحديث على هذا التعاون.

ريد، دونالد مالكولم.

دور جامعة القاهرة فى بناء مصر الحديثة/

دونالد مالكولم ريد، ترجمة: إكرام يوسف.. -

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.

٤٠٨ ص؛ ٢٤ سم. (مكتبة الأسرة ٢٠٠٧ - مئويات)

تدمك: ٢ - ٩٧٢ - ٤١٩ - ٩٧٧.

١ - جامعة القاهرة.

أ - يوسف، إكرام (مترجم).

ب - العنوان . ج - السلسلة

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٩٦٣ / ٢٠٠٧

I.S.B.N 977-419-972- 3

ديوى ٢٧٨, ٦٢

توطئة

تعتبر القراءة منذ فجر التاريخ أول وأهم أدوات المعرفة، وعنصرًا لا غنى عنه من عناصر بناء الحضارة، فمنذ نقش حكيم مصرى قديم وصية لابنه على ورق البردى: «يا بنى ضع قلبك وراء كتبك، واحببها كما تحب أمك. فليس هناك شيء تعلو منزلته على الكتب»، ومذ أطلق د. طه حسين مقولته: «إن القراءة حق لكل إنسان، بل واجب محتوم على كل إنسان يريد أن يحيا حياة صالحة» ومذ كتب العقاد جملته الأسرة: «إنما أهوى القراءة؛ لأن عندي حياة واحدة في هذه الدنيا، وحياة واحدة لا تكفيني»، ومذ قررت السيدة الفاضلة سوزان مبارك تحويل الحلم إلى واقع مؤكد منذ ستة عشر عامًا: «إن الحق في المعرفة يتصدر أولويات العمل، ولا يقل عن الحقوق الصحية والاجتماعية»، ومسيرة القراءة للجميع تمضى بخطوات ثابتة وواسعة لتحقيق أهدافها فيلتف القراء حول أضخم مشروع نشر في الوطن العربى، ويطالبون خلال السنوات السابقة باستمراره طوال العام، وما هو المشروع يقرر الاستمرار طوال العام بعد انتهاء فترة العطلة الصيفية ليتحقق شعاره بالفعل.. القراءة للحياة.

لقد استطاعت مكتبة الأسرة خلال مسيرتها تمكين الشاب والمواطن من الاطلاع على الأعمال الأدبية والإبداعية والدينية والفكرية، التى شكلت وجدانه وحضارته، وعملت على إشاعة الأفكار التنويرية الحقيقية، التى عكست جهود

التتوير للشعب المصرى فى العصر الحديث، وحرصت على تقديم أحدث الإنجازات العلمية بنشر أحدث مؤلفات العلماء التى تواكب التطور العلمى والتكنولوجى فى العالم، وأقامت جسراً مع الحضارات الأخرى من خلال إعادة طبع كلاسيكيات ودرر العالم المترجمة، التى تعرض إنجازات الشعوب الأخرى فى المجالات الأدبية والفكرية والعلمية، وعملت على تأكيد الهوية القومية من خلال نشر التراث المستير العربى والإسلامى، الذى مثل نقطة انطلاق مضيئة فى مسيرة الإنسانية.

لقد أعادت مكتبة الأسرة للكتاب أهميته ومكانته كمصدر مهم وخالد من مصادر المعرفة، وأحدثت عبر عطائها المتميز وبنائها الدعوب الحقيقى صحة ثقافية بالمجتمع المصرى تؤكدها المؤشرات العامة والأرقام، التى يتم رصدها وتحليلها منذ بداية المشروع، فالأرقام تسجل ارتفاعاً ملحوظاً فى نصيب المواطن المصرى من القراءة، وإصدار ملايين النسخ من الكتب ونفادها الفورى من الأسواق، وازدياد العناوين المطروحة عاماً بعد عام.

لقد بلغت عناوين مكتبة الأسرة أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة عنوان فيما يربو عن واحدٍ وأربعين مليون نسخة، كنتاج فكرى وإبداعى لعدد من الكُتاب والمترجمين والرسامين يزيد عن ألفى مبدع ومفكر.

وما زالت مكتبة الأسرة التى أصبح لها فى كل بيت ركن مميز تواصل تقديم إصداراتها للعام الرابع عشر على التوالى، كرافد رئيسى من روافد القراءة للجميع، وصرح شامخ فى المكتبة العربية، يفتح نوافذ جديدة كل يوم على آفاق تنشر الخير والمعرفة والجمال والحق والسلام.

مكتبة الأسرة

تقديم

لعبت جامعة القاهرة - ولا تزال - دوراً بارزاً في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، باعتبارها منبراً مهماً من منابر الفكر والتثوير، وصرحاً عتيداً من صروح العلم. كما كانت ميداناً خصباً لإثراء الحركة الوطنية - لا سيما في النصف الأول من القرن العشرين - حيث شاركت في خوض النضال ضد الاستعمار، والصراع من أجل إرساء مبدأ تكافؤ الفرص والبحث عن صيغة ديمقراطية صحيحة، عبر جهود دائبة من دعاة الإصلاح لمد جذور الاستتارة وتعميقها في العقل الجمعي العربي، الذين أسهموا بجهود كبيرة لخدمة مشروع الجامعة، وفي مقدمتهم جورجى زيدان، مصطفى كامل، محمد عبده، وسعد زغلول، كما احتضنت العديد من الرموز الوطنية التي لعبت أعظم الأدوار في تغيير وجه الحياة على امتداد هذا الوطن، وأسهمت في تشكيل الواقع القومى لعقود عدة، فاستحققت أن تكون بمثابة الجامعة الأم بين الجامعات العربية، فضلاً عن دورها في ازدهار الحركة الأدبية والثقافية وتحقيق النهضة العلمية والاجتماعية.

وهذا الكتاب يعرض لتاريخ أعرق جامعة مصرية ومسيرتها منذ أن كانت جنيناً في رحم الحركة الوطنية وخروجها إلى حيز الوجود باسم «الجامعة الأهلية» عام ١٩٠٨ قبل أن يصبح اسمها «جامعة فؤاد الأول» والذي تحول إلى

«جامعة القاهرة» بعد ١٩٥٢. مؤكداً على علاقتها الجدلية بالمجتمع المصري، والكيفية التي أثرت بها في التغيرات الثقافية والسياسية والاجتماعية. وهكذا يتناول المؤلف دور جامعة القاهرة في بناء مصر الحديثة عبر أربعة محاور رئيسية تتمثل في: الاستعمار الغربي في مواجهة الحركة الوطنية، استقلال الجامعة إزاء سيطرة الدولة، مبدأ النخبوية في مقابل مبدأ المساواة، والأفكار العلمانية في مواجهة الفكر السلفى.

والواقع أنه رغم تداخل الحياة الجامعية مع الحياة السياسية والاجتماعية في مصر، إلا أنها لم تكن أبداً تمثل وحدة متجانسة، ففي بعض الأحيان كانت الجامعة تدعم محاولات التغيير، وفي أحيان أخرى كانت تركز للوضع الراهن. وإن كانت تمثل المنبع المؤسسى الوسيط للأفكار والأيدولوجيات السائدة، ومن ثم شكّلت عنصراً أساسياً في الحياة السياسية والفكرية في مصر على مدار القرن العشرين.

وضع هذا الكتاب «دونالد مالكولم ريد» أستاذ تاريخ الشرق الأوسط بجامعة جورجيا والذي قدم من قبل العديد من الدراسات عن الشرق الأوسط، من بينها «المحامون والسياسة في العالم العربى ١٨٨٠ - ١٩٦٠، وملحمة فرح أنطون مسيحي سورى باحث عن العلمانية». ونقلته إلى العربية الباحثة «إكرام يوسف» التي ترجمت من قبل «قيام وسقوط القوى العظمى - ج٢» للكاتب دول كيندى، و«دراسة الرئيس والمشير» لروبرت سيرنجبورج، فضلاً عن العديد من الدراسات والمقالات المنشورة في مجلات ودوريات مختلفة.

ومكتبة الأسرة تقدم هذا الكتاب ضمن إصداراتها هذا العام عن طبعته الثانية الصادرة عام ١٩٩٢، احتفاءً بمرور مائة عام على إنشاء جامعة القاهرة.



King Fuad as Rector of the private Egyptian University

أحمد فؤاد "الملك فيما بعد"
مدير الجامعة المصرية الخاصة

مقدمة المترجمة (للطبعة الأولى)

أثناء انشغالي بهذه الترجمة طالعت استطلاعاً (*) أجرتة جريدة الأهالي حول مدى إلمام جيل الشباب المصري الذي ولد بعد منتصف الستينيات، بأحداث تاريخ بلاده المعاصر، وجاءت نتائج الاستطلاع مؤسفة بكل المقاييس، فزادتي إيماناً بأهمية مثل هذا العمل الذي أقدمه للمكتبة العربية والذي تفضل الدكتور أحمد عبد الله بترشيحي لترجمته بعد أن شرفت بترجمة كتابه "الطلبة والسياسة في مصر"، فأصبح فضله بذلك مضاعفاً تقصر دونه كل كلمات الشكر.

والكتابان - فيما أرى - يكملان بعضهما إلى حد كبير ساهم في تيسير مهمة الترجمة لأن اشتراكهما في خلفية تاريخية واحدة سهل على الذهن استحضار أحداث تاريخية بقيت ماثلة به بعد انتهاء العمل الأول.

ولكن، بينما خصص الدكتور أحمد عبد الله كتابه لأستعرض دور الطلاب في الحركة الوطنية المصرية أساساً، يأتي مؤلف هذا الكتاب ليبحر بنا في تاريخ أعرق جامعة مصرية، منذ كانت جنيناً في رحم الحركة الوطنية المصرية حتى خروجها إلى النور مؤكداً على العلاقة الجدلية التي صارت بينها وبين المجتمع المصري وأسهمت في تطورهما معاً. ثم يبحث هذه العلاقة بعد أن شبت الجامعة عن الطوق وأشدت عودها حتى أصبحت أما تتجب جامعات مصرية أخرى، بل وعربية أيضاً.

وعبر إبحاره في تاريخ مجيد، يتناول مؤلف الكتاب هذه العلاقة الجدلية من خلال أربعة محاور للاستقطاب: الاستعمار الغربي في مواجهة الحركة الوطنية - استقلال الجامعة إزاء سيطرة الدولة - ومبدأ النخبوية في مقابل مبدأ المساواة - والأفكار العلمانية في مواجهة الفكر السلفي.

وبقدر ما تثيره مطالعة الكتاب من إحساس بالفخر والاعتزاز بصرح عريق، امتزج تاريخاً، وحاضراً، ومصيراً بتاريخنا جميعاً وحاضرنا ومستقبلنا، بقدر ما يعتصر القلب شعور بالإشفاق مما سنأتي به الأيام، ونحن نشهد الآن ارتفاع المد السلبي على المحاور الأربعة بعد أن أطلت من

(*) "يونيو ١٩٦٧ في ذاكرة جيل الستينيات" - جريدة الأهالي - الأعداد الأربعة الصادرة في يونيو ١٩٩٢ - حسين شعلان، عبد الفتاح الجبالي، د. على فهمي.

مكامننا خفافيش التبعية، والسيطرة، والنخبوية، ومعها الارتداد الفكري والرجعية.

ورغم أن ترجمة الكتاب استغرقت مني قرابة العام ونصف العام، إلا أن الصعوبة الأكبر التي واجهتها لم تكن في الترجمة ذاتها، بقدر ما تمثلت في الكم الكبير من المصادر الأولية العربية التي لجأ إليها المؤلف - وهي ميزة بالقطع تحسب له - فاضطرتني إلى الجد في البحث عنها حرصاً على ألا توضع علامة تنصيص (") إلا إذا ضمتا العبارة الأصلية بنص قائلها أو كاتبها.

ولعله من حسن حظي أن وجدت إلى جانبي عدداً من الأصدقاء الكرام، تفضل البعض منهم بمساعدتي في البحث عن الكتب النادرة أو إعارتي ما لديه من كتب لم تتوافر لدي، أو تصوير الصفحات التي احتجتها، بل أن هناك من تطوع بالذهاب أكثر من مرة إلى دار الكتب لنقل صفحات كاملة من بعض المراجع. كما تكرم الدكتور أحمد عبد الله بإحضار نسخة مصورة من كتاب أحمد عبد الفتاح بدير "الأمير أحمد فؤاد ونشأة الجامعة المصرية"، من مكتبة الكونجرس الأمريكي، وكان في زيارة للولايات المتحدة، بعد أن أعينني البحث عن الكتاب في مصر. فلهؤلاء جميعاً كل .. كل الشكر والعرفان، وأن استحق كل منهم شكراً خاصاً، يضيق المجال عن الوفاء به.

وفي بعض الأحيان لجأ المؤلف إلى مراجع مترجمة عن مصادر عربية، فاستلزم الأمر البحث عن المصدر العربي وتحقيق الصفحات المطلوبة مما اضطرتني أحياناً إلى قراءة كتاب بكامله حتى أعثر على السطر أو العبارة التي نقلها مؤلف كتابنا؛ فلم يكن من اللائق مثلاً أن أحيل قارئ الطبعة العربية إلى الترجمة الفرنسية لكتاب د. طه حسين "مستقبل الثقافة في مصر"، أو رواية "المرايا" لنجيب محفوظ!. فضلاً عن أن هناك كتباً أصدرها مؤلفوها بلغات أجنبية ولكنها ترجمت بعد ذلك، فوجدت من الأنسب أن أحيل القارئ إلى الترجمة العربية، كما في كتاب د. أنور عبد الملك "المجتمع المصري والجيش"، وكتاب د. أحمد عبد الله الطلبة والسياسة في مصر" ... وهكذا.

ورغم ما تكبدته من عناء ليس بالقليل في عملية البحث هذه، لكنه عناء ممتع ومفيد في نفس الآن، فقد وجدت نفسي أقرأ كتباً لم أكن قرأتها بعد، وأستعيد قراءة كتب مضت سنوات على قراءتها. فكيف لا يكون ممتعاً ومفيداً معاً أن تقتنص من زحمة الحياة وقتاً لقراءة جورج زيدان، والرافعي،

وقاسم أمين، ومحمد رشيد رضا، وأحمد لطفي السيد، وطه حسين، ومحمد حسين هيكل، وسعد زغلول، وأحمد أمين، وهدى شعراوي ...
 كما حرصت في البعض القليل من الإحالات التي لم أتمكن من تحقيقها وفق مصادرها الأصلية ورأيت أن ترجمتها عن الانجليزية لن تخل بالفكرة الأصلية، على الإشارة إلى ذلك في حاشية خاصة.
 ولعلني بهذا أكون قد أسهمت بجهد متواضع في تقديم بحث، أرى أن له أهمية كبيرة في إلقاء الضوء على صرح عظيم من صروح هذه الأمة العظيمة.
 أخيراً، أمل أن يلقي جهدي هذا استحساناً لدى قارئ العربية و أستمححه عذراً إن لمس قصوراً يعتوره، حاولت جاهدة أن أتخاشى وجوده، فليس بمقتور المرء - وإن سعى - بلوغ غاية ما يتمناه من كمال.
 ولا يسعني بعد ذلك، إلا أن أهدى هذه الترجمة إلى صاحب الفضل الكبير : "عبد الحميد العليمي"؛ فرغم مرور السنوات مازال حضوره هو الأقوى وذاكره هي الأجمل .. والأنفع.
 وإلى طفلينا - زياد - وبسام، رمزاً لجيلهما الذي أمل أن يكون أكثر إدراكاً وقدرة من جيلنا، وأوفر حظاً.

إكرام
فبراير ١٩٩٣

تقديم

في أواخر سبتمبر عام ١٩٥٠ احتفلت جامعة فؤاد الأول احتفالاً مهيباً بعيدها الخامس والعشرين. وكانت قد بدأت مسيرتها عام ١٩٠٨ باسم الجامعة المصرية الأهلية. وتولى الأمير أحمد فؤاد منصب أول مدير لها .. وفي ١٩٢٥ حقق فؤاد - بعد أن أصبح ملكاً - رغبته في إعادة تأسيس الجامعة المصرية كمؤسسة تخضع خضوعاً تاماً لإشراف الدولة. ثم أعيد تسميتها باسمه عقب وفاته ^(١). لكن الضباط الأحرار الذين أطاحوا بالحكم الملكي، سرعان ما سيغيرون اسمها إلى جامعة القاهرة.

وحضر كبار رجال القصر احتفالات ١٩٥٠ لتقديم الملك فاروق - ذي الثلاثين عاماً - باعتباره الوريث الشرعي لوالده الملك فؤاد، وجده الخديو إسماعيل، وهما مؤسسا الجامعة كما أسسا أيضاً الجمعية الملكية الجغرافية التي كانت تحتفل في نفس الوقت بعيدها الخامس والسبعين، وكان الجميع يعرفون أن هذه الصورة المطروحة للملك فاروق مختلفة تماماً. فإسماعيل وفؤاد، رغم كل نقائصهما شخصيتان قديرتان وجليلتان أما فاروق، فمستهتر ومثير للخرج القومي.

ولأسباب ليست معروفة لم يكن أحمد لطفي السيد، وهو أحد الآباء المؤسسين للجامعة حاضراً لليوبيل. ولم يكن هناك ما يبرر إبعاد هذا المعلم لجيل من الليبراليين العلمانيين، حتى لو كان السبب رغبة الملك فاروق في الظهور.

وكان لطفي من أتباع داعية الإصلاح الشيخ محمد عبده، برز على الساحة القومية حين رأس تحرير صحيفة الجريدة قبل الحرب العالمية الأولى. وفيما بين الحربين، خاض - بوصفه مديراً للجامعة المصرية - معارك باسلة للحفاظ على استقلاليتها في وجه كل من الملك المستبد، والبريطانيين، ورجال الأزهر المحافظين وأطراف سياسية مختلفة أخرى.

ونال طه حسين - وزير التعليم - شرف حضور اليوبيل بعد الملك، ولم يكن هناك من يستحق التشريف أكثر منه باستثناء لطفي السيد. فحياة طه حسين ارتبطت بحياة الجامعة على مدى أربعين عاماً، منذ التحق الشاب الأعمى المحبط من جراء مناهج الأزهر الجامدة، بالجامعة المصرية من يوم افتتاحها عام ١٩٠٨. وكان طه حسين يتردد أيضاً على مكاتب "الجريدة"

فأصبح وثيق الصلة بأحمد لطفي. وأرسلت الجامعة طه للحصول على الدراسات العليا من فرنسا وعينته أستاذاً بها عند عودته. فحاول المتزمتون من رجال الأزهر إقصاءه عنها بسبب ما اعتبروه هرطقة في آرائه، إلا أنه أصر بها إلى أن أصبح أول عميد مصري لكلية الآداب عام ١٩٣٠.

وجاءت أولى مواجهات طه حسين الشهيرة مع الملك فؤاد وحكومة إسماعيل صدقي الموالية للقصر، لتصبح مقياساً لقدرة الجامعة على مقاومة التدخل الملكي في شئونها. ومن ثم لم يكن مستغرباً ألا يرحب فاروق، ابن فؤاد، بوجود طه ضمن آخر وزارة وفدية عام ١٩٥٠. فأتى أداء الوزارة لليمين القانونية قال له الملك : "(*) حسين، أنا لا أريدك، إنما أقبلك على سبيل الاختبار فقط. لذا عليك أن تتحسس خطاك" (١). وعمل طه حسين، حين كان وزيراً، على تشجيع التعليم الثانوي المجاني، وهي الخطوة التي أسهمت بشدة في تحويل جامعة القاهرة، من جامعة للصفوة إلى جامعة جماهيرية في سنوات حكم عبد الناصر.

ولم يتعلم طه حسين جيداً - مثلاً تعلم النحاس رئيس حكومته والمثخن بجراح المعارك - ثمن الوقوف في وجه الملك، إلا عام ١٩٥٠، حين خرج عن سياق خطابه أثناء الاحتفال ليثني على اعتراف الملك فؤاد بأن المعرفة ينبغي أن تسمو فوق القوميات والانتماءات القومية، وأن المعرفة ليس لها وطن (٢).

واستطرد طه قائلاً، أن فؤاد لم يتردد في دعوة الأساتذة الفرنسيين، والبريطانيين، والإيطاليين، والألمان للعمل بالجامعة. واختص من بينهم المستشرقين "أينوليمان" و"كارلو نالينو" بثناء خاص؛ حيث كان "ليتمان" العجوز بين الحاضرين وكذلك ابنة الراحل "تالينو". وفي هذا الحفل، سلمت أربع شهادات دكتوراه فخرية - فقط - إلى أشخاص مسلمين (أكاديميين مبرزين من استانبول، وتونس، وبغداد، ولاحور) أما بقية هذه الشهادات فمنحت إلى أكاديميين غربيين، منهم "ليتمان" والمستشرق الفرنسي "لوى ماسينيون". وكان بين أبرز الضيوف مستشرقون آخرون : مثل "ه. - أ. ر. جيب" و"أ. جويلوم" و"أ. ج. أربري" (٤). وتجاهل طه حسين حقيقة أن بعض الوطنيين كانوا قد عارضوا التواجد الأوروبي الكبير بالجامعة، في وقت

(*) الاستشهاد هنا مترجم عن النص الإنجليزي ولم يتيسر لنا الحصول على العبارة الأصلية بنصها العربي، ويلزم التنويه حيث سيتكرر هذا مع بعض العبارات المنقولة عن نصوص عربية لم نوفق إلى الحصول عليها - (المترجم)

تكافح فيه مصر من أجل الاستقلال. و في غضون عام عقب اليوبيل، سنجد أن توتر العلاقات المصرية - الإنجليزية أطاح بالعدد القليل من الأساتذة البريطانيين عن وظائفهم، وسوف يتبعهم الفرنسيون بعد ذلك بخمس سنوات. وبعد مرور فترة قصيرة، اجتمع المحتفلون - يلفهم الأسى - لسماع خطبة وداع طه حسين، في ٣ يناير ١٩٥١، عقب حضورهم حفل استقبال ملكياً، ثم تناولوا غذاءهم في مينا هاوس. وقاموا بزيارة ضريحي إسماعيل وفؤاد كما زاروا الجامعة والجمعية الجغرافية، ودار الكتب القومية، ومعهد الصحراء الجديد؛ ثم شاهدوا الأهرام، والمتحف المصري، والقلعة، ومتحف الفن الإسلامي.

ورغم نجاح اليوبيل، إلا أن الوقت سرعان ما سوف يبين أنه كان آخر احتفاء بالجامعة القديمة: جامعة الأساتذة الأوروبيين، والملك فؤاد، ولطفي السيد، وطه حسين. فرغم أن الرئيس عبد الناصر ورث، من بعض النواحي، نزعة طه حسين الشعبوية إلا أن تصوراتها عما يجب أن تكون عليه الجامعة كانت مختلفة.

ويدرس هذا الكتاب تطور جامعة القاهرة في إطار التاريخ المصري الحديث والكيفية التي أثرت بها الجامعة في التغيرات الثقافية، والسياسية، والاقتصادية / الاجتماعية طوال هذه الفترة.

ومن الطبيعي أن ينقسم تاريخ الجامعة إلى أربع فترات :

(١) من عام ١٩٠٨، إلى عام ١٩١٩ : حين كانت مؤسسة خاصة تشق طريقها بصعوبة.

(٢) والفترة من عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٥٠ : عندما تحولت إلى جامعة شابة يافعة، ولكنها أصبحت أيضاً منغمسة في الظروف التي أدت إلى انهيار النظام القديم.

(٣) الفترة من ١٩٥٠ - ١٩٦٧ : عندما تولى الضباط الأحرار السلطة وحاول جمال عبد الناصر أن يضم الجامعة إلى طبعته الفاشستية من الاشتراكية العربية.

(٤) ثم الفترة ما بين ٦٧ و ١٩٨٨ عندما استردت الجامعة قدراً من الحرية، على الرغم من الصراع مع التحديات الإسلامية ومشكلات التعليم الجماهيري الموروثة منذ عهد عبد الناصر.

ولم يتوفر إلى الآن منظور بعيد المدى حول الفترة الرابعة التي عولجت بإيجاز، أو بالأحرى كخاتمة، في الفصل الثاني عشر. وهذه الفترات

الأربع تكاد تتماثل مع التقسيم الزمني السياسي التقليدي للتاريخ المصري. وفيما بين الآمال والبيانات التي تتقد حماساً - ونقيضها - تداخلت الحياة الجامعية مع الحياة السياسية في مصر على نحو وثيق.

كما يدور هذا الكتاب حول أربعة موضوعات متداخلة، وإن كانت متميزة، بحيث سيركز في بعض الفصول على أحد هذه الموضوعات بشكل أساسي، بينما يعالج بعضها الآخر موضوعات أخرى. ويتعلق اثنان من هذه الأفكار الرئيسية، أو محاور الاستقطاب، بأمور سياسية: الأول الإمبريالية الغربية (التي تنقسم هي نفسها إلى اتجاهات قومية متنافسة) في مواجهة عدة قوى متنافسة من التيارات الوطنية المحلية والثاني: استقلال الجامعة في مواجهة سيطرة الدولة. أما الموضوع الثالث: فهو اجتماعي - اقتصادي، ولكنه ذو جوانب سياسية وثقافية أيضاً: وهو يتمثل في فكرة النخبوية في مواجهة فكرة التكافؤ، أو التعليم المقيد في مقابل التعليم المفتوح. ورابع هذه الموضوعات ثقافي: يبحث الأفكار العلمانية المتأثرة بالغرب في وجه الأفكار الدينية، فيما يتعلق بالجامعة والمجتمع ككل. والواقع أن الجامعة لم تكن أبداً وحدة متجانسة، وفي بعض الأحيان استطاعت عناصرها المتعددة أن تشجع التغيير، وفي أحيان أخرى دعمت الوضع الراهن. وتعتبر الحركة الطلابية السياسية جزءاً أساسياً من هذا الكتاب إلا أنها ليست فكرته الرئيسية؛ فهي تمثل موضوعاً هاماً في حد ذاته، تتاوله آخرون بمعالجة أوفى^(٥).

ومع أن الأسلوب المتعارف عليه في التاريخ الفكري هو دراسة تعاقب كبار المفكرين أو تسلسل الأفكار دون اهتمام كبير بالإطار الاجتماعي - الاقتصادي، أو السياسي، أو الإطار الحضاري الأشمل - وغالباً ما تلتزم المؤلفات التاريخية المؤسسية حول الجامعات، بوجهة نظر مديريها كما تمجد القيادات الفرعية أحياناً - فعلى الطرف النقيض تماماً، من ناحية التاريخ، يتوارى الأفراد ويصبح التاريخ الفكري (ومعه تاريخ الجامعات) مجرد ظاهرة مصاحبة؛ أبنية فوقية للصراع الطبقي الذي يحركه الاقتصاد.

غير أن هذا كتاب يتبع طريقاً وسطاً؛ فيأخذ في الحسبان الأفكار، والأفراد، والنظم الإدارية من ناحية، ومن الناحية الأخرى القوى الاجتماعية والاقتصادية، مراعيًا كيف تتفاعل الناحيتان ضمن سياق مؤسسي محدد. وعلى سبيل المثال؛ لم تركز الدراسات السابقة على الإطار الجامعي لفكر طه حسين بشكل واف، كما أن فترة رئاسة لطفي السيد للجامعة التي استمرت

نحو ربع القرن، أغفلت عملياً لحساب الفترة الخصبة التي أصدر فيها "الجريدة" قبل الحرب العالمية الأولى.

ولعل جامعة القاهرة هي المنبع المؤسسي الوسيط للأفكار والأيدولوجيات المصرية التي تستحق الدراسة؛ بالإضافة إلى الكيانات الأخرى مثل الأحزاب السياسية، والمجالس النيابية، وجماعة الضباط الأحرار العسكرية (وجميعها حظيت باهتمام كبير) وكذلك الجامعات "العامة" (*) الأخرى، والمدارس العامة، ومعاهد البحث، والأزهر، والصحافة، والصالونات الثقافية، والمقاهي والمهن مثل المحاماة والطب، والنقابات العمالية والنوادي الأدبية، والهيئات الخيرية والدينية والوزارات الحكومية. وتشكل جامعة القاهرة - مثلما كانت تشكل المدارس المهنية العليا السابقة على إنشائها، والتي انضوت بعد ذلك تحت لوائها - عنصراً أساسياً في الحياة السياسية، والفكرية في مصر القرن العشرين؛ فالأطباء والمحامون، والمهندسون، والعلماء، والكتاب، والفلاسفة، والمدرسون ورجال البنوك، ورؤساء الوزارات، وموظفو الحكومة؛ كل أولئك تلقوا تعليمهم فيها. وكانت جامعة الأزهر وحدها، ومن قبلها المدرسة الحربية المصرية، هي التي توفر طرقاتاً تعليمية بديلة ذات أهمية للنهضة الوطنية. كما كانت جامعة القاهرة، باعتبارها الجامعة العامة الوحيدة منذ ١٩٢٥ وحتى ١٩٤٢، تمثل النموذج الرائد أمام الجامعات الأحدث عهداً، ومازلت تقوم بنفس الدور إلى الآن. وتصدر طلاب جامعة القاهرة مظاهرات أعوام ١٩١٩، ١٩٣٥، ١٩٤٦، ١٩٦٨، ٧٢ - ١٩٧٣ (وكنك طلبية المدارس العليا بالنسبة لعام ١٩١٩ وهي المدارس التي انضمت إلى الجامعة فيما بعد) وأثرت هذه المظاهرات على مجرى تاريخ مصر بدرجة كبيرة.

أما في فرنسا مثلاً، ومع ما لمدارسها العليا من مكانة، فلم تكن جامعة باريس بهذا القدر من الأهمية للحياة السياسية. ومثلها جامعة هارفارد في الولايات المتحدة. وفي إنجلترا أوائل القرن التاسع عشر، جرت معظم أحداث الحياة الإبداعية العلمية والأدبية خارج إطار الجامعات ولم يكن التعليم في أكسفورد وكامبريدج، أصبح ضرورياً لأبناء الطبقة العليا - بعد - فكان رجال الأعمال يستثمرون إمكانياتهم في مجالات أخرى. ورغم أن أكسفورد

(*) يستخدم المؤلف تعبير الجامعات العامة للتدليل على الجامعات المصرية فيما عدا جامعة الأزهر، كما يستخدم تسمية المدارس العامة للإشارة إلى المدارس الحكومية تمييزاً لها عن المدارس الخاصة أو الأزهرية - (المترجم).

وكمبريدج ازدهرتا أواخر ذلك القرن إلا أن أهميتهما على الساحة القومية تقل كثيراً عما كانت عليه جامعة القاهرة في مصر.

وفي الخمسينيات، أخذت المركزية التي تمتعت بها جامعة القاهرة تضمحل، بعد أن ظهرت جامعات جديدة، ونشأت مراكز للبحث، واستولى ضباط الجيش على السلطة السياسية - ولكنها ظلت، مع ذلك، مؤسسة وطنية حيوية.

كما أصبحت جامعة القاهرة، النموذج الوطني الأول للجامعات العامة في العالم العربي؛ حيث واجهت الجامعات الأخرى عراقيل أعاقَت تطورها فرغم أن الكلية السورية البروتستانتية في بيروت (التي أصبحت فيما بعد الجامعة الأمريكية في بيروت) وكلية روبرت في استانبول، سبقتاها في الظهور، إلا أنهما كانتا عبارة عن كليتين خاصتين، وصغيرتين، تديرهما الإرساليات الأمريكية. أما جامعة استانبول، التي أنشأها العثمانيون عام ١٩٠٠، بعد محاولتين فاشلتين لإنشاء جامعة، فخسرت نفوذها خارج تركيا مع انهيار الإمبراطورية العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى. وكذلك كانت جامعة الجزائر عام ١٩٥٩ مؤسسة استيطانية (للمستوطنين الأوروبيين).

وهكذا سيطرت جامعة القاهرة على الساحة، بسبب تخلف الآخرين!. وعند افتتاح الجامعة المصرية، كان عمر التجربة المصرية في استعارة الأساليب التربوية الغربية يناهز قرناً من الزمان : ففي أوائل القرن التاسع عشر، اقتبس محمد علي في القاهرة، ومحمد الثاني في استانبول - مثلما فعل بطرس الأكبر (*) قبلهما - الأساليب الغربية : العسكرية، والصناعية والتعليمية؛ أملاً في تعزيز سلطانهما الشخصي، وإحياء ممالكهما وسحق خصومهما الإقليميين، وتجنب التهديدات الاستعمارية الغربية ^(٦). ولما كان محمد علي رجلاً عسكرياً فقد قرر أن يتحاشى الأزهر تماماً بدلاً من السعي لإعادة تشكيله وفق أغراضه. وهو ما أدى إلى تشعب النظم التعليمية، الأمر الذي أصبح مشكلة منذ ذلك الحين؛ فكانت الجامعة الدينية العريقة تعطي شبكة من الكتابات غير محكمة التنظيم، ظلت على مدى قرون تضطلع بمهمة تعليم القراءة والكتابة والتعاليم الدينية الإسلامية. وبالرغم من أن الأزهر لم يكن على نفس قدراته الإبداعية مثلما كان في أوج مجده، إلا أنه ظل يتيه بعلماء من أمثال عبد الرحمن الجبرتي وحسن العطار. ومع مرور سنوات هذا

(*) هو بطرس الأول قيصر روسيا فيما بين ١٩٦٨٢ - ١٧٢٥، الذي أمضى فترة حكمه ساعياً للقفز بروسيا إلى مصاف الدول الأوروبية المتقدمة وقتها، ونجح في ذلك إلى حد بعيد - (المترجم)

القرن، أخذ رجال الأزهر الطموحون، والعقلانيون، يهجرونه بحثاً عن فرص أفضل مع المعاهد الحكومية؛ فقد بدأ كل من الطهطاوي، ومحمد عبده، وسعد زغلول، ووطه حسين مسيرته من الأزهر، غير أنهم تركوه بعد ذلك.

ولجأ محمد علي إلى الأزهر، كمصدر وحيد للطلاب المتقنين الذين تحتاجهم المدارس المهنية التي أنشأها على النمط الأوروبي لسد احتياجات جيشه، وتعتبر كليات جامعة القاهرة للطب، والهندسة، والطب البيطري، الامتداد المباشر لهذه المدارس. وكان رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك - فضلاً عن الخديو إسماعيل نفسه - أشهر من أنجبهم البعثات التعليمية التي أرسلها محمد علي إلى أوروبا للحصول على الدراسات العليا.

ثم أحبطت معارضة القوى الأوروبية، علاوة على الصعوبات الداخلية، حلم محمد علي الهائل في نهاية المطاف، ولكن - حفيده إسماعيل واصل في الستينيات من القرن التاسع عشر، توسعاته في أفريقيا، وافتتح قناة السويس، وعمل على تحسين شبكة الري، وشجع تصدير القطن إلى أوروبا، كما اشترى إسماعيل ما يشبه الاستقلال من استانبول، وأرسى قواعد القاهرة الحديثة. وربطت وسائل البرق والسكك الحديدية ونظم البريد - التي أنشأها - مصر بالسوق العالمي الذي تهيمن عليه أوروبا. و أحيى إسماعيل - بمساعدة وزيره علي مبارك - المدارس التي بقيت من عهدي عباس حلمي الأول وسعيد، كما استحدث الكثير غيرها. ولقيت المدارس الابتدائية والثانوية اهتماماً جاداً. وما زالت مدرسة إسماعيل للإدارة باقية حتى الآن، بعد أن أصبحت كلية للحقوق بجامعة القاهرة.

ولكن الغرب وقف له بالمرصاد؛ فتورط إسماعيل في ديون مستحيلة السداد، ثم قامت بريطانيا وفرنسا بعزله عام ١٨٧٩. فقام جيش الزعيم أحمد عرابي، المناوئ للعثمانيين والأوروبيين معاً، بثورة انتهت بالاحتلال البريطاني "المؤقت" الذي كتب له أن يستمر ما يربو على سبعين عاماً. وفي التسعينيات من القرن التاسع عشر بدأ الخديو عباس حلمي الثاني، ومصطفى كامل (وكانا - بعد - شابين) البحث عن وسائل لمقاومة المحتل، بعدما بدا أن اللجوء للعنف في مواجهته غير مجد. وكان الشيخ محمد عبده، وتابعوه، يحذون تقوية الذات من خلال الإصلاحات التعليمية وغيرها من أشكال الإصلاح التدريجي، مع الإبقاء على الاستقلال كهدف بعيد المدى. وفي ظل هذا المناخ الاستعماري، خرجت جامعة القاهرة للوجود عام ١٩٠٨.

كان واضحاً أن التجارة، والتكنولوجيا، والقوة العسكرية، والتقنيات الإدارية الغربية، تكتسح كل ما هو أمامها في شتى أرجاء العالم. ولم يطرح احتمال ظهور وضع مختلف، إلا بعد انتصار اليابان "الشرقية" على روسيا "الأوروبية". ولم تكن آثار الحرب العالمية الأولى، ولا الثورة الروسية، والكساد الكبير والحرب العالمية الثانية قد أصابت الحضارة الغربية في الصميم بعد؛ فهل كان من المستغرب إذاً، أن يتطلع مؤسسو الجامعة المصرية تجاه الغرب ليحتذوا حذوه ؟

وأعتبر علماء الأزهر المحافظون الأخذ بالأساليب الغربية جزءاً من المشكلة، وليس وسيلة للحل؛ فهاجموا الجامعة الجديدة، وقاوموا المحاولات التي جرت - على فترات متقطعة - لإعادة تشكيل مؤسساتهم على النمط الأوروبي، ولكن، نظراً لما كان الأزهر يتمتع به من توقيير في المدن والقرى، لم يكن بوسع النخبة السياسية والفكرية في مصر أن تصم أذناها عنه. ووجد بعض دعاة الإصلاح الإسلاميين عزاء في فكرة أنهم باقتباسهم من أوروبا، إنما يستعيدون فقط تراثهم الخاص؛ حيث سبق أن ترجم الكثير من فنون المعرفة العربية الإسلامية، إلى اللغة اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، مما شجع على إحياء الثقافة الأوروبية، بل أن "جورج مقديسي" يرى أن الكليات الأوروبية ذات نظام الإقامة الداخلية - وهي تختلف عن الكليات الجامعية - منقولة عن نظام "المدرسة" الإسلامي^(٧).

أما الجامعات الغربية التي تشكلت أثناء القرن الثالث عشر في إيطاليا، وأسبانيا وفرنسا وإنجلترا، فسرعان ما طورت أسلوبها الخاص في التوسع. وامتدت إلى ألمانيا، وبوهيميا، وبولندا في القرن الرابع عشر، وإلى اسكتلندا واسكوتلندا في القرن الخامس عشر. وفي القرن السادس عشر، عبرت البحار إلى أيرلندا، والمكسيك، وبيرو. ثم أنشأ المستعمرون، في القرن التاسع عشر، كليات على النمط الإنجليزي في أمريكا الشمالية. كما أقامت روسيا أول جامعة لها على النمط الألماني في القرن الثامن عشر. وفي عام ١٨٥٧ أنشأت الهند البريطانية جامعات في "كلكتا" و"بومباي" و"مدراش". وبعد مرور عشرين عاماً أخذ اليابانيون في تحويل العديد من المدارس القديمة إلى جامعات على الطراز الغربي^(٨)، وسرعان ما يجئ دور مصر لتفعل نفس الشيء.

ويعنى الجزء الأول من هذا البحث بدراسة الجامعة المصرية منذ إنشائها عام ١٩٠٨ - رغم معارضة اللورد كورمر - وحتى الانتفاضة الوطنية عام

١٩١٩. وفي هذا الصدد تتمتع ملفات الجامعة الأهلية، التي لم يطرّقها الباحثون الغربيون - حتى الآن - بأهمية خاصة. ويبرز في الجزء الأول دور الأمير - الذي أصبح بعد ذلك السلطان، ثم الملك - أحمد فؤاد، وأحمد لطفي السيد، وطه حسين باعتبارهم أفراداً مؤثرين، ترك كل منهم بصمته على الجامعة، كما أنهم - على التوالي - يمثلون العاهل الملكي، والمتقف الأرستقراطي، ثم الطالب الذي تحول إلى أكاديمي محترف. وكان لمصطفى كامل يد في مشروع الجامعة، وكذلك محمد عبده وتابعيه : سعد زغلول، وقاسم أمين، ولكن سرعان ما أصبحت اليد الطولى للقصر. وتولى المستشرقون، وغيرهم من الأساتذة الأوروبيين إلقاء الكثير من المحاضرات في هذه المؤسسة الناشئة، وهي تشق طريقها بصعوبة في سنواتها الأولى. ولعل محنتي محاولة تعيين كل من جورج زيدان، ومنصور فهمي توضحان خطورة إثارة المتدينين المحافظين بانتهاج الأساليب الغربية في الدراسة.

ويعالج الجزء الثاني الفترة من ١٩١٩ وحتى ١٩٥٠، وخلالها توطدت أركان الجامعة العامة بفضل الملك فؤاد، وأحمد لطفي السيد، وطه حسين ... وغيرهم. وإبان الصراع بين بريطانيا وفرنسا من أجل بسط نفوذهما على قاعاتها، حل الأساتذة المصريون تدريجياً محل معلمهم الأوروبيين، وشقت النساء طريقهن إليها بعد فشل مساعيهن للالتحاق بها - قبل الحرب العالمية. وأخذت الجامعة، في تودة، توسع اقتصادياً واجتماعياً من القاعدة النخبوية للملتحقين بها. وخلال فترة الثلاثينيات المضطربة، وقف لطفي السيد وطه حسين في وجه الملك فؤاد لصالح قضية استقلال الجامعة، وتوالى اندلاع مظاهرات الاحتجاج الطلابية، وأفسح الطريق أمام أساتذة الجامعة للانضمام إلى النخبة الوزارية. وتصارعت الجامعة مع الأزهر وكلية دار العلوم على حق تزويد المدارس العامة بمعلمي اللغة العربية. وهاجم المحافظون الدينيون أطروحة محمد أحمد خلف الله فيما اعتبروه تعدياً على الإسلام.

ويناقش الجزء الثالث قصة ما بعد يوبيل ١٩٥٠، ويبحث الانتقادات الليبرالية للجامعة، والإبعاد القسري للأساتذة البريطانيين والفرنسيين، وبداية التأثير الأمريكي على التعليم. بينما نتناول بفية الجزء الثالث التحولات في العهد الناصري، ففي عام ١٩٥٤ قام عبد الناصر بعملية تطهير للجامعة كجزء من تدعيمه للقوة الوطنية. وكان عبد الناصر يتمتع بالشعبية الجماهيرية؛ ففتح أبواب الجامعات على مصاريعها في تحول حاد. وطالب بتوفير تعليم عملي و تطبيقي وتحقيق نتائج فورية في هذا الخصوص، كما

رحب بضم أساتذة الزراعة والاقتصاد والهندسة إلى تشكيلاته الوزارية. ولكن أسلوب المناورة "الشلية"، وسوء التخطيط، بالإضافة إلى ميوله الأوتوقراطية الخاصة - أدت كلها إلى إحباط حلمه التكنوقراطي^(*).

وحاول عبد الناصر تعبئة الجامعة لخدمة مشروعه القومي العربي والاشتراكي، ولكن لم يتحقق التميز إلا لعدد ضئيل من الأساتذة والطلاب في ظل نظام يخرس صوت المعارضة الأكاديمية. وأعدت جامعة القاهرة والجامعات الأخرى المقررات المطلوبة حول ٢٣ يوليو ١٩٥٢ : الثورة، والمجتمع العربي، والاشتراكية العربية، ولكن الأساتذة "غير ملتزمين" و"الرجعيين" والطلاب غير المتحمسين ابتسروا البرنامج، ثم أعاد عبد الناصر تنظيم جامعة الأزهر أيضاً، وفرض عليها إضافة كليات للطب والهندسة والزراعة، بل وقبول التحاق الفتيات. ويرسم الفصل الثاني عشر من الجزء الرابع صورة مبسطة لما بعد ١٩٦٧، عندما عادت مظاهرات الطلبة تهدر في فبراير ١٩٦٨، وأصبح لزاماً على عبد الناصر ثم السادات أن يخففا الوطأ عن الجامعات. وبعد حرب أكتوبر، شجعت سياسة "الانفتاح"، في عصر السادات، أساتذة الجامعات على الانضمام إلى حركة الهجرة المؤقتة الضخمة إلى بلدان البترول العربية الغنية. ولجأ السادات إلى الاحتماء بدولة عظمى مغايرة، كما عقد صلحاً مع إسرائيل. ومع تدفق المعونة والخبراء الأمريكيين، انضم أساتذة الجامعات المصريون إلى الأبحاث ذات التمويل الأمريكي ولكنهم أبدوا قلقاً إزاء التبعية الثقافية الناجمة عن ذلك. ثم انتقلت أحوال الجامعة من سيئ لأسوأ : الأساتذة واقعون تحت إغراء السعودية وفصول الطلاب مكدسة بأعداد لم يسبق لها مثيل، والمخصصات تعاني من نقص حاد، وفرص العمل ميئوس منها. وهكذا، مهدت هذه الظروف، علاوة على فشل أساليب العلاج العلمانية التي اتبعتها عبد الناصر، الطريق للإسلاميين من أعضاء "الجماعات الإسلامية" الذين أراحوا اليسار جانباً بتشجيع من السادات في السبعينيات. وعاش السادات إلى أن ندم على هذه السياسة!. أما الرئيس مبارك فقد تسامح مع الإسلاميين الذين لم يتحدوا شرعيته علناً، بينما عاقب بشدة أولئك الذين أقدموا على ذلك، سواء في الجامعة أو في أي مكان آخر من البلاد.

(*) فضلت استخدام تعبير الأوتوقراطية والتكنوقراطي نظراً لاستقرارهما في الأدبيات السياسية العربية، ولكن ربما يفيد القارئ العادي غير المتخصص الإشارة إلى أن الأول يعنى حكم الفرد المطلق ويعنى الثاني سلطة حكم الفئتين أو أرباب الاختصاص التقني - (المترجم)

الموامش

- ١- عن اليوبيل، أنظر "المقتطف" العدد ١١١٨ (يناير ١٩٥٠) ص- ٣ - ١٦، و :
- Maria Nallion "I festeggiamenti cairini per l'universita Fuad I, La societa di Geografia e L'instituto Fuad I del Deserto" Oriente Moderno (1950) 31, 32-38.
- أنظر أيضاً : جامعة فؤاد الأول، كلية الآداب، الكتاب القضي لكلية الآداب ١٩٢٥ - ١٩٥٠ (القاهرة ١٩٥١) .. للسهولة سوف يستخدم هذا الكتاب اسم "جامعة القاهرة" حتى في عهدها الأول.
- ٢- فريد زغلول ت مقابلة (٣٠ مايو ١٩٧٨).
- ٣- "المقتطف" ت العدد ١١١٨ (٤ يناير ١٩٥٠).
- ٤- تقويم جامعة القاهرة ١٩٥٤ - ١٩٥٥، ص- ص- ١١٢ - ١١٥ قوائم الدكتوراه.
- ٥-

Ahmed Abdalla, The student Movement and National Politics in Egypt (London 1985)

(صدرت الترجمة العربية د. أحمد عبد الله - الطلبة والسياسة في مصر - ترجمة إكرام يوسف - دار سيناء للنشر - الطبعة الأولى ١٩٩١ "المترجم")
و :

- Haggi Erlich, Students and University in Egyptian politics (London, 1989).
- و - محمد ضياء الدين الرئيس - الدستور والاستقلال والثورة الوطنية ١٩٣٥ (جزان - القاهرة - غير مؤرخ).
- و - عاصم محروس عبد المطلب، دور الطلبة المصريين في الحركة الوطنية ١٩١٩ - ٢٧ يناير ١٩٥٢ - رسالة دكتوراه غير منشورة - كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٨.
- ٦- عن التعليم العالي المصري في القرن التاسع عشر أنظر :
- J.Hey worth - Dunne, introduction to the History of Education in Modern Egypt (1939 - reprinted, (London, 1968).
- وأحمد عزت عبد الكريم، "تاريخ التعليم في مصر" (٣ أجزاء - القاهرة ١٩٤٥)
وعن الأزهر، أنظر :

Chris Dccel, Egypt, Islam and Social Conflict and Accommodation in al-Azhar (Berlin, 1984)

-٧

George Maqdisi, The Rise of Colleges : Institutions of learning in Islam and the west (Edinburgh, 1981)

٨- قارن :

Eric Ashby, Universities : British, African (London, 1966)

٩- تعبير "الإسلامية" يستخدم هنا للدلالة على "الأصولية الإسلامية" أو "حركة الكفاح الإسلامي" أو "البعث الإسلامي"، أو "الإسلاموية" ... إلى آخره، فكل تعبير من هذه التعبيرات له مشكلاته، ولم يقصد باستخدام "الإسلامية" الإحياء بأن الاتجاهات المحافظة أو المحدثّة، أو الصوفية أو غيرها من الاتجاهات تعتبر أقلّ إسلامية.

القسم الأول

الجامعة الأهلية

١٩٠٨ - ١٩١٩

[١]

نظرة تاريخية

الأزهر

"بالجانب الشرقي من القاهرة، قام الجامع الأزهر منذ ألف عام بالتقريب. وكانت منارته الشامخة ترسل الضياء إلى جميع الأرجاء. لتخليد علوم العرب وحضارة الإسلام. وها هي الجامعة الحديثة، ستقوم في هذا الزمان، على الجانب الغربي من المدينة لنشر الآداب العربية، مرتبطة بالمعارف الغربية وهذان الصنوان سيتعاونان منذ الآن، على إرسال الأنوار على ضفتي النيل السعيد - من اليمين ومن اليسار - بما يعود على أهل الوادي بتمام النفع، وكمال الفخار" (١).

في ١٣ مارس ١٩١٤، يلقي حسين رشدي، مدير الجامعة / وزير الحقانية خطاباً في احتفالات الجامعة بوضع حجر الأساس لمبنى جديد، وبعد ستة أيام تضاف رئاسة الحكومة إلى جملة مهامه. وكانت رؤية حسين رشدي حول التآخي بين الجامعة المصرية والأزهر "فاكهة" الأحاديث الرسمية في تلك المناسبات، بينما كان "التوأمان الشقيقان" - في الواقع - يتشاحنان بالفعل حول امتيازات المولد [فقد ظلت الكتابيب التقليدية تقي بالغرض على مدى قرون، عندما لم يكن هناك سوى قلة ممن يجيدون القراءة والكتابة. وبعكس الجامعات الغربية، التي بدأت رسمياً على شكل مجموعات مشتركة من الأساتذة، كان الأزهر يسير أساساً وفقاً للعرف، دون لوائح مكتوبة أو تنظيم محكم. وكانت "المدرسة" - على النظام الإسلامي - قد اتخذت شكلها الكلاسيكي في القرنين العاشر والحادي عشر، لتدريس أحكام الشريعة الدينية وفق واحد أو أكثر من مذاهب السنة الأربعة، فجمعت بين الوظيفة الأكاديمية لمدرسة المسجد وبين "الخان" أو النزل لإقامة الغرباء عن المدينة. وكانت المدرسة تحصل على الدعم المادي من التبرعات مثلما هي الحال مع الكليات الأوروبية في القرون الوسطى، إلا أن مهمة هذه المدارس في إعداد القضاة تعتبر أكثر تخصصاً من وظيفة الجامعة الأوروبية في القرون الوسطى عندما

كانت كلية الآداب تلعب دور المدرسة التمهيدية للكليات الثلاث العليا وهي : الحقوق، والطب، واللاهوت].

وكان الأزهر - الذي أنشئ في القرن العاشر الميلادي على أيدي الشيعة الفاطميين ثم استولى عليه أهل السنة تحت حكم الأيوبيين - قد اجتذب الطلاب من مراكش وحتى يافا، تماماً كما اجتذبت الجامعات الأوروبية الطلاب الكاثوليك من بولندا إلى أسبانيا، ومن اسكتلندا إلى إيطاليا. وكانت اللغة العربية - لغة القرآن والكلاسيكيات الإسلامية الأولى - هي الوسيلة الرئيسية للتعليم الإسلامي، مثلما هي اللاتينية بالنسبة للعلم المسيحي الغربي. ولم يضع الأزهر حداً فاصلاً رسمياً بين وظيفته كجامع للعبادة وبينه كمدرسة متطورة؛ فكان الطلاب يجلسون عند أقدام الشيوخ، يلقي كل منهم درسه بجوار عامود يفضله من أعمدة الجامع، ويقوم الطلاب من ذوي الأعمار المتفاوتة باختيار شيوخهم والمقررات التي يتلقونها، ويتقدمون في دراستهم تبعاً لقدراتهم الخاصة دون امتحانات أو درجات رسمية. وتفصل العمام المتمايزة بين درجات المشايخ، الذين تؤهلهم ثقافتهم العامة - وليست الدرجات الرسمية أو التعيينات الحكومية - للتدريس. وينتهج المشايخ أسلوباً مدرسياً قائماً على المنطق الأرسطي، فهم يشرحون المتن بطريقة طرح الاعتراضات ثم الرد عليها بأسئلة تناقضها. ويرى "المقدسي" أن الأساليب المدرسية الأوروبية اقتبست الكثير من العالم الإسلامي^(٢).

ففي فرنسا، أزاحت الثورة فعلياً الجامعات الخاضعة لهيمنة الكنيسة، وخلقت مدارس عليا جديدة قائمة بذاتها، وفي إنجلترا القرن التاسع عشر تأخرت الجامعات القديمة عن مواكبة الاحتياجات العصرية، بينما اختارت مصر طريقاً ثالثاً احتفظت فيه بالمدارس الدينية وأنشأت إلى جانبها نظاماً عصرياً للتعليم العام. وسعى محمد علي "لاستئناس العلماء" بإحكام السيطرة على الأوقاف التي تؤمن لهم سبل العيش. ثم بدأ إسماعيل الحملة - التي استمرت على مراحل زمنية منفصلة - لتحديث الأزهر؛ فأصدر مرسوماً عام ١٨٧٢ يشترط عقد امتحان شفهي للحصول على درجة العالمية التي أصبحت شرطاً للتدريس بالأزهر. ومع ذلك، أدرك إسماعيل قدرة الأزهر على تقويض أية محاولة مندفعة للتغيير، فأنشأ "دار العلوم" لتخريج معلمي اللغة العربية، الحاصلين على قسط من المعارف الغربية، للعمل بالمدارس العامة.

واستحوذ الشغف بالتنظيم الرسمي، فيما يعكس النموذج الأوروبي والحركة المركزية للدولة - على حكام الشرق الأوسط والحكومات الإصلاحية إبان القرن التاسع عشر. وربما تبدو مظاهر التحول نحو التنظيم الرسمي - الذي أخذ منه عصر التنظيمات العثمانية تسميته - واضحة في الجيوش الحديثة، والجهاز الحكومي، وتخطيط المدن، كما في المدارس، عندما اقتضى تطبيق النظام الجديد عليها إنشاء حجرات دراسية ومبانٍ متخصصة، ومقاعد، وامتحانات، ونظام للحصص، وشروط للالتحاق، ودبلومات، ومناهج رسمية، وزى مدرسي، ومستويات للصفوف الدراسية، وهياكل تعليمية وإدارية، ولوائح جزاءات. وأصبحت هذه السمات متفقا عليها في المدارس العامة، إلا أن الأزهر قاوم بعناد الضغوط التي تلاحقت عليه من أجل دفعة لمسيرة الركب^(٣).

ثم أصبح الشيخ محمد عبده - وهو أحد خريجي الأزهر - من دعاة الإصلاح. وشمل الخديو عباس الثاني الأزهر بعين التغيير في التسعينيات من القرن التاسع عشر؛ فتوالت القرارات لتجعل للأزهر مجلساً تنفيذياً، ومكتبة مركزية، وجدول رواتب منتظمة، ومقررات في العلوم المدنية، وشروط التحاق رسمية. فأصبح امتحان "الأهلية" يؤهل الطالب بعد ثماني سنوات دراسية ليعمل إماماً أو معلماً "بالكتاب". وبعد أربع سنوات أخرى من الدراسة، فتح امتحان العالمية الطريق للتدريس بالأزهر نفسه. ومع ذلك - ومن بين كل هذه اللوائح - لم يطبق فعلياً سوى القليل الذي يتفق مع مصالح المشايخ البارزين. وبحلول عام ١٨٩٩، كان عباس قد اختلف مع محمد عبده، عندما أصبح الأخير مفتي مصر. ومنذ ذلك الحين، قطع عباس طريق تحقيق إصلاحات جديدة على محمد عبده، الذي استقال من مجلس علماء الأزهر - غير آسف عليه - عام ١٩٠٥، قبل شهور قليلة من وفاته، وبدأ يتحدث عن إقامة جامعة جديدة بدلاً من الأزهر^(٤).

والتحق طه حسين بالأزهر قبيل وفاة محمد عبده (ولد طه عام ١٨٨٩، وكان ترتيبه السابع بين ثلاثة عشر من الأشقاء، لأسرة محدودة الدخل في قرية مغاغة الواقعة على بعد أربعين ميلاً شمالي المنيا. وفي السنة الثانية من عمره أسفرت إصابته بمرض - تأخر علاجه على يد حلاق القرية - عن كف بصره طيلة حياته. ولما كان باستطاعة العميان أن يحترفوا مهنة قراءة القرآن، أرسل طه إلى "كتاب القرية". وكان له شقيق أكبر يعود إلى القرية في إجازات الصيف حاملاً معه حكايات عن عالم أوسع في القاهرة. وتعلق

طه بما يقرأه شقيقه من مقررات الأزهر؛ فآلح على عائلته حتى تتركه يذهب إلى "هناك" هو أيضاً^(٥).

لكن طه وجد الأزهر مخيباً لآماله، وبدأ الروتين اليومي - الذي يتحدد وفقاً للصلوات الخمس بدلاً من نظام الساعة - غير محتمل بالنسبة له؛ "حياة مطردة متشابهة لا يجد فيها جديد منذ يبدأ العام الدراسي إلى أن ينقضي : درس التوحيد بعد أن تصلى الفجر، ودرس الفقه بعد أن تشرق الشمس، ودرس في النحو بعد أن يرتفع الضحى، وبعد أن يصيب الفتى شيئاً من طعام غليظ، ودرس في النحو أيضاً بعد أن تصلى الظهر، ثم فراغ فارغ كثيف بعد ذلك يصيب فيه الفتى شيئاً من طعام غليظ مرة أخرى، حتى إذا صليت المغرب راح إلى درس المنطق يسمعه من هذا الشيخ أو ذاك، وهو في كل هذه الدروس يسمع كلاماً معاداً وأحاديث لا تمس قلبه ولا نوقه ولا تغذي عقله، ولا تضيف إلى علمه علماً جديداً^(٦).

ولم يلتق طه حسين "الإمام" محمد عبده - كما كان تابعوه يلقبونه - لكنه مع ذلك أصبح أحد أنصاره. وبعد وفاة محمد عبده، لاحظ طه شيئاً آخر "... زاد به انحرافاً عن الأزهر وانصرافاً عن شيوخه وطلابه. أحس أن الذين بكوا الشيخ صادقين وحزنوا عليه مخلصين لم يكونوا من أصحاب العمائم، وإنما كانوا من أصحاب الطرابيش، فوجد في نفسه ميلاً خفياً إلى أن يقرب من أصحاب الطرابيش هؤلاء، وإلى أن يتصل ببيئتهم بعض الاتصال"^(٧).

وكان الطربوش - منذ اتخذته الحكومة التركية زياً رسمياً قبل قرن مضى - أصبح رمزاً لرجل الإدارة أو الجندي أو التاجر المتشبه بالأوروبيين. وعادة ما كان يصاحب الطربوش ارتداء سترة وبنطلون وحذاء على الطراز الغربي، مثلما كان يلزمه لقب أفندي^(٨). أما المتعلمون الذين حافظوا على ارتداء جلباب وخف وعمامة العلماء، فظلوا يلقبون بـ "المشايع".

وأعجب طه بشيخ كان يفضل الكلاسيكيات الأصلية على الملخصات والشروح المحدثّة التي يقوم معظم الأزهريين بالتدريس منها^(٩) "أصبح للفتى أستاذان يختصهما بحبه وإعجابه، أحدهما يذكره بأئمة البصرة والكوفة، وهو الشيخ سيد المرصفي، والآخر يذكره بفلاسفة اليونان الذين سمع أسماءهم في الأزهر وجعل يدرس أطرافاً من فلسفتهم في الجامعة وهو لطفي السيد"^(١٠).

وبدأ طه الكتابة في "الجريدة"، وتردد على مكتب لطفي السيد "وفي مكتب مدير الجريدة ظفر الفتى بشئ طالما تمناه، وهو أن يتصل ببيئة الطرابيش،

بعد أن سلم بيئة العمائم، ولكنه اتصل من بيئة الطرابيش بأرقاها منزلة وأثراها ثراء، وكان وهو فقير متوسط الحال في أسرته، سيئ الحال جداً إذ أقام في القاهرة^(١١).

ومع أواخر القرن التاسع عشر، هجرت الأسر الموسرة الأزهر - بسبب ضيق فرص العمل - بعد أن فقد العلماء ما كانوا يتمتعون به من شبه احتكار لوظائف القضاء والتدريس، وأصبح عليهم أن ينافسوا خريجي المدارس الجديدة على الوظائف، واقتضت قواعد القانون المستوحاة من أوروبا، كما اشترطت المحاكم والمدارس، تعيين قضاة ومحامين ومدرسين ذوي مؤهلات يفتر إليها الأزهريون. ولم يفلح التحول إلى العلوم الدنيوية في مواجهة التيار العقائدي؛ فكانت أسر عديدة تشعر بحنين إلى الماضي؛ فترسل بأحد أبنائها إلى الأزهر، أما الآخرين فتلحقهم بالمدارس العامة^(١٢). وأصبحت هذه الخسارة لفرص التوظيف أقوى حافز داخلي للإصلاح في الأزهر مع حلول القرن العشرين.

نظام المدارس العامة :

وكان معظم الأفندية المطربشين، الذين قابلهم طه في مكتب لطفي السيد، من خريجي المدارس العامة الجديدة التي أنشأها محمد علي وإسماعيل، وبعثاتها الدراسية إلى الخارج. ومثلما فعل بطرس الأكبر ونابليون، أقام محمد علي مدارس مهنية على النظم العسكرية، واعتبر طلاب هذه المدارس مجندين، وخصص لهم رواتب ضئيلة. ولكن نظام المدارس العامة في مصر - كما حدث في روسيا - تجاوز الأهداف المحدودة لمؤسسه دون التخلص الكامل من ميراثه^(١٣).

وتشابهت مصر مع روسيا أيضاً في بناء نظام التعليم من أعلى، فكان لدى روسيا أكاديمية للعلوم قبل أن تكون لديها جامعة، وأقامت الجامعة قبل إنشاء نظام المدارس الثانوية، كما أنشأت المدارس الثانوية قبل إقامة نظام متماسك للمدارس الابتدائية - وبالمثل بدأ محمد علي بالمدارس المهنية لضباط الجيش، والمهندسين، والأطباء، والبيطريين والمترجمين، ولم يبدأ الاهتمام الجاد بالمدارس الابتدائية والثانوية لتغذية المعاهد العليا بالطلاب، إلا مع عصر الخديو إسماعيل. بل أن مصر بذرت، حتى في ذلك الوقت، بذور مشكلات المستقبل؛ بالتركيز على المدارس الابتدائية المخصصة للصفوة، بينما لم تفعل شيئاً يذكر للمدارس الأولية - التي يلتحق بها أبناء الجماهير -

ومعظمها عبارة عن "كتاتيب" تتلقى دعماً ضئيلاً مقابل خضوعها لإشراف الحكومة ونظامها. ولم تكن هذه المدارس الأولية تفضي إلا إلى دراسة منهج الأزهر الذي يرجع إلى القرون الوسطى، أو حفنة من المدارس التجارية سيئة التنظيم، أو العودة للعمل في حقول القطن، أو الارتداد - غالباً - إلى الأمية^(١٤). وبمرور الوقت فتحت الجامعة المصرية أبوابها، وأصبح سلم المدارس العامة الابتدائية، فالثانوية ثم العليا (كما هو موضح في شكل ١) هو المدخل الرئيسي لعالم الأفندية نوى الطرابيش. وهجر الموسرون الأزهر، مخلفين فيه الشباب الأفقر (مثل طه حسين) الذين طالما أتاح لهم الأزهر سبيلاً للصعود الاجتماعي^(١٥).

وتلخص سيرة حياة لطفي السيد هذا التحول؛ فوالده الثرى عمدة قريرتهم الواقعة في الدلتا ضمن محافظة الدقهلية، وقد حصل على رتبة الباشوية في أواخر أيامه. وحفظ لطفي القرآن في مدرسة القرية، وفي سن العاشرة تقرر أن يتجه للدراسة في الأزهر، عندما تدخل أحد أصدقاء الأسرة، مؤكداً لها أن إمكانات التوظيف أصبحت الآن أفضل كثيراً بالنسبة لخريجي المدارس العامة، فانتقل لطفي إلى مدرسة ابتدائية عامة بالمنصورة، ومن ثم سلك طريقه إلى المدرسة الثانوية بالقاهرة، ثم إلى واحدة من المدارس المهنية العليا الأربع، ومن ثم إلى الوظيفة المرموقة^(١٦).

وفي ١٨٨٩ التحق لطفي السيد بمدرسة الحقوق، وكانت تمثل إلى حد بعيد أفضل اختيار للشباب الطموح. ومن بين زملائه هناك الزعيم الوطني - فيما بعد - مصطفى كامل، والقاضي - باعتبار ما سيكون - عبد العزيز فهمي، وثلاثة أصبحوا رؤساء وزارات في المستقبل (عبد الخالق ثروت، وإسماعيل صدقي، ومحمد توفيق نسيم) وكان معظم رؤساء الوزارات، والوزراء والساسة المصريين في النصف الأول من القرن العشرين من رجال القانون. وكثيراً ما لام طه حسين نفسه، على أنه لم يحصل على درجة علمية في القانون وهو في فرنسا؛ كان من شأنها أن تؤمن أسرته ضد المتاعب المالية التي أحاطت بها^(١٧).

وكانت كفاءة لطفي السيد في مادة الرياضيات أن تدفع به إلى مدرسة الهندسة، ولكن يبدو أنه استشعر أن الطب والهندسة لا تتيحان من الإمكانيات المستقبلية مثلما تتيح مدرسة الحقوق (في عهد عبد الناصر وما بعده، سوف تتغير مكانة الكليات لتصبح الطب في القمة، والحقوق قرب القاع).

لو كان البريطانيون يحتكرون مناصب التدريس الممتازة في مدرستي الطب والهندسة - كما فعلوا في مدرسة الحقوق تدريجياً بعد إزاحة الفرنسيين عنها - واحتفظ الأوروبيون لأنفسهم بأفخم العيادات الطبية الخاصة، لذا تعين على الأطباء المصريين أن يركنوا إلى الوظيفة الحكومية. كما تولى مهندسو الري البريطانيون المناصب الهامة بوزارة الأشغال العامة، في حين انتقلت فرص المهندسين المصريين في القطاع الخاص. وكانت مدرسة المعلمين العليا أقل المدارس العليا الأربع جاذبية، حول بدايات القرن، وقد أغلقت أبوابها مؤقتاً عام ١٩٠٤ بسبب قلة عدد الطلاب. وشغل البريطانيون مناصب التدريس الممتازة في المدارس العليا والثانوية، بل، وحتى بعض المدارس الابتدائية، وكذلك وظائف الإدارة التعليمية، كما تميزت مرتبات المدرسين المصريين بالضآلة].

وفي مدرسة الحقوق سرعان ما أثمرت علاقات لطفي السيد الجديدة؛ فقدّمه مصطفى كامل إلى الخديو عباس شخصياً، وأعجب به الخديو الشاب وأرسل لطفي السيد - وكان يصغره بعامين - إلى سويسرا ليحصل على حق المواطنة هناك، بحيث أصبح في مقدوره أن ينشر مقالاً مناهضاً لبريطانيا في القاهرة محتمياً بالحصانة القانونية. وقابل لطفي - أثناء رحلاته الأولى - عدداً من زعماء المسلمين المشاهير مثل جمال الدين الأفغاني، وسعد زغلول، وقاسم أمين، ومحمد عبده. وكان محمد عبده مشهوراً في ذلك الوقت باعتباره من رواد التحديث الإسلامي، وسرعان ما أصبح لطفي السيد من مريديه. ثم حدث تباعد بين الخديو عباس ومحمد عبده، فتوقف عباس عن رعاية لطفي، الذي عاد إلى القاهرة ليتولى وظيفة في مكتب النائب العام، وبعد ذلك اتخذ لنفسه مكتباً خاصاً لمزاولة المحاماة. وتزوج لطفي سيدة من أصل تركي - وهي من علامات الرقي الاجتماعي وقتذاك - وأهله تعليمه للاضطلاع بدوريه كرجل فكر في دوائر "الجريدة"، ومدير للجامعة المصرية. ويوضح الشكل (١) جانباً هاماً خارج إطار ساحة التعليم المصري في أوائل القرن العشرين، وهو المدارس الخاصة ذات الإدارة الأجنبية.

فقد جذب التحول الكبير إلى زراعة القطن في مصر - بغرض التصدير - الأجانب الباحثين عن الثروة فتدفقوا على البلاد. وبدأت هذه الهجرة بالفعل قبل الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢، ثم أتاح لها الاحتلال مناخاً ودياً شجع على استمرارها. وبحلول عام ١٩٠٧، أصبح هناك ٢٨٦ ألف أجنبي يقيمون بمصر، نصفهم تقريباً من الأوروبيين أو

الأمريكيين [والباقى معظمهم من السودان أو سوريا الكبرى^(١٨)]. وكان الأجانب يمتلكون ٧/١ من مساحة الأراضي ومعظم المنشآت الصناعية والتجارية الكبرى. وظهرت حاجة اليونانيين والفرنسيين والإنجليز، إلى المدارس لتعليم أطفالهم. أما الموجة الأخرى من المدارس ذات الإدارة الغربية فجاءت عبر الإرساليات الكاثوليكية والبروتستانتية ولأن المدارس العامة إمكانياتها محدودة؛ تحول العديد من المصريين إلى مدارس الجزويت، والفريير، والأمريكان، وغيرها من الإرساليات. إلا أن الحركة التبشيرية لهذه المدارس، وإهمالها الدائم للغة العربية، وعملها خارج إطار الرقابة الحكومية، أصبحت أحيانا مصادر للخلافات.

كرومر وسياسة التعليم البريطانية :

جاءت سياسة الدولة التعليمية في عهد اللورد كرومر (سير إيفيلين بارنج حتى عام ١٨٩٢) القنصل العام الأتوكراطى لإنجلترا في مصر منذ ١٨٨٣ وحتى ١٩٠٧، نتاج مجمل أهداف الإنجليز في مصر، بالإضافة إلى توجهات كرومر الشخصية. ونظراً لأن إنجلترا احتلت مصر بهدف تأمين طريقها إلى الهند، فقد أرادت المحافظة على استقرار البلاد، وتخفيف الانتقادات الأوروبية لسياستها؛ عن طريق سداد الديون للدائنين، بل أنها جعلت مصر تسد ثمن احتلالها [وكان اللورد كرومر، بثقافته المالية وخبرته التي اكتسبها في الهند، أصحح من يتولى هذا المنصب] و وصف كرومر مهمته بأنها سباق مع الإفلاس، وكان يرسل إلى بلاده خلال ثمانينيات القرن الماضي تقريراً دورياً عن "الشئون المالية لمصر" مع أن الاتفاقيات الدولية حدث كثيراً من حريته في الإنفاق حتى عام ١٩٠٤. أما المبالغ التي استطاع بالفعل أن ينفقها، فذهبت إلى أعمال الري لزيادة الثروة الزراعية؛ بأمل سد عجز الموازنة، وتوفير الاستقرار لكل من ملاك الأراضي، والفلاحين. ومع إحكام السيطرة البريطانية على نواح عديدة من الحكم في التسعينيات من نفس القرن، اتسع نطاق التقرير السنوى الذي يرسله كرومر إلى بلاده ليصبح (تقرير الشئون المالية والإدارية، والأوضاع في مصر) - بيد أن "الشئون المالية" ظلت في المقدمة^(١٩).

أما التعليم، فيأتي في خاتمة قائمة أولويات كرومر، ولم ينفق عليه غير مبالغ قليلة؛ فلم يكن في مصر حتى عشية رحيله عنها سوى ثلاث مدارس ثانوية حكومية، يتخرج منها سنوياً أقل من مائة خريج حتى عام ١٩٠٢^(٢٠).

وبعد عشرين عاماً من الاحتلال البريطاني، اعترف كرومر بأن نصيب طلاب مصر ضمن موازنة الدولة المصرية ظل ١% فقط، مع تأكيده على أن هذه النسبة لا تشمل الرسوم الدارسية للطلاب والنفقات التعليمية التي تصرفها الأوقاف^(٢١) (في عام ١٩٠٨ أضاف هذان المصدران إلى الميزانية العادية للتعليم زيادة قدرها ٦٠%). وأرتفعت النسبة المخصصة للتعليم من الموازنة في السنوات العشر السابقة على الحرب العالمية الأولى حتى وصلت قبيل الحرب إلى ٣,٤%^(٢٢). ثم جاءت الزيادة الكبيرة التالية، مع عودة وزارة المعارف - ومعها العديد من القطاعات الحكومية الأخرى - إلى السيطرة المصرية عام ١٩٢٢.

وكان كرومر - بوصفه أحد الليبراليين الحقيقيين في القرن التاسع عشر - يؤمن بأن الطلاب المصريين وأولياء أمورهم لن يأخذوا التعليم على محمل الجدية ما لم يدفعوا رسوماً؛ فأعلن، قبيل عزله بفترة قصيرة، إن جميع الطلاب من المرحلة الابتدائية إلى التوجيهية سوف يدفعون رسوماً، فيما عدا استثناءات قليلة^(٢٣). كما أدرك أن مبلغ خمسة عشر جنيهاً مصرياً أو أكثر، سوف يبعد الفقراء عن المدارس الابتدائية والثانوية - الأمر الذي لم يكن يقلقه؛ لأن الفقراء ينبغي ألا يتجاوزوا حدودهم!. ولاحظ اللورد أن التعليم المجاني في مصر سوف يؤدي إلى: "أن تخرج المدارس عدداً من الشباب ربما، لو ظلوا في المواقع الاجتماعية التي ولدوا فيها، وكرسوا أنفسهم لحرفة أو عمل يدوي شريف - لأصبحوا مواطنين أسعد حالاً وأكثر منفعة بدلاً من السعي للصعود الاجتماعي، الذي يعنى دائماً التطلع للحصول على وظيفة حكومية"^(٢٤).

وأعتبر كرومر أن مبرره السياسي في التفتير على المدارس، له نفس الدرجة من الأهمية، بيد أنه لم يكن يعلن ذلك صراحة؛ بعد أن علمته خبرته في الهند أن المدارس ذات النمط الغربي أفرزت سخطاً قومياً، خاصة بين أولئك الذين لم يتمكنوا من الحصول على المناصب الحكومية التي منوها أنفسهم بها. ولم يكن اقتصاد مصر القائم على الزراعة وسيطرة الأجانب على قطاع الاستثمار الحديث يترك للمصريين سوى فرص ضئيلة بين مناصب نوى البياقات البيضاء في القطاع الخاص. ومن ناحية أخرى، خشى كرومر من زيادة عدد خريجي المدارس الابتدائية والثانوية والعلما عن المستوى الذي تستطيع الحكومة توظيفه.

إلا أن المصريين نظروا إلى إلغاء المجانية في المدارس الحكومية نظرة مختلفة. وفي أغلب الأحوال، انصب النقد على "توجلاس دنلوب" مستشار "كرومر" - المكروه - لشئون التعليم، ولكن الجميع كانوا يعرفون على من تقع المسؤولية في الواقع. وفي نفس الوقت، كان التعليم في الأزهر مجانياً، مما أتاح للفقراء فرصة التفوق تمثيلاً مع فكرة المساواة في الإسلام. حتى أن محمد عبده حليف كرومر في بعض الأحيان - وليس مصطفى كامل العنيد - هو الذي علق في أسف (*) : "مما يؤسف له أن نشهد كل عام مشهد الآباء والأمهات يأتون بأولادهم الصغار إلى وزارة المعارف، طالبين قبولهم بالمجان على سبيل الإحسان، متوسلين بفقرتهم وبالخدمات التي سبق أن قدمها للدولة واحد أو آخر من أفراد أسرهم، أملين دائماً أن تخفف العناية الإلهية - أو شفقة المسؤولين - من صرامة القواعد ولو لمرة واحدة، إلا أنهم يضطرون في آخر الأمر للعودة إلى بيوتهم أو قراهم، حائرين، محبطين، ناقلين، لا يعرفون، ماذا يفعلون بهؤلاء الأطفال الصغار الذين كانوا يحلمون لهم بالكثير" (٢٥).

معارضة كرومر للجامعة ومساندة القاضي مارشال :

لاريب أن أحمد فتحى زغلول - شقيق سعد - كان يتوقع النتيجة، عندما طلب مقابلة كرومر في أواخر عام ١٩٠٦ لبحث اقتراح بإنشاء جامعة. (وكان فتحى - الذي ترجم في وقت لاحق كتاب "ديمولين" : "سر التقدم الإنجليزي الساكسونى" من الفرنسية إلى العربية - أحد أعضاء محكمة دنشواي الكريهة : عندما وقع صدام في يونيو من ذلك العام بين فلاحى قرية دنشواي وجنود بريطانيين كانوا يصيدون الحمام؛ لقي فيه جندي حتفه بسبب الإجهاد بعد أن ذهب لنجدة زملائه. وصمم البريطانيون على أن يجعلوا من هذه الحادثة عبرة لمن يعتبر؛ فعقدوا محكمة خاصة قضت بشنق أربعة من الفلاحين، وجلد أربعة آخرين، وحبس اثني عشر. وروع الجميع بالحادث - حتى أصدقاء البريطانيين من أمثال قاسم أمين، كما اشتدت حدة النبوة الوطنية المصرية (٢٦).

ولعب كرومر على عامل الوقت، حتى لا يغضب حليفاً مثل أحمد فتحى؛ فاعتقد فتحى أن "اللورد" يبدو مؤيداً فكرة الجامعة، لكنه نصح بالتمهل في

(*) الفقرة التالية مترجمة عن النص الإنجليزي لعد العثور على المصدر العربي - (المترجمة)

التنفيذ، والاعتدال في البدايات. كما أوصى كرومر باتباع نموذج المدرسة الهندية في (أليجار) (*) مؤكداً على أنها نالت المساعدة المالية من الدولة لأنها اتخذت شكلاً قابلاً من الحكومة الهندية، وتطوع بالحصول على نسخة من ملفات "أليجار" ليدرسها زملاء فتحى (وربما كانت لكرومر أسباب سياسية وجيهة تبرر عدم ترحيبه بأن يحاكي المصريون الجامعات الهندية في كلكتا، وبومباي، ومدراس). وأخذ بعض المصريين اقتراح "أليجار" بجدية، فظل عبد العزيز فهمي - سكرتير الجامعة - طوال أربع سنوات بعد ذلك، يطلب من "جورست" خليفة كرومر إمداده بالمعلومات عن "أليجار" والجامعات البريطانية (٢٧).

وكان السيد أحمد خان قد أنشأ الكلية المحمدية الإنجليزية - الشرقية في أليجار عام ١٨٧٥ : ففي أعقاب "التمرد" الذي وقع في ذلك العام دعا السيد أحمد خان رفاقه من الهنود المسلمين إلى نبذ المقاومة - غير المجدية - لبريطانيا، والسعي للحصول على التعليم الغربي اللازم للتقدم في الوظائف الحكومية الهندية، ومن ثم اعتبرت الدراسات المتعلقة بالشرق على درجة تالية في الأهمية. وأصبحت جامعة "كامبردج" هي المثال الرئيسي؛ فعين مدير جامعة "أليجار" وبعض أساتذتها من الإنجليز كما كانت الإنجليزية لغة التدريس الأساسية. وعندما ظهر حزب المؤتمر الوطني الهندي، ظل السيد أحمد بعيداً عن السياسة، فكافأته بريطانيا بوسام الفارس.

ولفتت مجلة "الهلل" التي أصدرها جورج زيدان أنظار القراء المصريين إلى "أليجار" وإلى السيد أحمد بمقال يشيد بكليهما عام ١٨٩٨. في حين تبني "محمد رشيد رضا" وهو أيضاً أحد المهاجرين من سوريا إلى مصر ومن أتباع الإمام محمد عبده وجهة نظر معارضة، فكتب : "فهمت اللجنة (**) من فحوى رد اللورد أنه لا يرغب فيما ترغب فيه من إنشاء مدرسة كلية راقية على مذهب الأستاذ الإمام ... وفهمت منه أيضاً أنه ينبغي أن تكون المدرسة العبدية كما يحب هو، وترضى دولته، أي كالمدرسة الهندية أليجار" (٢٨).

وفي لندن، كان وزير الخارجية يعكس أفكار كرومر عندما لم يستجب للاقتراح الذي طرح في البرلمان الإنجليزي بتوفير الدعم المالي الحكومي

(*) جامعة "أليجار" الإسلامية في الهند - ويرد الاسم في بعض الكتابات "عليكرة" وفي كتابات أخرى "على جار" - (المترجمة)

(**) يقصد لجنة الدعوة لإنشاء الجامعة - (المترجمة)

للجامعة، فأعلن الوزير أنه لا يجوز التدخل في موازنة الدولة المصرية^(٢٩). وقبل مغادرته مصر نهائياً في مايو ١٩٠٧، كرر كرومر تصريحه المهان، بعدم اعتراضه على الجامعة من حيث المبدأ، ولكنه استعرض قائمة هائلة من العراقيل. ثم أعلن: "لم أشر إلى هذه النقاط بغرض تثبيط همّة مؤسسي المشروع ويصعب أن يكون ذلك هدفاً لي... وبرغم ذلك، وكما سبق أن قلت، سوف يتعين مرور بعض الوقت قبل إنجاز المشروع، ومع هذا فلا أرى هناك أي مبرر يحول دون تنفيذه في آخر المطاف"^(٣٠).

وبالإضافة إلى دعوة كرومر لتأجيل المشروع إلى أجل غير مسمى، حاول صرف النظر عنه من خلال تشجيع المصريين الذين يجمعون التبرعات على التركيز على إنشاء المدارس الأولية للعامة^(٣١). وكان ٩٣% من المصريين أميين؛ ومن ثم، فالأقلية الضئيلة هي التي قد تحظى بفرصة الالتحاق بالجامعة. وكتب "توجلاس دنلوب" في تقرير له عام ١٩١٩، أنه بعد اقتطاع نفقات الإدارة والتفتيش - فإن نسبة ٤% فقط من ميزانية التعليم توجه للمدارس الأولية، في حين تخصص ٩٦% للمدارس الخاصة ذات النمط الغربي التي يدرس بها أبناء القلة المتميزة^(٣٢).

ولم يغيب عن أحد فهم مغزى موافقة كرومر على التعليم الابتدائي العام - وهو رغبته في تجنب نوعية التعليم الأكاديمي الذي جذب الفلاحين إلى المدن وأفرز المواطنين المعادين لبريطانيا، ألا أن ملاك الأراضي المصريين المحافظين، الذين اعتبرهم كرومر حلفاء له، اختلفوا معه حول مدى قدرة التعليم الأولي على الإسهام في تحقيق الاستقرار الاجتماعي؛ ففي عام ١٩١٢ عبر محمد حسين هيكل - وهو من أنصار أحمد لطفي السيد - عن خشية طبقة ملاك الأراضي من حدوث اضطراب اجتماعي في حالة نمو التعليم الأولي بصورة أسرع من المدارس العليا المخصصة للصفوة، التي تلقى هيكل نفسه التعليم فيها^(٣٣). وأسهم بعض أعيان القرى في حملة كرومر من أجل إنشاء المدارس الأولية، إلا أن بعضهم أقدم على ذلك خوفاً من قطع مياه الري عن أراضيهم إذا تقاعس - حتى أن قاسم أمين كتب عن إصرار بعض المساهمين في إنشاء الجامعة على عدم الإفصاح عن أسمائهم خشية انتقام الحكومة^(٣٤).

ولم يكن جميع المسؤولين الإنجليز معارضين لإنشاء جامعة: فقد تخوف القاضي ج.أ. مارشال - وهو زميل قاسم أمين في محكمة الاستئناف العليا - من أن تخسر إنجلترا فرصة لإحداث أثر إيجابي، ولعب على وتر غرور

كرومر، عندما استأنذه في نشر مقال يدعو لإنشاء جامعة مصرية، كتبه في ديسمبر عام ١٩٠٤، قال فيه : إن اسم مؤسس جامعة على قواعد حديثة سوف تتناقله الأجيال باعتباره أعظم من أسدى صنيعاً لمصر على الإطلاق؛ فإنشاؤها عمل رجل قوى. كما أن ما قدمه فون همبولدت لبروسيا، يستطيع اللورد كرومر بذكائه اللامع وقوة شخصيته أن يقدمه لمصر. وسوف تدوم شهرته كمؤسس للجامعة طويلاً بعد أن يعلق النسيان ببعض صفاته العظيمة الأخرى" (٣٥).

ولكن مارشال أضعف مسحة التودد، عندما مزج إطراره بالتعليقات اللاذعة من قبيل أن مصر لا يمكن إخضاعها طوال الوقت لمستوى ثابت من الإدارة المالية الناجحة" و"هناك تعليم كثير، وثقافة قليلة، والثقافة هي حجر الأساس في تقدم الإنسان" و"إنها لمن المفارقات ألا يكون لبلد ثرى مثل مصر جامعة" ...

وحول كرومر مقال القاضي إلى "توجلاس دنلوب"، وعرف الأخير ما ينتظر منه فاستشار "يعقوب آرتين" وكيل الوزارة الذي كان من الدهاء بحيث تخلى عن رأيه الخاص في الجامعة. وكتب دنلوب في تقريره أنه وآرتين "مازالا عند رأيهما من ضرورة مرور وقت كاف قبل أن تتحقق نتيجة عملية، على نحو مفيد، لأي اقتراح بإنشاء جامعة في مصر" (٣٦).

وصاغت مارشال فرصة أفضل عندما تقدم بمقاله إلى "جروست" بعد عزل كرومر بوقت قصير : وكان جروست وسعد زغلول - وزير المعارف - يعكفان على تغيير سياسات كرومر تدريجياً، من خلال توسيع نظام المدارس، وتقديم المنح للمحتاجين، واستئناف البعثات الدراسية إلى أوروبا، وتمصير هيئات التدريس. ولم تتضمن تعليقات جروست بشأن الجامعة أي قدر من العداء المستتر الذي كانت تعليقات كرومر تحفل به : تهنئ هيئة الإدارة "بالجامعة" ورئيسها ببشائر السعد التي صاحبت بدايات عملهم. هذه البشائر التي تحمل آمالاً طيبة في الإمكانيات المستقبلية للمؤسسة حديثة العهد، وفي نفعها" (٣٧).

ولم يكن غريباً أن يأتي موقف جروست مشجعاً، نظراً لعلاقته الطيبة بالخدو الذي تبني مشروع الجامعة ورعاه، بعكس علاقة كرومر به. ومع ذلك، رفض جروست نشر مقال مارشال قائلاً إنه ليس من اللائق أن يدلى موظف رسمي بآراء في القضايا العامة.

ويروى مارشال إن قاسم أمين عرض عليه عضوية مجلس الجامعة المقترحة وإن "جروست" وافق على ذلك، إلا أن قاسم أمين توفي قبل اتخاذ أي إجراء؛ وافتتحت الجامعة وليس بين أعضاء مجلسها إنجليزياً واحداً. وعندما نشر مارشال اقتراحه أخيراً عام ١٩٢٢، كانت الأحداث تجاوزته، إلا أنه كان يسعى فقط لإثبات أن له السبق في اقتراح إنشاء جامعة، وأصر على أنه لم يتشاور مع زميله قاسم أمين قبل كتابة المقال^(٣٨). ولكن مطالبته بالاعتراف له بفضل السبق لم تلق استجابة لدى أي من الساسة أو المؤرخين. وكان اللورد كرومر محظوظاً حين عزل من منصبه عام ١٩٠٧، تاركاً سير ألدون جروست يواجه السنوات الصعبة التي تلت ذلك، حتى أن جامعة "أليجار" في الهند بدأت تتخبط في الحركة الوطنية المعادية لبريطانيا، بينما تتحدى مجموعة مصطفى كامل في مصر السياسات البريطانية في التعليم، بل وتتحدى الاحتلال ذاته. كما أصبح الاقتصاد متردياً مما دحض الادعاء المفضل لدى كرومر بأن الاحتلال جلب الرخاء؛ لأن الركود الاقتصادي العالمي في عام ١٩٠٧ أصاب مصر في مارس من نفس العام، ولجأت فروع البنوك الأوروبية في مصر إلى الاقتراض. وإنهارت بورصة الأوراق المالية في الإسكندرية وكذلك قيمة العقارات الأمر الذي أعاد إلى المصريين ذكرى الأيام العصيبة من عام ١٨٨٢ - عام ثورة عرابي والاحتلال البريطاني. وأدت كارثة محصول القطن في ١٩٠٩ إلى تفاقم المشكلات القديمة المتراكمة: مياه الفيضان، وأساليب الصرف غير الملائمة، وتفشي الآفات الزراعية، وتوقف التوسع السريع في الأراضي الصالحة للزراعة، واستمرار الزيادة السكانية المطردة. وهكذا، لم تولد الجامعة المصرية في لحظة مواتية من الناحية الاقتصادية.

فكرة الجامعة : يعقوب آرتين وجورجي زيدان

فضلاً عن القاضي مارشال، هناك خمسة أطراف مختلفة على الأقل لها بعض الحق في ادعاء غرس بذرة الجامعة المصرية، ثلاثة منهم معروفون على نطاق واسع ويتردد ذكرهم في المؤلفات المصرية الحديثة المتعلقة بالتاريخ : فينسب أنصار الحكم الملكي - الذين تنذر الإشارة إليهم منذ ١٩٥٢ - هذا الفضل للأمير أحمد فؤاد، مع ذكر اسم الخديو عباس أحياناً، ويؤكد الوطنيون من أنصار الحزب الوطني على فضل مصطفى كامل، بينما يركز ورثة حزبي الأمة والوفد على إسهامات كل من سعد زغلول، وقاسم

أمين، ومحمد عبده. ومع أن المقترحات الأولى ليعقوب أرتين - موظف الحكومة الأرمني -، وجورجي زيدان - الصحفي السوري - كانت منشورة، بعكس مقترحات القاضي مارشال، إلا أن ذكرهما أغفل لأنهما من خارج الحركة الوطنية المصرية.

وكان يعقوب أرتين قد ألمح للموضوع عام ١٨٩٤، حين ذكر في سياق تقرير له إن المدارس المهنية العليا القائمة يمكن أن تكون أساساً لقيام جامعة^(٣٩). إلا أنه كخادم مخلص للسادة البريطانيين في مصر لم يتابع طرح الموضوع (وأرتين هذا، يأتي في ختام سلسلة طويلة من وسطاء أرمن - أشهرهم نوبار باشا رئيس الوزارة - خدموا في المناصب العليا في مصر منذ عصر محمد علي وحتى أوائل القرن العشرين. وأستمر نفعهم حيناً من الوقت بفضل إجادتهم للغات الأجنبية، ومعرفتهم بأوروبا والشرق الأوسط ولكن بعد أن تعلم عدد أكبر من المسلمين اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وبعد أن وجدت الحركة الوطنية المصرية من يعبر عنها، انتفى نفع الوسطاء الأرمن فاستقال أرتين من منصبه كوكيل لوزارة المعارف، عندما أصبح سعد زغلول - المعروف بالحزم - وزيراً لها عام ١٩٠٦^(٤٠). وما أن تولى سعد زغلول الوزارة حتى نحى نفسه عن مشروع الجامعة، مما أتاح الفرصة أمام أرتين للحصول على مقعد في مجلس إدارتها) ولا يكاد يكون هناك بين المصريين من انتبه لاقتراح أرتين القديم بشأن الجامعة^(٤١)، في حين شغل المؤرخون من الأرمن بأمور أخرى.

أما جورج زيدان، فله سند أقوى في إدعاء غرس بذور فكرة الجامعة؛ ففي عام ١٩٠٠ دعت مجلته "الهلال" إلى إنشاء "مدرسة كلية مصرية" توفر تعليماً عالياً حديثاً باللغة العربية داخل الوطن، بحيث لا يضطر المصريون للسفر إلى أوروبا^(٤٢). وكان في ذهن زيدان نموذجان للجامعة، أولهما جامعة (أليجار) التي سبق ذكرها^(٤٣).

والنموذج الثاني الذي طرحه زيدان، هو الكلية "البروتستانتية" السورية التي أنشأتها الإرساليات الأمريكية في بيروت. ورغم حداثة عهدها في عام ١٩٠٠، كانت تقدم الدراسات النظرية والطب والصيدلة والتجارة. وفي أول الأمر كان معظم طلابها من المسيحيين، ولكنها اجتذبت المسلمين أيضاً بعد أن أصبحت "الجامعة الأمريكية في بيروت"، فأضحى تأثيرها ملموساً خارج حدود لبنان الضيقة. وتلقى زيدان فيها قسطاً من التعليم قبل أن ينتقل إلى مصر. كما أشار زيدان - عرضاً - إلى جامعتين أخريين أيضاً كانت

معرفته بهما أقل، هما جامعة "سان جوزيف للجزويت" في بيروت - المنافس الدائم لنظيرتها الأمريكية، و"كلية روبرت" في استانبول التابعة للإرساليات الأمريكية^(٤٤).

ولم يسفر اقتراح الهلال، بأن تنشئ الإرساليات الأمريكية لمصر كلية على غرار الكلية البروتستانتية السورية إلا عن انزعاج معظم المسلمين. وربما كان زيدان يعلم أنه في عام ١٨٩٩ بدأت إرسالية "الكنيسة البروتستانتية الموحدة" تبحث فكرة إنشاء كلية أمريكية في القاهرة، بعد أن لاحظت أن حوالي ٦٠ مصرياً يذهبون إلى بيروت سنوياً للحصول على التعليم العالي. وسار المشروع في طريقه خطوات إلى أن وقعت الحرب العالمية الأولى، فألغى المندوب السامي "ريجنالد وينجت" تنفيذ الفكرة، قائلاً إن المسلمين قد يرفضونها لأسباب دينية، كما أن هناك جامعة مصرية عامة قيد البحث بالفعل. ولكن الأمريكيين أصرّوا على موقفهم وفي عام ١٩٢٠ أفتتحت الجامعة الأمريكية في القاهرة بمبنى جاناكليس، وهو نفس المبنى الذي كانت الجامعة المصرية قد استأجرته قبل الحرب. وبدأت الجامعة الأمريكية بداية متواضعة بمناهج المدارس الثانوية، ثم أضافت تدريجياً مناهج التعليم الجامعي^(٤٥).

وفي عام ١٩٠٦ كانت الصحافة العربية تناقش قضية إنشاء جامعة مصرية، وانضم جورج زيدان متحمساً إلى الحوار الذي ينسب لنفسه الفضل في بدئه. واستعرضت "الهلال" تاريخ إنشاء الجامعات في أوروبا وأوضحت الفارق بين "الجامعة" و"الكلية"^(٤٦) فرأى زيدان أن "أليجار"، و"روبرت كوليدج" و"الكلية السورية البروتستانتية" ليست جامعات حقيقية، لأنها لا تعنى بتدريس كافة العلوم كما تفعل جامعة أكسفورد.

وترددت في القاهرة إشارات عابرة إلى الجامعات اليابانية أيضاً^(٤٧)، بسبب انتصار اليابان على روسيا في حرب ١٩٠٤ - ١٩٠٥، إلا أن المصريين لم يكونوا يعرفون شيئاً يذكر عن اليابان. وكانت كل من كلية جنوب أفريقيا التي يرجع أنشاؤها إلى عام ١٨٢٩، وجامعة "جودهوب" في كيب منذ عام ١٨٧٣ (وهي مثل جامعة لندن، عبارة عن هيئة لعقد الامتحانات وليست للتدريس)، وجامعة الجزائر عام ١٩٠٩، ليست سوى تجميع لعدد من المدارس الموجودة بالفعل. علاوة على أن هذه المعاهد القائمة على التراب الأفريقي لم تكن تخدم سوى المستوطنين الأوروبيين، ولم يكن لها تأثير على مصر. ولعل أكثر ما يستحق الاهتمام، عدم اكتراث

المصريين بالجامعة العثمانية التي أفتتحت في استانبول عام ١٩٠٠، عندما كانت علاقة مصر بالإمبراطورية العثمانية قد أصابها الضعف (٤٨) وأصبح مؤسسو الجامعة المصرية يفضلون الأفكار القادمة من مصادر أوروبية. ورغم أن مجلة "الهلال" رددت كثيراً دعوى جورجى زيدان بأنه منشئ فكرة الجامعة، إلا أن المؤرخين المصريين لم يقرؤا بذلك حتى عام ١٩٨٣ (٤٩). وربما يكون السبب في ذلك واضحاً : فزيدان، وإن لم يؤيد الحكم البريطاني في مصر بشكل صريح - مثلما فعل زميلاه الصحفيان السوريان المسيحيان، يعقوب صروف وفارس نمر - إلا أنه لم يكن على صلة بالحركة الوطنية المصرية، فلم يلائم رؤية المسؤولين والمؤرخين المصريين الذين كانت الجامعة بالنسبة لهم جزءاً من النضال الوطني.

فكرة الجامعة : مصطفى كامل، محمد عبده، سعد زغلول

ولم يكن هناك عائق من هذا النوع يحول دون الاعتراف بفضل مصطفى كامل؛ ففي عام ١٩٠٠ أصدر هذا الزعيم الوطني ملتهب الحماس، بمساعدة من الخديو عباس "صحيفة اللواء" اليومية المناهضة للحكم البريطاني، ثم أنشأ رسمياً في عام ١٩٠٧ الحزب الوطني الذي طالب بالاستقلال الفوري للبلاد. ورغم أنه توفي في العام التالي وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، إلا أنه يظل حتى الآن بطلاً وطنياً.

وفي أولى سنوات صدور صحيفة اللواء، دعت إلى إنشاء مدرسة كبرى تضم مستوى التعليم العالي إلى جانب المستويين الابتدائي والإعدادي^(٥٠). وفي أكتوبر ١٩٠٤ اقترحت الصحيفة إنشاء كلية مصرية (مدرسة كلية). وبعد ثلاثة أشهر أوصت "اللواء" بتسميتها كلية "محمد علي"، احتفالاً بالذكرى المئوية لاعتلاء مؤسس الأسرة المالكة العرش^(٥١). واستجاب المصريون لدعوة مصطفى كامل، وفي غضون أشهر قليلة جمع وجهاء البلاد ثمانية آلاف جنيه مصري كدفعة مقدمة من أجل المشروع. غير أن الخديو عباس - النصير القديم لمصطفى كامل - تخلى عنه، وتبخر الأمل في تحقيق نتائج سريعة^(٥٢) عندما قضى "الوفاق الودى" على أمل عباس في مساندة فرنسا له ضد بريطانيا، بالإضافة إلى أن ثمة فرصة لاحت للتصالح مع كرومر، ومن ثم لم يكن من اللائق أن يشجع عباس فكرة الجامعة.

ثم حمل تابعه محمد عبده الشعلة. وكان محمد عبده في نهاية الأمر، قد قبل على مضض - بشكل يفوق كره محمد علي وإسماعيل لذلك من قبل -

فكرة إنه ربما كان من الأسهل إنشاء معهد جديد بدلاً من تطوير الأزهر. ويرى محمد رشيد رضا أن الجامعة التي شغلت ذهن أستاذه، إنما تعكس المبادئ العليا لمحمد عبده، الذي عرف عنه: "فضله، ونبله، ووطنيته الصادقة، وخدمته للمصلحة العامة... واعتدال حربه بين الأحزاب الإسلامية"، وجمعه بين أسباب الحضارة والمحافظة على أصول الدين الإسلامي" (٥٢).

وقبيل وفاة محمد عبده عام ١٩٠٥، شرح فكرته لأحمد باشا المنشاوي - من أعيان مديرية الغربية - أثناء غداء لهما معاً حضره أيضاً محمد رشيد رضا، وأحمد فتحي زغلول، شقيق سعد. وكان للمنشاوي، مثلما كان لمؤسسي العديد من الكليات الأمريكية، أحلامه المثالية فعرض أن يضطلع وحده بتمويل المعهد بشرط أن يقام خارج القاهرة "بلد الأفقيون والمنزول" (٥٤). واقترح المنشاوي أن يكون الموقع في ناحية القليوبية، كما اقترح توفير مركب بخاري لنقل المعلمين يومياً من وإلى القاهرة. وبعد ذلك بحث محمد عبده الأمر مع المستشار المالي البريطاني أملاً في الحصول على الأرض في صورة هبة للمشروع، بيد أنه والمنشاوي، توفياً قبل تحقيق أي شيء.

ثم أشعلت صدمة دنشواي عام ١٩٠٦ جذوة الحركة الوطنية، التي أفضت في آخر الأمر إلى تنشيط العمل في مشروع الجامعة (٥٥). وفي سبتمبر من نفس العام، تعهد أحد أعيان بني سويف، وهو مصطفى كامل الغمراوي، بالتبرع بمبلغ خمسمائة جنيه مصري لصالح الجامعة في حالة انضمام متبرعين آخرين (٥٦). وكتب مصطفى كامل في "المؤيد" - أثناء رحلته عائداً من أوروبا - داعياً للبدأ في جمع التبرعات (٥٧)؛ فأمسك القاضيان سعد زغلول وقاسم أمين بزمام المبادرة، دون انتظار لموافقة كرومر. ودعا زغلول حوالي عشرين شخصياً للاجتماع في "سرايته" يوم ١٢ أكتوبر. وحضر الاجتماع محمد فريد وثلاثة آخرون على الأقل من أنصار مصطفى كامل. وشكل المجتمعون من أنفسهم لجنة عينت سعد زغلول نائباً للرئيس، وقاسم أمين سكرتيراً، تاركة الرئاسة شاغرة توقعاً لرعاية ملكية. ثم جمع أولئك الحاضرون مبلغ أربعة آلاف و٤٨٥ جنيهاً مصرياً، وفي اليوم التالي بدأوا حملة للاكتتاب العام من أجل إنشاء الجامعة.

وبعد ذلك بأسبوعين أخذت الجميع الدهشة، لتعيين سعد زغلول وزيراً للمعارف؛ فكان ثالث مصري مسلم ينضم إلى نخبة الوزراء المكونة أساساً من الأتراك والشراكسة (٥٨). واستقال سعد زغلول من لجنة مشروع الجامعة

المصرية، فوصمة منتقده ومنهم مصطفى كامل والمستشار مارشال بالانتهازية : لقد أسقط فكرة الجامعة فوراً، كما لو كانت قطعة من البطاطا الساخنة، فلم تعد ذات نفع "له" ^(٥٩). ومع ذلك، عارض كرومر مشروع الجامعة، وكان زغلول صهراً لمصطفى فهمي رئيس الوزراء الدمية، الذي يترأس الوزارة المغيبة منذ ١٨٩٥.

إلا أن المدافعين عن سعد زغلول ذكروا إنه انضم إلى الوزارة بهدف خدمة بلده، وأن فتوره الظاهري قصد منه تفادي الاتهامات حول تدخل الحكومة، والتعبير عن عدم موافقته على هيمنة الأمير أحمد فؤاد على الجامعة. وقد أثار فؤاد حنق زغلول، فكان يتخطاه في المسائل المتعلقة بالجامعة، ويذهب مباشرة إلى المستشار "التعليمي" بوجلاس دنلوب" الذي كان الوزير الجديد يصارع من أجل إخضاعه لسلطته. وربما كان زغلول هو الذي أمد "جون روبرتسون"، عضو البرلمان الإنجليزي بالمعلومات، التي دفعته إلى مطالبة حكومته عام ١٩١١ بوقف النفوذ الشخصي لفؤاد في الجامعة من خلال إخضاعها لنظارة المعارف المصرية ^(٦٠). والملاحظ، أن ناظر المعارف - سعد زغلول - لم توجه له حتى الدعوة للتحدث في حفل افتتاح الجامعة عام ١٩٠٨، وقد أبدى في مذكراته استياءه من المتحدثين لعدم إشارتهم إلى قاسم أمين - وهو أول مؤسسي الجامعة وأقن حياته في خدمتها - كما استاء من الخديو لخروجه عن نص الخطبة التي كان قد أعدها له بنفسه ^(٦١). ولم تبدأ نظارة المعارف دعمها للجامعة بمبلغ ألفي جنيه مصري سنوياً، إلا عام ١٩١١ عندما انتقل زغلول إلى نظارة الحقانية ^(٦٢).

وهكذا، أسهم جورجى زيدان، ومصطفى كامل، ومحمد عبده، وسعد زغلول في خدمة مشروع الجامعة، كل منهم في مرحلة معينة، ولكن الجامعة لم تخرج إلى حيز الوجود إلا في عام ١٩٠٨، بعدما رحل كرومر، وبدأ التقارب يعود ثانية بين الخديو وجروست، فاستأنف القصر مساعدته لها.

الهوامش

- ١- أحمد عبد الفتاح بدير، الأمير أحمد فؤاد ونشأة الجامعة المصرية (القاهرة ١٩٥٠) ص-ص ٢٦٥ - ٢٦٦ (سوف يشار إليه فيما بعد باسم بدير)
- ٢- George Maaqdisi; The rise of Colleges : Institutions of learning in islam and the west (Edinburgh, 1981).
عن الأزهر انظر :
- Chris Eccel, Egypt, islam and Social Conflict and Accommodation in alAzhar (Berlin, 1984).
و :
- J. Heyworth - Dunne, An Introduction to the History of Education in Modern Egypt (london, 1968).
- ٣- Timoth Mitchell, Colonising Egypt (Cambridge, England, 1988).
٤- عن الإصلاحات أنظر :
- Eccel, Azhar,
ص ص ١٥٩ - ١٦٢ ، ١٦٩ - ١٨٣
ويحتوى الجزء الأول من :
- Gilbert Delanoue, Moralistes et politiques musulman dans L'Egypte du xixe siecle (1798 - 1882) (2 Vols., Cairo, 1982).
مادة عن أساتذة الأزهر في القرن التاسع عشر الذين أغفل ذكرهم هنا. وتتضمن المصادر عن محمد عبده :
- محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (٣ أجزاء، القاهرة ١٩٣١).
- و
- C.Adams, Islm and Modernism in Egypt (London 1933).
- و
- Albert Hourani, Arabic thought in the liberal age 1798 - 1939 (london 1962). Pp. 130 - 60.
- وعن علاقة محمد عبده بعباس أنظر : عبد المنعم إبراهيم الدسوقي الجميعة، الخديو عباس الثاني والحزب الوطني ١٨٩٢ - ١٩١٤، (القاهرة ١٩٨٢) ص-ص ١٠٤ - ١٤٣.
- و
- Elizabeth Mayer, "Abbas Hilmi II : the Khedive and Egypt's struggle for indepenence"

رسالة دكتوراه غير منشورة من جامعة ميتشجن ١٩٧٨ ص - ص - ٤٤٣ - ٤٦٥ .
 ٥- المصدر الرئيسي عن طه حسين هو سيرته الذاتية "الأيام" (٣ أجزاء القاهرة - دار المعارف - بدون تاريخ - صدر منها ٦١ طبعة) وقد ظهرت الأيام (الجزء الأول على هيئة حلقات سلسلة في مجلة الهلال (٢٦ ديسمبر حتى يوليو ١٩٢٧) ثم صدرت في كتاب عام ١٩٢٩. وصدر الجزء الثاني في عام ١٩٢٩، والثالث في بيروت عام ١٩٦٧ وظهر كل من هذه الأجزاء مترجما إلى اللغة الإنجليزية لأكثر من مترجم وتحت عناوين مختلفة (أورد المؤلف عناوين هذه الترجمات، وقد رأيت أن أسقطها على أساس أن القارئ العربي لن يحتاج للرجوع إليها بالطبع - "المترجمة") كما قام المؤلف بتحقيق الاستشهادات وفقا للنص العربي لتحديد أرقام الصفحات.

- كما يقدم كتاب حمدي السكوت ومارسدن جونز، "أعلام الأدب المعاصر في مصر" - الجزء الأول : طه حسين (القاهرة ١٩٧٥) سيرة ذاتية شاملة.
 أنظر أيضا :

Pierre Cachia, Taha Husayn : His place in the Egyptian literary Renaissance (London 1956).

و : عبد المنعم الدسوقي الجميعة : طه حسين والجامعة المصرية (القاهرة ١٩٨١)

٦- الأيام - الجزء الثالث ص - ٣ - ٤ .

٧- الأيام - الجزء الثاني ص - ١٤٧ .

-٨

B. lewix "Efendi," the Encyclopaedia of Islam (Ei) leidenm 2 nd ed., 1 : 687,

وهو يعالج أساسا الاستخدام الشائع للقب قبل استخدامه الحديث

٩- الأيام - الجزء الثاني ص - ص - ١٥٨ - ١٧٣ .

١٠- الأيام - الجزء الثالث ص - ٢٠ .

١١- الأيام - الجزء الثاني ص - ١٧٣ .

١٢- على سبيل المثال عائلات عبد العزيز فهمي "مذكرات عبد العزيز فهمي"

المصور ١٠ يونيو ١٩٤٩ ص - ٢٨، وعبد الرحمن الرافعي "مذكراتي ١٨٨٩ -

١٩٥١ (القاهرة ١٩٥٢) ص - ص - ٥ - ٦، وسعد زغلول الأزهرى الذي ألتحق

شقيقة فتحي بمدرسة الحقوق. وعن فتحي أنظر ألياس زاخورة، "مرأة العصر في

تاريخ ورسوم أكابر الرجال في مصر" (القاهرة ١٩١٦) الجزء الثاني ص - ص -

٣٥١ - ٣٥٢ .

-١٣

James c. McClelland, Autocrats And Academics : Education, Culture, and Society in Tsarist Russia (chicago, 1979).

خاصة الصفحات ٥، ٩، ١٣

-١٤

- Malcolm Kerr, "Egypt", James S. Coleman, ed., Education and Political Development (Princeton 1965), p. 174.

- ١٥

Donald M. Reid, "Education and Career Choices of Egyptian Students, 1882 - 1922," International Journal of Middle East Studies. 8 (1977)

ص ٣٤٩ - ٣٧٨ وعن الصعوبات في وجه توظيف الأزهريين أنظر Eccel, Azhar وخاصة ص ٢٩٠.

وأيضا Crecelius : Keddie, Scholars.

١٦- المعلومات التالية عن أحمد لطفي السيد من كتابة قصة حياتي كما حكاها لـ طه الطنحلي (القاهرة ١٩٦٢). أنظر أيضا :

- Charles Wendell, The Evolution of the Egyptian National Image from its Origins to Ahmad Lutfi al-Sayyid (Berkeley, California, 1972)

ص - ص - ٢٠١ - ٣١٣

و

- Afaf Lutfy Al - Sayyed Marsot, Egypt's Liberal Experiment ; 1922 - 1936 (Berkeley, California, 1977)

ص - ص - ٣٢ ، ٢٢٠ - ٢٢٧

١٧- الأيام - الجزء الثالث ص - ١٣٤.

- ١٨

- E.R.J. Owen, Cotton and the Egyptian Economy 1820 - 1914 : A study in trade and Development (Oxford 1969).

ص - ص - ٣٢٠ - ٣٢١

١٩ - يعتمد هذا القسم على Reid, "Education", ص - ص - ٣٤٨ - ٣٧٨ (سبق الإشارة إليه في هامش ١٥). وعن تطورات التعليم في الأربعين عاما الأولى من الاحتلال البريطاني أنظر أيضا : أمين سامي، التعليم في مصر (القاهرة ١٩١٧)، وجرجس سلامة، أثر الاحتلال البريطاني في التعليم القومي في مصر ١٨٨٢ - ١٩١٢ (القاهرة ١٩٦٦) و

- David Chapin Kinsey "Egyptian Education under Cromer : A study of East - west Encounter in Educational Administration and Policy, 1883 - 1922", Harvard University, 1965.

(رسالة دكتوراه غير منشورة)

ولعل أفضل مصدر عن آراء كرومر هو كتابه

Modern Egypt (2 vols., London, 1908).

أنظر أيضا :

- Afaf Lutffi Al. sayyid, Egypt and Cromer : A study in Anglo – Egyptian Relations (new York, 1968).

Robert L. Tignor, Modernizataiion and British Colonial Rule in 1882 – 1914 (Princeton, 1966)

-٢٠-

- Staistique scolaire d'Egypte, annee 1912

(القاهرة ١٩١٣) ص - ص - ١٦ ، ١٢٧ .

٢١ - (Lord Cromer), Reports, 1903 - ص - ١٠ .

٢٢ - Tignor, Modernization - ص - ٣٤٦ .

٢٣ - (Cromer), Reports 1905, - ص - ٨٢ .

٢٤ - (Cromer), Reports 1900 - ص - ٥٠ .

٢٥ - A.B. De Guervill, new Egypt (london, 1905) - ص - ١٥٩ .

٢٦ - محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (٣ أجزاء القاهرة ١٩٣١) الجزء الأول ص - ١٠٦٦ .

- Foreign Office Archives, Publlc Record Office, london. 371/895/42075, Gorst to Grey, November 7, 1910.

عن "أليجار" أنظر

- Lelyveld, Aligaarh's first Generation : Solidarity in British India (Princeton, 1978).

- Hafeez Malik, Sir Sayyid Ahmed and Muslim Modemization in India and Pkistan (New York, 1980)

٢٨ - رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام - الجزء الأول : ص - ١٠٦٦ - ٦٧ . مقال زيدان هو : "المدرسة الكلية المصرية" الهلال عدد ٩ (١ فبراير ١٩٠٠) ٢٦٤ - ٢٦٧ .

-٢٩-

Foreign Office Archives 371/244/82, Parliamentary Question, December 18, 1906, Aiden to secrtary of state Foreign Affairs.

٣٠ - تعليقات كرومر من ١٩٠٦ Reports, - ص - ٩٥ .

٣١ - شفيق، مذكراتي - الجزء الثاني، القسم الثاني : ١٠٦ ، ١٠٩ - ١١٠ .

-٣٢-

FO (*) 371/244/82, Paliamentary Question, December 18, 1906, Aiden to Secretary of state for forign Affairs.

٣٣ - "الجريدة" ٢٥ يوليو ١٩١٢ - كما ورد في

(*) اختصار : لملفات وزارة الخارجية البريطانية - المترجمة.

- Chaarles D-smith Islam and the Search for Social Order in Modern Egypt : A biography of Muhammad Husain Haykal (Albany, New York, 1983).

ص-ص - ٤٥ ، ٢٠٥ ، هامش ٣٦

ويشير متن الكتاب إلى أن تاريخ المقال ١٩١١ ، في حين تشير الملحوظة أسفل الصفحة إلى ١٩١٢ .

-٣٤

Germain Martin, "L'universite egyptienne, "Revue du Monde Musulman 13 (1911) 7.

-٣٥

J.E. Marshall, "A plea for a university for Egypt made by the Author in December 190004", L'Egypte contemporaine 13 (1922 : 628)

والاستشهادات الواردة في بقية الفقرة من : أحمد عبد الفتاح بدير ص- صت ٦٢٦ - ٦٢٨ و : عبد المنعم إبراهيم الدسوقي، الجامعة المصرية والمجتمع ١٩٠٨ - ١٩٤٠ (القاهرة ١٩٨٣).

و : عبد المنعم إبراهيم الدسوقي، الجامعة المصرية "القديمة" : نشأتها ودورها في المجتمع ١٩٠٨ - ١٩٢٥ (القاهرة ١٩٨٠). و : سامية حسن إبراهيم، الجامعة الأهلية بين النشأة والتطور (القاهرة ١٩٨٥)، وكلها لم تشر إلى مشروع مارشال.

-٣٦

FO 371 / 249, Marshall. Marxhall, "Aplea" P 116 to w. Tyrrell. August 1907.

(Gorst), Reports, 1908, P 166 - ٣٧

أنظر أيضا : {Gorst}, Reports, 1907, p 39 .

-٣٨

J.E Marshall, The Egyptian Enigma (London, 1928). P. 91.

-٣٩

Jacoub Artin, Cconsiderations sur L'instrction publique en Egypte (Cairo, 1894), pp. 166-67.

٤٠ - ٥ the Times (London), November 13, 1906, p.5

٤١ - تذكر إحدى الوثائق التي أوردها بدير تعليق أرئين (ص- ٣٢١). وقد نقلت سامية حسن إبراهيم في كتابها الجامعة الأهلية بين النشأة والتطور (القاهرة ١٩٨٥) ص-ص - ١٤ - ١٥ تعبير المدرسة الكلية الجامعة، عن النص العربي لتقرير أرئين "القول التام في التعليم العام" ص- ١٢٠. وعن أرئين أنظر :

Kinsey, "Egyptian Education", pp. 101- 104, 454.

٤٢- زيدان، مجلة الهلال، (١ فبراير ١٩٠٠) : ٢٦٤ - ٢٦٧ وتعتبر اشمـل دراسة عن زيدان هي :

Thomas Philipp, Georgi Zaydan : his Life and Thought (Beirut, 1979)

٤٣- مجلة الهلال، (أول أكتوبر ١٨٩٨) : ص- ١ - ٨ توضـح رأي زيدان في اليـجار .

٤٤- زيدان، الهلال العدد ١٥ (أول نوفمبر ١٩٠٦) : ٦٩ . وتشير المقتطف العدد ٣١ (١٩٠٦) أيضا إلى اقتراح زيدان . وعن الكلية السورية والبروتستانتية (الجامعة الأمريكية في بيروت فيما بعد) أنظر :

Stephen Penrose, That They May Have life, the story of the American University of Beirut, 1866 - 1941 (Princeton, 1941).

-٤٥

Lawrence R. Murphy, The American University in Cairo, 1919 - 1987 (Cairo - 1987), pp. 1-29.

٤٦- زيدان، الهلال (أول نوفمبر ١٩٠٦) : ص- ص- ٦٨ - ٨٨ خاصة ص- ٧٥ والمقتطف (يونيو ١٩٠٨) ص- ص- ٤٢٢ - ٤٢٧ أنظر أيضا :

J.U.J Waardenburg, "Ku;;iyya" and C.k.zurayk, "Djamia"

في :

The Encyclopaedia of Islam, leiden, 2 nd ed. 5 : 364-366, and 2 : 427.

٤٧- على سبيل المثال بالنسبة لخطبة أحمد زكي المقتطف ٣٤ العدد الأول (فبراير ١٩٠٩) ١٤٥ .

-٤٨

South Africa, republic of, "International Encyclopedia of Higher Education (San Francisco, 1977) 8; 3892

و

Jean - Jacques Waardenburg, Les Universites dans le monde arab actuel (2 vols. Paris, 1966) 1 : 10 - 11.

كما عولجت مسألة جامعة استنبول العثمانية في :-

Joseph S. Szyliowicx, Education and Modernization in the middle East (Ithaca, New York, 1973). Pp. 141 147, 166 - 167, Cemil Bilsel, Istanbul Universitesi Tarihi (Istanbul 1943)

٤٩- عبد المنعم إبراهيم الدسوقي "الجامعة المصرية القديمة" ص- ص- ٣ ، ٩ .

٥٠- مصطفى كامل "حياة الشعب في الشعب" - اللواء ٢٥ يناير ١٩٠٠ .

٥١- مصطفى كامل - اللواء ٢٦ أكتوبر ١٩٠٤ ، كما نقله عبد الرحمن الرافعي في : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية (القاهرة ١٩٦٢) ص- ٢٣٨ - ٢٣٩ .

-٥٢

Mustafa Pasha Kamel, Lettres egyptiennes, p. 170.

كما نقله :

Gernain Martin, "l'universite Egyptienne", Reuve de Monde Musulmman 13, No. 1 (1911) : 4 5.

- ونقله الرافعي أيضا في مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية، ص - ٢٣٩.
- ٥٣- رضا، تاريخ الأستاذ الإمام ... الجزء الأول ص - ١٠٦٧.
- ٥٤- المرجع السابق ص - ص - ٩٤٦ - ٩٤٧.
- ٥٥- عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية (القاهرة ١٩٦٢).
- ٥٦- بدير ص - ٤. أنظر ص - ص - ٤ - ١١ لوصف الاجتماع في سراي زغول.
- ٥٧-

Juliette Adam, L'angletere en Egypte (paris 1922), pp. 175 - 179.

- و : سامية حسن ابراهيم "الجامعة الأهلية" ... ص - ص - ٢٢ - ٢٤.
- ٥٨- بعد على مبارك ومحمد قباني. أنظر
- Jeffrey Collins, "the Egyptian Elite under Cromer, 1882 - 1907, Princeton University, 1981, p. 223.

(رسالة دكتوراه غير منشورة)

٥٩-

J.E.Marshall, The Egyptian Enigma (London, 1928), p. 92.

- وهناك روايات أخرى مناوئة لزغول منها : مصطفى كامل "سعد زغول وزير المعارف" - اللواء ٢٨ أكتوبر ١٩٠٦، كما نقلها عبد المنعم الدسوقي في الجامعة المصرية القديمة "ص - ص - ٣٨ - ٣٩. وأحمد شفيق منكراتي في نصف قرن (٤ أجزاء، القاهرة ٣٤-١٩٣٦) للجزء الثاني ص - ١١٠. والرافعي : "مصطفى كامل ... ص - ص - ٤١٩ - ٤٢١ ز والرافعي "محمد فريد رمز الخلاص والتضحية" (القاهرة ١٩٦٢) ص - ص - ٤٠٦ - ٤٠٧ وعبد الخالق محمد لاشين : "سعد زغول - دوره في السياسة المصرية حتى سنة ١٩١٤ (القاهرة ١٩٧٠) ص - ص - ٤١ - ٤٢، ١١١ - ١١٤. وسامية حسن على "الجامعة الأهلية ... ص - ص - ١٧ وما بعدها. وقد برر سعد زغول قراره في منكراته "الكراسة السادسة عشر" ص - ٨٣٨ كما نقلها عبد المنعم الدسوقي في "الجامعة المصرية القديمة" ص - ص - ٣٨ - ٣٩ أما التفسيرات الموالية لزغول فتتضمن : عباس محمود العقاد، سعد زغول : سيرة وتحية (القاهرة ١٩٣٦)، ص - ص - ٩١ - ٩٢، ١٠٣ - ١٠٦. وإميل فهمي حنا شنودة : "سعد زغول ناظر المعارف ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٠٦ - ٢٣ فبراير سنة ١٩١٠" (القاهرة ١٩٧٧) ص - ص - ١١٥ - ١٢٠، وعبد المنعم الدسوقي "الجامعة المصرية القديمة" ص - ص - ٢٢ - ٢٣، ٣٨ - ٣٩، وعبد العظيم رمضان : منكرات سعد زغول - الجزء الأول (القاهرة ١٩٨٧) : ص - ٩٢ - ٩٣.
- ٦٠-

FO 371 / 1115/32626/parliamentary Question, August 16, 1911.

- ٦١- منكرات سعد زغول، الكراسة التاسعة، ص - ٤٢١، كما نقلها عبد المنعم الدسوقي في : "الجامعة المصرية القديمة" ص - ص - ٣٦ - ٣٧.
- ٦٢ - بدير ص - ٢٥٤.

[٢]

تنفيذ المشروع

كان عام ١٩٠٨ حافلاً بالنسبة لمصر، ففيه توفي مصطفى كامل وقاسم أمين، وأصبح بطرس غالى - وهو قبطني - رئيساً للوزارة، واسترد الحزبان الوطني والأمة قوتهما، كما استأنف سير "الدون جورست" علاقته الطيبة بالخدو وفي استانبول، بدا أن ثورة تركيا الفتاة سوف تعيد أحياء الإمبراطورية العثمانية، ومصر ما تزال تتبعها من الوجهة الرسمية. وفي لندن، تولى "اسكيت" رئاسة الحكومة، وهو من الليبراليين، ونشر اللورد كرومر دفاعه عن نفسه تحت عنوان "مصر الحديثة". ثم، أخيراً خرجت الجامعة المصرية في نهاية سبتمبر إلى حيز الوجود.

القصر يتبنى الجامعة :

في خريف عام ١٩٠٦، كان صبر الجميع - بما فيهم قاسم أمين - على كرومر قد بلغ آخر مداه، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى الأثر العنيف الذي خلفته حادثة منشوأي - وعندما تولى قاسم أمين قيادة لجنة الجامعة، خلفاً لسعد زغلول، كان مقتنعاً بأن الخديو عباس هو الوحيد الذي يمكنه أن يكون نصيراً قوياً للجنة، فطلب الإنن له بقاء الخديو، متجاهلاً الخلاف بين مرشده الراحل محمد عبده، وبين عباس^(١).

وكان عباس يكره كرومر، الذي سبق أن حقر من شأنه علناً، ولكنه كان يذكر، كذلك مصير جده المعزول إسماعيل، لذلك وطن الخديو نفسه على إظهار الخضوع علناً، وممارسة المعارضة سراً من خلال مصطفى كامل وغيره. ثم قضى الوفاق الودى عام ١٩٠٤ على أمل عباس في مساندة فرنسا؛ وحاول مجاهدة نفسه على تحسين علاقاته بكرومر. وعندما لم يبد الحاكم الإنجليزي المتعجرف أي تجاوب إزاء مساعي الخديو، لم يكن لدى الأخير ما يخسره إذا استأنف مساندة الجامعة. وبعد أن تقلد "السير الدون جورست" منصبه، حرص على الاطمئنان إلى أن عباس يستطيع أن يضع الجامعة تحت السيطرة، ثم سمح بعد ذلك له بالسير قدماً في تنفيذ المشروع.

ولو عدنا إلى عام ١٩٠٦، لوجدنا جريدة "المؤيد" لصاحبها علي يوسف، وهي الناطقة بلسان الخديو، تنثي على نعمة التحدي التي بدأت مسيرة مشروع الجامعة. ورغم أن الخديو حول كراهيته لمحمد عبده إلى كراهية لسعد زغلول، إلا أن واحداً على الأقل من المقربين إلى القصر "حسين بك أبو حسين" حضر الاجتماع التأسيسي لمشروع الجامعة، الذي عقد بسراي سعد زغلول في أواخر ١٩٠٦. وعقب تنحي سعد زغلول عن لجنة الجامعة، أصبح التدخل في شؤونها أسهل بالنسبة للقصر. ويرى أحمد شفيق - وهو واحد من موظفي القصر، أصبح مؤرخاً فيما بعد - أن كرومر اختار سعد زغلول للوزارة بهدف القضاء على الجامعة بالتحديد. وأمر عباس الوزير الجديد بعدم تجاهل الجامعة، ثم تولاها الغضب إزاء رد زغلول الذي اتسم بالتحدي^(٢).

وبعد أن وضع الخديو المشروع تحت هيمنته، عين ابنه، وولي عهده عبد المنعم رئيساً شرفياً لها، ثم فكر في أن يتولى أربعة أمراء آخرين - هم: حسين كامل وعمر طوسون، ومحمد علي، وأحمد فؤاد - الإدارة الفعلية للجامعة. ولم يكن بينهم من راغب في هذا العمل ومقبول في نفس الوقت من البريطانيين سوى فؤاد الذي تولى المنصب أواخر عام ١٩٠٧. وخصص عباس للجامعة خمسة آلاف جنيه سنوياً من الأموال مصلحة الأوقاف، التي بقيت ميزانيتها تحت سيطرته الشخصية، بعكس باقي موازنة الدولة.

وكان لفؤاد من العمر عام واحد، حينما عمده والده إسماعيل إلى إيهار ملوك أوروبا في احتفالات إفتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩. وبعد عشر سنوات، صلب الأمير أحمد فؤاد والده إلى منفاة في إيطاليا، وكان بلغ سن الرشد وفقاً لآراء ميكيافيلي وآل مديتشي. [وفيما مضى، سبق لمحمد علي - جده الأكبر - أن أمر أحد المترجمين بالكف عن إستكمال ترجمة كتاب ميكيافيلي "الأمير" معلناً أنه لا يحتوى شيئاً لم يكن يعلمه بالفعل^(٤)]. ومثلته جاء فؤاد ميكيافيليا بالفطرة، وعندما ولي العرش أخيراً عام ١٩١٧، لم تترك له الهيمنة البريطانية فرصة ليتبوأ المكانة العسكرية التي تميز بها كل من جده الأكبر محمد علي، وجده إبراهيم باشا. ولكن ما أظهره أثناء ممارسته المحنكة للسلطة من دهاء حاد، وقدرة على المراوغة، أثبت جدارته بالانتساب إلى أسلافه. كما أنه شارك والده إسماعيل تقديره للثقافة، أو على الأقل تقديره لما يمكن أن تسفر عنه رعاية الثقافة من تحسين صورة الأمير أمام الناس.

ولأن الأمير فؤاد تلقى تعليمه في جينيف، وفي أكاديمية "تورين" العسكرية فقد حصل على رتبة ضابط في الجيش الإيطالي. وكان والده على علاقة طيبة بالملك "امبرتو" والملكة "مارجريتا"، فصادق فؤاد نجلهما، الذي أصبح فيما بعد الملك "فيكتور عما نويل الثالث". وتعلم الأمير اللغة التركية في القصر، وأضافت إليه دراسته معرفة باللغتين الفرنسية والإيطالية، كما تمكن من الإلمام بالألمانية أثناء عمله ملحقاً عسكرياً لمصر في فيينا، بيد أنه ربما لو عاد به الزمان، لأمضى وقتاً أكبر في تحصيل اللغة العربية، التي لم يشعر أبداً بالآلفة معها^(٥)، ولعله لو أجاد الإنجليزية، لكانت قدرته على التعامل مع محتلى مصر تحسنت.

وعقب عودة فؤاد إلى مصر عام ١٨٩٥، في مهمة قصيرة تتعلق بإسداء النصيح لابن أخيه الشاب عباس الثاني، اعتزل العمل السياسي العلني، وكان أحد العرافين أقنعه بأنه سوف يصبح ملكاً يوماً ما. وفي ١٩١١ لم يحالفه الحظ في مساعيه لاعتلاء عرش ألبانيا عقب استقلالها، وإذا بالقدر ينصبه بعد أربعة أعوام، وعلى غير انتظار سلطاناً على بلد أكثر أهمية : مصر.

وكان زواج فؤاد من إحدى بنات عمومته قد مني بالفشل فأطلق شقيق العروس رصاصة عليه أصابت حنجرتة، وخلفت أثراً لها، بحة دائمة في صوته. واتسم سلوكه الشخصي بقدر من الاستهتار، فلم يدفعه إلى الزواج مرة ثانية - بمجرد توليه العرش - إلا حاجته لوريث يخلفه. كانت بدانته الموروثة محشورة بإحكام داخل معطف من الفراك خاطه ترزى إيراني. وعلى نفس النحو، تسترت شهواته - المماثلة لشهوات أسلافه خلف رداء محكم من الأناقة الرسمية والمتزنة^(٦). وبسبب تعلق فؤاد بوالدته "قريال"، آمن بأن حرف الفاء هو حرف السعد بالنسبة له، فاختر لبناته الخمس وابنه "فاروق" أسماء تبدأ كلها بنفس الحرف، واتبع فاروق نفس النهج في تسمية أبنائه.

وخلال فترة انتظاره لفرصة توليه الملك، رأس فؤاد المنظمات التي تحتاج لرعاية ملكية؛ فرأس جمعية لتشجيع السياحة، كما رأس "أسبوع الطيران" في مصر الجديدة. وكان فؤاد أقل ثقافة من شقيقة إبراهيم حلمي أو ابن عمه الثاني عمر طوسون. وسار في رعايته للثقافة وفقاً للتقليد الإسلامي، بالإضافة إلى تقاليد عصر النهضة الأوروبية، فرأس جمعية دولية للإسعاف كما رأس جمعية الصليب الأحمر، وأحيا الجمعية الجغرافية التي أنشأها والده غير أن الجامعة كانت أهم إنجازاته الثقافية كامير، حيث إستفادت من صلاته

ومن قدراته الإدارية، بيد أنه ترك مواصلة التعليم الجاد للآخرين، فأنحصرت محاضراته بالجامعة في الرماية والفروسية، كما يليق بأمر (٧).

ولم يكن فؤاد ليهتم بأمر أعضاء الحزب الوطني من أنصار مصطفى كامل، الذين كانوا قد هزموا بالفعل، ففي نوفمبر ١٩٠٦، أختارت لجنة الجامعة محمد فريد سكرتيراً، في حين شغل قاسم أمين منصب نائب الرئيس خلفاً لسعد زغلول (٨). ولكن وجود محمد فريد أستفز البريطانيين، الذين يعتبرون أنصار مصطفى كامل متطرفين وحذرت صحيفة "التايمز" من تحول الجامعة إلى تنظيم للحركة الوطنية بدلاً من أن تكون منظمة وطنية وأعربت عن إرتياحها عندما بدأ أن محاولة مصطفى كامل للسيطرة على المشروع منيت بالإخفاق (٩). كما غضب قاسم أمين وأصدقاء سعد زغلول الآخرون بسبب إتهام مصطفى كامل لسعد بالتخلي عن مشروع الجامعة في مقابل الحصول على كرسي الوزارة، فعقدوا اجتماعاً للجنة أثناء غياب محمد فريد في أوروبا، وأختاروا سكرتيراً آخر بدلاً منه. فاستقال عضو آخر من أنصار مصطفى كامل احتجاجاً على ذلك، ولم يبق في اللجنة من أصدقاء مصطفى كامل ومحمد فريد سوى المحامي القبطي مرقص حنا، وحده.

وهكذا، لم يعد لدى أعضاء الحزب الوطني من خير ينكرون به الجامعة. ففي أبريل ١٩٠٨، وعقب تولى محمد فريد زعامة الحزب الوطني، خلفاً للراحل مصطفى كامل، شجب فريد الأسلوب الذي تم به تنفيذ المشروع، وفي إشارة واضحة إلى أصل فؤاد الأجنبي، أعرب عن استيائه من أن الثلاثة الذين يتزعمون المشروع ليس بينهم سوى مسلم مصري (١٠) واحد.

ولم يكن أعضاء الحزب الوطني هم الخاسرين وحدهم، فقد أختفي من الساحة ثلاثة من أنصار الراحل محمد عبده، بعد استقالة سعد زغلول من اللجنة، و وفاة قاسم أمين، وانتقال حفنى ناصف إلى الصعيد في ربيع ١٩٠٨ (١١).

وكان أحمد لطفي السيد من الأنصار الأقوياء لحزب الأمة - وهو الشكل الرسمي الذي آل إليه فريق محمد عبده عام ١٩٠٧ - إلا أنه كان مشغولاً بصحيفة الحزب "الجريدة"، ولم يكن أنضم رسمياً إلى الجامعة بعد. وأصبحت هيمنة القصر على الجامعة واضحة منذ مايو ١٩٠٨، عندما حل محل اللجنة التحضيرية مجلس تنفيذي للجامعة، يرأسه فؤاد، وأصبح أحمد زكى - رجل القصر، سكرتير المجلس. وضم المجلس بين أعضائه الدكتور علوى باشا (الطبيب الخاص للأميرة فاطمة إسماعيل شقيقة فؤاد) ويوسف صادق من

حزب الإصلاح التابع للخديو. وكان حسين رشدي، وإبراهيم نجيب، وعبد الخالق ثروت، ويعقوب أرتين من الموظفين ذوي الناصب العليا الراغبين في التعاون من القصر. ثم أصبح أحمد شفيق - أحد رجال القصر - بعد ذلك، أحد نائبي المدير. وفي عام ١٩١٢ جاء انضمام إسماعيل صدقي والأمير يوسف كمال إلى المجلس ليضاف رجلان جديان إلى كفة القصر^(١٢).

بمقارنة هذا المجلس التنفيذي لعام ١٩٠٨ بالمجموعة الأصلية المكونة من ستة وعشرين عضواً، والتي اجتمعت بسراري سعد زغلول عام ١٩٠٦، يتضح مدى غلبة القصر على المجلس، كما يظهر ارتفاع المستوى الاجتماعي لأعضائه واكتسابه الصبغة الدولية، حيث كان معظم أعضاء المجموعة الأولى من المسلمين ذوي الأصول المصرية، من ميسوري الحال، أو الذين في طريقهم للصعود الاجتماعي، ولكنهم لم يصلوا بعد إلى قمة الثروة والنفوذ. ومن بينهم قبطيان، ولكن لم يكن بينهم أي أجنبي. ولم تضم المجموعة أيّاً من الباشوات، ولكن تسعة عشر من أعضائها يحملون البكوية، بالإضافة إلى ستة ممن يسمون أنفسهم "افنديات" وواحد من المشايخ، وتمتعت مهنة المحاماة الصاعدة بتمثيل طيب في اللجنة. ولم يشعر سوى ثلاثة فقط بعدم القدرة على التعهد بدفع مائة جنيه على الأقل تبرعاً للمشروع، في حين وعد أحد المتبرعين بدفع ألف جنيه وتبرع اثنان آخران بخمسمائة جنيه لكل منهما^(١٣).

أما في ١٩٠٨، فلم يبق بالمجلس إلا واحداً فقط من أعضاء مجموعة الستة والعشرين (حسين سعيد، أمين الصندوق). وضم المجلس أميراً هو أحمد فؤاد، وخمسة من الباشوات، وستة من الباكوات، وفرنسياً، وإيطالياً. ويعد مرقص حنا الأفندي الوحيد بين أعضاء المجلس. ومن بين الأعضاء الجدد ينحدر أربعة على الأقل من أصول أرستقراطية تركية قديمة، أما يعقوب أرتين فأرمني مسيحي.

وكانت العضوية قد أسقطت عن السوريين المسيحيين الثلاثة الذين انضموا إلى اللجنة المنظمة في ربيع ١٩٠٧، ربما بسبب السخط الوطني على هذه الأقلية الثرية، التي مدح بعض أعضائها الحكم البريطاني علناً. وحتى عام ١٩٠٩ كان السوريون المسيحيون قد تبرعوا للجامعة بمبلغ ٣٤٥ جنيهاً مصرياً فقط^(١٤)، ولم تشفع واقعة جورج زيدان، التي سنبحثها لاحقاً في هذا الفصل، في زيادة ارتباطهم بالجامعة. واتسم دور الأقباط بضالة الحجم، ولكنه كبير الأهمية في وقت شهد توتراً بينهم وبين المسلمين، فقد

ضمت قائمة ١٩٠٦ اثنين منهم، كما مثلهم مرقص حنا في مجلس عام ١٩٠٨، وساهم ملاك الأراضي الأثرياء من أقباط الصعيد في أسقوط في تمويل الجامعة بسخاء : إذ تبرع الأخوان ويصا بمبلغ ألف وخمسمائة جنيه، كما تبرع بشرى وسينوت حنا بألفي جنيه^(١٦).

وساعدت هيمنة القصر على الجامعة في تسهيل مهمة جمع التبرعات من أعضاء الأسرة المالكة، فأسهم الأمير عزيز حسين بألف جنيه مصري، والأميرة نازلي هانم أفندي حليم بأربعمائة جنيه مصري. ومع ذلك، كان حجم هذه الهبات الملكية ضئيلاً بالنسبة لمبلغ ١٥٧٠٠ (خمسة عشر ألفاً وسبعمائة جنيه مصري) دفعها المصريون الأفراد حتى فبراير ١٩٠٩. وأخيراً تبرع الأمير إبراهيم حليم بمكتبته التي تقدر بألفي كتاب للجامعة، كما خصص لها الأمير يوسف كمال ١٢٥ فداناً من أراضي الأوقاف. وأصبحت الأميرة فاطمة هانم إسماعيل أكرم المتبرعين - بفضل تشجيع طيبتها الخاص الدكتور علوي - فأسهمت بستمائة فدان من أراضي الأوقاف، ومجوهرات تبلغ قيمتها ثمانية عشر ألف جنيه، وستة أفدنة لإنشاء حرم جامعي بالقرب من قصرها في بولاق الدكرور بالجيزة. وفي مارس ١٩١٤ وضع الخديو حجر الأساس. إلا أن اندلاع الحرب العالمية الأولى أدى إلى تحويل المبنى الذي شيد إلى استخدامات أخرى، فأمضت الجامعة الأهلية حياتها كلها في مبنى مؤجر^(١٧).

أي أنواع الجامعات ؟ :

كانت السراي التي افتتحت بها الجامعة المصرية في ٢١ ديسمبر ١٩٠٨ ملكاً لتاجر السجائر اليوناني "نستور جاناكليس" يوماً ما (وهي تضم الآن إدارة الجامعة الأمريكية بالقاهرة) وكان الأزهر يقع بعيداً وسط المدينة المنتمية للقرون الوسطى المناسبة له. بينما تقع الجامعة المصرية على طرف الجزء الحديث الذي صممه خبراء التخطيط في عصر إسماعيل. وبالقرب منها توجد رموز أخرى لمصر الحديثة : محطة قطار باب اللوق، وفندق سمراميس، ومقر الوزارة، والمتحف المصري، والسفارة البريطانية، وتكنات قصر النيل التي يحتلها البريطانيون، وكوبري قصر النيل بأسوده الحارسة. وكان سعد زغلول وقاسم أمين وأبناء الطبقة الأرستقراطية المهتمين بالشئون المدنية. الذين أنشأوا الجامعة، قد اعتزموا جعلها مؤسسة علمانية. فجاء في بيان الغرض منها أنها "ستفتح أبوابها لكل طالب علم مهما كان

جنسه أو دينه" (١٨). حتى أن سعد زغلول اعتبر خطبة أحمد زكي في احتفالات الافتتاح غير لائقة لأنها أكدت على الأمجاد الماضية للإسلام في "جامعة ليس لها دين سوى العلم" (١٩). وكان مقرراً - نظرياً - ألا تكون للجامعة سياسة أيضاً : "ليس لهذه الجامعة صبغة سياسية، ولا علاقة لها برجال السياسة ولا المشتغلين بها، فلا يدخل في إدارتها ولا في دروسها ما يمس بها على أي وجه كان" (٢٠).

وليس القول كالفعل. ولكن البريطانيين لم يكونوا ليسمحون بأقل من هذا ورغم أن مهاجمة الاستعمار البريطاني علناً كنت محدودة للغاية، كما في خطاب الدكتور علوي في مايو ١٩٠٨ بمناسبة تكريم أحد كبار المساهمين، إلا أن الرسالة فهمت تلميحاً : "هو قانون العمران الحالي، القاضي باختلاط الأمم، ومعظمهم (*) من الأمم القوية، المتعلمة المتمدنة، المتسلحة بأسلحة الجهاد الحيوي، أتريد أن تبقى مجرداً عن ذلك السلاح، حتى ينفذ حكم القانون الطبيعي : إن القوى يأكل الضعيف ؟ فإذن، كل يقول لك : تعلم، كن رجلاً إذا أحببت البقاء سالماً في هذا العصر، عصر الجهاد الاجتماعي، ولا يتم ذلك إلا بتلك الجامعة، التي اجتمعنا من أجلها اليوم" (٢١).

وكان المصريون في حالة "جهاد مقدس في سبيل العلم" (٢٢) وأعلن قاسم أمين أن خريجي المدارس العليا ليسوا مسلحين بما يكفي للدفاع عن بلدهم : "أهم أسباب انحطاط الأمم وإرتقائها طرق التعليم والتربية، وإذا نظرنا ما يجري عندنا، وجدنا أن التعليم الآن لا يصلح إلا لإعداد موظفين، أو أصحاب مهن يحترفونها للقيام بحاجيات الحياة التي لا ستغنى عنها كالطب والهندسة والمحاماة. ولا نجد إلا أفراداً قليلين جداً، يصرفون وقتاً قصيراً، ومن حين إلى حين لتكميل معارفهم" (٢٣). وكان المطلوب بدلاً من ذلك : "طلب العلم لمجرد العلم، كما كان في صدر الإسلام، وكما هو الشأن عند أمم الغرب واليابان في هذه الأيام ... إن القواعد الصحيحة التي يقوم عليها هذا البنيان الكبير، لا تكون إلا بإخال المعارف، التي لم تتل في مصر حظها من العناية إلى الآن كالتاريخ، والفنون، والآداب، والعلوم العالية التي تجعل الإنسان كبيراً في نفسه، كبيراً في قومه وتجعل الأمة كبيرة. فإن هذه المواد هي التي ارتقت بها شعوب أوروبا وأمريكا واليابان وأبلغتها ما وصلت إليه من السؤدد والسلطان" (٢٤).

(*) يقصد علماء الغرب - (الترجمة)

ثم ارتفعت مجموعة الشعارات التي تردد كثيراً حول (العلم لمجرد العلم)^(٢٥). وهو المبدأ الذي لم ينسبه مؤيدوه إلى الغرب الحديث فقط، وإنما أيضاً إلى الإسلام في عهده الأول. وإذا كانوا لم يتوقفوا ليتساءلوا عما إذا كان "العلم لمجرد العلم" يتعارض مع العلم كوسيلة للحكم الوطني؛ بينما كان هناك أمثالهم من بين المثاليين الألمان الذين ساندوا "التعلم الحق" كما ساندوا الدولة البروسية، وبين المستشرقين الذين تحدثوا عن "العلم لمجرد العلم" وهم يكرسون خبراتهم لخدمة الإمبريالية الغربية.

وبعد انتهاء خطب الافتتاح، وانصراف أصحاب المقام الرفيع، ما هو نوع الجامعة التي قامت؟، حتى عام ١٩٢٥، كان اسم "الجامعة" مطمحاً أكثر منه حقيقة واقعة، ففي العام الجامعي ١٩٠٨ - ١٩٠٩، لم يلق محاضرات دراسية مسائية سوى خمسة أساتذة فقط بواقع محاضرة لكل منهم. كما لم يتول التدريس. خلال أي من هذه السنوات أكثر من خمسة أو ستة عشر أستاذاً، وجميعهم - تقريباً - كان يشغل وظائف أخرى.

وفي تمرد على الحرفية الضيفة التي اتسمت بها المدارس العليا تحت الهيمنة البريطانية، قررت الجامعة التركيز على الآداب والعلوم؛ فبدأت بمناهج الأدب والتاريخ والفلسفة التي كان غيابها ملموساً بشدة في المدارس العليا ودافع جورج زيدان - بلا طائل - عن أن التركيز على العلوم سيكون أكثر عملية^(٢٦). وألغيت خطة إضافة قسم علمي لأسباب مالية.

وفي أوروبا كانت دعوة "العلم للعلم" وتفضيل العلم النظري على العلم التطبيقي، خيار العناصر الصاعدة من الطبقة الوسطى وأبناء الارستقراطية الموهوبين الذين تعلموا كيف يتكيفون مع عصر الليبرالية، والديمقراطية، والعلم، نظراً لأن الإيمان البرجوازي بالعمل الجاد، وفرص العمل المفتوحة أمام الموهبة، والمتابعة المتأنية التي ينبغي أن يقوم بها الإنسان للأبحاث المتعلقة بميولة، تتفق مع فكرة "العلم للعلم". وكذلك كان الحال في مصر، حيث تبني لطفي السيد - ابن أحد ملاك الأراضي - وطه حسين - الذي ينتمي إلى أصل أكثر تواضعاً - شعار "العلم للعلم" بنفس القدر من الحماس.

وربما كان من غير المؤلف أن يدافع طه حسين عن مبدأ "العلم للعلم" إلى جانب دعوته لنشر العلم إلى أبعد حد. أما لطفي السيد، وحسين هيكل فيمثلان وجهة نظر الصفوة المحافظة في ارتباط الطبقة العليا بالجامعة. حقيقة أن الاثنين ليبراليان، يناصران الأفكار المستمدة من الغرب حول الحريات الفردية، والعقل، والعلم. إلا أن الغرب بالنسبة لهما كان أفكار "جون

ستيورات ميل"، و"هربرت سبنسر" و"جوستاف لي بون"، وليست أفكار "كارل ماركس" أو حتى "توماس جيفرسون". وبالنسبة لمصر، يرى أصحاب هذا الاتجاه، أن توفير قدر كبير من التعليم بسرعة كبيرة ربما شكل خطورة وأنه إذا كان "العلماء" المسلمون بينوا من قبل فكرة الإجماع وفقاً للتعاليم الدينية، فإن طبقة كبار ملاك الأراضي الزراعية التي ينتمي إليها لطفي وهيكل تؤمن الآن بأنهما الزعيمان الطبيعيان وأن ثقافتهما الغربية تعزز أحقيتهما بالزعامة. ومن ناحية أخرى، فربما تنشأ الفوضى، إذا أدت أفكار سعد زغلول الشعبوية - رغم أنه لم يكن راديكالياً من الناحية الاجتماعية - إلى استهانة الجماهير الأمية بقيادتها "الطبيعية" (٢٧).

ورغم الخيار الأصلي للجامعة، خضعت للضرورة الاقتصادية بعد سنوات من افتتاحها؛ وقدمت مناهج ذات توجهات مهنية في الاقتصاد، والسياسة، والعلوم الاجتماعية، مثل علم الإجرام، والعلوم الاقتصادية والمالية، والقانون. وكان قسم القانون يدرس المناهج الإضافية التي لا تدرس في مدرسة الحقوق العامة. وتولى تدريس القانون في الجامعة الأهلية كل من محمد حسين هيكل، والقانوني الضليع عبد الحميد بدوي، وحسن نشأت المستشار السياسي الخاص لفؤاد فيما بعد. واستمرت هذه المناهج لبضع سنوات على الأكثر. وقبل أن تتحول هذه المؤسسة الخاصة إلى جامعة عامة، عادت إلى تركيزها الأصلي على المبادئ الليبرالية، وهو الأمر الأساسي الذي يهتم به هذا الفصل من الكتاب والفصل الذي يليه (٢٨).

أساتذة من دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي :

عند نشأة الجامعة، لم يكن هناك مصري واحد تنطبق عليه كافة الشروط النموذجية للأستاذ الجامعي : درجة الدكتوراه والإلمام التام بأحدث ما وصل إليه الغرب من تقدم، ثم القدرة على التدريس بالعربية. وكان كرومر قد أوقف تقريباً إرسال البعثات التعليمية إلى أوروبا التي بدأت منذ عصر محمد علي : "لقد فعلت ما بوسعي لعرقلة إرسال الشبان المصريين إلى إنجلترا بأية حال، لأن تحسين مستوى التعليم الفني والعالي في مصر، كان هو الحل الأسلم" (٢٩).

ثم استأنف جورست وسعد زغلول إرسال البعثات، كما هو مبين في جدول (١). ولأن الجامعة لم تكن تريد انتظار تحرك الدولة، أرسلت بعثاتها

الخاصة وكلفت طلابها بالحصول على أعلى درجات ممكنة في تخصصاتهم قبل عودتهم إلى الوطن.

جدول (١)

الطلاب المصريون الدارسون بالخارج على نفقة الدولة

العام	عدد الطلاب	العام	عدد الطلاب
١٨٩٠	٢٨	١٩٠٧	٢٢
١٨٩٥	١٢	١٩٠٨	٤٠
١٩٠٠	٤	١٩٠٩	٥٥
١٩٠٥	٢	١٩١٠	٥٩
١٩٠٦	٣		

المصدر : إميل فهمي شنودة : سعد زغلول ناظر المعارف من ٢٨ فبراير ١٩٠٦ إلى ٢٣ فبراير ١٩١٠ (القاهرة ١٩٧٧) ص : ١٣٢.

واضطرت الجامعة إلى تعيين أساتذة مؤقتين، إلى حين عودة البعثات وعند تعيين هؤلاء من بين المصريين، تجنبت الجامعة الاستعانة بخريجي الأزهر لما يتسمون به من جمود فكري. ويبدو أنه لم يتول التدريس بالجامعة الأهلية من أبناء الأزهر إلا أستاذاً واحداً، عمل بكلية الآداب بصفة مؤقتة لمدة عام واحد^(٣٠). كما لم تقدم المدارس العليا الأربع عوناً يذكر، حيث احتكر الأجانب معظم المناصب، ولم يكن الخبراء في الطب والقانون والهندسة نوى نفع بالنسبة لجامعة تستهل عهدها بالآداب. واستعارت الجامعة الأهلية أساتذة من مدرسة القانون لمناهجها القصيرة في علم الإجرام، والاقتصاد، والقانون. وربما كانت مدرسة المعلمين العليا خليفة بتقديم العون، إلا أنها انشغلت في محاولة الوقوف على قدميها ثانية، بعد إغلاقها قبل وقت قصير لقلة عدد الطلاب.

ولم يتبق سوى دار العلوم وابنة عمها الصغرى مدرسة القضاء الشرعي، اللتين قدمتا ما عجز عن توفيره الأزهر والمدارس المهنية : رجالاً يستطيعون تدريس العلوم الإنسانية بالعربية مع قدر من الإمام - على الأقل - بالثقافة الغربية. وكان طلاب دار العلوم يأتون إليها من الأزهر، للتدريب فيها على تدريس اللغة العربية، وذلك بإضافة مواد العلوم، والتاريخ، والجغرافيا، والرياضيات على النسق الغربي، إلى المواد الأزهرية المعتادة.

وصادف هذا الاتصال بين القديم والجديد هوى لدي محمد عبده الذي اقترح إنشاء مدرسة على غرار دار العلوم لتخريج قضاة للمحاكم الشرعية على مستوى أفضل. ولم يعيش محمد عبده حتى يشهد مدرسة القضاء الشرعي التي أنشأها ناظر المعارف سعد زغلول عام ١٩٠٧ بمساندة كرومر على الرغم من معارضة كل من عباس والأزهر، ونصب سعد زغلول ابن شقيقته محمد عاطف بركات مديراً لها، وعين بركات بها أساتذة أكفاء من دار العلوم والأزهر^(٣١).

وكان تسعة على الأقل من أساتذة الجامعة المؤقتين فيما بين ١٩٠٨ و ١٩٢٥ من خريجي دار العلوم^(٣٢)، خمسة منهم كانوا مدرسين بها عندما انتقلوا للعمل بالجامعة، وثلاثة يعملون بالتدريس في مدرسة القضاء الشرعي، وواحد في مدرسة البوليس. وقام حفنى ناصف - وهو المعلم، والقاضي، والأديب الذي يشغل موقعا ضمن مجلس الجامعة - بتدريس الأدب العربي لمدة عام بالجامعة إلا أن كثيرين غيره من "الدرعمين" (أبناء دار العلوم) لم يستمروا بها سوى مدة قصيرة. ولكن أربعة من هؤلاء "الدرعمين" عملوا بالجامعة لمدة خمس سنوات على الأقل، وهي فترة طويلة بما يكفي لإحداث تأثير حقيقى : رأفت إسماعيل في الجغرافيا والاثنوغرافيا، ومحمد المهدي في الأدب العربي، ومحمد الخضيرى وعبد الوهاب النجار في التاريخ الإسلامى^(٣٣).

ووسعت دار العلوم ومدرسة القضاء من شقة الخلاف بين المدافعين عن نمط التعليم العربي الإسلامى ونمط التعليم الأوروبى. فهاجم الأزهريون المدرستين على اعتبار أنهما تميعان التراث المقدس وتشوهانه، في حين قللت الجامعة من شأن دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي على أساس أنهما رجعتان. ويصف طه حسين، بدقة، صورة دار العلوم كما يراها الأزهر، ثم كما تراها الجامعة المصرية : "ولم ينس الفتى يوماً خاصم فيه ابن خالته الذي كان طالباً في دار العلوم ولج بينهما الخصام. فقال الدرعى للأزهري : 'ما أنت والعلم ! إنما أنت جاهل لا تعرف إلا النحو والفقه، لم تسمع قط درساً في تاريخ الفراعنة ! أسمعت قط اسم رمسيس أو أخناتون !' "^(٣٤). ولكن الفتى الآن "يرى نفسه ذات ليلة في غرفة من غرفات الجامعة يسمع الأستاذ أحمد كمال رحمه الله يتحدث عن الحضارة المصرية القديمة ... ويحاول أن يشرح للطلاب مذهبه في الصلة بين اللغة المصرية القديمة وبين اللغات السامية، ومنها اللغة العربية. ويستدل على ذلك بألفاظ من اللغة المصرية

القديمة يردها إلى العربية مرة وإلى العبرانية مرة وإلى السيريانية مرة أخرى".

"وهو يعود إلى بيته ذلك المساء وقد ملأه الكبر والغرور، ولا يكاد يلقي ابن خالته حتى يرفع كتفيه ساخراً منه ومن دار علومه تلك التي كان يستعلي بها عليه. وهو يسأل ابن خالته أتتعلّمون اللغات السامية في دار العلوم؟ فإذا أجابه بأن هذه اللغات لا تدرس في المدرسة أخذه التيه، وذكر العبرية والسيريانية ثم ذكر الهيروغليفية. وحاول أن يشرح لزميله كيف كان المصريين القدماء يكتبون".

مشكلة جورجى زيدان :

لم يكن الأساتذة المؤقتين - من المحليين - خريجي دار العلوم، فأحمد زكى متخرج من مدرسة الحقوق بالقاهرة، علم نفسه التاريخ الإسلامى^(٣٥)، كما تعلم جورجى زيدان التاريخ الإسلامى بجهد خاص منه أيضاً. ولكنه مع ذلك، لم يتمكن من تدريس مقرره أبداً، فقد ألغت الجامعة عقد توظيفه إبان اندلاع الفتنة بين المسلمين والمسيحيين^(٣٦).

وفي عام ١٨٦٨، أكتشف كاتب "الهلال"، الارثوذكسى الشرقى، علم الاستشراق في حجرة الاطلاع بالمتحف البريطانى. وسرعان ما بدأ ينظر إلى التاريخ العربى والإسلامى بعيون مستشرق. وشكا زيدان من أن المؤرخين العرب القدامى كانوا يطرحون وقائع منفصلة دون ربطها ببعضها. ودون بحث عن أسبابها المستترة. كما رفض أيضاً التاريخ الدعائى : "وتاريخ الأمة الحقيقى، إنما هو تاريخ تمدنها وحضارتها لا تاريخ حروبها وفتوحها، وخصوصاً على ما تعود مؤرخو العرب في تاريخ الإسلام"^(٣٧). واقتحم ميدان اللغات التي تتيح سبر أغوار الماضي، العبرية، والسريانية، واللاتينية بالإضافة إلى لغته الأصلية - العربية - واللغات التي يحتاجها لقراءة ما كتبه المستشرقون مثل الإنجليزية والألمانية والفرنسية. واستخدم معرفته في صياغة روايات تعليمية حول التاريخ الإسلامى، وفي كتابيه الطموحين : "تاريخ التمدن الإسلامى"، و"تاريخ آداب اللغة العربية"^(٣٨)، ولما كان جورجى زيدان فخوراً بأنه رعى فكرة إنشاء جامعة مصرية، فقد سرّ عندما تلقى الدعوة لإلقاء مجموعة من المحاضرات فيها حول التاريخ الإسلامى.

وفي أحد أيام أكتوبر ١٩١٠، وقبل بدء العام الدراسي، قرأ زيدان - بالصدفة - في جريدة "المؤيد" أن الجامعة قررت تعيين أستاذ آخر بدلاً منه، خشية معارضة المسلمين. وأكد مجلس الجامعة - الذي يضم بين أعضائه عالم المصريات الفرنسي "جاستن ماسبيرو"، ومحامياً إيطالياً، وقبطياً - خبر المؤيد، في حرج؛ حيث أعربوا عن احترامهم لخبرة زيدان، ولكنهم أوضحوا "أنهم يخشون مشاعر المسلمين العاديين غير المتعلمين" (٣٩) إذا تولى واحد من غير المسلمين تدريس التاريخ الإسلامي. فانسحب زيدان، مأخوذاً بالمفاجأة، ولم يتلق سوى مائة جنيه مصري تعويضاً عما كان أعده من محاضرات. وتتفسر مسئولو الجامعة الصعداء بعد أن أحالوا المقرر إلى "درعمي" مأمون، هو محمد الخضيرى.

وأسهم عامل التوقيت فيما أصاب زيدان؛ حيث شهد عام ١٩١٠ إطلاق الرصاص على رئيس الوزراء القبطي بطرس غالى، وإعدام قائله المسلم، والمجادلات على صفحات الصحف. وفي نفس العام تسبب "تيودور روزفلت" في إحراج مضيفيه في الجامعة المصرية، بخطبته التي أثنى فيها على الدور البريطاني في وادى النيل وهاجم الحركة الوطنية المصرية. فلم تكن الجامعة راغبة في المجازفة بحادث مدمر آخر.

وتكشف مطالعة كتاب زيدان "تاريخ التمدن الإسلامى" عن منهج ربما لا يجده بعض المسلمين مقبولاً؛ فمع أن زيدان يدافع عن إخلاص النبى محمد، وينكر أن الحضارة الإسلامية كانت مجرد حضارة مشتقة من بيزنطة وفارس، ويدعى أن الحضارات القديمة للهلال الخطيب حضارات عربية، إلا أن تفسيراته غير الدينية للفتوحات العربية قد لا توافق المتدينين الذين يعتبرون - على أحسن الافتراضات - أن الأسباب الدنيوية ليس لها علاقة بهذه الفتوحات، كما أنها - في أسوأ هذه الافتراضات - تنتقص من القدرة الإلهية (٤٠).

وبعد عامين من فصل زيدان، نشر "شبلى النعمانى" - وهو شيخ هندى - هجوماً مريراً عليه في جريدة المنار التي يصدرها محمد رشيد رضا. ومن الطريف، أن شبلى كان ينتمى إلى "أليجار"، المدرسة التي سبق أن أعلن كل من زيدان وكرومر أنها نموذج يحتذى. وكان رشيد رضا - وهو مهاجر سورى مثل زيدان - الساعد الأيمن لمحمد عبده. ولكن رضا - على العكس من أحمد لطفي، وقاسم أمين، وسعد زغلول - طور فكر محمد عبده في الاتجاه المحافظ، وأصبح المرشد الروحى للإخوان المسلمين. وأتهم النعمانى،

في مقاله الهجومي، زيدان بمعاداة العرب والإسلام، وبأنه لم يحجم عن الهجوم على النبي والخلفاء الأربعة الأوائل إلا لمجرد أنه لم يجرؤ على ذلك. كما اتهمه بالافتراء على الأسرة الأموية العربية، والدفاع عن العباسيين لأنه - بالضرورة - كان يعتقد أنهم ليسوا عرباً. وأتفق معه رشيد رضا في أن زيدان لم يكن مؤهلاً لكتابة التاريخ الإسلامي لأنه لم يدرس علوم الديانة الإسلامية^(٤١).

ومن بين مهاجمي زيدان أيضاً، مصطفى صادق الرافعي، وهو مثقف محافظ، ثقف نفسه ذاتياً، وأديب لم يكن يحمل سوى الشهادة الابتدائية. وفي إبريل عام ١٩٠٩ كتب الرافعي خطاباً إلى "الجريدة" تحدى فيه الجامعة المصرية أن تنشي مقررأ في "تاريخ أدب اللغة العربية" وإستجابت الجامعة بأن عرضت جائزة تمنح لمن يؤلف كتاباً دراسياً ملائماً، وفي عام ١٩١١. أنهى كل من زيدان والرافعي الجزء الأول من كتابه حول الأدب العربي، [وربما كانت الجامعة تحاول تقديم ترضية لزيدان حين منحته الجائزة] واعتمد زيدان أساليب المستشرقين، محلاً النصوص الأدبية على أسس تاريخية، ومحددا المراحل التاريخية للأدب عبر حقبة التاريخ السياسي. في حين أن كتاب الرافعي أقرب للمدرسة الفقهية القديمة في النقد الأدبي العربي، وهو يرفض التاريخ السياسي كمعيار لتحديد المراحل الأدبية. وزعم أيضاً أنه نظراً لأن القرآن المعجز يسيطر على الأدب الإسلامي وأنه يعلو عن النقد الأدبي، فليس من الممكن تحديده بمراحل زمنية على الإطلاق. ولم يتقدم مصطفى صادق الرافعي بكتابه إلى المسابقة من البداية، لأنه خمن أن المحكمين في الجامعة لن يتعاطفوا معه^(٤٢).

وشق على زيدان فصله من الجامعة، ورأى أن المصريين ينكرون عليه إدعاءه بأنه الذي تبني فكرة الجامعة. غير أن حسين مؤنس أعاد أخيراً، طباعة كتاب زيدان "تاريخ التمدن الإسلامي" في عام ١٩٦٨ وكتب مقدمة تشيد به، وأسماه "عمدة مؤرخي العرب على أيامه" ولكن دون أن يشير لدعوى زيدان بأنه أول من اقترح إنشاء الجامعة. كما تحاشى مؤنس أيضاً ذكر السبب في فصل زيدان، مكتفياً بالقول أن "ظروفاً منعتة" من التدريس^(٤٣).

ومات زيدان حانقاً عام ١٩١٤، ولم يتول تدريس التاريخ الإسلامي في الجامعة الأهلية بعده أي من غير المسلمين. ومع ذلك، تولى المستشرقون الأوروبيون تدريس مواد على نفس المستوى من الحساسية، منها مثلاً الفلسفة

الإسلامية والأدب العربي. ورغم أن العديد من المسلمين المهم دراسة تراثهم الخاص على أيدي أساتذة مسيحيين، إلا أن أوروبا كانت تتحدث لغة القوة، التي لا يستطيع أحد أن يتجاهلها. أما زيدان فلم يكن لديه سلاح يسانده، كما أن المسلمين المحافظين جعلوا من المستحيل على هذا الذمى - الذي لم يكن مراعيًا تمامًا لمشاعرهم رغم حرصه - تدريس مادة قريبة للغاية من قلوبهم..

الأساتذة الأوروبيون والقوى الاستعمارية المتصارعة :

مثلت أوروبا المصدر الثاني للأساتذة المؤقتين وينقسم هؤلاء الأساتذة الأوروبيين إلى فئتين : أولئك الذين يحاضرون بالفرنسية أو الإنجليزية في الموضوعات التي لا تتعلق بالشرق الأوسط، ثم المستشرقين الذين يحاضرون بالعربية في الموضوعات العربية والإسلامية. وسعت فرنسا وإيطاليا وإنجلترا، ثم ألمانيا - بدرجة أقل - للسيطرة على الجامعة الأهلية. وفقدت المجر النمساوية فرصتها عندما رفض "اجناز جولدزيهر" الدعوة التي وجهها له فؤاد للتدريس بالجامعة. ورفض ذلك أيضاً الهولندي "سناوك هو جرونج" الذي عمل لدى الشركة الهولندية للهند الشرقية لمدة سبعة عشر عاماً. وكان هر جرونج عالماً متميزاً، إلا أن فؤاد لم يكن بالتأكد يدرك عداؤه للإسلام^(٤٤).

وفي السنوات التي شهدت سعى الجامعة لتدبير أساتذتها، كانت الإمبريالية الغربية تقترب من ذروتها. وكان النفوذ الثقافي جزءاً متماً لباقي أجزاء اللعبة، فأنجلترا تحتل بالفعل مصر، والسودان، وقبرص، وأطراف الجزيرة العربية، وهي بسبيلها لضم العراق وفلسطين ومنطقة نهر الأردن. وثبتت فرنسا أقدامها في الجزائر وتونس، وتقاسمت مراكش مع أسبانيا عام ١٩١٢، وسوف تضيف إليها لبنان وسوريا عقب الحرب العالمية الأولى. وأصبح لإيطاليا موطئ قدم في كل من إريتريا، وأرض الصومال، وهي على وشك الاستيلاء على ليبيا، فضلاً عما لألمانيا من طموحات ونفوذ في قلب الأراضي التركية.

وبالنسبة لمصر، حازت إنجلترا على السيطرة السياسية والعسكرية والغلبة الاقتصادية؛ ففي عام ١٩٠٩ استولت على ٥٠% من صادرات مصر وأمدتها بما يوز أي ٣٠%^(٤٥) من وارداتها، وبلغ عدد رعايا بريطانيا في مصر حوالي عشرين ألف و ٦٥٣ بريطانيًا، بما يفوق عدد الفرنسيين، وهو

١٤ ألفاً و ٥٩١^(٤٦). ومع ذلك لم تتسحب الهيمنة البريطانية تلقائياً على الثقافة، فبسبب كراهية كرومر سارت الأمور في الجامعة على غير ما تبغى إنجلترا. كما لم يعمل جروست بدأب على تعزيز المصالح الثقافية الإنجليزية. ولم يكن الأمير فؤاد رئيس الجامعة يتحدث الإنجليزية، كما لم يشعر بأي ميل ثقافي نحو إنجلترا؛ وكان أستاذ الأدب الفرنسي "ألبير بوفيليه"، وليس نظيره الإنجليزي، هو الذي يتحدث باسم الأجانب في احتفالات الافتتاح عام ١٩٠٨^(٤٧).

وضع مجلس الجامعة أستاذاً إيطالياً وآخر فرنسياً، ولم ينضم إليها "شلدون أموس" الإنجليزي، مدير المدرسة العامة للحقوق، إلا عام ١٩١٣ بعد أن حل اللورد كتشنر المغامر محل جروست. ومع ذلك، توضح محاضر جلسات المجلس أن أموس لم يحضر الاجتماعات إلا نادراً بعكس نظيره الفرنسي. وعاد كتشنر إلى اتباع أسلوب كرومر الملتوي في الحط من شأن الجامعة: "أن نواة جامعة حقيقة توجد على نحو لا يمكن إنكاره، مع ضم المدارس العليا للحقوق، والطب، والهندسة، والزراعة والتسويق بينها. والجامعة الحالية تكاد ألا تكون بالمستوى الذي يضطلع بتنفيذ مشروع موسع يضم كليات لفروع المعرفة السابقة، التي يبدو إنشاء نظام جامعي حقيقي على أسس متقدمة مستحيلاً بدونها"^(٤٨).

وعلى مدى عمر الجامعة الأهلية لم يتول الإنجليز سوى منصب جامعي واحد هو منصب أستاذ الأدب الإنجليزي - بيرس وايت، الوحيد الذي شغل المنصب لما يزيد عن عام أو عامين - وهو روائي وشاعر أصبح منسياً الآن، وصل إلى البلاد عام ١٩١١، وعمل بالتدريس حتى العشرينيات، ماعدا فترة انقطاع دامت ثلاث سنوات أثناء الحرب^(٤٩).

ومع بقاء بريطانيا في المؤخرة، أصبحت فرنسا وإيطاليا المتنافسين الرئيسيين على النفوذ الثقافي في الجامعة. وربما تبدو تلك مباراة غير متكافئة، رغم أن الإيطاليين (في مصر عام ١٩٠٧) تفوقوا عددياً على الفرنسيين بشكل كبير، حيث بلغ عددهم ٣٤ ألفاً و ٩٢٦ - كثيرون منهم حرفيون وميكانيكيون مهرة - فقد كان تفوق إيطاليا عصر النهضة قد خبا منذ زمن بعيد، كما كانت وهي البلاد حديث العهد بالوحدة، تأتي في الترتيب السادس بين القوى الأوروبية، ولا تكاد تملك ما تعزز به طموحاتها الإمبريالية، سوى موطئ قدم قليل القيمة في كل من إريتريا والصومال، ومحاولة رعناء لاحتلال أثيوبيا.

وكانت الإيطالية لغة شائعة للتخاطب في موانئ البحر المتوسط، فضلاً عن أنها اللغة الرئيسية التي استخدمتها مصر في معاملاتها الدبلوماسية الخارجية إبان عصر محمد علي، الذي عمل لديه عدد كبير من المستشارين الإيطاليين، حتى أن الإيطاليين هم أول من تولى إدارة مصلحة البريد المصرية. ولكن محمد علي اختار أقوى البلاد، وهي فرنسا، لتصبح البلد الرئيسي الذي يستقبل بعثاته التعليمية؛ وفي السبعينيات من القرن التاسع عشر تراجع النفوذ الثقافي الإيطالي أمام التحدي الفرنسي، وحلت الفرنسية محل الإيطالية كلغة أوروبية على طوابع البريد المصرية.

ولكن الأمير فؤاد نشأ في إيطاليا، وبمساندته استطاع الإيطاليون الصمود في أول عهد الجامعة. وأنضم المحامي الإيطالي "أوجو لوزينا" بك إلى المجلس^(٥٠). ومع وجود فيكتور عمانويل الثالث صديق فؤاد، على العرش، ضمنت الجامعة مساندة إيطاليا الرسمية بسهولة. ولم تكن الجامعة تقدم مقررًا في الأدب الإيطالي لينافس مقررى الأدب الإنجليزي والأدب الفرنسي، إلا أن إيطاليا قدمت مستشرقين بدلاً من ذلك. فحاضر "اجنازيو جويدي" و"كارلو نالينو" و"ديفيد سانتيلنا" في الموضوعات العربية والإسلامية باللغة العربية^(٥١). وتولى "جيراردو ميلوني" تدريس الحضارة القديمة في الشرق الأدنى. واحتج "جاستن ماسبيرو" المدير الفرنسي لمصلحة الآثار المصرية وعضو مجلس الجامعة، على استخدام فؤاد للعديد من الإيطاليين قائلاً: "وماذا عن الاتفاق الضمني الذي يقضى بأن تكون الوظائف المصرية - وحتى الثانوية منها - التي يشغلها أجانب، متكافئة وفقاً للجنسية؟" فرد فؤاد على ذلك قائلاً في مراوغة: "كانت القضية هي العلم وليس السياسة، فضلاً عن أن إيطاليا وافقت على دفع مرتبات الأساتذة الذين ترسلهم لمصر"^(٥٢).

وتبرعت الحكومة الإيطالية بحوالي خمسمائة مرجع للجامعة، كما أرسلت د. "فينسنزو فاجو" من جامعة روما لتنظيم وإدارة المكتبة^(٥٣). وتبرعت حكومات أوروبية وجمعيات ثقافية أخرى بالكتب، وفعل ذلك أفراد عديدون، أوروبيون ومصريون. ثم فتحت المكتبة للطلاب عام ١٩١٠، ولكن عملية تصنيف كتبها تأخرت كثيراً. وإبان الحرب العالمية الأولى، اقترح لطفي السيد أن يتم التصنيف وفقاً لفهرسة دار الكتب القومية التي كان مديراً لها في ذلك الوقت^(٥٤). ثم أسفر الاحتلال الإيطالي لليبيا عام ١٩١١ عن انهيار الصداقة الإيطالية الناشئة مع الجامعة، وعزف الطلاب عن دروس "نالينو" احتجاجاً. غير أن طالبا قال للصحافة إن "نالينو" يجب أن يبقى "لأن العلم

ليس له وطن" ومع ذلك، لم تجدد الجامعة عقدها معه^(٥٥)، ولم يستطع فؤاد إعادة الإيطاليين إلى أن افتتحت الجامعة العامة.

وكان فؤاد مغرمًا بالإيطالية في أول الأمر، ولكنه أحب الفرنسية، أيضاً، كما كان لفرنسا نفوذها في مصر منذ احتلال نابليون لها الذي دام فترة قصيرة قبل قرن من الزمان^(٥٦). وحظى رأس المال الفرنسي، وكذلك رجال الأعمال الفرنسيون، بتواجد قوى في السوق المصرفية المصرية، وفي شركة قناة السويس، وشركة ضخمة أيضاً للرهن العقاري بالإضافة إلى مشروعات استثمارية أخرى. وبلغ عدد رعايا فرنسا في مصر حوالي ١٤ ألفاً و ٥٩١ فرنسياً وفقاً للإحصاء الرسمي لعام ١٩٠٧، يقيم ثلاثة أرباعهم في القاهرة والإسكندرية.

وبعد الاحتلال البريطاني تراجعت فرنسا إلى مركز الدفاع داخل مصر؛ فحلت اللغة الإنجليزية محل الفرنسية في المدارس العامة، تدريجياً وعلى نحو مطرد، ثم أصبحت الإنجليزية في عام ١٩١٤ هي اللغة الأوروبية التي تطبع على طوابع البريد المصرية بدلاً من الفرنسية التي احتفظت بمكانتها في المحاكم المختلطة، وفي مصلحة الآثار، والمدارس الفرنسية الخاصة (ومن بينها مدرسة للحقوق)، بالإضافة إلى مجتمع الأوساط الراقية المصرية. كما احتفظ المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة بالعلم الفرنسي مرفراً فوق مبناه وظل "جاستن" ماسبيرو" يدافع في مجلس الجامعة عن المصالح الفرنسية حتى عام ١٩١٤، عندما أحالته مصلحة الآثار إلى التقاعد، فأقامت الجامعة حفل وداع تكريماً له، وأختارت "جورج فوكار" مدير المعهد الفرنسي خلفاً له^(٥٧).

وتوالى العديد من الأساتذة الفرنسيين على شغل منصب أستاذ الأدب الفرنسي فشغله "لوي كليمان" - الذي كان أستاذاً بجامعة ليل - عام ١٩١٢ وظل يشغله حتى العشرينيات، ماعدا فترة إنقطاع قصيرة أثناء الحرب^(٥٨). وتولى الفرنسيون تدريس الاقتصاد السياسي لعدة سنوات، كما رأت فرنسا فرنسية قسم الطالبات الذي استمر لفترة قصيرة، وهو ما سنبحثه في الفصل الثالث. وبلغ التمثيل الفرنسي في هيئة التدريس دورته في العام الدراسي ١٩١٢ - ١٩١٣ عندما وصل المستشرقان الشابان "لوي ماسنيون" و"جاستن فيت" ليحلا محل الإيطاليين المبعدين^(٥٩)؛ فشمّل مجموع هيئة التدريس في ذلك العام أربعة من الفرنسيين، وأربعة مصريين، وإنجليزياً واحداً. وفي هذه المرة قضى ماسنيون وفيت عاماً واحداً فقط بمصر، كان كافياً لتكوين

علاقات مصرية متينة. ثم عاد فيت تحت إصرار فؤاد - ليرأس متحف الفن العربي منذ ١٩٢٦ وحتى ١٩٥١، وأصبح ماسنيون عضواً بمجمع اللغة العربية في مصر، وتولى إلقاء المحاضرات في الجامعة مرة ثانية، ولكن لمدة قصيرة. ومع ذلك، كان أستاذ الأدب الفرنسي هو الفرنسي الوحيد الذي غادر البلاد أثناء الحرب العالمية الأولى، في حين كان المستشرقون الذين تولوا تدريس الفلسفة من الاسبان، وليس الفرنسيين^(٦٠). وعندما أفتتحت الجامعة العامة، اضطر الملك فؤاد إلى العمل على إعادة الفرنسيين، مثلما فعل بالنسبة للإيطاليين.

أما ألمانيا، ورغم اهتمامها برعاية مصالحها في قلب الإمبراطورية العثمانية بدلاً من مصر. إلا أنها قررت أن تجعل إدارة دار الكتب القومية المصرية حكراً عليها؛ فتعاقب على إدارة الدار منذ إنشائها عام ١٨٧٠، وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى، خمسة مستشرقين ألمان (د. شتيرن، وف. سبيتا، وك. فولرز، وب. مورتييز، ثم أ. سكاد) ثم عزل البريطانيون الأخير "آرثر سكاد" باعتباره عميلاً للأعداء، الأمر الذي أفسح الطريق - بالصدفة - لكي يخلفه لطفي السيد في المنصب. ومنذ ذلك الحين تولى المصريون إدارة دار الكتب.

ومن بين المشروعات الاقتصادية المتواضعة لألمانيا في مصر، هناك "دويتش أورينت بنك" الذي أفتتح فرعاً بالقاهرة عام ١٩٠٦، ومن موظفيه حسن سعيد، الذي عمل أميناً للصندوق بالجامعة الأهلية طوال عهدها. وكان سعر الفائدة في البنك تنافسياً، بالإضافة إلى أن الجامعة فضلتها أيضاً على البنوك البريطانية، مدفوعة بالاعتبارات الوطنية، خاصة وأن البنوك المصرية لم تكن أنشئت بعد. وعندما اندلعت الحرب، حجزت الحكومة على "دويتش أورينت بنك" فاضطرت الجامعة إلى تحويل ودائعها منه^(٦١).

وفيما عدا دار الكتب القومية، ظل النفوذ الثقافي الألماني في مصر ضعيفاً، ولم يتأثر المصريون - عند إنشاء جامعتهم - بالنموذج الألماني الشهير للجامعة ذات المعامل وحلقات البحث، اللهم إلا على نحو غير مباشر، في حين تمتعت ألمانيا بنفوذ أقوى في استانبول، حتى أن علاقة فؤاد بالنخبة العثمانية القديمة، هي التي مكنته من العمل ملحقاً بسفارة مصر في فيينا، ومن ثم معرفته باللغة الألمانية. وكان عدد المصريين الذين يجيدون الفرنسية أو الإيطالية، أو الإنجليزية أكثر كثيراً ممن يجيدون الألمانية، ولم ترسل الجامعة الأهلية إلى ألمانيا سوى ثلاثة من طلاب بعثاتها^(٦٢). كما كان أينو

ليتمان - الذي تولى تدريس اللغات والأدب السامية المقارنة فيما بين ١٩١٠ - ١٩١٢ - هو الألماني الوحيد بالجامعة الأهلية^(٦٤). إلا أن الألمان تمتعوا بمكانة أفضل في الفترة ما بين الحربين العالميتين. فعاد "ليتمان" مرتين إلى مصر كأستاذ زائر. كما حضر عدد آخر من الألمان المستشرقين للتدريس بالجامعة.

وكشفت فترة الحرب عن الروابط بين الاستشراق والاستعمار؛ حيث ساعد معظم المستشرقين الذين تولوا التدريس بالجامعة المصرية، بلدانهم الأصلية في محاربة المسلمين أو السيطرة عليهم. فإذا بالاحتلال الإيطالي لليبيا، الذي كلف "ناليانو" وظيفته بالجامعة المصرية، يعوضه عنها بمهمة أخرى، وهي بحث الوثائق التركية التي تم الاستيلاء عليها، وإنشاء مكتب للترجمة بالبلد المحتل الجديد. كما خدم فيت بالجيش الفرنسي إبان الحرب العالمية الأولى، وعمل مترجماً "لجورج بيكو" الذي حدد مطالب فرنسا في الأسلاب العثمانية، ضمن إتفاقية "سايكس - بيكو"، كما عمل "ماسينيون" مترجماً للفرنسيين في الدردنيل، ومقدونيا، وفلسطين. وعمل أيضاً ضمن اللجنة المكلفة بالاستيلاء على الأراضي التي منحتها إتفاقية سايكس - بيكو لفرنسا، ثم شهد شهر نوفمبر ١٩٢٠ في مهمة رسمية إلى دمشق؛ إثر استيلاء فرنسا عليها من حكومة فيصل العربية. وبعد ثلاث سنوات، قبل ماسينيون دعوة مارشال ليوتي - المندوب السامي الفرنسي الذي كان يسعى لإخضاع مراكش تدريجياً - للتفتيش على المعاهد المشتركة في "فاس".

ونقلت الحرب العالمية الأولى، الكابتن "كروزويل" من سلاح الطيران الملكي البريطاني إلى مصر، حيث عمل أستاذاً للعمارة الإسلامية بالجامعة المصرية لمدة عشرين عاماً منذ ١٩٣١^(٦٥). وكان على درجة شديدة الغرابة من الإزدراء للوطنية المصرية، علاوة على نزعه الاستعمارية المتطرفة، كما سترى فيما بعد. ومن بين الألمان، عمل "سكاد" ومستشرق آخر - كان الإنجليز قد رفضوا تعيينه بدار الكتب - مستشارين للضباط الألمان الملحقين بالقوات العثمانية في سيناء، وفلسطين، وسوريا^(٦٦)؛ وكانا بالفعل يساعدان العثمانيين المسلمين ضد البريطانيين، لكن الأمر المؤكد أن النزعة الوطنية الألمانية كانت دافعهما وراء ذلك.

وهكذا، لم يحذ أحد من المستشرقين الذين دعوا للتدريس بالجامعة حذو أي من : "ويلفرد سكاون بلنت"، العدو اللدود للاحتلال البريطاني لمصر، أو الأمير "كايتاني"، الذي خسر مقعده في البرلمان الإيطالي لمعارضته غزو

إيطاليا لليبيا، أو البعض الذي أعتق الإسلام من المستشرقين. وإنما قام كل من : نالينو، وفيت، وماسنيون، وكريزويل، وسناوك - هرجرونج، بمعاونة حكوماتهم على محاربة المسلمين أو السيطرة عليهم.

وكان المستشرقون بجامعة القاهرة وطنيين، في عصر كانت الوطنية الأوروبية تقترن عادة بالإمبريالية. وعلى أية حال، لم تكن توجهات هؤلاء المستشرقين لتثير دهشة العالم السورى "محمد كرد على"، الذي رأس فيما بعد مجمع اللغة العربية في دمشق، حيث قال : "إننا، نحن المسلمين نعمل لمصلحة بلدنا وديننا، فلماذا أذن نتوقع خلاف ذلك من المستشرقين؟" (٦٧).

زيارة تيودور روزفلت :

لم يلعب الأمريكيون أي دور في إنشاء الجامعة المصرية أو التدريب فيها، إلا أن المصريين لم ينسوا أبداً الكلمة التي ألقاها الرئيس الأمريكي الأسبق روزفلت بمقرها في مارس ١٩١٠. [ولم تكن الولايات المتحدة بريئة، كما لم يكن الرئيس روزفلت كذلك، عندما بدأ عصر الاستعمار، وغاية ما هناك، أن أمريكا لم يكن لها أطماع في الشرق الأوسط حينذاك] وظل روزفلت، في طريق عودته من رحلة صيد في شرق أفريقيا، يطنب في مدح الخدمات التعليمية والصحية التي تقوم بها إرساليات الكنيسة البروتستانتية الأمريكية الموحدة في السودان ومصر. وظلت صحف القاهرة لعدة أسابيع مهتمة بإبراز أنباء الزيارة المتوقعة "للرجل الرياضى الذي يفيض حيوية". ولكن بعض الصحف العربية استاءت من ثنائه على الحكم البريطاني، وهجومه على الحركة الوطنية المصرية (٦٨).

ولم يكن هناك توقيت أسوأ من الذي حضر فيه روزفلت إلى مصر، حيث فشل تعاون "جورست" مع الخديو في إخماد الحركة الوطنية المصرية، كما كان اغتيال بطرس غالى قد وقع لتوه، والوطنيون يطالبون بالدستور والاستقلال. وطلبت الجامعة المصرية من الرئيس السابق أن يتقبل منحها إياه الدكتوراة الفخرية؛ فإذا بالكلمة التي ألقاها من فوق منصتها تذهل مستمعيه، حيث أدان فيها اغتيال غالى كما أدان أولئك الذين ربما حرضوا على القتل بالقول أو بالفعل. وتغنى بمدح الحكم البريطاني، وحذر قائلاً "إنك لا تستطيع أن تجعل من الشخص متعلماً حقاً بإعطائه مقررأ دراسياً معيناً، كما أنك لن تجعل شعباً يصلح لحكم نفسه بإعطائه دستوراً من ورق. فتدريب شخص إلى أن يصبح مؤهلاً للقيام بعمل صالح في الدنيا مسألة تقاس بالسنوات، كما أن

تدريب أمة حتى تتمكن من الاضطلاع بمهام الحكم الذاتي ليست مسألة عقد أو عقدين من الزمان وإنما هي تستغرق أجيالاً ... واعتقد أن جامعتكم سوف تضطلع بجانب هام في هذه العملية الطويلة، بل والمضجرة، إلا أنها ضرورية تماماً" (٦٩).

وعقب ذلك، فاجأ مستمعيه بحكمة عربية قائلًا : "سمعت في السودان حكمة شعبية مأخوذة عن إحدى آيات القرآن الكريم، وهي حكمة شديدة الدقة، حتى أنه يتعين على أن أرددها، رغم أنني لست عليمًا بالعربية " أن الله مع الصابرين إذا صبروا" (فهل سمع المصريون من قبل رسالة التأجيل غير محدودة المدة هذه ؟) أن روزفلت كان كرومرياً أكثر من كرومر نفسه (٧٠)، الذي تحمس روزفلت للاستشهاد بكتابه "مصر الحديثة"، فتجمعت المظاهرات خارج مقر إقامة روزفلت بفندق شبرد، وثارت الصحف العربية، بل أن لطفي السيد ألقى خطبة يرد فيها عليه، متعجباً - بأسلوبه الرزين المألوف - مما إذا كان روزفلت يعلم أن البريطانيين حاولوا من قبل عرقلة إنشاء الجامعة نفسها التي كان يتحدث فيها (٧١).

وأشاع مجلس الجامعة الذي أصابه الارتباك، رواية ضعيفة ليغطي بها موقفه، فحواها (٧٢) : أن الملك فؤاد كان قد ذهب إلى شبرد ليتأكد من أن الخطبة ستكون لائقة، وأن روزفلت تلا عليه نصها، ولكنه ما كاد يصل إلى ملاحظاته حول الدستور، حتى دخلت السيدة روزفلت وابنتها تستعجلانه. فطمأن روزفلت فؤاد إلى أن بقية النص مماثلة لما سمعه، ثم انطلق في نزهة عائلية. فهل كان لدى الرجل المحنك، أفكار أخرى أثناء إبحاره إلى إنجلترا ؟ حين قال : "إن خطبتي تلك في القاهرة كانت حركة بارعة. كان ينبغي أن ترى الوجوه المضطربة الشاحبة عندما أنهلت عليهم تقريراً. كانوا يتوقعون الحلوى، ولكنني أعطيتهم العصا الكبيرة. فارتبكوا. سيدى.. لقد ارتبكوا!" (٧٣).

الموامش

١- عن علاقة عباس بالجامعة أنظر شفيق "مذكراتي" الجزء الثاني ص- ص- ١٠٦ - ١١١. أنظر أيضا "مذكرات الخديو عباس الثاني"، المصري. ٩ يونيو ١٩٥١ ص- ٦، و : Mayer Abbas, pp. 169-73 ويزعم "ماير" (ص- ١٨ - ٢٠) ان مذكرات عباس المنشورة في "المصري" غير حقيقية. وعلى أية حال فهي لا تضيف شيئا ذا أهمية عن موضوع الجامعة. ويصف كرومر علاقاته بالخديو في كتابه Abbas II (London 1915m)

٢- الجامعة المصرية القديمة ص- ٢٨.

٣- عن السيرة الذاتية لفؤاد :

- Rpberto Canttitalupo, Fuad primo Re d'Egitto (Milan, 1940).

و :

- Sirdar Ikbal Ali shah, fuad : King of Egypt, (London, 1936).

وعن أنشطته الثقافية أنظر : كريم ثابت : "الملك فؤاد ملك النهضة" القاهرة ١٩٤٤ وبدير.

وهناك صور وصفية قصيرة عن فؤاد من بينها :

- Emine Foat Tugay, three Centuries : Family Chronicles of Turkey and - J. jomier, "Fuad al - Awwal",

و :

The Encyclopaedia of Islam, 2 : 935,

و :

- Jaques Beruque, Egypt : Imperialism and Revolution (New York, 1972) pp. 277 - 79.

و :

- Afaf Lutfi Al - sayyid - Marsot, Egypt's Liberal Experiment : 1922- 1036 (Berkeley, California, 1977) pp. 59-60.

-٤

- N.W Senior, Conversations and Journals in Egypt and Malta (London 1882), 2 : 176-77.

نقل عنه

J.heyworth – Dunne, An introduction to the History of Education in modern Egypt (London 1939), p. 184.

٥- حول عدم رضا فؤاد عن لغته العربية، أنظر

٦-

Beroque, Egypt, p. 2778.

٧- بدير ص- ٤٦.

٨- بدير ص- ٢٢.

٩-

The Times, October 30, 1960, p.5.

١٠- المرجع السابق ١ مايو ١٩٠٨ ص- ٩.

١١- ملفات جامعة القاهرة صندوق ١ / ملف ١ تقرير اللجنة الفنية ٢٨ أبريل ١٩٠٨ قارن بدير ص- ٢٨٥.

١٢- أنظر القوائم في ملفات جامعة القاهرة إطار ١ ملف ١٢٤ تقرير مجلس إدارة الجامعة، ٢٤ مايو ١٩٠٨. وبدير ص- ص- ٢٣ - ٢٤، ٦١.

١٣- أنظر القوائم في بدير ص- ص- ٧، ٣٢ - ٢٤، ٧١.

١٤- بدير ص- ٢٦، وهم : سليمان بستاني، جبرائيل بك حداد، وحبيب بك فرعون.

١٥- بدير ص- ٥٢١.

١٦- بدير ص- ٢٥١.

١٧- بدير ص- ٢٥١. وحول المساعدات القبطية والمساعدات الأخرى من غير المسلمين أنظر أيضاً سامية حسن إبراهيم "الجامعة الأهلية..." ص- ص- ٣٤ - ٣٦.

١٨- بدير ص- ٩.

١٩- مذكرات سعد زغلول غير المنشورة - الكراسة التاسعة - ص- ٤٢٢ كما نقلت في : عبد المنعم الدسوقي "الجامعة المصرية القديمة" الجزء الأول ص- ٣٥ - ٣٦، وفي المقتطف ٣٤ العدد ١ (فبراير ١٩٠٩) : ١٤١ - ١٤٥ نص خطابه.

٢٠- بدير ص ٩.

٢١- د. علوى باشا في خطاب تكريم أحد كبار المساهمين أبريل ١٩٠٨ بدير ص- ٣٣.

٢٢- العبارة لبدير ص- ٤٨.

٢٣- هذا الاستشهاد والاستشهاد التالي من خطبة ألقاها قاسم أمين في أبريل ١٩٠٨، قبل وفاته بأيام قلائل. بدير ٣٦.

٢٤- البيان الرسمي عن سياسة لجنة الجامعة، مايو ١٩٠٨. وبدير ص- ص- ٥٤ - ٥٥.

٢٥- "العلم لمجرد العلم"، "التعلم للعلم" و"العلم حبا للعلم" بدير ص- ص- ١، ٣٧، ٥٤.

- ٢٦- زيدان، الهلال ١٦، العدد ٩ (أول يونيو ١٩٠٨).
- ٢٧- تعكس هذه الفقرة أطروحة
- Charles D. smith, Islam and the search for Social Order in modern Egypt : A Biography of Muhammad Husayn haykal (Albany, new York, 1983)
- وعن موقف لطفي أنظر
Wendell, Evolution, pp 285 – 85.
- ٢٨- بدير ص- ص- ١٢٧ - ١٢٨، ١٣٢، ١٥٢ وفي أماكن متفرقة من الكتاب.
- ٢٩- وردت في
- Peter Mellini, Sir Eldon Gorst : the Overshaddowed Proconsul (Stanford, California, 1977).
- ٣٠- الشيخ مصطفى الغياثي : ملفات جامعة القاهرة ٣٣ / ١٣٣ تقرير مجلس إدارة ١١ ديسمبر ١٩١٧. وردت ملحوظة للتعريف في خير الدين الزيريكلي "الجامعة - العلم" (٨ أجزاء، بيروت ١٩٨٠) الجزء السابع ص- ٢٣٠. وعن آرائه السياسية، أنظر :
- Marius Deeb, Party Politics in Egypt : The Wafd and Its Rivals 1919 – 1939 (London 1979), pp. 58, 70, 102, n. 162 and 109, n. 253.
- ٣١- حول دار العلوم أنظر : محمد عبد الجواد "تقويم دار العلوم" (القاهرة ١٩٥٢).
- و :
- Lois A. Aroian, The Nationalization of Arabic and Islamic Education in Egypt :Dar Al – ulum and Al – Azhar. (Cairo papers in Social Science), Vol. 6, monograph 4. December 1983, ولمؤلفة المرجع السابق رسالة دكتوراه أشمل غير منشورة بعنوان :
- Education, Languge and Culture in Modern Egypt : Dar Al – Ulum and Its Graduates (1872 – 1923) – (University of Michigan, 1978).
- ومنذ عام ١٩٠٠ حتى عام ١٩٢٠ عندما عادت إلى اسمها الأصلي، كانت دار العلوم تعرف باسم مدرسة المعلمين الناصرية. وحول مدرسة القضاء الشرعي أنظر عبد المنعم الدسوقي الجميعة، مدرسة القضاء الشرعي : دراسة تاريخية لمؤسسة تعليمية ١٩٠٧ - ١٩٣٠ (القاهرة ١٩٨٦).
- ٣٢- أحمد صالح، وحفنى ناصف، ورفعت إسماعيل، ومحمد سلطان، وطنطاوى جوهري من دار العلوم، ومحمد فهمي، ومحمد المهدي ومحمد الخضرى من مدرسة القضاء الشرعي وعبد الوهاب النجار من مدرسة الشرطة.
- ٣٣- حول ناصف، أنظر محمود غنيم "حفنى ناصف" (القاهرة - بدون تاريخ) و Adams, Islam p. 212. وعبد الجواد "دار العلوم ... ص ٢٤١ - ٢٤٣ وعن النجار أنظر الزيريكلي، العلم - الجزء الرابع ص ١٨٢ - ١٩٨٣ وسوف يشار إلى الخضرى والمهدي والجواهرى فيما بعد.

- ٣٤- هذا الاستشهاد وما تلاه من الأيام الجزء الثالث ص ٣٣.
- ٣٥- أنظر سيرته الذاتية في : أنور الجندي، "أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة"، (القاهرة ١٩٦٣).
- ٣٦- مصادر هذه القضية هي : ملفات جامعة القاهرة ٢ / ١٢٦ تقرير مجلس إدارة الجامعة ٨، ١٠، ١٢ نوفمبر ١٩١٠، وكذلك رواية زيدان في : الهلال ١٩ (ديسمبر ١٩١٠) : ١٧٧ - ١٨١ وخطابه إلى ابنه "إميل" في ١٢ أكتوبر ١٩١٠ وهو مترجم في : Philipp, Zaidan, p 212 . أنظر أيضاً تحليل فيليب ص- ٦١ - ٦٥.

و :

- Donald Malcolm Reid, "Cairo University and the Orientalists, "International journal of Middle East Studies 19 (1987) : 62 -- 64.

- ٣٧- جورج زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي (القاهرة ١٩٦٨) الجزء الأول ص- ١٢، معاد طبعه عن طبعة ١٩٠٢ - ١٩٠٦.
- ٣٨- المرجع السابق وتاريخ آداب اللغة العربية [٤ أجزاء، القاهرة (١٩١٠ - ١٩١٤) وقد أعيد طبعه مع مقدمة بقلم شوقي ضيف في الستينيات].
- ٣٩- خطاب زيدان ١٢ أكتوبر ١٩١٠، و Philipp, Zaidan p. 212 ويشير نفس الكتاب في ص- ٢٣٦ إلى وجود مخطوط بملفات الجامعة الأمريكية في بيروت بعنوان "مصر العثمانية" كان زيدان قد أعده لما كان سيلقيه من محاضرات في الجامعة المصرية.
- ٤٠- التحليل التالي يعتمد على كتاب زيدان، تاريخ التمدن ... "الجزء الأول ص- ٢١ - ٢٩.
- ٤١- المنار ١٥ (٢ يناير ١٩١٢) : ٥٨ - ٦٧. وأعاد المنار طبعه مع بعض المراجعات بعنوان "كتاب إنتقاد تاريخ التمدن الإسلامي (القاهرة ١٩١٢) وفي أنور الجندي "الإسلام والثقافة العربية في مواجهة تهديد الاستعمار وشبهات التغريب (القاهرة - غير مؤرخ). وصدر العديد من الكتابات عن رشيد رضا، أنظر على سبيل المثال :

- H. kerr, Islamic Reform : The Political and Legal Theories of Muhammad Abduh and Rashid Rida (Berkeley, California, 1966).

- ٤٢

- Mattityahu Peled, "the controversy over Concepts of Arabic literary History," Asian and African Studies 10, no. 1 (1974) : 1 - 23, وسامية حسن إبراهيم الجامعة الأهلية ... ص- ٩٠. وعن الرافي أنظر محمد رضا كحالة، معجم المؤلفين (بيروت - غير مؤرخ) الجزء ١١ ص- ٢٥٦ - ٢٥٨.
- ٤٣- مقدمة حسين مؤنس لكتاب زيدان "تاريخ التمدن ... "الجزء الأول ص- ٨، ١٠.

٤٤- بدير ص- ١٠٥ - ١٠٦، وحتى زيدان المعجب بالمستشرقين علق على سعي "هرجرونج". لإيجاد خطأ في الإسلام - زيدان "آداب اللغة العربية" - الجزء الرابع ص- ١٥٨. ويوافقه على ذلك

- G.H.Jansen, Millitant Islam (New York, 1979), pp. 77-81.

ولكن لاحظ وجهة النظر المختلفة في

- Harry J. Benda, "Snouck Hurgronje," International Encyclopedia of the Social Sciences 14 : 340 - 42

الذي يظهره كمدافع عن الإندونيسيين ضد المستعمرين الهولنديين المتشددين. أنظر أيضا

- Jean - Jacques waardenburg L'Islam dans le miroir de L'occident (paris, 1963), pp. 18-27.

ويعتمد هذا الفصل على

- Reid "Cairo University," IIMES 19 (1987) : 56 - 62.

-٤٥

- Tignor, State, Appendix, Table A. 11

٤٦- المرجع السابق، ويظهر الجدول ١ - أ الإحصائيات عن الجاليات البريطانية والفرنسية والإيطالية واليونانية.

٤٧- بدير ص- ٧٤٣.

-٤٨

- (Kitchener), Reports, 1911 p.

٤٩- أنظر بدير خاصة ص- ١٣٠.

-٥٠.

- Vincenzo fago, "L 'Universita Egiziana di Cairo" Nuova Antologia (Rome), November 1, 1909, p. 10.

وعن الأنشطة الإيطالية عموماً في مصر أنظر

Angelo Samarco, Gli Italiani in Egitto : IL contributo italiaano nella formazione dell'egitto moderno (Alexandria, 1937).

٥١- عن هؤلاء الثلاثة أنظر نجيب عفيفي، "المستشرقون" (٣ أجزاء القاهرة، ١٩٨٠

- ١٩٨١) الجزء الأول ص- ٤٢٥ - ٤٢٦، ٤٣٢ - ٤٣٤، ٤٢٨.

٥٢- ملفات جامعة القاهرة ١/١ تقرير مجلس إدارة الجامعة - ١٩ أبريل ١٩١٠،

ص- ٤ - ٥. قارن بدير ١٢٢ - ١٢٣.

٥٣- عن المكتبة، أنظر

- Faaago'a Bulletin de la Bibliothegue (Universite Egyptienne, 1910 and 1911).

٥٤- ملفات جامعة القاهرة ١/١ تقرير مجلس إدارة الجامعة أول مايو ١٩١٧.

٥٥- إسماعيل حسين، مجلة التربية الحديثة - ١٠ (أبريل ١٩٣٧) ص- ٣٩٣.

٥٦- أنظر تقييم :

- Nobert Carnoy, laconie francaiese du caire (paris 1924).

٥٧- شفيق "مذكراتي ..." الجزء الثاني ٣٢٢ - ٣٢٥ - حيث يصف حفلة التقاعد.
وعن قوكرات أنظر : ملفات جامعة القاهرة ١٢/١٠.

و :

- Warren R. Dawson, who was who in Egyptology (London, 1972), p 106.

٥٨- أنظر : بدير خاصة صفحة ١٣٠.

٥٩- حول فيت أنظر :

- Myriam Rosen - Ayalon, ed., Studies in memory of Gaston Wiet (herusalem, 1977), pp. ix-xii.

وعن ماسينيون أنظر : إبراهيم مذكور، مجمع اللغة العربية في عيده الخمسين : مع الخالدين (القاهرة ١٩٨١)، ص - ٩٧ - ١٠٥.

و :

- Edward Said, Orientalism (New York, 1979), pp. 265 - 83. Said, "Islam, the Philological Vocation.

و :

- French Culture : Renan and Massignon, "in Malcom Kerr, ed

و :

- Islamic Studiecs : A tradition and Its Problems (Malibu, California, 1980), pp. 66 - 72.

و :

- Waardenburg, Islam dans le miroir, pp. 236-40.

-٦٠-

- Comte V. de Galarza.

وبدير - ص - ١٥٢. وسيرته الذاتية في : نجيب عفيفي : "المستشرقون" (٣ أجزاء

- القاهرة ١٩٥٢) الجزء الثاني ص - ٢٠٣.

-٦١-

- Karl Baedeker, Egypt and the Sudan (Leipzig), 1908 p. 60.

وكتب دار الكتب القومية (القاهرة ١٩٧٩).

وعن "شادة" أنظر

Der Islam 31 (1953) : 69 - 75.

٦٢- ملفات جامعة القاهرة ٢ / ١٢٤ تقرير مجلس إدارة الجامعة ٢٤ مايو

١٩٠٨. وبدير ص - ٢٢. وتحتوى الإطارات ١١٦ - ١١٩ من ملفات

جامعة القاهرة على الحسابات المالية للجامعة مع هذا البنك.

٦٣- بدير ص - ١٨٩، ١٩١.

٦٤- سيرة ذاتية شخصية في :

- The Library of Enno Littmann, 1875 - 1958 (leiden : Brill catalogue no. 307, 1959).

٦٥- عن كريزويل أنظر :

- Proceedings of the British Academy 30 (1974) : 1 – 20.

٦٦-

- Ronald Storrs, The memories of sir Ronald Storrs (New York, 1937), pp. 134 – 35.

و : صحيفة الجامعة المصرية - ٢ (يناير ١٩٣١) : ص - ٢٦.

٦٧- محمد كرد علي، الرسالة - ٣ (٩ ديسمبر ١٩٣٥) : ١٤٧٧.

٦٨- قامت جميع الصحف المصرية اليومية بتغطية رحلته من أول مارس حتى منتصف أبريل ١٩١٠ (ومنها الأهرام، والمؤيد، والمقطم، والشعب، ومصر، والجريدة والإيجيشيان جازيت). أنظر أيضاً : أحمد شفيق، مذكراتي - ٢ : ٢١٢ - ٢١٥. ويونان لبيب رزق "تيودور روزفلت والحركة الوطنية المصرية"، السياسة الدولية ٩ أكتوبر ١٩٧٣ : ٩٨ - ١١١.

٦٩- الإيجيشيان جازيت ٣٠ مارس، ١٩١٠ ص - ٥. ووردت ترجمات عربية كاملة في المؤيد وملحق الجريدة.

٧٠- الإيجيشيان جازيت ٣٠ مارس ١٩١٠ ص - ٣.

٧١- ملحق "الجريدة" ٢٩ مارس ١٩١٠.

٧٢-

- "Egyptian University", Egyptian Gazette, April 9, 1910.

٧٣- المصدر السابق ١٥ أبريل ١٩١٠ ص - ٤. ونقلت الصحيفة مقابلة ويلتر مور

المنشورة في جون بول.

[٣]

التحديات ومواجهتها

كانت حياة الجامعة، في أول عهد المصريين بها، عيداً متصلاً بحيونه إذا أقبل المساء من كل يوم يزدحمون على غرفات الدرس، على اختلاف منازلهم من الفقر والغنى، وعلى اختلاف حظوظهم من الثقافة، وعلى اختلاف أزيائهم أيضاً. فكان منهم الغنى المترف والفقر الذي لا يجد ما ينفق، وكان منهم القاضي والطبيب والموظف والمجاور في الأزهر الشريف وكان منهم غير أولئك قوم لم يأخذوا من العلم إلا بأيسر أسبابه، ولكنهم كانوا يختلفون إلى هذه الدروس والمحاضرات ليروا ويمتعوا أنفسهم أنى أتيح لهم المتاع، وقد جعلت غرفات الجامعة تضيق بهؤلاء المختلفين إليها، والمزدحمين عليها وعجز الأساتذة عن أن يسمعوا هذه الأعداد الضخمة التي كانت تكتظ بها الغرفات فقرر بعضهم أن يلقي محاضراته مرتين ...

واضطرت الجامعة إلى أن تنظم دخول غرفات الدرس، فلا تأذن إلا لمن قدموا بطاقات الإنتساب، وصدت بذلك عدداً غير قليل من الذين كانوا يسعون إلى هذه الدروس كما كانوا يسعون إلى المحاضرات العامة^(١).

ولم تستطع كافة توسلات اصدقاء طه حسين أمام تعنت حارس بوابة الجامعة، أن تتيح لخدام الطالب الكفيف، والذي يعمل مرشداً له، اجتياز البوابة. وكانت الجامعة في أول عهدها فضفاضة التنظيم مثلها في ذلك مثل الأزهر. فضلاً عن أنها قامت على أسس أقل مدعاة للهيبة بكثير - رغم أنها لم تكن لتعترف بذلك - فم يكن لديها مقررات دراسية منظمة، أو معايير محددة للالتحاق، أو مستويات للصفوف، ولا ضوابط للحضور، أو المراحل الدراسية، أو الاختبارات والدرجات؛ وإنما يقبل على الرحب كل من يسجل اسمه ويسدد الرسوم المتواضعة. ومن السهل أن يحصل الطالب على شهادة بالمحاضرات التي استمع إليها.

وبعد أن تعرضت الجامعة للانتقاد بسبب هذا التراخي، أنشأت شعبة للآداب عام ١٩١٠، وعينت لها مجلس كلية وعميداً. فاستهل "إينو ليتمان" منصب العمادة، ثم تلاه إسماعيل رفعت. وأصبح الحصول على الشهادة

الثانوية، أو ما يعادلها - شرطاً للالتحاق بالجامعة، ويمكن لغير الحاصلين عليها حضور المحاضرات كمستمعين. وأعد للطلاب المنتظمين مقررات محددة، يوضع لها امتحانات عند نهاية كل عام، وامتحان نهائي بعد أربعة أعوام. ومن ثم تطلب الحصول على العالمية، أو درجة الدكتوراه، إعداد بحث واجتياز امتحان شفهي^(٢).

وكانت الرسوم معتدلة في أول عهدها : جنيهاً مصرياً واحداً وعشرين قرشاً لثلاثة مقررات أو أكثر، وأربعين قرشاً للمقرر الواحد، وخمسة قروش مقابل حضور المحاضرة الواحدة. ثم ارتفعت المصروفات إرتفاعاً باهظاً عام ١٩١٠ فوصلت إلى ستة جنيهات مصرية للطالب العادي، بينما يسدد طالب الاستماع أربعين قرشاً لكل مقرر يحضر محاضراته، وجنيهاً مصرياً واحداً لكل امتحان يتقدم له. فتناقص الحضور بشكل حاد، غير أن أولئك الباقين حرصوا على أن يكونوا طلاباً جادين^(٣).

وكان هناك سبع مواد تدرس بشكل منتظم : الجغرافيا، والفلسفة (أحياناً إسلامية وأحياناً أخرى غربية)، والتاريخ الإسلامي، والتاريخ القديم (مع التركيز على مصر القديمة، أو الشرق الأدنى القديم، أو اليونان وروما) بالإضافة إلى الأدب العربي والإنجليزي والفرنسي. وحين يتوافر القدر اللازم من المال والعدد الكافي من الأساتذة، تقدم الجامعة مناهج الاقتصاد السياسي، واللغات السامية المقارنة بالإضافة إلى مناهج أخرى.

تصنيفات الطلاب : (خواجه - أندي - شيخ)

يبين الجدول ٢ حجم الجامعة الأهلية (لاحظ قلة عدد الطلاب الذين كانوا من الجدية بحيث يتقدمون للامتحانات). أما الجداول من ٣ - ٦ فتوضح تصنيف الطلاب على أساس الجنسية، والوظيفة، والديانة، ونمط الحياة الثقافية. ففي السنوات الخمس الأولى كان ٢٠% من الطلاب من بين (الخواجهات) أي أبناء الغرب^(٤) - يشكل الفرنسيون العدد الأكبر منهم، يليهم الإيطاليون. وكان هناك أيضاً الإنجليز، والألمان، والنمساويون، واليونانيون، وغيرهم. واحتشد الأوروبيون على نحو غالب في دراسة المواد التي تدرس بالفرنسية - خاصة الأدب الفرنسي، والاقتصاد السياسي، والدراسات النسوية. ولم يتصد منهم لحضور المحاضرات التي تُلقي باللغة العربية غير ثلاثة فقط في عام ١٩٠٩ / ١٩١٠ - وربما كان معظم الطلاب "العثمانيين" من المسيحيين أو اليهود السوريين. إلا أن الحرب العالمية الأولى أنهت

تقريباً تسجيل الطلاب الأوروبيين والشرقيين بالجامعة، فأصبح المصريون في ١٩١٨/١٧ يشكلون ٩٨% من عدد الطلاب. وزاد عدد الطلاب المسلمين قليلاً عن نصف إجمالي الطلاب في السنوات الخمس الأولى، إلا أن نسبتهم تزايدت بصورة كبيرة عند نهاية الحرب بسبب رحيل الطلاب الأوروبيين والشرقيين، بينما لم تعرف نسبة الأقباط بين الطلاب المصريين.

ويوضح الجدول (٤) أن أكثر من نصف الطلاب عام ١٩١٠/١٩٠٩ من أصحاب المهن، والرابع - أغلبه من الطالبات - لم يكونوا يعملون أو يدرسون في جهة أخرى، أما الربع الباقي فكانوا طلاباً بالمدارس المهنية العليا، الثانوية أو الخاصة، أو بالأزهر. ومن بين نوى المهن : ٤٤% موظفون بالحكومة أو قضاة، و ٢٣% مدرسون أو نظار مدارس، و ٢٣% من أصحاب الأعمال الحرة بينما كان ٥% فقط من الطلاب مزارعين، و ٣% من علماء الأزهر.

جدول (٢) عدد المقررات والأساتذة والطلاب في الجامعة المصرية

العام	الأساتذة	المقررات	إجمالي الطلاب	طلاب الآداب	طلاب الآداب المتقدمين لامتحان النقل
١٩٠٩/١٩٠٨	٥	٥	---	---	---
١٩١٠/١٩٠٩	٨	٨	٤١٥	---	---
١٩١١/١٩١٠	١٥	١٥	١٨٥	---	---
١٩١٢/١٩١١	١٣	١٦	١٢٣	---	---
١٩١٣/١٩١٢	٩	٩	٧٥	---	٨
١٩١٤/١٩١٣	١٠	١٠	٣٢١	---	١٠
١٩١٥/١٩١٤	١٤	١٤	٢٧٧	١٤٥	٨
١٩١٦/١٩١٥	١٧	١٦	٣٥٥	٢٢٩	١٧
١٩١٧/١٩١٦	١٢	١٢	---	---	١٨
١٩١٨/١٩١٧	١٣	١٣	٢١٨	٩٨	١٦
١٩١٩/١٩١٨	*١٤	*١٤	١٧٧	٤٦	---
١٩٢٠/١٩١٩	*١٤	*١٤	---	---	٧
١٩٢١/١٩٢٠	*١٥	*١٥	٢٥٣	١١٣	٨
١٩٢٢/١٩٢١	*١٦	*١٦	١٠٧	---	١١

العام	الأساتذة	المقررات	إجمالي الطلاب	طلاب الآداب	طلاب الآداب المتقدمين لامتحان النقل
١٩٢٣/١٩٢٢	١٠	١٠	---	---	١٢
١٩٢٤/١٩٢٣	٩	٩	---	---	١٤
١٩٢٥/١٩٢٤	٤	٥	---	---	---

(*) تقديرات. ويتضمن الجدول كلا من الطلاب المنتظمين والمستمعين.

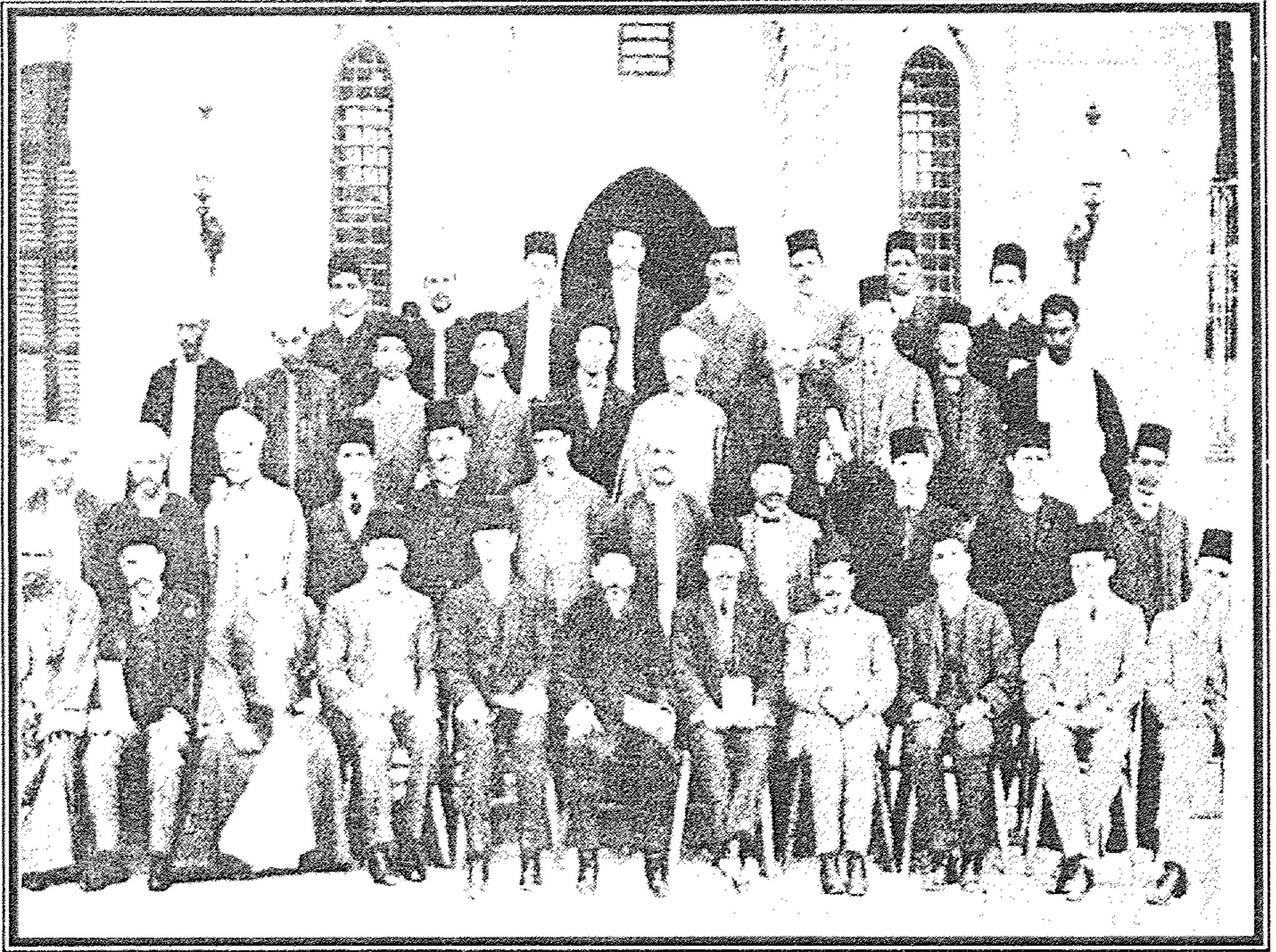
المصادر :

- أحمد عبد الفتاح بدير : الأمير أحمد فؤاد ونشأة الجامعة المصرية.
- تقرير مجلس إدارة الجامعة المصرية.
- أمين سامي : التعليم في مصر في سنتي ١٤ و ١٩١٥، الملحق الثالث ص ٥٥ - ٥٦.

ويرجع التناقص الحاد في أعداد المتقدمين للامتحانات فيما بين ١٩١١ - ١٩١٣ وأوائل العشرينيات إلى عدم قدرة الجامعة في ذلك الوقت على ضمان تعيين خريجها بالوظائف الحكومية، بالإضافة إلى ارتفاع الرسوم. ويعكس ارتفاع هذه الأعداد في السنوات التالية لذلك، مدى الشعبية التي لقيتها المناهج المعدة بحيث تضمن المستقبل الوظيفي.

ولمس المصريون التمايز بين الشيخ والأفندي على نحو واضح، فكان كل منهما يرتدى ما يتطلبه اللقب. وتوضح ثلاث صور فوتوغرافية صورت عام ١٩٠٨ / ١٩٠٩، بالإضافة إلى كشف الامتحان النهائي، كما هو مدون في جدول (٦) نسبة كل من الفئتين، ومن المشايخ : علماء وطلاب الأزهر، ودار العلوم، ومدرسة القضاء الشرعي، ففي الصور يشغل المشايخ ٣١ بالمائة من فصل الحضارة القديمة، و ١٩ بالمائة من فصل الحضارة الإسلامية، بينما يشغلون ٤ بالمائة فقط من فصل الأدب الفرنسي، حيث لم تكن الفرصة قد أتاحت لهم لدراسة اللغات الغربية من قبل. أما باقي من في الصورة فكانوا من الأفندية المطربشين مرتدى البدلة، فيما عدا واحداً أو اثنين من حاسري الرأس، من الأوروبيين ربما.

وكان المشايخ ممثلين بشكل أفضل بين الطلاب الجادين الذين يدخلون امتحانات النقل في الآداب. وجاء بعضهم من الأزهر مباشرة، مثل طه حسين والبعض الآخر من طلاب دار العلوم أو مدرسة القضاء الشرعي.



صورة رقم (٢)

فصل الحضارة القديمة العام ١٩٠٩ - ١٩١٠
 الأستاذ أحمد كمال (قصير اللحية) يجلس في الوسط وطه حسين الثالث من اليسار في
 الصف الثاني

جدول (٣) جنسيات طلاب الجامعة المصرية

إجمالي	أوروبا										من الشرق الأوسط			العام
	لغرون	بلجيكا	المان	اسبان	يونانيون	نمساويون	المان	إنجلترا	إيطاليون	فرنسيون	جنسيات أخرى	عراقيون	مصريون	
٧٤٥	٢	١	٢	٢	١	١	٤	٤	١٥	٢٨	٢	١٤	٦٧٨	١٩٠٩/١٩٠٨
+٤٠٣	٣	٣	٨	١	١	٦	٦	٩	١٦	٢٧	٢	١٩	٢٧١	١٩١٠/١٩٠٩
١٢٣	١	١	٠	١	٥	١	٣	١	٦	٨	٢	١٧	٧٧	١٩١٢/١٩١١
٧٥	١	٠	٠	٠	٤	٢	٤	٠	١١	٧	٦	٠	٤٠	١٩١٣/١٩١٢
٣٢١	٠	٢	٠	٢	٤	٦	٧	٤	٩	١١	١٦	١٩	٢٤١	١٩١٤/١٩١٣
٢٧٧	٥	٠	١	٥	٤	٠	٠	٨	١١	٢٨	٠	١٢	٢٠٣	١٩١٥/١٩١٤
٣٥٥	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	٢٧٥	١٩١٦/١٩١٥
٢١٨	---	---	١	---	---	---	---	---	١	٢	١	٠	٢١٣	١٩١٨/١٩١٧
١٧٧	---	---	---	---	---	---	---	---	١	١	٢	١	١٧٢	١٩١٩/١٩١٨
١٠٧	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	٣	٢	١٠٢	١٩٢٢/١٩٢١

* إيرانيون، ومغاربة، تتار، شركاسية، أرمن، سوريون، هنود.

** روس، رومانيون، بلغار، سويسريون. + منهم ٢١ جنسياتهم غير معلومة.

المصدر :- أحمد بدير - سامية حسن إبراهيم، الجامعة الأهلية بين النشأة والتطور (القاهرة - ١٩٨١) ص : ٨٩.

- تقرير مجلس إدارة الجامعة المصرية لعام ١٩١٥ / ١٩١٦ ص: ٢٧، وعام ١٩١٨ / ١٩١٧ من سجلات جامعة القاهرة.

جدول (٤) الوظائف التي يعمل بها طلاب الجامعة المصرية

إجمالي	بدون	مزارعون	رجل أصل وبنوعين وتجارة حرة	محامون أطباء مهندسون معلمون	لجنة	موظفون حكوميون	مدرسون ونظار مدارس	حر	طلاب في مدارس أخرى (١)			العام
									الثقوبة الخاصة	المدارس العلية العامة	الأزهر دار العلوم مدرسة القضاة	
٧٥٤	--	--	--	--	--	٢٤٣	--	--	--	--	--	١٩٠٩/١٩٠٨
+٤٠٣	٩٢	١٠	٤٦	٢	١٨	٦٩	٤٦	--	٤٢	٥٣	١٨	١٩١٠/١٩٠٩
١٢٣	٥٥٤	--	١٨	٣	٣	١٧	٨	--	٩	١	١٠	١٩١٢/١٩١١
٧٥	١٦	--	١١	١	٢	١٣	٤	--	٧	٤	--	١٩١٣/١٩١٢
٣٢١	٥٤٤	-	١١	٨	١	٣١	١٤	--	٧٠	٩٤	٤٨	١٩١٤/١٩١٣
٢٧٧	٧	٥٥٧	٣	٨	٧	٣٢	١٦	++٩٦	٢٩	٥٩	١٥	١٩١٥/١٩١٤
٣٥٥	١٦	--	--	١١	--	٤٦	٢	١٧١	٣٩	٢٩	١٨	١٩١٦/١٩١٥
٢١٨	٢	٢	--	٤	٢	٢٥	١١	١٠٧	٥	١٨	٤٠	١٩١٨/١٩١٧
١٧٧	--	١	١	٤	--	٢١	٨	١١٢	١	١٠	١٩	١٩١٩/١٩١٨
--	--	--	--	--	--	١٨	٦	++٦	-	٥٥٥٨	١٩	١٩٢٢/١٩٢١

الأرقام المنفردة والإجماليات كما وردت في المصادر، وهناك عدد من التصنيفات غير كاملة أو لم يتم إضافتها.

(*) طلاب ملتحقون بمدارس أخرى، ولكنهم يحضرون الدراسة المسائية الجامعية المصرية أيضا.

(+) بينهم خمسة من علماء الأزهر، وسياسي، وجندي.

(++) طلاب بالمدارس الأهلية (مدارس ابتدائية عادة)

(*) يعملون بالزراعة، وبدون عمل

(**) يعملون بالزراعة والتجارة.

(***) من طلاب المدارس العليا والخاصة.

المصدر :- أحمد بدير ص ص : ٢١٠ - ٢١٥ . - تقارير التفصيل العام البريطاني في مصر لعام ١٩٠٧ ص ٤٦ . - تقرير مجلس إدارة الجامعة المصرية لعام ١٩١٥ / ١٩١٦ ص : ٢٧، وعام ١٩١٨ / ١٧ وعام ١٩٢٢ / ٢١ ص : ١٥

جدول (٥)
تصنيف طلاب الجامعة المصرية وفقاً للديانة

العام	مسلمون		مسيحيون		يهود		مسيحيون أو يهود		الإجمالي
	الرقم	%	الرقم	%	الرقم	%	الرقم	%	
١٩٠٩/٨	٥٠٨	٦٨	٢٢٤	٣٠	١٢٠	٢	---	---	٧٤٤
١٩١٠/٩	٢٢٧	٥٥	١١٥	٢٨	٧٣	١٨	---	---	٤١٥
١٩١١/١٠	٩٩	٥٣	٦٩	٣٧	١٧	٩	---	---	١٨٥
١٩١٢/١١	٦٦	٥٤	٤٣	٣٥	١٤	١١	---	---	١٢٣
١٩١٣/١٢	٤٠	٥٣	٢٩	٣٩	٦	٨	---	---	٧٥
١٩١٤/١٣	٢٤٢	٧٥	٥٦	١٧	٢٣	٧	---	---	٣٢١
*١٩١٦	١٣	٧٦	١	٦	١	٦	٢	١٢	١٧
*١٩١٧	١٥	٨٣	---	---	---	---	٣	١٣	١٨
*١٩١٨	١٨	٩٥	---	---	---	---	١	٦	١٩
فبراير - مايو *١٩٢٠	٨	٨٠	١	١٠	---	---	١	١٠	١٠
مايو ١٩٢١	٧	٨٦	---	---	---	---	**١	١٣	٨
مدارس الثقوية العامّة لعام ١٩١٩	---	٧٩	---	١٢	---	٠,٢	---	---	---
المدارس العليا المهنية لعام ١٩١٩	---	٨١	---	١٨	---	٠,٥	---	---	---

(*) أولئك الذين تقدموا للامتحانات النهائية فقط، وليس إجمالي المسجلين - استدل على الديانة من الأسماء.

(**) ربما كان مسلماً.

- ويختلف إجمالياً ١٩٠٨ / ١٩٠٩ و ١٩٠٩ / ١٩١٠ عنهما في الجداول السابقة اختلافاً طفيفاً.

المصدر :

- أحمد بدير ص ص : ٢١٠ - ٢٣٣.
- سامية حسن إبراهيم. الجامعة الأهلية ... ص : ٩٠.
- سجلات وزارة الخارجية البريطانية ٨٤٨ / ٧، وثائق بعثة ملنر، قسم (د) وثيقة رقم ٩ "وزارة التعليم. مذكرة توضح الديانات التي ينتمي إليها التلاميذ".

جدول رقم (٦)
عدد الأفندية والمشايخ (وفقاً للزى أو اللقب)

الصورة التذكارية للفصول عام ١٩٠٨ - ١٩٠٩	مشايخ	أفندية	حاسـرى الرءوس	إجمالى
الحضارة القديمة	١١	٢٧	١	٣٩
الحضارة الإسلامية	٢٠	٨٠	٣	١٠٣
الأدب الفرنسى	٢	٤٢	٢	٤٦

المصدر :

- أحمد بدير ص : ٢١٣ - ٢٣٦.

قوائم الامتحانات	مشايخ	أفندية	أوروبيون	بدون لقب	طالبات	إجمالى
١٩١٢	١	٣	---	---	---	٤
١٩١٦	٩	١	---	٥	٢	١٧
١٩١٧	٣	٨	١	٤	٢	١٨
١٩١٨	٦	٦	---	٦	١	١٩
فبراير - مايو ١٩٢٠	٢	٤	---	٣	١	١٠
ديسمبر ١٩٢٠	٢	---	---	٣	---	٥
١٩٢١	٢	---	---	٦	---	٨
١٩٢٢	٢	٤	---	---	---	٦
١٩٢٣ - ١٩٢٤	١	٣	١	٥	---	١٠

المصدر: بدير، ص ص ٢١٣-٢٣٦

ولما كان معظم الذين لا يحملون ألقاباً من المتقدمين للامتحانات من الأفنديات - وهو الأرجح تقريباً - فلم يكن النجاح حليف المشايخ في سنوات العشرينيات؛ خاصة وأن الأفنديات كانوا يشعرون أكثر منهم بالآفة في مؤسسة تعليمية تزدهر بما تراه في نفسها من عصرية علمانية. كما كان الأفندية يدفعون الرسوم دون استغراب، لأنهم معتادون على الرسوم التي فرضها كرومر في المدارس العامة، أما الأزهيون، أمثال طه حسين، فكانوا يرون الأمر من زاوية أخرى : "أدى كل منهم تلك الجنيه الذي لم يكن بد من أدائه، ليؤذن له بالاستماع إلى الدروس. وكان غريباً عند هؤلاء الفتية أن يشتروا العلم بالمال وإن كان قليلاً. فهم لم يتعودوا ذلك ولم يألوه، وإنما تعودوا أن يرزقوا أرغفة في كل يوم ليطلبوا العلم في الأزهر، وقد وجدوا بعض ما يقيم الأود" (٥).

ولم يكن أي من عالم الأفندية، أو عالم المشايخ، مغلقاً على نفسه تماماً، كما لم تكن المظاهر الخارجية تعكس دائماً وجهات نظر صاحبها؛ فقد بدأ داعية الحداثة المكافح طه حسين، مشواره من الأزهر، وبالرغم من أنه نال درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية كما تحول إلى ارتداء الزي الأوروبي عندما أبحر مسافراً إلى فرنسا، إلا أن سجلات الجامعة ظلت تطلق عليه لقب (الشيخ) إلى أن نال درجة الدكتوراه من السوربون^(٦). علاوة على أن رداء ولقب المشيخة كان يخفي التمايز الهام بين الأزهريين من ناحية، وطلاب دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي من الناحية الأخرى.

وكان الأفندية في المدارس العامة والجامعة ينحدرون عموماً من عائلات أكثر ثراء وحضرية مقارنة بالأزهريين، كما كانت فرص العمل أفضل أمامهم. وبينما ظل المشايخ على ارتباطهم بالفلاحين غير المتعلمين، لم يكن كذلك من بين الأفنديين سوى قلة. ويحفل الأدب المصري بقصص أبناء القرى الذين خرجوا طلباً للتعليم الحديث ثم عادوا ليكتشفوا أنه ليس بالإمكان العودة ثانية". لكن الحس الديني لدى الأزهريين، والاحترام الذي يلقونه من الناس العاديين، لم يعوضا ضالة إمكانيات النجاح المتاحة أمامهم في الحياة. وأخيراً، ورغم الفوارق بين الشيخ والأفندي، إلا أن كلا منهما ينتمي إلى نخبة صغيرة من أولئك الذين يعيشون في الحضر بشكل عام في بلد تبلغ نسبة الأميين ٩٣ في المائة من سكانه، ويشكل أهل الريف ٨٦ في المائة من الشعب، كما يتجاوز عدد النساء نصف عدد المواطنين.

قسم الطالبات :

جاء أول اختبار تواجهه الجامعة حول قضية ما إذا كانت ستفتح أبوابها للجميع أم تقصرها على فئات محددة، مع إثارة مسألة قبول التحاق الفتيات. صحيح أن المتعلمين بين الرجال كانوا قلة في مصر عام ١٩٠٨ (١٣% من السكان فوق سن العاشرة) ولكن نسبة النساء المتعلمات شكلت ندرة بالفعل (١,٤%)^(٧). ومع ذلك، عدد قليل من النساء بحق المرأة في الحصول على التعليم العالي. ولو كان قاسم أمين استمر على قيد الحياة عامين آخرين، لسره أن يرى الجامعة التي ساعد في إنشائها تفتح شعباً للطالبات.

وكان باستطاعة الرجال أن يسلكوا الطريق المكتسب إلى الأزهر، أو الالتحاق بمدرسة مهنية عليا، أو الدراسة بالخارج، أما الفتيات فلم يكن بمقدورهن الالتحاق بالأزهر أو المدارس الثانوية. ولم يكن أمام خريجات

مدارس الفتيات الابتدائية القليلة، سوى الالتحاق بالمدرسة السنية لتأهيل معلمات المدارس الابتدائية، أو مدرسة التوليد ذات المكانة الاجتماعية المتواضعة، أو المدارس ذات الإدارة الأجنبية^(٨). وبالطبع، كان متاحاً دائماً أمام فتيات الطبقة العليا، المحجبات وغير المسموح لهن بالاختلاط، الحصول على تعليم خصوصي بالمنزل بموافقة الأهل. ومع أواخر القرن العشرين، أصبح استخدام المربيات الأوروبيات صرعة سائدة بين تلك البيوتات في مصر وأستانبول، الأمر الذي أتاح للنساء تعلم الفرنسية أو الإنجليزية وربما عزف البيانو. وكان إسماعيل أول حاكم مصري يستأجر أولئك المربيات لأطفاله من البنين والبنات^(٩).

وعلى عكس الافتراض السائد، لم تكن فكرة تعليم البنات خارج المنزل مستوردة من أوروبا تماماً. ففي عام ١٨٩٨ كانت الفتيات قبل سن المراهقة تشكلن حوالي ١٠% من المسجلين بالكتاتيب التي ترعاها الحكومة^(١٠). ولم يكن التحاقهن بها موضع خلاف كما لم يكن بدعة حديثة.

وقبل قاسم أمين، نادى رفاة الطهطاوي، والصحفيون الشوام المسيحيون بتحسين وضع المرأة^(١١). كما نشطت الدعوة لتحرير المرأة بين حريم الطبقة العليا بالفعل. وأتاحت أفكار محمد عبده - الإسلامية العصرية - المناخ الملائم لمشروع الجامعة والحركة النسائية في مصر كذلك^(١٢). غير أن قاسم أمين هو الذي دفع بالقضية إلى الصدارة عند مطلع القرن، وحشد في كتابيه عن المرأة الحجج الدينية والدنيوية في هجومه على الحجاب، وعزل المرأة، وعلى التفسير الضيق لقوانين الأسرة في الشريعة. ورأى أن تعليم النساء ضرورة، فبغيره كيف يمكنهن أن يصبحن الزوجات والأمهات المستتيرات اللواتي تحتاجهن مصر الحديثة، والقادرات على ملاحظة وإدارة ميزانية الأسرة، وتنشئة الطفل تنشئة سليمة؟^(١٣).

وجاء أغلب التأييد لأراء قاسم أمين من بين دوائر الطبقة العليا، حيث أخذت العادات الأوروبية تتغلب على نموذج "الحريم" المنتمى إلى نخبة الأتراك الشراكسة القديمة. وقد درس قاسم أمين القانون في مصر وفرنسا، وكان لزوجته - تركية الأصل - مربية انجليزية، وكذلك مربية إحدى كريمته أما كريمته الأخرى فمربيته فرنسية.

وخلال العام الأول من عمر الجامعة شهدت المحاضرات واحدة وثلاثين طالبة يحضرن مع الطلاب دون إعلان^(١٤). وتوضح الإحصائيات أن ثلاثاً منهن مصريات، إلا أنه لم يرد ذكر لشئ آخر غير هذا. وفي نفس العام،

تقابلت هدى شعراوى - رائدة الحركة النسائية المصرية - مع مدموازيل "كليمان"، وهي فرنسية كانت تزور مصر. [وهدى شعراوى، الأبنة الارستقراطية لأم شركسية، وأب هو محمد باشا سلطان - الذي كان يرأس مجلس النواب وقت قيام ثورة عرابي - درست القرآن، واللغة العربية، واللغة التركية، ثم الفرنسية والعزف على البيانو اللذين تعلمتهما على يد معلمة أوروبية قبل أن تزوج في سن الثالثة عشر لابن عمها، ولديه بالفعل بنات يكبرنها سناً. ثم بلغت بها التعاسة معه حداً جعل أهلها يعيدونها إليهم لبعض الوقت. وفي عام ١٩١٨ انضم زوجها الثرى على شعراوى إلى سعد زغلول وعبد العزيز فهمي ضمن الوفد الشهير الذي ذهب لمفاتيح المنسوب السامي في المطالبة بالاستقلال^(١٥)].

وفي ١٩٠٩ سافرت هدى شعراوى في أول رحلة لها إلى فرنسا، كما ساعدت في تأسيس مبرة محمد على، وهي مشروع نسائي خيرى يقدم الرعاية الطبية والإرشادات الصحية، للنساء الفقيرات وأسرهن. ونشطت هدى شعراوى بين الأوساط الاجتماعية العليا؛ فأجدي صديقاتها الزوجة الفرنسية للوزير حسين رشدي الذي خلف فؤاد كمدير للجامعة عام ١٩١٣ ثم أصبح بعد عام واحد رئيساً للوزارة. وفي أوائل ١٩٠٩ تقدمت هدى شعراوى، بتشجيع من الأميرة عين الحياة أحمد (زوجة حسين كامل، سلطان مصر فيما بين ١٩١٤ - ١٩١٧) باقتراح إلى الجامعة أن تسمح للآنسة كليمان بإلقاء محاضرة على جمع من النساء في قاعة المحاضرات. ووافق فؤاد، ثم تلاها محاضرات أخرى خاصة للسيدات في أيام الجمعة حيث تخلو الجامعة من الطلاب والمعلمين. كما حاضرت ملك حفنى ناصف^(١٥)، كريمة أحد مؤسسي الجامعة، في قاعاتها، وفي صالة "الجريدة"^(١٦)، وكانت كاتبة موهوبة على عداء شديد لنظام تعدد الزوجات، الذي عانت منه بنفسها. ومع نهاية عام ١٩٠٩ افتتح قسم الطالبات بالجامعة، تحت إدارة الآنسة "أ:كوفرير"، التي أحضرها ماسبيرو من "ليسيه راسين" في باريس - وكانت كوفرير من أوليات الفتيات اللاتي حصلن على درجة الاستاذية المرموقة. فأحتشدت السيدات المحجبات غير المسموح لهن بالاختلاط، لحضور محاضراتها في الجامعة المصرية، تلقوها بالفرنسية بطبيعة الحال. وشهدت المحاضرات ثمانى أميرات من الأسرة المالكة، ومن بين خمس وثلاثين

(١٥) المعروفة بلقب باحثة البادية - (المترجمة).

مصرية حضرن المحاضرات، عشر من زوجات وبنات الباشوات، وست زوجات وبنات بكوات، بالإضافة إلى زوجات وبنات بعض من أصبحوا رؤساء وزراء فيما بعد : سعد زغلول، محمد محمود، وحسن رشدي، وكذلك قريبات بعض الأعيان المسيحيين مثل ويصا واصف، ويعقوب آرتين، وواصف غالي (ولم يكن ممكناً أن يكون الحضور من طبقة اجتماعية أعلى من ذلك^(١٧)). وكما يبين جدول (٧)، إلتحق بقسم الطالبات في عام ١٩٠٩ / ١٩١٠ خمس وعشرون أوروبية إلى جانب خمس وثلاثين مصرية. وليس من الواضح ما إذا كانت هذه القائمة تشمل الاثنتين والعشرين طالبة المقيدات - إلى جانب الطلاب - كدارسات بقسم الأدب الفرنسي، وكذلك الطالبتين الدارستين بقسم الأدب الإنجليزي، حيث ندر من بين المصريات - أن وجدت بينهن أصلاً - من تجرؤ على ذلك.

وقامت الجامعة بنشر محاضرات "كوفرير" حول سيكولوجيا وأخلاق المرأة. ويستعرض كتابها "الحضارة الغربية منذ هوميروس وحتى هيربرت سبنسر"، مستخلصاً الأمثلة على العبر والعظات من الأدب الفرنسي في الأغلب. ومن بين النساء اللاتي نكرتهن في كتابها : جان دارك، ومدام دي ستاي، وجورج صان، وجورج إليو. وربما تعكس بعض المقتطفات من كتابها، الطابع المميز له : "المرأة حقاً تعيش على الفطرة، والإيمان بالغيب، والحدس، أكثر مما يفعل الرجل" "ولكن إذا كانت المرأة دون الرجل في علم الطب، فهي تفوقه في فن التمريض"، "وإذا لم يكن للمرأة أن تتسئم ذراً الفن الإبداعي، فعلى الأقل، تستطيع أكثر النساء بساطة أن تحيط نفسها بالفن"، "إن الأمهات بتتشئتهن لأطفالهن، إنما تتشئن جنود المستقبل. وهناك بالفعل واجب عليهن : أن يخرسن في أطفالهن حب الوطن"^(١٨).

وربما يصعب أن تمر مثل هذه الأفكار في الغرب الآن دون اعتراض، من منطلق فكرة المساواة بين الرجل والمرأة، ولكن مجرد وجود "كوفرير" كسيدة تعمل بالتدريس في جامعة عام ١٩٠٩، جعلها أمراً غير عادي في مصر، كما في فرنسا (رغم أن رسالتها الحذرة كانت صحيحة بالنسبة لذلك الوقت في مصر). ورغم قدرة كل من قاسم أمين، ولطفي السيد، وملك حفني ناصف، وهدى شعراوي على تبني أفكار تفوق ما ذكرته بكثير، إلا أن الحقوق السياسية وحق العمل لم تكن تعنى أولئك الدعاة لتحرير المرأة كثيراً، وإنما شغلهم التعليم، وتحقيق قدر أكبر من الحرية الشخصية، وتحسين مستوى الحقوق القانونية في المسائل العائلية^(١٩).

وساعدت السيدة رحمة صروف، ومن بعدها السيدة لبيبة هاشم، الأنسة كوفرير، في تدريس الاقتصاد المنزلي وتنشئة الطفل^(٢٠). ونظراً لأنهما سوريتان مسيحيتان، فقد ألقتا العادات الأوروبية أسرع من معظم المصريات. وأنشأت السيدات السوريات المسيحيات أغلب المجالات النسائية الأربع عشر التي صدرت فيما بين ١٨٩٢ حتى ١٩١٤. ورأست لبيبة هاشم إحداهما وهي "فتاة الشرق" منذ ١٩٠٦^(٢١).

وقامت نبوية موسى، مديرة مدرسة "السنية" وهي واحدة من أوليات النساء اللواتي حصلن على شهادة التوجيهية المصرية، بإلقاء محاضرات في الجامعة أيضاً حول دور المرأة في التاريخ المصري القديم والحديث. وفي عام ١٩١١ - ١٩١٢ تجاوزت شعبة المرأة بالجامعة المصرية المواد النسائية لتشتمل على محاضرات ليتمان في اللغات السامية المقارنة ومحاضرات ميلوني في تاريخ الشرق الأدنى - ومن الثابت أن هذين الأستاذين كانا يحاضران الطالبات بشكل منتظم^(٢٢).

ومثلما كان هدف التعليم العالي للمرأة في أول عهده في بلاد الغرب، تمثل الهدف منه في مصر في إعداد النساء لدورهن كزوجات وأمهات، وليس من أجل العمل خارج المنزل. وهو نفس حال قسم المرأة في جامعة استانبول، الذي أفتتح بمائتين وخمسين طالبة في فبراير ١٩١٤، لتدريس الصحة العامة، والتدبير المنزلي وحقوق وواجبات النساء. إلا أن فتيات استانبول التحقن بفصول الرجال عام ١٩١٩^(٢٣).

ورغم احتراس الجامعة المصرية؛ التي نظمت جدول حصص النساء على أن تكون صباحية، وفي أيام الجمع، حيث تخلو من الطلاب^(٢٤)، تعرضت الطالبات لمضايقات المتطفلين على البوابات، وتلقى عبد العزيز فهمي سكرتير الجامعة تهديدات بالقتل لإرساله خطابات الدعوة للنساء. وارتفعت صيحات الاحتجاج في الصحف، وكتب أمير الشعراء أحمد شوقي - وكان ذي حظوة لدى القصر - قصيدة ضد التساهل الخطر^(٢٥).

ولم تأت المعارضة لدعوة المساواة بين الجنسين في مصر من الأزهر فقط، كما كان متوقعاً، ولكنها جاءت أيضاً من أفنديات علمانيين، مثل مصطفى كامل وطلعت حرب. ويقال - رغم أن هذا لم يثبت تماماً - إن مصطفى كامل وطلعت حرب إنما كانا يعبران عن البرجوازية الصغيرة المتأثرة بتغلغل النفوذ الاقتصادي الأوروبي^(٢٦)، ولما كان خروج النساء إلى الحياة العامة يجعل منهن منافسات للرجال على الوظائف النادرة بالفعل، فلم تكن معارضة مصطفى كامل



صورة رقم (٣)

أساتذة الجامعة المصرية ١٩١١

تجلس مودموازيل كوفرير في وسط الصورة، في حين يجلس نالينو على اليسار

وظلعت حرب لتتصب على تعليم النساء وإنما على خروجهن إلى الحياة العامة؛ بدعوى أن التعليم المشترك ربما كان مؤامرة مسيحية لتقويض المجتمع الإسلامي بإفساد أضعف أفراد (النساء). وفي مايو ١٩١٢ أذنت الجامعة. وقررت أن تغلق قسم الطالبات، وأستخدمت مخصصاته في إرسال ثلاثة طلاب آخرين للدراسة في أوروبا.^(٢٧)

ورغم إغلاق قسم الفتيات، يوضح جدول (٧) أن أربع عشرة طالبة التحقن بالدراسة إلى جانب الطلاب عام ١٩١٢ - ١٩١٣، ليست بينهن مصرية واحدة. أما المصريات الأربع عشرة اللاتي ورد أنهن حضرن محاضرات عام ١٩١٤ - ١٩١٥، فربما كن مسيحيات أو يهوديات. ووصل إجمالي حضور الإناث إلى رقم مثير للدهشة وهو ٨٨ طالبة في عام ١٩١٥ - ١٩١٦، ولكنه انخفض بعد ذلك بشدة نظراً لرحيل الأوروبيات والشرقيات. فكانت الطالبات الأربع في عام ١٩١٧ - ١٩١٨ : بلجيكية، وفرنسية، وإيطالية، وأرمنية^(٢٨). [وفي ١٩٢٤، انتزعت الأنسة عفيفة اسكندر إبراهيم - ربما كانت مسيحية سورية - الثناء الخاص من أستاذها بسبب أدائها الرائع في امتحان اللغة المصرية القديمة^(٢٩)].

وبينما كانت الأميرة فاطمة هانم إسماعيل أكرم المتبرعين للجامعة عام ١٩١٤. إلا أنها كانت تتبرع لمعهد لم تستطع أن توليه رعايتها هي أو بناتها. وحمل حجر الأساس الذي وضع في ربيع ذلك العام أسمها، كما نشرت صورتها وهي ترتدي تاجاً ثوباً أوروبياً في كتاب صدر فيما بعد احتفاء بهذه المناسبة، ولكنها لم تستطع حضور الاحتفال ببدء العمل، الذي أثنى فيه على كرمها^(٣٠). ومع هذا، قدر للنساء أن يخضن معركة المطالبة بالالتحاق بالجامعة مرة أخرى في العشرينيات.

جدول (٧)
جنسيات وديانات طالبات الجامعة المصرية

مصرية	أوروبية	تركية	إجمالي	مسلمة	مسيحية	يهودية	إجمالي
٣	٢٦	٢	٣١	٠	٠	٠	٣١
٣٥	٢٥	٠	٦٠	٣٣	٤١	١٢	٨٦
٣٦	١٧	٠	٥٣	٢٥	٤٢	١١	٧٨
١٨	١٥	٠	٣٣	١٦	١٩	٦	٤١
٠	١٤	٠	١٤	٠	١١	٣	١٤
١	٣٢	٢	٣٥	٠	١٨	١٧	٣٥
١٤	٤٤	٢	٦٠	٠	٠	٠	٦٠
—	—	—	—	—	—	—	٨٨
—	—	—	—	—	—	—	٢ على الأقل
٠	٣	١ (لرمنية)	٠	٠	٠	٠	٤
٠	٠	١ (لرمنية)	٠	٠	٠	٠	١
٠	٠	—	١	٠	١	٠	١
—	—	—	—	—	—	—	واحدة على الأقل

الأعداد الخاصة بالجنسيات في الأعوام ١٩٠٩ - ١٩١٢ خاصة بشعبة الطالبات فقط، أما الأرقام المتعلقة بالديانات لتلك السنوات فتشمل اللائي انتظمن في فصول الطلبة الرجال.

المصدر :

- أحمد بدير، خاصة ص : ٢١٠.
- تقرير مجلس إدارة الجامعة لعام ١٩١٥ - ١٩١٦ ص : ٢٧، ولعام ٢١ - ١٩٢٢ ص : ١٥.
- سجلات جامعة القاهرة، إطار ١٦، ملف ٤٨٣، نتائج الامتحانات، ٢٠ مايو ١٩٢٤.

علاقة الطلاب بأساتذتهم :

كيف كان الطلاب يتفاعلون مع أساتذتهم ؟ وما هو ذلك السر القاهر الذي جذب طه حسين إلى الجامعة رغم معارضة شقيقه في الأزهر وأسرته في القرية (٣١) ؟

في الواقع كان لعدد من أساتذة دار العلوم أبعد الأثر في نفس طه حسين، الذي أعجب بحفنى ناصف لسعة ثقافته في الأدب العربي، ولتواضعه ودمائه خلقه، في حين رأى أن إسماعيل رفعت أستاذ الجغرافيا : "لم يكن يعرف من طلابه إلا أنهم يحملون رؤوسا يجب أن يصب العلم فيها صباً. فكان يقبل عليهم عابساً، وينصرف عنهم عابساً، لا يلقي إلى أحدهم كلمة، وإنما يأخذ مجلسه وأوراقه، ويأخذ في القراءة حتى تنتهي ساعة الدرس لا يقطعها إلا حين يفسر ما قد يحتاج إلى التفسير، وحين يلقي على الطلاب هذا السؤال الذي تعود أن يلقيه في دار العلوم - وقد كان أستاذاً فيها : فإهمين يا مشايخ؟" (٣٢).

ومع ذلك، خص طه رفعت بأعظم ما يستطيع من إطراء حين ذكر أنه لم يجد في فرنسا بعد ذلك أياً من أساتذة الجغرافيا الذين استمع إلى محاضراتهم بفضل أستاذة القديم. ولم يكن للأساتذة الآخرين في دار العلوم مثل هذا الحظ من تقدير طه حسين، فكان وزملاؤه يسخرون - بلا رحمة - من طريقة عرض الشيخ طنطاوى الجوهرى "المصطنعة" للفلسفة الإسلامية، فكانوا يتحدثون إليه بسخرية ويضحكون منه بصوت مرتفع (٣٣). وأحب طه محاضرات محمد الخضرى في التاريخ الإسلامى، لكنه أصيب بإحباط حين اكتشف - بعدما استمع لدروس التاريخ في أوروبا - أنه إنما كان يريد فحسب ما ينقله من كتب القدماء دون تعمق. وعندما عينت الجامعة الخضرى، بدلاً من جورجى زيدان، اشترطت - مع ما في ذلك من إهانة - أن يستخدم المناهج الحديثة (٣٤).

أما محمد المهدي، الأستاذ "الدرعى"، فكان له أسوأ الحظ في تقييم طه حسين، الذي اعتبر ثقافته سطحية، فتجراً على تصحيح لغته العربية الفصحى وأضحك منه الطلاب (٣٥). وتأثر المهدي لنفسه بأن حال دون حصول طه حسين على تقدير "فائق" في مناقشة رسالته للكتوراه. بل أن طه حسين حاول عام ١٩١٥ - إبان فترة إنقطاع مؤقتة، استدعى فيها الطلاب المبعوثون إلى أوروبا - إزاحة المهدي من منصبه كأستاذ للأدب العربى، فحضر محاضرات المهدي، ثم نشر مقالاً في مجلة "السفور" عقد فيه مقارنة

- لغير صالحه - بينه وبين نقاد الأدب الفرنسي. فعمل مجلس الجامعة على انتزاع اعتذار من طه، الذي حرص على تجنب التراجع عن ملاحظاته الجوهرية.

ورأى طالب آخر، هو إسماعيل حسين، أن مستوى المهدي كان جيداً في فقه اللغة، ولكنه أعرب عن أسفه أنه لم يغامر هو أو الخضيرى بنتهاج آراء نقدية خاصة بهما^(٣٦).

ثم كان هناك الأساتذة الأوروبيون. وتورد المقتطفات الباقية من أعمالهم، ومحاضراتهم المنشورة، لمحات من آرائهم. فها هو "اجنازيو جويدي" يدحض في حرص - المفهوم الذي يعتبر العرب قبل الإسلام أنصاف متوحشين"، فيقول: "أن العرب، وبشكل أساسي أهل الحيرة، وغسان دخلوا معارك عظيمة أمام الفرس والبيزنطيين، وقد شهدوا عن كثب وعرفوا حضارة كل من البلدين، كما خبروا الحرب، وتعلموا فن كبار أساتذة العلوم العسكرية في ذلك الحين... وخطأ فادح أن نعتبر الخوالد أو بنى المثنى شعباً من الجهلاء أو أنصاف المتوحشين، أو أن نعد قواتهم مجرد بدو أصبحوا جنوداً ص بين عشية وضحايا"^(٣٧).

وكما فعل جويدي، كان نالينو يشرح مادته تشريحاً دقيقاً مستخدماً مبضع الفقه اللغوي^(٣٨). فأعد لطلابه مقررأ في علم الفلك عند العرب، وآخر في تاريخ الأدب العربي، يلتقط فيه لفظة مثل "أدب" ثم يتتبع أصولها خلال المعاجم الموثقة وغيرها من المصادر، محققاً كل خطوة يقوم بها من خلال إسنادات تفصيلية.

وأستهل "ماسنيون"، ذو النزعة الدينية، أولى محاضراته في تاريخ المدارس الفلسفية بعبارة "بسم الله"^(٣٩) ولأنه كان يرفض منهج التحليل الزمني الجغرافي على أساس الأفراد أو الطوائف، فقد أعد المقرر الذي يتولى تدريسه حول فكرة: الأعداد (الرياضيات) والأشياء (الطاقة)، والحياة (علم الأحياء)، والنفس (علم النفس، والتصوف)، والمجتمع (علم الاجتماع)، والله (علم الوجود). كما بحث التناقض المنهجي بين التمسك الشديد بالتقاليد الدينية والفلسفية وبين تهديد النزعة الإقليمية المحلية (الشعوبية الجديدة) لفكرة العالمية، ولم يكن قد تجاوز العشرينيات من عمره، غير أنه كان قد أظهر بالفعل براعة وسعة في المعرفة ميزت بعد ذلك أعماله التي أستشهد فيها بكتابات لورد كلفين، وميكلسون، وميل، ودي فريس، ومندل، ولامارك، وبرجسون جنباً إلى جنب مع الغزالي وأبن رشد. وأقر ماسنيون بأن

المسلمين تخلفوا في الفلسفة والعلوم، بعد إنجازاتهم العظيمة الأولى، ولكنه أعرب عن ثقته في أن إيجاد مفردات عربية جديدة، سوف يمهد الطريق لإسهامات جديدة في هذه المجالات.

وكان حديث المستشرقين بالعربية يثير الفكاهاة والإعجاب معاً. وقد لفت إهتمام أحد الطلاب ما تتضمنه ترجمة ماسنيون للعبارة الأجنبية من غرابية، كما وجد صعوبة في قراءة الأسلوب المغربي في كتابة "سانتيلانا". ولكنه دهش عندما سمع لأول مرة "جويدى" يحاضر بالعربية^(٤٠)، وأعجب بتمكن "قيت" من اللغة. كما أحب طه حسين لهجة سانتيلانا "التونسية العذبة"^(٤١). وأسبغت إحدى الصحف على نالينو أعظم الأطراء، عندما ذكرت عنه أنه يحاضر بالعربية كما لو كان أحد أبنائها^(٤٢).

ومن حين لآخر، كان الأزهريون يمتلكهم الغضب لما يعتبرونه استخفافاً بالإسلام؛ فقد أثارت المقارنة التي عقدها "جويدى" بين الرواية السيريانية "أهل الكهف" وبين القصة القرآنية احتجاج الأزهريين وأبناء دار العلوم. كما أثارت محاضرات سانتيلانا حول أثر اليونان على الديانة والفلسفة الإسلامية أيضاً مشكلات لا حدود لها^(٤٣).

أضف إلى ذلك ما للموضوعات الجديدة من سحرها الخاص. ويصف طه حسين عرض ميلونى للكتابة المسمارية السومرية، وقوانين حمورابى، والتاريخ الأشورى بأنها "أشياء لم يتحدث عنها أستاذ قبله في مصر"^(٤٤) وبررت سلطات الجامعة تدريس "الحضارة المصرية في أيام الجاهلية"، بأن "الأمم المتقدمة" ظلت تستفيد من دراستها بينما بقيت مجهولة في مصر^(٤٥). وفي حفل تكريم "ليتمان" بمناسبة نهاية العام الدراسي ألقى أحد الطلاب خطبة قصيرة بالسيرانية، وأشاد آخر بأسلوب ليتمان في تدريس العبرية وطرحت الفكرة المفاجأة حول أن تعلم العبرية أو السريانية من شأنه تعميق فهم من يتحدث العربية للغة.

وبدأ الأسلوب الجديد في التعليم والتعلم مدهشاً بمثل ما كانت موضوعات البحث الجديدة. ويتذكر أحمد أمين، وهو كاتب مشهور وأستاذ جامعى مصري، درساً لأحد المشايخ في الأزهر فيقول: "قرأ المتن والشرح ففهمتهما، ولكنه سبح بعد ذلك في تعليقات واعتراضات على العبارة وإجابات على الاعتراضات لم أفهم منها شيئاً"^(٤٦). لم استسغ أبداً طريقة الأزهر في الحواشى والتقارير، ويشير في مكان آخر إلى كثرة الاعتراضات والإجابات^(٤٧).

وأخذت المفاجأة طه حسين، في أولى محاضرات أحمد زكي عن الحضارة الإسلامية؛ حيث حيا الأستاذ تلاميذه بتحية الإسلام بدلاً من أن يبدأ الدرس باسم الله كما هو شأن الأزهريين. "ثم راع الفتى بعد ذلك أن الأستاذ لم يقل في أول درسه "قال المؤلف رحمه الله..." وإنما استأنف الدرس يتكلم من عند نفسه ولا يقرأ في كتاب... وكان كلامه واضحاً لا يحتاج لتفسير، وكان سوياً مستقيماً، لا فتنة فيه ولا اعتراض عليه. وكان غريباً كل الغرابة، جديداً كل الجدة، ملك على الفتى عقله كله وقلبه كله" (٤٩).

وبدت الأساليب غير المألوفة في طرح العلم مثيرة للارتباك. فكان من الصعوبة بمكان الاستماع إلى محاضرات جويدي، فأصبح على واحد من الطلاب، ذي صوت مرتفع أن يبلغ عن الأستاذ "كما يبلغ أحد المصلين عن الإمام حين تقام الصلاة" (٥٠) حتى يمكن لمن في المؤخرة أن يستمع. ولكن المشكلة الحقيقية تمثلت في أنه لم يكن قد مر بخبرة الطلاب إمكانية وجود موضوعات مثل "أدبيات الجغرافيا والتاريخ" (٥١). ولاحظ أحمد أمين فيما بعد أن فكرة تقسيم الأدب العربي إلى عصور، وتحديد خصائص كل عصر، وترجمة شعراء كل عصر وناثريه لم تكن معروفة في مصر حتى قدوم المستشرقين (٥٢).

ولو قدر لطفه حسين أن ينظر إلى الوراء، بعد ما اكتسبه من خبرة، ربما دفعته للابتسام الطريقة التي كان يعلق بها على كل لفظة ينطقها الأستاذ. ففي روايته "أديب" يتكرر حديث أحد الأفيديات أثناء المحاضرات في الجامعة، ويسخر من الراوي الذي يزعمه ذلك، وهو أزهرى يمثل طه نفسه قائلاً: "ماذا تريدون أن تسمعون؟، ولكنكم معذورون، جئتم من الأزهر، فكل شيء عندهم قديم، وكل شيء عندهم جديد" (٥٣)... ويستطرد الراوي فلم نكن نخرج من محاضرة حتى يعرض لنا ويأخذ بجبتي وقفطاني، وهو يسألني "أعجبك المحاضرة؟... وهل فهمتها على وجهها؟" وكان يقول لي: "هون عليك من هذا الحرص على المحاضرات، ولا تنهالك عليها هذا التهلك، فهي أقل غناء مما تظن وخير لك أن تقرأ من أن تسمع".

وفرضت الأساليب الأوروبية في التدريس على الطلاب اتباع أسلوب المشاركة الذي لم يكن مألوفاً. حتى أن أحد الطلاب تفاخر بأنه الوحيد - باستثناء قلة من الأجانب - الذي كان يدون ملاحظات أثناء المحاضرات، أما زملاؤه، فقاطعوا الدرس ليحبوا الأستاذ على توزيع مذكرات للمحاضرات

(فما هو الهدف من الجامعة، التي تحتقر من يدون الملاحظات، إذا كان الطلاب سيستظهرون العلم كما لو كانت مدرسة ابتدائية^(٥٤)) وأعرب عبد الوهاب عزام - وقد درس في إنجلترا، ثم أصبح معيداً في الجامعة المصرية فترة تدريس توماس أرنولد فيها - عن إعجابه باستعداد الأستاذ الإنجليزي للاعتراف بعدم معرفته الإجابة على الأسئلة، ومطالبته بنقد محاضراته^(٥٥). كما استعار طه حسين - عامداً - أسلوب ديكرت في الشك المنهجي، فيما أعده من أبحاث^(٥٦).

واكتشف أحمد أمين، وهو - بعد - لا يزال طالباً بمدرسة القضاء الشرعي، أهمية اللغات الأجنبية، كما اكتشف أن هناك من الثقافات ما قد يكون متأخراً عن العصر: "فهؤلاء أساتذتي المصريون يدلون بمعرفتهم لغة أجنبية - هذا يدل بلغته الفرنسية، وهذا يدل بلغته الإنجليزية، وكل يعتمد عليها في تحضير دروسه، ويذكر لنا أنها تسير الزمان، حتى أن الكتاب المؤلف في علم منذ عشر سنوات لا يصلح أن يكون مرجعاً اليوم إلا بعد التعديل، لا كالكتب الأزهرية التي يدعى أنها تصلح لكل زمان، ولأن هؤلاء الأساتذة كانوا يقولون دائماً أن من اقتصر على اللغة العربية يرى الدنيا بعين واحدة، فإذا عرف لغة أخرى رأى الدنيا بعينين". وتجاوز أمين مقررات مدرسة القضاء، ليشق طريقه إلى محاضرات جويدي، ونالينو وسانتيلانا، حيث: "رأيت لونا من ألوان التعليم لم أكن أعرفه: استقصاء في البحث، وعمق في الدرس، وصبر على الرجوع إلى المراجع المختلفة، ومقارنة بين ما يقوله العرب وما يقوله الإفرنج، واستنتاج هادئ رزين من كل ذلك".

وأخيراً يلخص أحمد أمين مفهوم الجامعة في أنها مكرسة للبحث، ومفهوم المعرفة المتفتح ودائم التغيير: "إن ميزة الجامعة عن المدرسة هي البحث... والمدرسة تعلم آخر ما وصل إليه العلم، والجامعة تحاول أن تكتشف المجهول من العلم، فهي تتقدم ما وصل إليه العلم وتعده، وتحل جديداً محل قديم، وتهتم رأياً وتبني مكانه رأياً... هذا ما فهمته في السنة الأولى من تدريسي في الجامعة - فهمته مما سمعته عن أساتذة من الأجانب قاموا ببحوث مختلفة جديدة، كل في فرع ومن مخالطتي في الجامعة لبعض المستشرقين، أتعرف منهم ما يعملون ومن قليل من الأساتذة المصريين يتبعون خطتهم ويسرون على منهجهم"^(٥٧).

الامتحانات والدرجات :

لم يكن عدد المتقدمين للامتحان ليزيد أبداً عن تسعة عشر طالباً، بالرغم من أن عدد من كانوا يحضرون الدروس يرتفع كثيراً عن ذلك. وفي أبريل عام ١٩١٣ تقدم الشيخ طه حسين وطالبان آخران للامتحان في ست مواد، أما الطلاب الأربعة الآخرين فأدوا الامتحان في عدد أقل من المواد. وأنضم "فيت" و"ماسنيون" إلى "الخضيرى"، و"المهدى"، و"رفعت"، و"الجوهري" في مجموعات، تضم كل مجموعة ثلاثة منهم لامتحان كل طالب في مادة واحدة. وكان طه الأول على زملائه، فحصل على الدرجة النهائية (٣٠ درجة) في تاريخ الأدب العربي، وفي الأدب العربي، والفلسفة العربية، وتاريخ المدارس الفلسفية، وتاريخ الأمم الإسلامية. وبرغم أن درجته في الجغرافيا والإثنوغرافيا "٢٨" فقط إلا أنها كانت أعلى درجة في الفصل (٥٨).

وشكلت اللغات الأجنبية حجر العثرة الكبير؛ ففي عام ١٩١٣ لم يجزؤ سوى طالب واحد على التقدم للامتحان الذي يجريه "بيرس وايت" في تاريخ الأدب الإنجليزي منذ سبنسر وحتى العصر الفيكتوري، واجتازه بنجاح. ولم يحاول أحد أن يتقدم لامتحان "لوى كليمان" في الأدب الفرنسي ذلك العام. كما كان عدم إجادة طه حسين للغة الفرنسية أحد أسباب رفض سلطات الجامعة طلبه السفر في بعثة دراسية إلى فرنسا (٥٩)، ولكن طه اندفع لتعلم اللغة الفرنسية على أيدي مجموعة من المعلمين، وفي العام التالي اجتاز امتحان "كليمان" بدرجة تقرب من الدرجة النهائية (٢٨). واجتاز ثلاثة طلاب آخرون امتحان "وايت" في الإنجليزية لذات العام (٦٠).

وعرف طه بعد أن اجتاز امتحان الفرنسية، أنه إذا فاز بالجائزة المعلنة لأول درجة دكتوراه مصرية، فربما لا يعدم الفوز ببعثة إلى فرنسا؛ فكتب رسالته عن أبي العلاء المعري، أحد شعراء القرن الحادى عشر، وهو كفيف مثله (٦١). ثم تقدم طه حسين لمناقشة رسالته للدكتوراه مساء ٥ مايو ١٩١٤ (٦٢).

واستغرقت المناقشة ساعتين وسبع دقائق. ورأس محمد الخضيرى لجنة الامتحان التي كان أعضاؤها محمد المهدى، ومحمود فهمى المدرسين بالجامعة، بالإضافة إلى مندوبين من نظارة المعارف العمومية. فناقشوا طه في أطروحته، وفي علمين آخرين هما الجغرافيا عند العرب، والروح الدينية للخوارج. وحصل طه على درجتى "قائى" في المادتين الإضافيتين، ولكن المهدى اعترض على ميله للجدل مما أدى إلى منحه درجة "جيد جداً" في

الرسالة. وأعلنت النتيجة وسط تهليل جمع من الأصدقاء، واستحق طه مبلغ عشرين جنيهاً مصرياً قيمة جائزة الدكتوراه، وفاز ببعثته إلى فرنسا. وأبرق أحمد شفيق، نائب مدير الجامعة، بالنتيجة إلى القصر، ثم قام بترتيب مقابلة لطفه حسين في قصر رأس التين؛ حيث هنا الخديو عباس طه، وسأله عن دراسته وحذره من دراسة الفلسفة التي أفسدت عقل طالب البعثة "منصور فهمي" (٦٣).

بيد أن درجة الدكتوراه التي نالها طه حسين أصبحت مبعث إحراج للجامعة؛ فهو لم يكن يحمل أي درجة علمية سابقة (خلاف الأزهر). وفي فرنسا كان عليه أن يدرس للحصول على الليسانس قبل أن يستطيع مجرد التفكير في دكتوراه السربون. فأعدت الجامعة المصرية عام ١٩١٦ برنامجاً دراسياً يستغرق ثلاث سنوات يعقد بعدها امتحان لنيل درجة الليسانس، ومن ثم، يستطيع الطالب أن يعد رسالته للدكتوراه (٦٤). وحصل ستة طلاب على شهادة الدكتوراه في ظل النظام الجديد قبل إنتهاء عهد الجامعة الأهلية.

الروساء المؤقتون وشبح الإنفلاس :

استقال الأمير فؤاد من الجامعة عام ١٩١٣، وهو نفس العام الذي سعى فيه لنيل عرش ألبانيا، ورفض الأمير يوسف كمال أن يخلفه (رغم قبوله عضوية المجلس التنفيذي) فانتقلت رئاسة الجامعة إلى وزير الحقانية حسين رشدي (٦٥).

وكان هذا اختياراً سيئاً (فرشدي البالغ من العمر خمسين عاماً، أرستقراطي، سليل أحد الألبان الذين قدموا إلى مصر مع محمد علي، درس القانون في فرنسا وتزوج من فرنسية، وتلكاً هناك خمسة عشر عاماً قبل عودته في ١٨٩٢، وهو يقضى الصيف في أوروبا بانتظام مثل غيره من أبناء طبقاته، وقد أمضى وقتاً يعمل في نظارة المعارف وفي المحاكم المختلطة، ثم دخل وزارة بطرس غالي. كما رأس الوزارة عملياً، بشكل غير معطن، في الفترة ما بين أبريل ١٩١٤ إلى أبريل ١٩١٩، وفقاً لرغبة البريطانيين. ورأس رشدي اللجنة التي صاغت دستور ١٩٢٣، ثم عمل رئيساً لمجلس الشيوخ. كما شغل أيضاً منصب مدير الجامعة فيما بين عامي ١٩١٣ و ١٩١٦، وكذلك في الفترة بين عامي ١٩١٧ و ١٩٢٥) وتوضح محاضر اجتماعات المجلس التنفيذي للجامعة أنه واطب على حضورها في أول الأمر، ولكنه نادراً ما كان يفعل ذلك بعد أن أصبح رئيساً للوزارة. وقد

وجد في تغييه مبرراً كافياً للاستقالة من إدارة الجامعة، ولكن المجلس وضع علو المقام فوق بذل الجهد وناشده العودة إلى المنصب. وأثناء انقطاعه شغل الأمير يوسف كمال منصب مدير الجامعة لفترة وجيزة^(٦٦). وكان السكرتير العام الدكتور محمد علوي وهو طبيب درس في فرنسا، هو الذي يدير الشؤون اليومية للجامعة أثناء الحرب^(٦٧).

وعندما اندلعت الحرب، عزل البريطانيون عباس، وأعلنوا الحماية ونصبوا عمه السلطان حسين كامل بدلاً منه (تولى العرش فيما بين ١٩١٤ - ١٩١٧). وكان نور حسين كامل مستتراً مثلما كان نور حسين رشدي في رئاسة النظارة والجامعة، وقد خسر أحمد شفيق مقعده في مجلس الجامعة، عندما صاحب الخديو في منفاه، وفي عام ١٩١٥ ترك عزيز عزت، وهو من أنصار عباس أيضاً موقعه في المجلس^(٦٨).

وفي غيبة إشراف حازم من القصر، عاد أنصار حزب الأمة - بعد أن أصبح في عداد الأموات - إلى مجلس الجامعة؛ فملاً سعد زغلول، ولطفي السيد، وعبد العزيز فهمي الأماكن الشاغرة في المجلس عام ١٩١٥، ثم انضم إليهم محمد محمود بعد ثلاث سنوات. وكان إسماعيل صدقي وعبد الخالق ثروت - وليس لهما صلة قوية بأي من التيارات - احتلا مقعدين في المجلس بالفعل قبل الحرب^(٦٩).

وافتقت الجامعة - بوجه خاص - وجود قائد قوى لها أثناء أزمتهما المالية وقت الحرب؛ ففي عام ١٩١٣ بلغ إيراد الجامعة عشرة آلاف و٢١٨ جنيهاً مصرياً، كما بلغ إنفاقها تسعة آلاف و٦٩ جنيهاً (بلغت ميزانية الأزهر لذلك العام ثلاثة أمثال ميزانية الجامعة). وأجبرت مشكلات فترة الحرب وزارة الوقاف على تخفيض دعمها السنوي للجامعة من خمسة آلاف جنيه إلى ألفين، ثم إلى سبعمائة جنيه فقط عام ١٩١٦. وأصبح على الجامعة أن تخفض مصروفاتها بمقدار النصف تقريباً لتصل إلى خمسة آلاف و٤٥١ جنيهاً مصرياً عام ١٩١٥ - ١٩١٦، حيث بلغ دخلها ستة آلاف و٧٥٥ جنيهاً فقط. وبعد ذلك، ساعدت زيادة الدعم الذي تقدمه وزارة الوقاف إلى ألف و٨٠٠ جنيه، على تخفيف الزمة إلى حد ما، ولكنه ظل أقل كثيراً من حجم ذات الدعم في أول عهده. ولحسن الحظ، حافظت نظارة المعارف العمومية أثناء الحرب على مستوى الدعم الذي تقدمه للجامعة، ومقداره ألفاً جنيهاً مصرياً^(٧٠).

وإزاء هذه الأزمة، إنتقلت الجامعة من سراي جناكليس، إلى مقر إيجاره أقل (بمبلغ ٢٥٠ جنيهاً مصرياً سنوياً) في شارع الفلكي. وأنخفضت رواتب الأساتذة؛ فبلغ راتب بداية العمل للأوروبيين أربع مائة جنية مصري سنوياً، يضاف إليها مائة جنية بدل سفر. وفي عام ١٩١٠ انخفض المرتب إلى ثلاثمائة جنية، والبدل إلى خمسين. ومع نهاية الحرب كان أستاذ اللغة الإنجليزية الذي حل محل "بيرس وايت" يحصل على ٢٥٠ جنيهاً سنوياً فقط. أما المصريون فيحصلون على مرتبات أقل؛ وهو تفاوت يقوم على أساس نفقات السفر، وبشكل أساسي على المؤهلات الأفضل للأوروبيين. ففي عام ١٩١٠ - ١٩١١ كان أساتذة دار العلوم يتقاضون من الجامعة مائتي جنية مصري، وبعد أربعة أعوام خفضت إلى مائة وعشرين جنيهاً، وكان أثنان من الأساتذة المساعدين المصريين الذين يدرسون الحقوق يتقاضيان مائة جنية فقط لكل منهما. ومع نهاية الحرب انخفضت مرتبات أساتذة الجامعة من أبناء دار العلوم إلى ما بين تسعين ومائة جنية، وذلك في وقت استعرت فيه حمى ارتفاع الأسعار^(٧٠).

وفي أحلك اللحظات، واجهت الجامعة خياراً محزناً: إما أن توقف الدراسة، أو ترسل في استدعاء أولئك الذين سيصبحون أساتذة مصريين من أوروبا قبل إنتهاء مدد بعثاتهم. وكان من شأن إيقاف الدراسة أن يعطي انطباعاً بانهايار الجامعة؛ لذا، استدعي طه حسين وغيره من طلاب البعثة. ولكن لحسن الحظ، أنقذ السلطان حسين الموقف بهبة مكنت طه وعدداً من زملائه من العودة إلى دراستهم في أوروبا^(٧٢).

البعثات التعليمية إلى أوروبا :

وأثناء تلك الفترة الحالكة، تعلقت الجامعة بالأمل في الطلاب المبعوثين إلى أوروبا. وإذا كان الأزهرى في رواية "طه حسين" (أديب) يقول: "من ذهب إلى فرنسا فهو كافر أو على الأقل زنديق"^(٧٣)؛ فمن الواضح أن الجامعة المصرية كانت تفكر بطريقة أخرى؛ عندما اعتبرت أن تأهيل الأساتذة من الأهمية إلى حد أن أولى البعثات سافرت في سبتمبر ١٩٠٨ قبيل بدء الدراسة بالجامعة. وانقسم طلاب هذه البعثة، الأحد عشر، بين تخصصات العلوم والآداب. وكان كل منهم يتلقى اثني عشر جنيهاً شهرياً مقابل نفقات معيشته، وربما نال مكافأة سفر في الصيف إذا حقق نتيجة طيبة. ولم يكن يسمح لطلاب البعثة بالزواج. وعند عودته حاملاً درجة الدكتوراه،

يتعين عليه أن يتولى التدريس بالجامعة لمدة عشر سنوات، وإلا اضطر لتسديد نفقات بعثته. وكان باستطاعة الواحد منهم أن يبدأ العمل بمرتب أربع مائة جنيه سنوياً، وربما يحصل على زيادات ترفع مرتبه إلى تسعمائة جنيه^(٧٤).

وأخذ إرسال أول بعثة طابع الاحتفال القومي؛ ففي القاهرة ودعت الوفود طلابها محملين بالامنيات الطيبة، وهلت لهم الحشود على محطات القطار الواقعة على طوال الطريق، كما استقبلتهم بالتحية في الإسكندرية^(٧٥). وفضلاً عن بضع من طلاب البعثات الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعاشرة (ومن بينهم نجل قاسم أمين) ذهبوا للحصول على تعليم غير عملي ويستغرق زمناً طويلاً، بينما لا يخرج أساتذة للجامعة، ضمت البعثات فيما بين ١٩٠٨ و ١٩٢٥ أربعة وعشرين طالباً، إتجه اثنا عشر منهم إلى فرنسا، وثمانية إلى إنجلترا، وثلاثة إلى ألمانيا، وواحد إلى إيطاليا. وبالرغم من أن الارتحال في طلب العلم، كان تقليداً إسلامياً جليلاً، إلا أن هؤلاء الطلاب قصدوا إلى باريس ولندن، وليس بغداد أو مكة، ولا قرطبة أو سمرقند.

وآخر اندلاع الحرب العالمية الأولى سفر طه حسين للبعثة، إلا أن الهجوم الألماني أندحر مع مجئ نوفمبر من ذات العام، فأبحر ومعه طالبان آخران إلى مارسيليا^(٧٦). وكان شقيق طه يرافقه - بلا أجر - في موندلييه، فأصبح على الاثنين أن يتعيشا بالاثني عشر جنيهاً المخصصة لفرد واحد في الشهر. ووافقت الجامعة على طلب زيادة قدرها جنيهان شهرياً، تساوى أجر معلم وقارئ للفرنسية واللاتينية^(٧٧). وعندما رجع طه إلى فرنسا بعد فترة استدعائه القصيرة عام ١٩١٥، قصد مباشرة إلى السربون، حيث أصبحت معركته الكبرى هي اللاتينية، وكان نظراؤه الفرنسيون سبق لهم دراستها لسنوات متصلة. فتأبر حتى حصل على الليسانس في التاريخ القديم عام ١٩١٧^(٧٨)، ثم واصل طريقة نحو الدكتوراه.

وتقدم طه حسين بطلب إلى مجلس الجامعة يلتمس التصريح له - استثنائياً - بالزواج من فرنسية كانت تقرأ له، بدعوى أن ذلك سيكون عوناً له على الدراسة. وصوت لطفي السيد، وهو معلم طه حسين وناصحه، لصالحه في قرار المجلس الذي اتخذ بأغلبية أربعة أصوات ضد ثلاثة، فنجح مشروع الزواج^(٧٩). ونظراً لعدم توفر وسيلة كسب خاصة أمام طه، علاوة على أن لديه زوجه مسئول عن إعالتها، اضطر للرجوع إلى المجلس أكثر من مرة طالباً للمال، وكانت تكاليف المعيشة قد أصبحت باهظة في فرنسا

التي مزقتها الحرب. وفي أكتوبر ١٩١٨ رفعت الجامعة منحة طه من خمسة عشر جنيهاً مصرياً إلى ثمانية عشر. وبعد أشهر قليلة عاد إلى طلب مساعدة لدفع الفواتير الطبية الناتجة عن إصابته بوباء الأنفلونزا الذي انتشر في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى، ثم طلب نقوداً أخرى لتغطية نفقات سفر زوجته إلى مصر^(٨٠).

واسترشد طه في رسالته عن ابن خلدون بالعالم الشهير "إميل دور كهايم"^(*)، والمستشرق "بول كازانوف"^(**). وقام لطفي السيد بفحص مسودة الرسالة لضمان عدم خروجها عن جادة المعتقدات - وهو الشرط المتبع منذ مشكلة منصور فهمي (التي سنبحثها في الجزء التالي من هذا الفصل) وأعلن خلوها مما يريب. ومما يذكر أن لطفي السيد وعبد العزيز فهمي دفعا شوقي ضيف - وكان يدرس أيضاً بجامعة باريس - إلى تغيير فقرات عن الإسلام في رسالته "الشعر الغنائي والنقد الأدبي عند العرب"^(٨١).

وعندما ذهب "الوفد" إلى باريس عام ١٩١٩ للدفاع عن قضية مصر، سعى طه إلى لقاء أحمد لطفي السيد، وعبد العزيز فهمي، وقابل سعد زغلول للمرة الأولى.

وحصل طه على دبلوم الدراسات العليا في التاريخ في أغسطس ١٩١٩، ثم نال دكتوراه السربون. أما درجة الدكتوراه الأكثر صعوبة، وهي دكتوراه الدولة، بما تتطلبه من إقامة في فرنسا لسنوات أربع أخرى، فلم تكن واردة. وكانت النتائج النهائية لبعثات الجامعة الخاصة هزيلة، رغم أنها ربما لا تقل عن نتائج البعثات في عصر محمد علي أو العصر الحالي؛ حيث عاد خمسة فقط يحملون الدكتوراه - من بين الطلاب الأربعة والعشرين المبعوثين - وعملوا بالتدريس في الجامعة؛ ولكن اثنين منهم لم يستمروا بسبب ما وطرد أحد الطلاب من البعثة بعد اتهامه بالانتماء إلى جماعة إرهابية، كما فصل ثلاثة منهم بسبب مغادرة محل دراستهم دون إذن. وأضاع "استنزاف العقول" عدداً من الذين تجاهلوا كلاً من القرارات والدعوات التي تطالبهم بالعودة، فضلاً عن الفشل الدراسي الذي مني به العديد منهم، واستدعي

(*) إميل دور كهايم (١٨٥٨ - ١٩١٧) عالم اجتماع فرنسي، أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث، رأى أن المجتمع هو مصدر الأحداث الدينية والدينية (المترجمة).
(**) بول كازانوف (١٨٦١ - ١٩٢٦) أستاذ أصول العربية في الجامعة المصرية. ترجم "الخطط" للمقريزي - (المترجمة)

خمسة على الأقل قبل انتهاء البعثة بسبب نقص التمويل، فعملوا بالتدريس لفترة وجيزة بالجامعة، ثم اضطروا للبحث عن عمل في مكان آخر^(٨٣).

مشكلة منصور فهمي :

بين الطلاب الناجحين في البعثات الثلاث، الذين عادوا يحملون الدكتوراه وعملوا بالتدريس في الجامعة، طالبان لم يعتبرا ناجحين في نظر الجميع. وبينما أثبتت "الجريدة" على البعثات الدراسية، تخوفت اللواء من احتمالات أن يحيد العائدون عن لغتهم، وبلدهم ودينهم. واعتقد كثيرون أن حالتي "منصور فهمي" و"طه حسين" برهنتا على أن هذه التحذيرات كانت صائبة. وقد برزت مشكلة منصور فهمي عام ١٩١٣، أما نزاع طه حسين الشهير مع المحافظين الدينيين فحدث بعد الحرب، وسوف نناقشه في الفصل السابع.

كان منصور فهمي واحداً من طلبة الحقوق النجباء، عندما أرسلته الجامعة إلى فرنسا للإعداد لدرجة الأستاذية في الفلسفة. فعرفه "ماسبيرو" على "لوسين ليفي - بروهل"، الفيلسوف ذي النزعة الاشتراكية. وفتحت باريس أمام فهمي أبواب عالم جديد؛ فاستطاب "سنوات الدراسة في السربون... ذكرياتنا حول الحى اللاتيني العزيز، والنظم المفيدة التي حولتنا إلى أرواح حرة"^(٨٥).

إلا أن الروح الحرة سرعان ما ارتطمت بالأرض في قسوة؛ عندما وصل إلى القاهرة بلاغ بأن أطروحة فهمي "وضع المرأة في تراث الحركة الإسلامية عبر تطورها" نشوة سمعة الإسلام. وأزعج العنوان - في حد ذاته - المسؤولين بالجامعة المصرية، الذين كانوا قد أغلقوا قسم الطالبات قبل ستة شهور فحسب؛ فأبرق مجلس الجامعة إلى باريس طالباً تأجيل مناقشة فهمي للرسالة، وكان مقرراً عقدها في أول ديسمبر ١٩١٣. ولكن المناقشة جرت في موعدها ونال فهمي الدكتوراه. وبعد أربعة أيام اجتمع المجلس لبحث الأمر وحضر هذا الاجتماع "ماسبيرو"، وعالم الآثار الإسلامية على بك بهجت^(٨٦)، وكانت الجامعة المصرية قد سددت ثمن طباعة الرسالة، فأبرقت إلى باريس بطلب إعادة النسخ الباقية وأصدرت أمراً بعودة فهمي إلى الوطن. وبعد ذلك، حرصت الجامعة على مراجعة جميع موضوعات الرسائل ومسوداتها قبل تقديمها إلى الجامعات الأوروبية. وألغت الجامعة تعيين فهمي في منصب الأستاذية، كما حرم من العمل بالوظائف الحكومية. واستمرت

الجامعة عاماً كاملاً دون تدريس مادة الفلسفة، ثم أوكلتها إلى مستشرق أسباني.

والحقيقة أن منصور فهمي شب ليجد الجامعة تمر بالحديث حول قاسم أمين، الذي توفي في نفس سنة حصول فهمي على منحه للدراسة في باريس. وربما ناقش فهمي قضية المرأة مع محمد حسين هيكل الذي عاصره في السربون، والذي تعكس روايته "زينب" تأثير قاسم أمين أيضاً^(٨٧). وقد اختتم منصور فهمي رسالته المقدمة إلى السربون بثناء عظيم على قاسم، مؤكداً حتمية انتصار رائد تحرير المرأة: "إنني لأحنى أمام ذكرى الكاتب المصري قاسم أمين، الذي نذر نفسه كلية لقضية المرأة، وتوفي قبل أن يسعد بجنى ثمار عمله، الذي سوف تقوده حركة التقدم الحتمى إلى النجاح في نهاية الأمر"^(٨٨).

وهكذا كان لاختيار موضوع رسالة فهمي جذور داخل الأوضاع المصرية. كما كانت مصادره الأساسية أيضاً عربية وإسلامية: القرآن، والأحاديث النبوية، وبعض مؤلفي العصور الوسطى، مثل الجاحظ والغزالي. ولكنه اتبع في تحليله المناهج التي طرحها علماء غربيون، معظمهم من المستشرقين: أساتذة ليفي - بروهل، ولانز، وسناوك هرجرونج، وليبون، ورينان، ودوزي، وفيلها وزن، وبرون. وكان عدد من هؤلاء رغم نزعتهم العلمية - معادياً للإسلام. كذلك أنبهر فهمي بالأوساط اليسارية شديدة التحرر، فنسي الحساسيات التي تنتظره في الوطن.

ومثلما فعل محمد عبده وقاسم أمين، حرص فهمي على التمييز بين جوهر المعتقدات الإسلامية الأصلية، وبين العادات والتقاليد التي أضيفت إليها لاحقاً، وبدأت في آخر الأمر كما لو كانت جزءاً مقدساً من الإسلام. ولكن فهمي أدار ظهره لمحمد عبده، واتباع المستشرقين، بأسس دينية مزعومة؛ فأطلق على جوهر الإسلام "المحمدية" وعلى الإضافات المستحدثة "الإسلامية"^(٨٩). وفتحت هذه الأسس المزعومة المجال للمزلق، مع مواصلة فهمي التأكيد على أن وضع المرأة العربية تدهور مع مجيئ الإسلام، وأن محمداً ألف القرآن، وأن أهواءه دفعتته إلى صياغة الرسالة السماوية وفقاً لمنفعته الشخصية. "فمحمد" الذي لقبه فهمي "بالمشرع": "لأريب أنه وجد من الصعب عليه إخضاع نفسه للقوانين التي أعلنها باسم الله رغم إصراره - كمصلح - على فرض هذه القوانين على الأمة التي أراد أن يشكلها. بيد أنه سرعان ما حل العضلة: فأسبغ على من يعهد إليهم برسالة مقدسة امتيازات

لا ينعم بها البشر العاديون؛ ولم يتردد محمد، ولديه مشيئة الله جاهزة يستخدمها لتفسير أعماله، في أن يقول أن اختياره لعائشة "العروس الطفلة، بنت أبي بكر" كان بوحى منه تعالى". ومع أن مثل هذه التفسيرات كانت شائعة في الكتابات الغربية في ذلك الوقت، إلا أنها اعتبرت في نظر المسلمين المتدينين كفراً صريحاً.

وأما في فهمي السنوات العvisية التالية لعودته من فرنسا، يعمل سكرتيراً بجمعية الصليب الأحمر، ويصدر المقالات التي جمعت فيما بعد في كتاب "خطرات النفس" ولكن اندلاع الحرب العالمية، وقيام ثورة ١٩١٩، صرفا الأذهان عن هرطقته، وفي عام ١٩٢٠، عينته الجامعة - سراً - بنظام المكافأة، لتدريس الفلسفات الغربية والعربية. وعندما لم تقع متاعب بسبب ذلك، انضم في العام التالي إلى طه حسين والآخرين كعضو منتظم في هيئة التدريس لقاء أربعمئة جنيه مصري سنوياً^(٩٠). وواصل فهمي التدريس خمسة عشر عاماً أخرى، إلا أن ثقته في نفسه كانت قد اهتزت؛ فلم يعد ينشر سوى كتابات قصيرة على نحو متقطع. ثم أصبح بعد ذلك مادة للسخرية تمثلها شخصية الدكتور إبراهيم عقل، في رواية نجيب محفوظ "المريا". وبهذا الاستعراض لسيرة منصور فهمي أصبح المسرح الآن معداً لقيام الجامعة العامة في فترة ما بين الحربين.

الهوامش

- ١- الأيام - الجزء الثالث ص- ٣٠ - ٣١.
- ٢- بدير - ص- ١٣٥ - ١٤٤.
- ٣- بدير ص- ١٧٧ - ١٤١ - و :
- Alfred Cunnigham, Today in Egypt (london, 1912). P.109.
- ٤- أنظر : جدول ٣.
- ٥- الأيام. الجزء الثالث ص- ٦.
- ٦- على سبيل المثال : ملفات جامعة القاهرة ٣ / ١٣٢، تقرير مجلس إدارة الجامعة ١٩ مايو ١٩١٧ و ٣ / ١٣٤ تقرير مجلس إدارة الجامعة ١١ أكتوبر ١٩١٩.
- ٧-
- Donald C. meade, Growth and structural change in Egyptian Economy (homewood, Illinois, 1967) p. 301.
- ٨- أمين سامي "التعليم في سنتي ١٩١٤ و ١٩١٥ (القاهرة ١٩١٧) ص- ١٤.
- ٩-
- Fanny Davis, The Ottoman lady : A Social History form 1718 to 1918 (New York, 1986) p. 54.
- ١٠-
- Judith E. Tucker, Women in Nineteenth Century – Egypt (Cambridge, England, 1985), pp. 124 – 25.
- ١١-
- Delanoue, Moralistes 2 : 482 – 58. Byron D. cannon, "Nineteenth – Century Writings on Women and Society : the Interim Role of the Masonic press in Cairo – al – lata'if, 1885 – 1895".
- و :
- ١٢-
- Margot Badran, "Independent Women : A Century of Feminism in Egypt", وهي ورقة بحث غير منشورة قدمت إلى مؤتمر جامعة جورج تاون حول المرأة العربية ١٩٨٦.
- و :
- "Islam, Patriarchy, and Feminism in the Middle East, trends in History" 4 (1985) : 65 – 66.
- : قاسم أمين : "تحرير المرأة" وأيضاً "المرأة الجديدة" (القاهرة ١٩٠١).
- ١٣- أنظر

Juan Ricardo Cole, "Feminism, Class and Islam in turn – of the Century Egypt", *IjMWS* 13 (1981) : 387 – 407; the Introduction to Hoda Shaarawi, *Harem Years : the Memories of an Egyptian feminist* (trans. Margot Baddran, New York, 1987); Thomas Philip, "Feminism and Nationalist Politics in Egypt" in Lois Beck and Nikki Keddie, eds., *Women in the Muslim World* (Cambridge, Massachusetts, 1978), pp. 277 – 94.

بالإضافة إلى مقابلتين مع السيدة بهيجة صدقي رشيد، القاهرة ٣، ٤ يناير ١٩٧٨. و:
Baheega Sidky Rasheed et al., *the Egyptian Union* (Cairo, 1973).

-١٤

- (Gorst), reports, 1909, p. 209.

وسامية حسن إبراهيم "الجامعة الأهلية..." ص- ٨٩. ويذكر بدير ٢٢ فتاة (ص- ٢٠٩) ولكنه لا يشير إلى طالبات الاستماع.

١٥- مذكرات هدى شعراوي رائدة المرأة العربية الحديثة، أمين سامي (القاهرة - مقدمة ١٩٧٩) ص- ١١٥ - ١٣١ - يسرد فيه تجاربها مع الجامعة. قارن Shaarawi, *Harem 92 – 94. years*, pp 92 – 94. ربما كان لوى كليمان الذي تولى تدريس الأدب الفرنسي بالجامعة لعدة سنوات من أقارب مدموازيل "كليمان".

١٦- عن قصة حياتها أنظر : يوسف أسعد داغر : مصادر الدراسات الأدبية (بيروت ١٩٥٦) الجزء الثاني ص- ٧٣٩ - ٧٤١.

١٧- حصلت أول امرأة على شهادة الأستاذية عام ١٩٠٥.

- George Weisz, *the Emergence of Modern Universities in France, 1863 – 1914* (Princeton, 1983), p. 245.

وبخصوص هذه الفقرة بوجه عام أنظر : بدير ص- ١١٩، ٣٧٨ - ٣٧٩.

-١٨

- M.A. Couvreur, *Etude de psychologie et de morale feminines : Confrences faites aux dames egyptiennes Annee 1910 – 11. Universite Egyptienne* (Cairo, n.d) pp. 36, 38, 429, and 373.

-١٩

- Couvreur, *Etudes*, pp. 190-91.

٢٠- بدير ص- ١٢٨ - ٢٩.

-٢١

- Philipp, in Beck, *women*, pp. 280-81.

وتقوم "بث أن أردن" بإعداد رسالة دكتوراه لجامعة "أوكلاهاما" عن صحافة المرأة العربية في مصر^(*).

^(*)International Journal of Middle East Studies

٢٢- نبوية موسى : "المحاضرات النسائية في الجامعة المصرية"، الأهرام ١٦ أبريل ١٩١٢، أعيد طبعها في : الأهرام - شهود العصر ١٨٧٦ - ١٩٨٦ (القاهرة ١٩٨٦) ص - ٣٨ - ٤٢. وأمين سامي : التعليم، ملحق (٣) ص - ٥٤. - ٢٣

- Hans kohn, ed., Grosse Point, Michigan, 1969, p. 243; Davis, Ottoman lady, p. 55.

٢٤- بدير : ص - ١٢٠، وهدى شعراوي : منكرات .. ص - ١١٦
٢٥- "الجريدة" ١٠ سبتمبر ١٩١٠، كما نقلت في عبد المنعم إبراهيم الدسوقي الجامعة المصرية ... ص - ٢٩، و"الجامعة المصرية القديمة ... ص - ٤٧. و"الجريدة" ٢٥ مايو ١٩١٠، كما ورد في "الجامعة المصرية .. ص - ١٨. - ٢٦

- Cole, "Feminism", IJMES 13 (1981) : 391, 402.

٢٧- ملفات جامعة القاهرة ١٦ / ١٢٨ تقرير مجلس إدارة الجامعة ٣٠ مايو ١٩١٢.

٢٨- تقرير مجلس إدارة الجامعة ١٩١٧ - ١٩١٨ ص - ٢٧.

٢٩- ملفات جامعة القاهرة ١٦ / ٤٨٣ نتائج الامتحانات ٢٠ مايو ١٩٢٤.

٣٠- بدير : ص - ٢٥٨ - الصورة التالية ص - ٢٦٤.

- ٣١

- Taha Hussein Adib Ou L'aventure occidentale trans Amina and moens taha Husse in (cairo 1960).

(يرجع مؤلف الكتاب إلى الترجمة الفرنسية المذكورة لرواية طه حسين "أديب"، ورأيت من الأنسب للقارئ العربي إرجاع العبارات الواردة من الرواية إلى أصل النص العربي والاستناد إليه فيما تلا ذلك : طه حسين "أديب" سلسلة كتب للجميع (القاهرة ١٩٥٢) ص - ١٢، ٤٦، ٥٠. (المترجمة).

٣٢- الأيام - الجزء الثالث ص - ٣٧ - ٣٨. وتوجد مقتطفات من محاضرات رفعت في ملفات جامعة القاهرة ١٤ / ١٧٠ و ٨٧/٦. وقد نشرت الجامعة محاضراته تحت عنوان : "الطبيان في تاريخ البلدان" (القاهرة ١٩١٢).

٣٣- الأيام - الجزء الثالث ٣٩ - ٤٠ - وعن الجواهرى أنظر داغر : مصادر .. ٢ - ص - ٢٨١ - ٢٨٤.

٣٤- ملفات جامعة القاهرة ٢ / ١٢٦ بتقرير مجلس إدارة الجامعة ١٠ فبراير ١٩١٠. ورد تقييم طه في الأيام الجزء الثالث ص - ٣٧ - ٣٨، وفي كتابه حديث الأربعاء (بيروت ١٩٨٠) ص - ٦٤٠ - ٦٥١. والتعليقات على قصة حياته : عبد الجواد، دار العلوم، ص - ٢٧٩ - ٢٨٠. وداغر : مصادر ٢ - ص - ٣٤٢ - ٣٤٣.

٣٥- الأيام الجزء الثالث ٤٠ - ٤١. وطه حسين، حديث الأربعاء ص - ٦٢٠ - ٦٢٦. وتوجد معلومات حول قصة حياته في : عبد الجواد، دار العلوم ص - ٢٧٢ - ٢٧٣. والزيريكلي "العلم" ٧ : ١١٤.

٣٦- إسماعيل حسين، مجلة التربية الحديثة - ١٠ أبريل ١٩٣٧ ص - ٣٩٢.

- Ign Guidi, L'Arabie Anteislamique (paris, 1921) p. 31.
- ٣٨- كارلو نالينو، تاريخ علم الفلك عند العرب (القاهرة ١٩١١)
- la litterature Arabe des origines al'epoque, de la dynastie ummayyade, trans. C. pellat (paris, 1950).
- ٣٩- ملفات جامعة القاهرة ١٩ / ٥٤٤ تحتوى على الخطوط الرئيسية للدروس اليومية التي كان ماسينيون يلقاها بخط يده غير المؤلف.
- و :
- Louis massignon, "L 'Histoire des dectrines philoxophiques arabes a L'Universite du cairo," revue du monde masulman : 21 (1912) : 149 – 57.
- وهي النص الفرنسي لأولى محاضراته. والمحاضرات متاحة الآن – دون أن تتصدرها "البسمة" – في لويس ماسينيون، محاضرات في تاريخ الاصطلاحات الفلسفية العربية.
- ٤٠- إسماعيل حسين، مجلة التربية الحديثة ١٠ أبريل ١٩٣٧ : ص - ٣٨٦، ٣٩٢ - ٣٩٣.
- ٤١- الأيام - الجزء الثالث ص - ٣٤، أنظر ص - ٤٢ - حول ازدياد طريقة المستشرقين في التحدث بالعربية.
- ٤٢- مجمع اللغة العربية : مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما - (الجزء الثاني القاهرة ١٩٦٦) المجمعيون ص - ٢٢٨.
- ٤٣- طه حسين - المجلة التاريخية المصرية - ١٠ (١٩٣٧) ص - ٣٨٦ - ٣٨٧.
- ٤٤- الأيام - الجزء الثالث ص - ٣٤.
- ٤٥- ملفات جامعة القاهرة ١/١ تقرير اللجنة الفنية ٢ مايو ١٩٠٨.
- ٤٦- طه حسين - المجلة التاريخية المصرية ١٠ (١٩٣٧) ص - ٣٩٢.
- ٤٧- أحمد أمين، حياتي (القاهرة ١٩٦١) ص - ٦٥، ٧٧. وعن أحمد أمين أنظر : حمدي السكوت ومارسدن جونز : أعلام الأديب المعاصر في مصر - الجزء الرابع : أحمد أمين (القاهرة ١٩٨١).
- ٤٨- حياتي ص - ٧٧.
- ٤٩- الأيام - الجزء الثالث ص - ٦ - ٧.
- ٥٠- الأيام - الجزء الثالث ص - ٦.
- ٥١- الأيام - الجزء الثالث ص - ٨.
- ٥٢- أحمد أمين حياتي ص - ١٠١.
- ٥٣- طه حسين أنيب - سلسلة كتب للجميع ١٩٥٢ - شركة التوزيع المصرية الاستشهاد التالي من ص - ١٠ - ١١ - (المترجمة).
- ٥٤- طه حسين - المجلة التاريخية المصرية ١٠ (١٩٣٧) ص - ٣٩١ - ٣٩٢.
- ٥٥- عبد الوهاب عزام، صحيفة الجامعة المصرية - ٢ (١٩٣١) ص - ٨٣ - ٨٤.
- ٥٦

- Mohammed al - Nowaihi, "Towards a Reappraisal of Classical Arabic Literature and History : Some Aspects of Taha Husayn's Use of Modern Western Criteria, "IJMES 11 (1980) : 192 - 93.

- ٥٧- أحمد أمين حياتي ص- ١٣١ - ١٣٢ ، ١٠٩ ، ٢٢٣ - ٢٢٤ .
- ٥٨- ملفات جامعة القاهرة ١٥ / ٤٥٢ - نتائج الامتحانات إبريل ١٩١٣ .
- ٥٩- الأيام - الجزء الثالث ص- ٥٢ - ٥٣ .
- ٦٠- ملفات جامعة القاهرة ١٥ / ٥٤١ - نتائج الامتحانات - إبريل ١٩١٤ .
- ٦١- طه حسين ، أديب ص- ١٠ - (المترجم) .
- ٦٢- الأيام - الجزء الثالث ص- ٦٠ - ٦٢ . و : بدير ص- ٢١٥ - ٢١٧ . و : شفيق : مذكرات الجزء الثاني ص- ٣١١ - ٣١٢ .
- ٦٣- الأيام - الجزء الثالث ص- ٦٦ .
- ٦٤- بدير : ص- ١٤٧ - ١٥٢ .
- ٦٥- ملفات جامعة القاهرة ٢ / ١٣٠ تقرير مجلس إدارة الجامعة ٨ مارس ١٩١٤ . وعن رشدي أنظر : إلياس زاخوري : مرآة العصر في تاريخ ورسوم أكابر الرجال في مصر (القاهرة ١٩١٦) الجزء الثاني ص- ٦٨ - ٧١ . وملف معاشه في أرشيف دار المحفوظات، ملفات الخدمة ٦٤ / ١ / ١٤٨٠ / ٢٨٢٣٤ - ١٩١٩؛ و :
- FO 371 L 12388, Lloyed to Chamberlain, May 23, 1927, "Biographies," p. 12.
- ٦٦- بدير : صور فوتوغرافية بعد ص- ٢٩٦ .
- ٦٧- تكرر ذكره في ملفات جامعة القاهرة - تقارير مجلس إدارة الجامعة، والأيام .
- ٦٨- ملفات جامعة القاهرة ٢ / ١٣١ - تقرير مجلس إدارة الجامعة ٢٨ أبريل ١٩١٥ . و : بدير ص- ٢٩٧ .
- ٦٩- بدير : ص- ٢٤٩ ، ٢٩٧ - ٢٩٨ ، ٣٠٢ .
- ٧٠- عن البيانات الواردة في هذه الفقرة، أنظر : بدير ص- ٢٦٥ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ - ٢٧٦ . وتقري -ر مجلس إدارة الجامعة ١٩١٥ - ١٩١٦ ص- ٩ ، ١١ . و :
- Eccel, Chris. Egypt, Islam and Social conflict and Accomodation in Al - Azhar (Berlin, 1984). P 244.
- ٧١- ملفات جامعة القاهرة ٢ / ١٣٠ تقرير مجلس إدارة الجامعة ١٧ يونيو، ٧ أكتوبر ١٩١٤ . و ٢ / ١٢٦ تقرير مجلس إدارة الجامعة ٨ مارس ١٩١٠ . و ٣ / ١٣٥ تقرير مجلس إدارة الجامعة ١١ أكتوبر ١٩١٩ .
- ٧٢- بدير ص- ٢٠٠ ، ٢٧٣ . و : الأيام - الجزء الثالث ص- ٨٥ - ٩٤ .
- ٧٣- طه حسين - أديب - ص- ٦٦ - (المترجمة) .
- ٧٤- ملفات جامعة القاهرة ١ / ١ تقرير اللجنة الفنية ٢٤ مارس ١٩٠٨ ص- ٤ ، و ١٨ مايو ١٩٠٨ . وعن البعثات التعليمية بوجه عام، أنظر : بدير ص- ١٨٦ - ٢٠٦ .
- ٧٥- جريدة "المؤيد" ٨ سبتمبر ١٩٠٨ ص- ٤ ، ١٢ سبتمبر ١٩٠٨ ص- ٥ .

- ٧٦ - حول هذه الفقرة أنظر : الأيام - الجزء الثالث : ٧١، ٧٤، ٧٩، - ٨٢، ٨٥ - ٨٦، ٩١ - ٩٢، ١٨٠ - ١٢٠.
- ٧٧ - ملفات جامعة القاهرة ٢ / ١٣١، تقرير مجلس إدارة الجامعة ٢٤ مارس ١٩١٥.
- ٧٨ - عن تقييم أستاذه الفرنسي أنظر : ملفات جامعة القاهرة ٢ / ١٣١ تقرير مجلس إدارة الجامعة ١٩ يونيو ١٩١٧. ورواية طه حسين للموضوع في : "الأيام" - الجزء الثالث ١١٨ - ١٢٠.
- ٧٩ - ملفات جامعة القاهرة ٢ / ١٣١ تقرير مجلس إدارة الجامعة ١٩ مايو ١٩١٧.
- ٨٠ - ملفات جامعة القاهرة ٣ / ١٣٤ تقرير مجلس إدارة الجامعة ٢٦ أكتوبر ١٩١٨، و ٢ مارس ١٩١٩.
- ٨١ - ملفات جامعة القاهرة ٢ / ١٣١ تقرير مجلس إدارة الجامعة ٢٨ مايو ١٩١٧. وعن الرقابة على أطروحة "ضيف" أنظر ملفات جامعة القاهرة ٢ / ١٢٣ تقرير مجلس إدارة الجامعة ٥ مارس ١٩١٧.
- ٨٢ - الأيام - الجزء الثالث ص - ١٣٨ - ١٤٣، ١٢١ - ١٢٢، ١٢٧ - ١٣٤.
- ٨٣ - تم التعرض لطفه حسين ومنصور فهمي في مكان آخر من هذا الكتاب أما محمد سلطان فأصبح أستاذا للقانون. بينما لم يعين أحمد ضيف وعلى العنانى في الجامعة العامة، أنظر أحمد ضيف : مقدمة لدراسة بلاغة العرب (القاهرة ١٩٢١) وإطار البحث في ملفات جامعة القاهرة ١٤ / ١٧٠. وحول تعيين العنانى في الجامعة أنظر : ملفات جامعة القاهرة ٣ / ١٣٧ تقرير مجلس إدارة الجامعة ١١ ديسمبر ١٩٢٠. ونظراً لأنه درس في برلين آداب الشعوب السامية فقد تولى فيما بعد التدريس في دار العلوم، أنظر : محمد عبد الجواد - تقويم دار العلوم (القاهرة ١٩٥٢) ص - ٢١ - ٢٢. أما بالنسبة لطلاب البعثات الذين لم يكملوا دراساتهم، أنظر على سبيل المثال : بدير ص - ١٩٠، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٥.
- ٨٤ - جريدة "اللواء" ١١ سبتمبر ١٩١٠. كما نقله عبد المنعم إبراهيم الدسوقي في : الجامعة المصرية والمجتمع ... ص - ٤٠.
- ٨٥ -
- Mansour Fahmy, la Condition de la femme dans la tradition et l'evolution de l'Islamisme (paris, 1913), p.f.
- وعن التصوير الأدبي الذي كتبه نجيب محفوظ أنظر :
- Donald M. Reid, "the sleeping philosopher" of Naguib Mahfuz's mirrors", the muslim world 74 (1984) : 1-11.
- وعن فهمي : أنظر أحمد فؤاد الأهواني، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة (ديسمبر ١٩٥٩) ص - ١ - ٦. ومجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً - الجزء الثاني : المجمعيون (القاهرة ١٩٦٦) ٢٢٥ - ٢٢٧ و : الزيريكلى - "العلم" (١٩٨٠) ٧ : ٣٠٢ وجامعة فؤاد الأول : الكتاب الفضي لكلية الآداب ص - ٢٥ - ٢٦.
- و :

- ٨٦- بالنسبة لهذه الفقرة والتي تليها أنظر : ملفات جامعة القاهرة ٢ / ١٢٩ تقرير مجلس إدار الجامعة ٥ ديسمبر ١٩١٣. و ٢ / ١٣٠ تقرير مجلس إدارة الجامعة ١٤ يناير ١٩١٤. وكان الوقت قد أصبح متأخراً للغاية بالنسبة لحجب الرسالة التي أثارت الغضب.
- ٨٧- محمد حسين هيكل، مذكرات في السياسة المصرية (القاهرة ١٩٥١) الجزء الأول ص- ٤٦. وقد أشار روجر آلان إلى العلاقة بين هيكل وفهمي.
- ٨٨-

- Fahmy, Condition, p. 166.

- ٨٩- المصدر السابق ص- ٦ رقم ٥ والاستشهادات التالية من الصفحات ١٥ - ٦، ٢٣.
- ٩٠- ملفات جامعة القاهرة ٣ / ١٣٦ تقرير مجلس إدارة الجامعة ٢٢ يوليو ١٩٢٠ و ٣ / ١٣٧ تقرير مجلس إدارة الجامعة ١٨ أبريل ١٩٢١.

القسم الثاني

الجامعة والنموذج الليبرالي

١٩١٩ - ١٩٥٠

[٤]

التحول إلى الجامعة العامة

أمير النهضة والمنبر الوفدي :

عندما تخلى الأمير فؤاد عن الجامعة المصرية عام ١٩١٣، تاركاً إياها لمصيرها، لم يكن هناك - تقريباً - من يصدق أنها ستبقى، أو أن مديرها السابق سيصبح ملكاً يوماً ما. غير أن فؤادا كان يعرف كيف يخطط وكيف يتريث. فقد توفي السلطان حسين كامل عام ١٩١٧، ورفض ابنه العرش، فاعتبر البريطانيون أن فؤادا مأمون بدرجة تسمح بتوليده الملك. وفي عام ١٩٢٥، عندما أصبح محمد رضا شاه إيران، وحظر مصطفى كمال أتاتورك ارتداء الطربوش والعمامة، وقامت الانتفاضات تتحدى فرنسا في سوريا وفي الريف المغربي - أعاد الملك فؤاد تأسيس الجامعة المصرية كجامعة عامة.

وأصبح على الملك أن ينضم إلى دائرة الضوء في الجامعة وعلى صعيد السياسة الوطنية، الأمر الذي سبب له الندم فيما بعد. وكان المنسوب السامي "فسكونت إدموند اللنبى" يمثل إنجلترا التي أصابها الضعف، ولكن مازالت لديها أحلام استعمارية. وعلى خلاف العديد من الإنجليز، كان "فاتح القدس" من الواقعية بمكان إلى الحد الذي يجعله يرى أنه ينبغي على إنجلترا أن ترخي العنان وأن تبحث لها عن حلفاء مصريين حتى تحمي مصالحها الحيوية. وإذا بسعد زغلول يبرز كمُدافع عن مصالح مصر، متجاوزاً في ذلك الطبقة العليا التي ينتمى إليها ليصل إلى جميع أبناء بلده، داعياً في وضوح إلى الاستقلال الفوري. واختلف لطفي السيد أول مدير للجامعة العامة - وكان يمثل المتقنين وملاك الأراضي الأثرياء - مع سعد زغلول، وشكل حزب الأحرار الدستوريين. وكان سعد زغلول بما يمثله من فخار وشعبية لدى رجل الشارع، والملك فؤاد بنزعتة الأتوقراطية الواضحة، يشعران معا بالاستياء إزاء التعنت الإنجليزي^(١).

ولم تكن الجامعة المصرية الجديدة، سوى إحدى المؤسسات الثقافية العديدة التي زان بها فؤاد عهده. وحرص على الظهور في صورة الراعي المستتير لكل من الأزهر، والجمعية الجغرافية، ومجمع اللغة العربية،

والجمعية الطبية المصرية، ومتحف الفن العربي، والمتحف القبطي. كما قام برعاية المؤتمرات الدولية للبريد، والطب، والقطن والسكك الحديدية، والملاحة، والري، والإحصاء. وصدرت الطوابع البريدية احتفاء بهذه الأحداث، كما أنشئت متاحف في بعض هذه المناسبات (ما زالت الأتربة تتراكم عليها في أركان منسية من القاهرة)، وخلافا لتقليد إسلامي استمر قرونا، طبع الملك صورته على الطوابع والعملات على سبيل الدعاية لنفسه^(٢). كما أشرف فؤاد أيضا على نشر وثائق تسجيلية وكتب تاريخية، تمجد ماضى مصر، ومآثر أسلافه على نحو خاص^(٣).

وأدت الحرب - في آخر الأمر - إلى فصم عرى العلاقة مع الدولة العثمانية، كما أتاحت الانتفاضة الوطنية غير المتوقعة ضد الإنجليز في مارس ١٩١٩، الفرصة لتحقيق حلم فؤاد بممارسة السلطة الحقيقية. ولكن سعد زغلول (الذي تردد أنه كان يغش الملك على مائدة القمار)^(٤) هو الذي جسد إرادة الشعب المصري إلى أن توفي عام ١٩٢٧.

اندلعت ثورة ١٩١٩ - كما يسميها المصريون - بفعل عشرات السنوات من معاناة الإحباط تحت الحكم البريطاني، والمصاعب التي شهدتها سنوات الحرب قريبة العهد آنذاك. وأصاب البعض ثراء إبان الحرب، مثل رجال الصناعة المحليين والمقاولين الذين تولوا توفير الإمدادات للقوات البريطانية والإمبراطورية - وملاك الأراضي - أجانب ومصريين.

أما الفلاحون، فكان نصيبهم المعاناة - كما هو الحال دائما - وأسفر التجنيد الإجباري ضمن قوافل العمال المصاحبة لقوات حملة اللبني إلى فلسطين، عن إبعاد عديد منهم عن نوبيهم. كما أضر فقراء المدن وصغار الموظفين والمدرسين، ممن يعتمدون على أجور ثابتة، ضررا كبيرا؛ فارتفع المؤشر الرسمي لتكاليف المعيشة من ١٠٠ عام ١٩١٤، إلى ٢٣٧ عام ١٩٢٠، بينما كان معدل الزيادة الحقيقية أكثر من ذلك. ولم تكن الزيادات التي أضيفت إلى مرتبات موظفي الدولة فيما بعد الحرب كافية، رغم أنها ضاعفت تقريبا من أجورهم الرسمية^(٥). وأدى إلقاء القبض على سعد زغلول، وإسماعيل صدقي، ومحمد محمود وحمد الباسل، ثم نفيهم في ٨ مارس ١٩١٩ إلى تفجير الانتفاضة. وكان وفد مكون من سعد زغلول، وعبد العزيز فهمي، وعلى شعراوي (زوج هدى شعراوي) قد توجه إلى المندوب السامي "ريجنالد وينجت" في نوفمبر من العام السابق للمطالبة بالاستقلال، كما ساهم لطفي السيد في الإعداد للمحاولة. ونقل و"ينجت" المطالب إلى لندن، التي لم

تكن متعاطفة، بالإضافة إلى انشغالها بالإعداد لمؤتمر السلام المقرر عقده في باريس.

ولا ريب أن سعدا ولطفي السيد وعبد العزيز فهمي، والأعضاء الآخرين في مجلس الجامعة وجدوا صعوبة في التركيز عند اجتماعهم مساء ٢ مارس ١٩١٩ وسط هذه الأحداث^(٦). ورأس سعد زغلول الاجتماع باعتباره نائب الرئيس والسكرتير العام. أما حسين رشدي، رئيس مجلس الوزراء ورئيس مجلس الجامعة، فتغيب كالعادة. ومن بين أعضاء المجلس في سنوات ما بعد الحرب، أربعة ممن تولوا رئاسة الوزارة فيما بعد، هم: سعد زغلول، وعبد الخالق ثروت، وإسماعيل صدقي، ومحمد محمود. وتعكس العضوية المتميزة للمجلس أهمية الجامعة، التي كانت تشق طريقها بصعوبة، كرمز وطني.

وبعد ستة أيام من الاجتماع، نفت بريطانيا سعد زغلول إلى مالطا، فاجتاحت البلاد عاصفة من الاحتجاج. وأصبح الوفد، بين عشية وضحاها، القوة السياسية الرئيسية في البلاد، واستمر هكذا حتى عام ١٩٥٢. وأدت الاضطرابات إلى إبعاد عضوين تقريبا من أعضاء مجلس الجامعة عن الاجتماعات المقررة من ١١ وحتى ٢٢ مارس. كما لم يعد الهدوء بالصورة التي تكفي لعودة بقية المجلس إلى الانعقاد حتى ٧ يونيو. عندما صوت المجلس برئاسة عبد الخالق ثروت - بسبب غياب سعد زغلول وحسين رشدي - لصالح استغلال خمسة أسابيع من فترة الخريف لتعويض ما ضاع من وقت الدروس والامتحانات قبل بدء العام الدراسي الجديد في ١٥ نوفمبر^(٧).

وأدت أحداث الربيع إلى إزاحة حسين رشدي عن رئاسة الوزارة. وفي أغسطس عاود تقديم استقالته من رئاسة المجلس، وكرر المجلس مطالبته بالبقاء^(٨). ومع وجود رئيس صوري للجامعة، وبقاء سعد زغلول في باريس للضغط من أجل الاستقلال، استمرت الجامعة تشق طريقها في ببطء. فكانت - بغير علم مجلسها - تمثل قناة اتصال بين سعد زغلول وبين خلية وفدية تعمل في الداخل تحت زعامة عبد الرحمن فهمي. ونفذت الخلية أعمال العنف ضد بريطانيين ومصريين اعتبروا متعاونين مع المحتل. وكان أحد موظفي السكرتارية - من أنصار سعد - ينقل التعليمات المكتوبة بعصير البصل غير المرئي، بين سطور الدوريات التي تصل بالبريد إلى مكتبة الجامعة.

مفكر الأحرار الدستوريين : لطفي السيد ومحمد حسين هيكل

وسرعان ما أظهر الوفد قدرته على تخريب أي اتفاق بريطاني مع السياسيين. لذلك نظر البريطانيون بعين الاعتبار إلى "المعتدلين" ونفذت بريطانيا - على مضض - اقتراح اللبى بإعلان استقلال مصر من طرف واحد في فبراير ١٩٢٢. وهو استقلال يستثني استمرار بقاء القوات البريطانية، واحتفاظ بريطانيا بحق الفيتو في الشئون الخاصة بالمواصلات الإمبراطورية، والدفاع، ومصالح الأجانب والأقليات، ثم السودان. وقبل عبد الخالق ثروت هذا الاتفاق، وأصبح رئيسا للوزارة. ثم أنشأ مؤيدوه حزب الأحرار الدستوريين في أكتوبر، وعينوا علي يكن رئيسا له، ومحمد محمود نائبا للرئيس. ورفض الوفد الاعتراف بهذا الاستقلال وقاطع اللجنة التي عينها ثروت برئاسة حسين رشدي لصياغة الدستور^(١٠).

وأسهمت الخصومات الشخصية في اتساع شقة الصدع بين الوفد والأحرار الدستوريين. وهناك أيضا عنصر التوتر الطبقي؛ فسعد زغلول يسمى نفسه "قلاحا" ورغم أن الوفد كان يضم حفنة من كبار ملاك الأراضي، إلا أن التأييد الرئيسي له جاء من الشريحة المتوسطة من الملاك ومن المهنيين والموظفين في المدن. بينما قامت بنية حزب الأحرار الدستوريين على الورق أساسا، مثلما كان حال حزب الأمة (فترة ما قبل الحرب). وجمع الحزب ما توفر له من تأييد شعبي ضئيل من خلال الانتماءات الشخصية والعائلية، وتمكن الأحرار الدستوريون - بما لهم من ثراء، وبروز اجتماعي، ونزوع إلى السياسة النخبوية على الطراز القديم - من تحقيق نفوذ يتجاوز قدرتهم العددية. كما كانوا مهيين استراتيجيا، لعقد التحالفات مع كل من البريطانيين، والقصر، والوفد، بالتناوب.

وساعد الأحرار الدستوريين - أيضا - نكاء مفكريهم الذين كان العديد منهم على صلة بالجامعة في فترة ما، فضم معسكر الأحرار الدستوريين كلا من لطفي السيد، ومحمد حسين هيكل، وعبد العزيز فهمي، وطفه حسين (حتى الثلاثينيات)، وكذلك علي ومصطفى عبد الرازق.

وكان لطفي السيد قد استقال من "الجريدة" وهجر السياسة والصحافة، وقت اندلاع الحرب العالمية الأولى وحل حزب الأمة. وعندما عين كأول مدير لدار الكتب القومية أعجبه ما فيها من هدوء مكنه من ترجمة أرسطو من الفرنسية إلى العربية. وانضم إلى مجلس الجامعة عام ١٩١٥، وأصبح فيما بعد نائبا لرئيسه وسكرتيره العام. وساعد في بحث دمج الجامعة الأهلية

في الجامعة العامة. غير أن انتفاضة ١٩١٩ أعادته إلى عالم السياسة، كوفدى في أول الأمر، ثم عضو في الأحرار الدستوريين بعد ذلك.

ولا ينبغي تجاهل نزعة لطفي المحافظة - فهو وإن استهجن انعدام الحرية السياسية، وإهمال التعليم، إلا أنه ارتضى أن يقول عند رحيل مندوب الاحتلال " : لا يستطيع أحد أن ينكر النتائج الباهرة التي تحققت لمصر من خلال هذه السياسة المالية... فاللورد كرومر - بحق - رجل اقتصاد ومال عظيم للغاية. فكم من أراض زراعية زادت منذ ١٨٨٣ حتى الآن ؛ وكم ارتفعت قيمة العقارات في الريف والحضر بفضل هذه السياسة !

فليعمل المصريون وفقا لمشورة رجل الدولة العظيم، وخبير المال رفيع القدر الذي يغادرنا؛ لأن آرائه ثمرة معرفة عملية واسعة، وخبرات كثيرة" (١١).

وفيما بين استقالته من الجريدة في سن الثانية والأربعين، وبين وفاته بعدها بنصف قرن عام ١٩٦٣، لم ينشر لطفي شيئا جديدا عدا ترجمته لأرسطو. وقلت الكتابات عن سيرته الذاتية بعد أوائل العشرينيات، كما لم يكتب أحد كثيرا عن سنواته في الجامعة وفي الوزارة.

ومن حسن حظ حليفه محمد حسين هيكل أنه كتب مؤلفات ضخمة حتى الخمسينيات ونالت سيرته بحثا دقيقا (١٢). وكان كل من الرجلين ينتمى لأسرة من ملاك الأراضي في دلتا مصر، تولت منصب العمودية. وكلاهما اختارا الدراسة بالمدارس العامة بدلا من الأزهر، ونزحا إلى القاهرة للالتحاق بالمدرسة الخديوية الثانوية، ثم مدرسة الحقوق. ثم ذهب هيكل إلى باريس للحصول على درجة علمية فرنسية في القانون، بينما جاء التقاء لطفي بالثقافة الفرنسية على أسس أضعف. وساهم هيكل في صحيفة لطفي "الجريدة" بأولى مقالاته في مايو ١٩٠٨، وظل يكتب لها بعد سفره إلى فرنسا في العام التالي. وانضم هيكل إلى الجامعة المصرية مع انضمام لطفي إليها، فتولى تدريس القانون الجنائي والمالي، والاقتصاد السياسي الذي بدأ تدريسه عام ١٩١٧، ثم استقال من الجامعة على نحو مفاجئ في منتصف العام الدراسي ٢١ - ١٩٢٢ ليصبح مديرا لتحرير صحيفة الأحرار الدستوريين اليومية "السياسة" (١٣). وشرع في تولي هذه المسئولية، بينما كان لطفي وجريدته الأقل قد توقفا.

* ترجمت كلمة لطفي السيد عن الانجليزية ولم توفر الأصل العربي - (المترجمة)

وشارك هيكل لطفي احترامه للعقلانية الغربية، وللعلم، والنزعة التحررية في القرن التاسع عشر، وكذلك اهتمامه بتحرير المرأة. وفي العشرينيات كان هيكل جزءا من "المدرسة الفرعونية" التي تضم الكتاب المؤمنين بتأكيد الروابط مع الماضي القديم، أكثر منها مع الحقبة العربية - الإسلامية. وأمن - مثله مثل لطفي - بطبقته من الأعيان المستتيرين، المتأثرين بالثقافة الغربية الذين شكلوا في ذلك الحين القيادات الطبيعية لمصر. كما صور في كتاباته الحياة الريفية في صورة رومانسية، وكان يتخوف من اشتغال الفلاحين غير المتعلمين بأي نشاط سياسي.

وأحكم الأحرار الدستوريون - قبيل إعلان حزبهم - قبضتهم على مجلس الجامعة في إبريل ١٩٢٢، بل أنهم تجرأوا على خلع البطل المنفي سعد زغلول من منصبه كسكرتير عام - بعد أن تغيب عن حضور الجلسات منذ ١٩١٩ - إلا أنهم تركوا له منصب أحد نائبي المدير. وحل لطفي السيد محل سعد زغلول سكرتيرا عاما؛ فاستقال مرقص حنا الذي كان يرأس الجمعية الأهلية للمحاميين، وهو من أعضاء الوفد، احتجاجا^(١٤). وفي ١٦ نوفمبر ١٩٢٢ لقي حسن عبد الرازق، أحد أعضاء مجلس الجامعة، وزميل له حنقهما رميا بالرصاص أثر خروجهما من اجتماع للأحرار الدستوريين. وكان واضحا أن مرتكبي الحادث ظنوا أنهما رئيس الحزب عدلي يكن، وحسين رشدي؛ فاتهم الأحرار الدستوريون حزب الوفد بارتكاب الحادث. وبعد أسبوعين أزاحوا سعد زغلول من منصب نائب رئيس المجلس وأحلوا محله خصمه عبد الخالق ثروت، الذي كان قد ترك رئاسة الوزارة في نفس اليوم^(١٥). وإذا بلطفي يدير شئون الجامعة.

ومع بقاء حسين رشدي رئيسا لمجلس الجامعة، وعبد الخالق ثروت وأحمد لطفي نائبين للرئيس، ومحمد محمود وعبد العزيز فهمي وإسماعيل صدقي أعضاء بالمجلس، أصبح الأحرار الدستوريون وأصدقاؤهم يديرون الجامعة. كما عين طه حسين أيضا بالمجلس، فاصبح أول عضو بهيئة التدريس ينال هذا الشرف^(١٦). وفي عام ١٩٢٢، فتحت الجامعة حسابا لها في أول بنك مملوك للمصريين (بنك مصر) في خطوة تتسم بالوطنية وكان حماس سعد زغلول لبنك مصر ضعيفا بالفعل، بينما شعر الأحرار الدستوريون بالاطمئنان إلى مشروع طلعت حرب.

مشروع الجامعة العامة :

بحلول عام ١٩١٧ كان البريطانيون قد أعادوا النظر بالفعل في مشروع الجامعة العامة وبدعوا يحبذونها، أملين أنهم ربما يستطيعون تشكيلها وفقا لهواهم مثلما كان القاضي مارشال ينادى سرا منذ فترة طويلة. وأصبح على لجنة ملنر (١٩١٩ - ١٩٢٠) أن تسلم "بالحاجة الملحة إلى جامعة حديثة" (١٨).

ووجدت سياسة التوسع في قبول الطلاب أيام جورست طريقها إلى ما دون مستوى المدارس الثانوية. وتم تحويل ثلاث من المدارس المهنية إلى مدارس عليا (الزراعة، والتجارة، والطب البيطري) وهكذا انضمت إلى الحقوق، والطب، وتأهيل المعلمين والهندسة. ولكن المدارس السبع لم تستطع معا أن تستوعب كل خريجي المدارس الثانوية الراغبين في الالتحاق. ولم يكن لدى الجامعة الأهلية المحدودة ما يكفي من المال، كما لم يكن لها أساتذة متفرغون، ولا مقر دائم. حتى أن حوالي ثمانمائة مصري اضطروا بالفعل للسفر إلى أوروبا بغرض الحصول على التعليم العالي، ومعظمهم على نفقته الخاصة (١٩).

ومثلت المنافسة الأمريكية - المتوقعة - عاملا من عوامل التشجيع أيضا، حيث كان "تشارلز واطسون" يجمع الأموال من أجل إقامة جامعة أمريكية بالقاهرة تعاطف مع فكرتها المندوب السامي "آرثر ماكماهون". ولكن خلفه "ريجنالد ويجنت" حذر من ذلك، لأنه يجري بالفعل بحث إقامة جامعة عامة، كما أن إنشاء جامعة تابعة للبعثات التبشيرية سوف يثير غضب المسلمين، ولكن واطسون أصر. وعندما انخفضت أسعار العقارات عام ١٩١٩، اهتبل الفرصة للفوز بسراري جناكليس وقطعة أرض مجاورة لها. وفي عام ١٩٢٠، افتتحت الجامعة الأمريكية بالقاهرة، في نفس المبنى الذي كانت الجامعة المصرية مضطرة للتخلي عنه منذ ست سنوات. غير أن الجامعة الأمريكية بدأت عملها بقسم للتعليم الثانوي فقط (٢٠).

وفي عام ١٩١٧ شكل علي يكن وزير المعارف - بموافقة البريطانيين لجنة تحضيرية لقيام جامعة عامة. ورأس اللجنة إسماعيل حسنين، وكيل وزارته، الذي كان يشغل أيضا مقعدا بمجلس الجامعة الخاصة. وضمت اللجنة سبعة أوروبيين (ستة منهم بريطانيون) وثلاثة مصريين. كما ضمت أيضا مديري كل من المدارس المهنية السبع، ودار العلوم، ومدرسة

القضاة، ولكن ناظر المعارف لم يلتفت للأزهر - كالمعتاد - وتجاهل مصالحه^(٢١).

وكان الحديث عن "أليجار" أو الكلية البروتستانتية السورية توقف، فأمدت اللجنة - الخاضعة للهيمنة البريطانية - أعضاءها بتقرير من خمسة أجزاء حول جامعة "كلكتا"، وقدم مندوبا بريطانيا معلومات حول جامعة "كيوتو" الإمبراطورية "بأمل أن تكون ذات فائدة كنموذج لجامعة شرقية وعامة"، إلا أن الأمل لم يكن ذا جدوى :

"لقد أتاحت أمام اللجنة الفرصة لدراسة قيام الجامعات الأكثر أهمية في الإمبراطورية البريطانية، وفرنسا، وأمريكا. ووجهت اهتماما خاصا لتنظيم الجامعات في البلدان الشرقية مثل الهند واليابان والصين. ورغم أن هذه الطريقة أتاحت لنا الحصول على بعض المعلومات المفيدة، إلا أن الأوضاع القائمة في مصر من الخصوصية بحيث لا يعد من المستحسن اتباع أي نموذج قائم حرفيا"^(٢٢).

"وشكلت ** اللجنة لجانا متخصصة لصياغة المقترحات الخاصة بكليات الآداب، والحقوق، والعلوم، والتجارة. ورأس خمسة من البريطانيين وفرنسيين وإيطالي، ومصري واحد أقسام اللجنة الفرعية لكلية الآداب، وكان ستة من الرؤساء السبعة للجنة الفرعية للعلوم من البريطانيين، ومثل أستاذ اللغة الفرنسية "لويس كليمان" وأستاذ اللغات السامية "أحمد ضيف" الجامعة الأهلية في لجنة الآداب"^(٢٣).

وبعدما بدأت اللجنة عملها بداية واعدة، أوقفت أنشطتها مؤقتا في يناير ١٩١٨ ولم تستأنفها إلا في مارس ١٩٢٠، ثم صدر تقريرها النهائي في عام ١٩٢١. ولكن "استقلال" مصر في العام التالي جعله بلا فائدة، بعد أن عاد التعليم إلى السيطرة المصرية. وفي ديسمبر عام ١٩٢٣ شرعت لجنة جديدة (برئاسة وكيل الوزارة إسماعيل حسنين مرة أخرى) في إعادة صياغة تدابير إنشاء الجامعة. وبالطبع، ضمت اللجنة الجديدة عددا أكبر من المصريين، وارتفع تمثيل الجامعة الأهلية من عضوين إلى خمسة أعضاء^(٢٤).

* عن الانجليزية - (المترجمة)

** عن الانجليزية - (المترجمة)

وقررت اللجنة الجديدة ضم مدرستي الحقوق والطب إلى الجامعة، وإنشاء كلية للعلوم، وتحويل الجامعة الأهلية إلى كلية لآداب. واشترطت الجامعة الأهلية احترام التعاقدات القائمة مع موظفيها، وأن يكون لها صوت في إدارة الجامعة الجديدة، وأن تتمتع بأكبر قدر ممكن من الاستقلالية عن وزارة المعارف. كما كان هناك شرط يضمن وظيفة طه حسين "نظرا لحالته الخاصة" ^(٢٥)، ولكن لم يرد ذكر لطفي (الذي أصبح مدير الجامعة الجديدة)، أو منصور فهمي (الذي استمر أستاذا للفلسفة)، وأحمد ضيف وعلى العناني (الذين لم يستمرا في الجامعة الجديدة).

قيام الجامعة العامة :

لم تستمر رئاسة سعد زغلول للوزارة عام ١٩٢٤ سوى عشرة أشهر، وسرعان ما جاء العام الذي يترك الوفد فيه بصمته على الجامعة الجديدة ؛ حيث أدى انهيار المفاوضات مع بريطانيا، واغتيال السردار سيرلي ستاك (قائد الجيش المصري الحاكم العام للسودان)، وما تلاه من إجراءات بريطانية صارمة إلى إزاحة الوفد عن السلطة، وتشكيل حكومة أحمد زيوار الموالية للقصر بدلا منه. ثم أتت الانتخابات التي جرت في الربيع، بوزارة وفدية جديدة، وهي التي قام الملك بتعطيلها فورا.

وفي إنجلترا، فقد المتشددون ثقتهم في "النبى" منذ إعلان استقلال مصر وأجبروه على الاستقالة في مايو ١٩٢٥. ولم يصل "جورج لويد" خليفة "النبى" إلى مصر إلا في أكتوبر من نفس العام. وأثناء موسم الصيف الطويل، وبينما تسير الترتيبات النهائية للجامعة قدما، كان النفوذ البريطاني يمر بفترة انتقالية ما بين مندوبين ساميين. أما الوفد، فقد اكتفى بموقف المتفرج. بينما زيور، رئيس الوزراء، لا يعنيه الأمر، ويتوجه إلى أوروبا لقضاء عطلة أربعة أشهر كاملة. وباستثناء الأحرار الدستوريين، ألفى كل من الملك ونشأت باشا، صديقه الحميم، المجال خاليا أمامهما. وأظهر الأحرار الدستوريون تناقضا مع تسميتهم ؛ بانضمامهم لوزارة زيور. ومع ذلك لم يكتب لهذا التدبير النجاح؛ فسرعان ما هبت عاصفة، بسبب كتاب على عبد الرازق "الإسلام وأصول الحكم" الذي نفى فيه فكرة أن الخلافة جزء أصيل أو جوهري في الإسلام. فتثار غضب الملك، لأنه كان يعد العدة لإعلان نفسه خليفة، بعد أن خلعت تركيا آخر خليفة عثماني، كما أهاج الكتاب غضب الأزهر أيضا. ولكن عبد العزيز فهمي، وزير العدل - وهو

من الأحرار الدستوريين - لم ير في الكتاب خروجاً عن الدين، كما رفض اتخاذ أي إجراء ضد مؤلفه (الذي كان من أنصار حزب فهمي) ^(٢٦). فأجبر كل من فؤاد ونشأت الأحرار الدستوريين على الخروج من الوزارة، مما حرمهم من أن يكون لهم ولو مجرد ظل من الشرعية الشعبية؛ فتحول الأحرار الدستوريون إلى التحالف مع الوفد ومع الحزب الوطني الذي تراجع وزنه ^(٢٧). وربما لو كان المرسوم بإنشاء الجامعة العامة (١١ مارس ١٩٢٥) وتعيين مديرها ^(٢٨)، قد وصل قبل مواعده ببضعة أشهر عندما لم يكن الأحرار الدستوريون مرضياً عنهم - لكان المنصب قد اختير له شخص آخر غير لطفي السيد.

ثم وقع حادث هام آخر في ربيع ١٩٢٥، ربما يبدو نشاراً لمن يتأمله؛ ففي خطاب مكتوب على الآلة الكاتبة باللغتين العربية والعبرية، وجهت الجامعة العبرية الدعوة للجامعة المصرية بمناسبة حفل تأسيسها المنعقد بالقدس في أول إبريل. وحضر لطفي السيد الاحتفال، حيث أعرب عن تمنياته الطيبة للمعهد الجديد. وكان من بين المحتفلين "د. سليج برويتسكى"، أستاذ الرياضيات بجامعة "ليدز" - رئيس الجامعة العبرية فيما بعد - الذي مر بالقاهرة عند عودته وتحدث إلى جماعة من الأساتذة. وكان على مشرفة (عميد كلية العلوم فيما بعد)، وعبد الحميد أبو هيف (عميد مدرسة الحقوق) وإسماعيل القباني (وزير المعارف فيما بعد) من بين من تولوا الترحيب به. وقال برويتسكى في حديثه لمستمعيه "علينا أن ننريث ونترقب - في أمل - المستقبل الذي تصبح فيه هاتان الجامعتان مركز الحياة الثقافية في الشرق الأدنى" ^(٢٩). ثم بدأت الجامعة المصرية الدراسة في خريف نفس العام، وتأجلت الاحتفالات حتى بداية العمل في إنشاء حرم جامعي جديد بعد ثلاث سنوات. وضمت الجامعة، وفقاً للتقليد الفرنسي؛ كليات الآداب والعلوم والحقوق والطب فقط، وأغفلت المدارس العليا للتجارة، والزراعة، والهندسة، ولم تضمها إلا مؤخراً كما هو موضح في جدول "٨".

وفاز الوفد في الانتخابات التي أجريت في ٢٦ مايو ١٩٢٦، إلا أن تولي سعد زغلول رئاسة الوزارة مرة ثانية رفضه كل من فؤاد وبريطانيا؛ فكان المخرج - غير الموفق - هو تشكيل وزارة ائتلافية من الأحرار الدستوريين والوفد، برئاسة علي يكن في أول الأمر، ثم عبد الخالق ثروت بعد ذلك. فكان على سعد زغلول أن يغلق نهائياً باب التفكير في رئاسة الوزارة.



صورة رقم (٤)

- نائب المدير أحمد لطفي السيد وهيئة تدريس الجامعة المصرية حوالي ١٩٢٤
الجالسون من اليسار : فلاديمير جولنيشف، منصور فهمي، أحمد لطفي السيد،
بيرسي وايت.

الواقفون من اليسار : أحمد ضيف، بول جيرارد، طه حسين، علي العناني.

وبعد حين، رأس الملك فؤاد الاحتفالات التي أقيمت في ٧ فبراير عام ١٩٢٨ بمناسبة بدء الدراسة في الجامعة؛ وكان سعد زغلول قد توفي، ورأس مصطفى النحاس الجناح الوفدي في الوزارة الائتلافية المتداعية، وإن احتفظت بسلامة الشكل. وأبرزت كلمتا على الشمسي، (وزير المعارف الوفدي) وأحمد لطفي السيد (مدير الجامعة)، دور الملك باعتباره مؤسس الجامعة^(٣٠). وقام الملك فؤاد بحركة استعراضية لتشريف الجامعة الجديدة، مذكرا إياها بولي نعمتها. ويصف "روبرت جريفز" - أستاذ اللغة الإنجليزية والشاعر والروائي الناشئ الذي ينتمي إلى المدرسة الكلاسيكية - الاستقبال الملكي الذي تم بقصر عابدين، بأسلوبه الساخر المعتاد : "منح الملك أولوية في التشريف لهيئة تدريس الجامعة ؛ التي أدخلت إليه عقب رجال السلك الدبلوماسي ورجال الحكم مباشرة، وقبيل دخول رجال الجيش بقليل. وقد تباينت الآراء تباينا عظيما حول الزي الملائم للاستقبال الملكي ؛ فجاء معظم الأساتذة الفرنسيين مرتدين زي السهرة الكامل ؛ بالمعاطف الفراك والصدريات البيضاء، بينما ارتدى آخرون سترة عشاء عادية. وارتدى معظمهم قبعات حريرية سوداء عالية - فبدوا كما لو كانوا خليطا غير منسجم لأشخاص خارجين من حفلة تنكرية استمرت طوال الليل.

ثم ارتقيت الدرج الرخامي الفخيم، وبين كل درجة وأخرى، يقف جندي أسود مهيب، مرتديا زيا رائعا، ويحمل رمحا في يده. ولمحت بعيني المنتبهتين وقفهم المتكاسلة نوعا، ومع ذلك، لا ريب أنهم شددوا قاماتهم برشاقة في وضع الانتباه عندما مر بهم رئيس الأركان المصري.

وكنت قد تلقيت تحذيرا بعدم إظهار الدهشة عند سماع أي شيء غير مألوف حين التقى بالملك فؤاد الذي كان يصدر عن حنجرته أحيانا فحيح له صفير، عندما يكون عصبيا : فقد حدث له وهو طفل أن أطلق بعض الأقارب من ذوى الغرض الرصاص على أسرته ؛ فاتخذ فؤاد لنفسه ساترا تحت منضدة ليبقى حيا، رغم إصابته.

ثم نقلنا من حجرة إلى أخرى. وفي نهاية المطاف، إذا بسيد نبيل في منتصف العمر، ذي سيماء تركية هائلة، يرتدى لباسا ملكيا عاديا، يحيينا في احترام بالفرنسية؛ فتصورته تشامبرلين الكبير *. ثم انحنيت وكررت نفس ما

* جوزيف تشامبرلين (١٨٣٦ - ١٩١٤) سياسى انجليزى تولى وزارة التجارة (١٨٨٠ - ١٨٨٦) ثم وزارة المستعمرات (١٨٩٥ - ١٩٠٣) من أنصار التوسع الاستعماري. لقب "الكبير" تمييز له عن ولديه

قاله بالفرنسية الأستاذ الواقف أمامي. وتوقعت أن ندعى بعد ذلك إلى قاعة العرش، إلا أن المرحلة التالية كانت هي القاعة الخارجية مرة أخرى. وإذا بي قابلت بالفعل الملك فؤاد، دون أن تكون هناك فخامة شرقية، ولا فحيح نو صفير" (٣١).

إنشاء الجامعة :

جاءت الجامعة - من حيث الموقع والعمارة - متعارضة تماما من ناحية الرمز مع الماضي الإسلامي؛ فبينما يقع الأزهر وسط شوارع القاهرة القرون الوسطى وأزقتها الضيقة العشوائية، ألحقت به إضافات إسلامية مناسبة من العصور : الفاطمية، والأيوبي، والمملوكي، والعثماني (٣٢). وأنشئت الجامعة على الضفة الغربية للنيل حيث الجزيرة بما يميزها من هدوء وطابع حضري إلى حد كبير، وقد بنيت بالكامل على الطراز المعماري الغربي. وفي أول الأمر، كان على إدارة الجامعة وكليتي الآداب والعلوم أن تمارس عملها من قصر الزعفران بضاحية العباسية (بينما بقيت كليتا الطب والحقوق في مقريهما بموقع آخر). وأيقظت ملامح الجمال الإيطالي المطموسة، التي يزخر بها قصر الزعفران الخيالات المتوثبة لدى "مالكولم مجريدج" مدرس الإنجليزية، فكتب : "كانت الجامعة وقتئذ في قصر الزعفران؛ وهو مبنى استخدمه الخديوي من قبل للترفيه عن حريمه. وظلت آثار الاستخدام السابق باقية بحجرات الدراسة وعبر الأروقة؛ حيث الزخارف الصغيرة العابثة تتراقص وتتلوى في المباني والأشغال الخشبية، وعلى أجزاء من لوحات جدارية رخامية، وبالأسقف تصميمات وشخص ملونة، أصبحت الآن باهتة. وفي الحديقة المهملة، فسقية عتيقة مهجورة من الواضح أنها تقع وسط ما كان في أحد الأيام حوضا للنباتات الزينة. وقد أضافت بعدا آخر من الخيال إلى محاضراتنا حول أنطونيو وكليوبترا، التي جاء اختيارها موائما لواقع الحال" (٣٣).

اللذين توليا مناصب وزارية أيضا أولهما سير "أوستن" الحائز على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٢٥ والآخر سير "أرثور نيفيل" الذي أعلن الحرب على ألمانيا عام ١٩٣٩ بوصفه رئيسا للوزراء - (المترجمة)

جدول (٨)
معاهد وكليات جامعة القاهرة

تاريخ إنشائه كمعهد تابع لجامعة القاهرة	المعهد	تاريخ إنشائها ككلية مستقلة	الكلية
١٩٣٠	علوم البحار	١٩٢٥	الأداب
١٩٤٧	الأرصاد	١٩٢٥	العلوم
١٩٤٧	الدراسات والبحوث الأفريقية	١٩٢٥	الطب
١٩٦٢	التمريض	١٩٢٥	الحقوق
١٩٦٤	الس-رط-ان	١٩٣٥	الهندسة
١٩٦٩	المركز العلمي للإحصاء	١٩٣٥	التجارة
١٩٦٩	—	١٩٣٥	الزراعة
		١٩٤٦	دار العلوم
		١٩٤٦	الطب البيطرى
		١٩٥٥	الأسنان
		١٩٥٥	الصيدلة
		١٩٦٠	الاقتصاد والعلوم السياسية
		١٩٧٥	الآثار
		١٩٧٥	الإعلام

(يتجاهل هذا الجدول المبسط الفروع الإقليمية، وتغيير التسميات، وإعادة التنظيم وعودة الأنشطة السابقة للمعاهد التي أصبحت كليات مؤخرًا)

كما أثار التناقض في أمر القصر الذي تحول إلى جامعة دهشة "روبرت جريفز" فكتب يقول : "في الحجرة الأنيقة الراقية، التي كانت مرسما للحريم، بورترية للخديوى الراحل بها شرخ كبير، معلقة في وضع ثابت عند أحد أركان الحجرة وبالركن الآخر خزانه عرض زجاجية ملأى بعملات تذكارية مصرية - رومانية تختلط جميعا ببعضها، وبطاقات التعريف بها ملقاة في أحد الأركان. ومن خلال النافذة تبدو الأراضي المزروعة بالخضر، والجاموس، والإبل، والريفيات اللواتى يرتدين الثياب السوداء" (٣٤).

أما الآن، فقد أصبح قصر الزعفران يضم إدارة جامعة عين شمس.

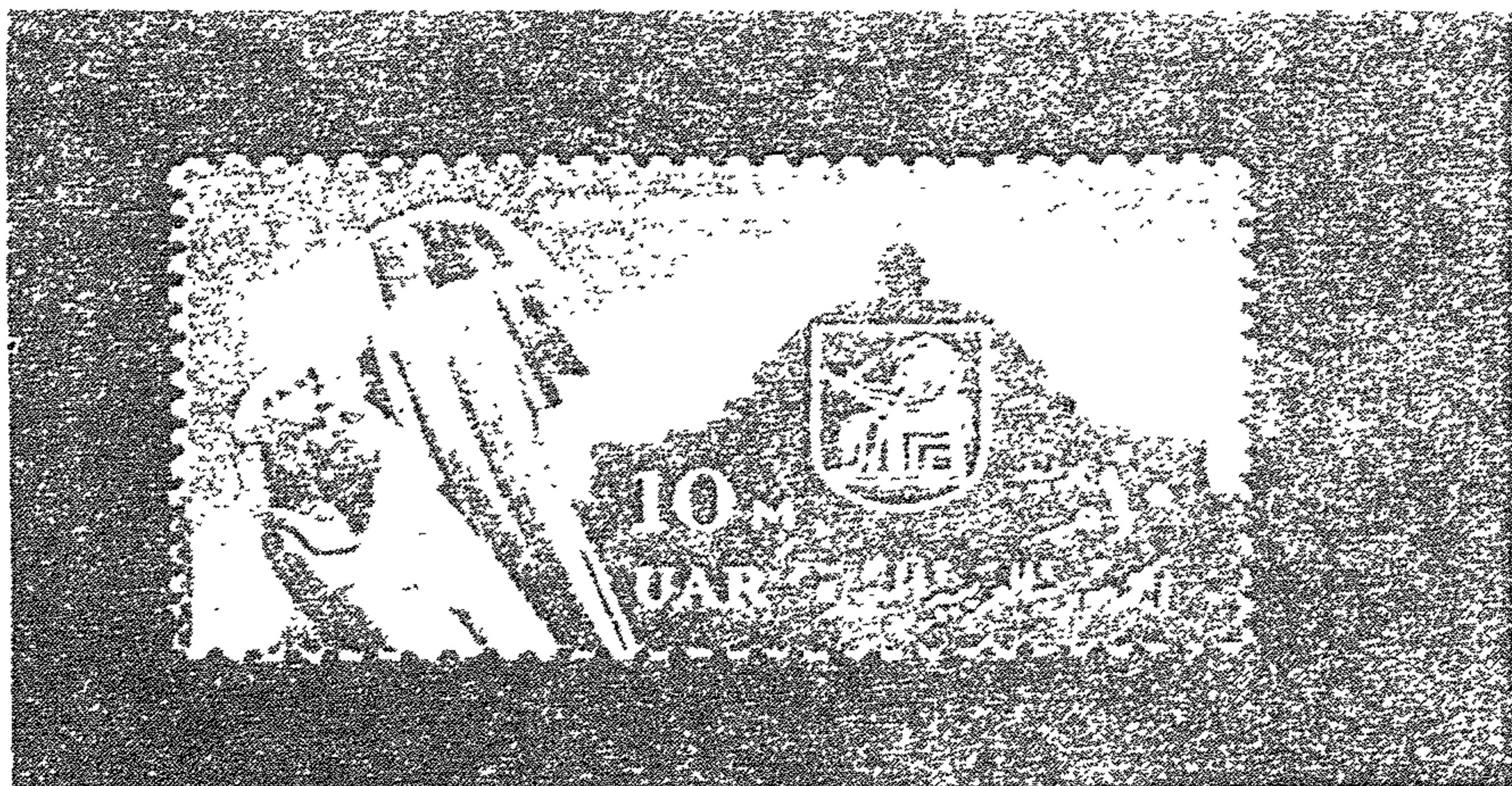
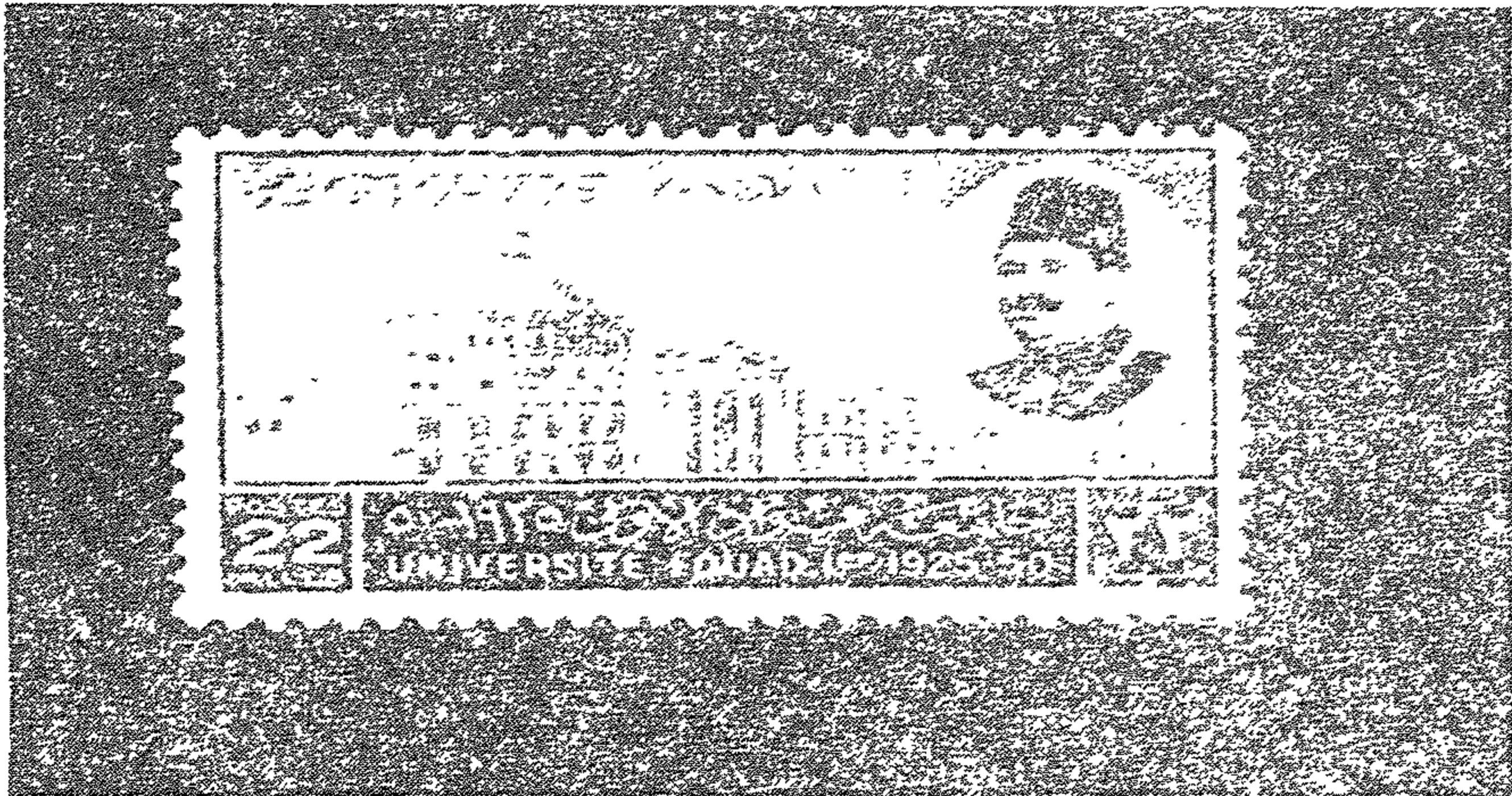
* * *

أقيم الحرم الجامعي الجديد في البقعة الزراعية شمالي قرية الجزيرة الواقعة على ضفة النهر وإلى الداخل من النيل مباشرة، في مواجهة الطرف الشمالي من جزيرة الروضة. وإلى الجنوب منها يربط كوبرى عباس الجزيرة بالروضة، كما يربط جسران الروضة بالضفة الشرقية من النهر. وتقع حديقة الحيوان وحدائق الأورمان على جانبي الطريق الواسع المهيّب المؤدى لمدخل الجامعة^(٣٥).

وكانت هناك سابقة لعزل الجامعة عن وسط المدينة عام ١٩١٥، عندما أجبر البريطانيون مدرسة الحقوق على الانتقال إلى الجزيرة، بهدف إبعاد الطلاب المتظاهرين قليلا عن قصر عابدين. وكتب المستشار القانوني البريطاني - وهو مدرك تماما للمغالطة - أن الأساتذة والطلاب سوف يجدون، هنا، عملهم أكثر سلاسة ويسرا بعيدا عن : "ضجيج وجلبة المدينة؛ ففي هذا الوسط اللطيف، سيكون الطلاب الذين انتشلوا من جميع المشاغل البعيدة عن دراستهم - قادرين على تكريس أنفسهم تماما وفي هدوء، من أجل الاستعداد الكامل... للعمل في مجال المحاماة"^(٣٦).

ويعكس تصميم الحرم الجامعي تقاليد الفنون الجميلة الباريسية في محاورها القوية من حيث التماثل والشكل، وفي الطريق الواسع المؤدى إلى المدخل^(٣٧). ووضع مهندس معمارى أوربى تصميمات المباني، وقامت بتنفيذها مصلحة المباني العمومية^(٣٨)؛ حيث يفضى الطريق الواسع المؤدى للمدخل، إلى بوابة رئيسية ثم إلى حديقة دائرية غرست بها أشجار النخيل الملكي. ويطل الرواق اليونانى الضخم لمبنى الإدارة على الساحة المربعة للمدخل. ويحيط كل من مبنى كلية الحقوق إلى الجنوب، ومبنى الآداب إلى الشمال بالساحة المربعة. ولعل الحرم الجامعي لو كان قد بني هذه الأيام، لما حظيت كليتا الحقوق والآداب بمثل هذا الموقع الفاخر؛ لأنهما تمران حاليا بفترة عصيبة.. أما كلية الطب ومجمع مستشفياتها فبقيت في موقعها بقصر العينى مع امتداد نحو جزيرة الروضة. وجاءت كلية العلوم في المرتبة التالية للكليات الثلاث السابقة، ضمن أولويات المخططين؛ فلم تستكمل انتقالها من منطقة الزعفران إلى ساحة مربعة خلف قاعة الاحتفالات إلا عام ١٩٥٠. ويوضح الموقع البارز لقاعة الاحتفالات التي تحوى ثلاثة آلاف مقعد، بقبتها الهائلة و مقصوراتها الملكية والوزارية^(٣٩)، وردهات الانتظار، أن أولويات المخططين لم تكن أكاديمية تماما.

The university and its role in society



8 Postage stamps commemorating Cairo University

صورة رقم (٥)

اثنان من طوابع البريد الصادرة تخليداً للجامعة

وفيما بعد، أقيمت أبنية الكليات الأحدث إما نحو الجزء الخلفي من السور الرئيسي أو إلى الخارج منه. وظلت كلية الطب منعزلة - عضويا - في قصر العيني والروضة، إلى أن ربطها كوبرى الجامعة ببقية الجامعة في الخمسينيات.

وجاء طراز الجامعة الكلاسيكي - الحديث، الذي يتميز بالفخامة مخالفا للماضي الإسلامي، لكنه كان متمشيا مع طرازي الباروك*، والروكوكو**، والطرز الكلاسيكية، وكلها تماثل طابع الفيلات والمكاتب التي أنشئت في أحياء الإسماعيلية*** والمنيرة، وجاردن سيتي، والزمالك، عند مطلع القرن؛ فازدانت الحوائط الخارجية للجامعة بالتيجان، والأكاليل بالإضافة إلى الهلال والنجمة المميزان للعلم المصري القديم.

وكانت التصميمات الأصلية تتضمن مسجدا رئيسيا، لم ينفذ حتى الآن - مع وجود مساجد أصغر، تستخدم على نحو مؤقت غالبا - وذلك على الرغم من بيانات النوايا المتكررة^(٤٠) التي تفصح عن الأولويات العلمانية للجامعة. وينتصب عاليا وسط الأبنية برج للساعة - وليس مئذنة - نو أجراس تعلن الوقت كما في كنيسة، أو دار بلدية أوروبية.. [كانت مصر في طريقها للاستقلال، ولكنها بقيت في حالة تبعية للغرب من نواح عديدة].

الأكاديمية، مهنة جديدة :

في خريف عام ١٩١٩، رحبت الجامعة المصرية بالدكتور طه حسين العائد من باريس، ومنحته عقدا براتب أربعمئة جنيه مصري سنويا، وعينه لتدريس تاريخ الشرق القديم، وفلسفة التاريخ. ولما كان أكاديميا محترفا متفرغا، فلم يكن له أن يتولى أي عمل خارج الجامعة دون تصريح^(٤١). وفي الغرب، كانت ألمانيا قد بدأت في إدخال نظام الاحتراف إلى العمل الأكاديمي الحديث، وتبعها في ذلك - ولكن بصورة أبطأ - الولايات المتحدة، وإنجلترا. وتلخص ملامح هذا التغيير، دراسة حديثة بعنوان : "من كاهن إلى أستاذ جامعي : ظهور الحرفة الأكاديمية في أكسفورد القرن التاسع

* طراز معماري راج في القرن ١٧ تميز بدقة الزخارف المعمارية، وغرابتها - (المترجمة)
 ** طراز فني معماري ساد في النصف الأول من القرن الثامن عشر تميز بالمبالغة في الزخارف وتعقيدها - (المترجمة)
 *** موقعه ميدان التحرير والمنطقة المحيطة به حاليا - (المترجمة)

عشر" ^(٤٢). فمع حلول عام ١٩٠٠ كان شرطاً الرسامة الكهنوتية، والرهينة قد اندثرا تقريباً في جامعة أكسفورد، كما ألغيت الاختبارات الدينية على نظام الكنيسة الإنجليزية، وأصبح معظم المدرسين بالجامعة لا يعتبرون أنفسهم رجال دين، وإنما أكاديميين متخصصين في مهنة التدريس والعلم طيلة حياتهم، وذلك بالرغم من أن الحصول على درجة الدكتوراه في الفلسفة لم يكن قد أصبح شرطاً للعمل بالجامعة بعد.

وكان الأزهر في عام ١٩٠٠ مازال يحمل بعض ملامح الشبه من جامعة أكسفورد القديمة في ١٨٥٠ ؛ فلم يكن - بالطبع - يشترط الرهينة في معلميه، ولكنه كان يؤكد على التدين، وكان معلموه غير المتخصصين، يعتبرون أنفسهم "علماء" أكثر منهم أساتذة. وكان من الممكن أن يتركوا التدريس في أي وقت ليصبحوا قضاة شرعيين، أو يعملوا بالإفتاء، أو يتولوا وظائف دينية أخرى. وهم يشبهون رجال الدين في الغرب قبيل العصر الحديث ؛ بالمفهوم الاجتماعي، وليس الديني.

وجاء تحول العمل الأكاديمي إلى حرفة في الغرب، جزءاً من التحول الذي حدث لطائفة كبيرة من المهن، سعياً وراء إما الحصول على المكانة الوظيفية العالية أو الحفاظ عليها. وفي أمريكا، التي تفتقر إلى وجود أرستقراطية حقيقية اتسمت حركة الاحتراف بالمحافظة إلى حد ما، بهدف إعادة توطيد السلطة في مواجهة النزعات الديمقراطية "الجاكسونية" * الآخذة في الصعود. وعلى الناحية الأخرى، تواكب التحول إلى الاحتراف في أوروبا مع مهاجمة الطبقة الوسطى للنظام الوظيفي القديم القائم على الأصل العائلي والمحسوبية، والمطالبة بأن يصبح السلك الوظيفي مفتوحاً أمام الكفاءة. فمال الأرستقراطيون الأكثر مرونة مع الريح، ووفروا لأبنائهم التأهيل الأكاديمي الذي يمكنهم من اجتياز اختبارات الكفاءة الوظيفية بنفس الاستعداد الذي يتوافر لمنافسيهم من أبناء الطبقة الوسطى ^(٤٣).

وكذلك شهدت مصر حراك قوى مماثلاً ؛ فطه حسين الذي شق طريقه بجهد، وهو مدرك تماماً لأصوله المتواضعة، يطالب بعالم يكون التقدير فيه للذكاء والكد والمثابرة. فهو لم يجتز الامتحانات التي اجتازها، ولم يفر بالبعثة إلى باريس، كما لم ينل شهادته للدكتوراه ويعمل بالكتابة والتدريس ؛ إلا بالجهد الشاق. وعلى الناحية الأخرى، يظل لطفي السيد

* نسبة "لاندرو جاكسون" الرئيس السابع للولايات المتحدة الأميركية فيما بين ١٨٢٩ - ١٨٣٧ - (المترجمة)

مفكرا أرستقراطيا (ومع ذلك، تجدر ملاحظة أن لطفي ينحدر من نخبة أعيان القرى من أهل البلاد، وليس من أرستقراطية الأتراك - الشراكسة القديمة، وأن الطبقة العليا المصرية والطبقة العثمانية كانتا أكثر مرونة من الأرستقراطيات الأوروبية القديمة. ورغم تشجيع لطفي السيد على الارتقاء بالمهنة الأكاديمية الجديدة في جامعته، إلا أنه ظل - شخصيا - بمنأى عن الخلاف الدائر. ولكنه لم يكن ليستطيع أن يصبح رئيسا للجامعة - في الجيل الذي تلاه - دون أن يضع قدمه في قاعة محاضرات، أو أن يحصل على درجة الدكتوراه.

وهناك سمة أخرى من سمات الاحتراف، وهي الشروط الرسمية المقيدة للوظيفة بحيث يستبعد الممارسون غير المؤهلين. فأصبحت الدكتوراه - تدريجيا - المؤهل المعتاد للتدريس بالجامعة في مصر، كما في أي مكان آخر من العالم. بعد أن ظلت كلية الآداب حتى الثلاثينيات تعتمد على أساتذة من غير الحاصلين على الدكتوراه، من دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي. كما كان الأساتذة البريطانيون في القاهرة لا يحملون - في الغالب - درجة الدكتوراه أيضا، خاصة في أقسام اللغة الإنجليزية واللغات القديمة. ولكن مع الأربعينيات أصبح المصريون من حملة الدكتوراه - سواء من داخل البلاد أو خارجها - يشغلون معظم وظائف التدريس بالجامعة.

كما أضاف الاحتراف - أيضا - هيكلة رسمية للدرجات الأكاديمية ومعايير موحدة للترقى الوظيفي. ففي الولايات المتحدة يعتبر الترتيب التنازلي : أستاذ، أستاذ مساعد، ثم مدرس، ترتيبا عاما تقريبا، بينما توجد في إنجلترا تفاوتات أكثر فرعية. أما في مصر، فظهر مسمى موحد للدرجات الأكاديمية بالجامعة الوحيدة في العشرينيات، ثم امتد بعد ذلك إلى الجامعات التي خرجت منها.

ويصف أحمد أمين الوضع المؤلم، في أغلب الأحوال، لأولئك الذين كانوا مثله - يفتقرون إلى درجة الدكتوراه : "حدث - وأنا أستاذ مساعد - أن منعت أن أكون أستاذا لعدم حصولي على الدكتوراه أنا وبعض زملائي... وقدمت طلبا لنيل الدكتوراه بالدخول في الامتحان، على النظام الذي يتبع مع الطلبة في الحصول عليها، وقدمت لذلك كتاب فجر الإسلام، وضحي الإسلام كرسالة للمناقشة، واعترض آنذاك بأن الأساتذة بالكلية قد يحابونني لأنني أحدهم، فاقترحت أن يكون أكثر الممتحنين من الأساتذة الأجانب المستشرقين، فصمم وزير المعارف آنذاك على رفض هذا الطلب... وبعد ذلك أريد أن

يمنح غيرى الأستاذية من غير دكتوراه، وأحرم أنا لمواقفي السابقة في المحافظة على استقلال الجامعة، فطلبت أن تؤلف لجنة لبحث مؤلفاتي، فاختيرت لذلك لجنة من الأساتذتين المستشرقين الدكتور "شادة" والأستاذ "برجستر اسر"، فقرأ فجر الإسلام وضحاها، وقدمتا تقريراً باستحقاقى الأستاذية على هذين الكتابين، وقالوا : ان عيبى الوحيد في تأليف هذين الكتابين هو أن هناك بحثاً في بعض موضوعات الكتابين عرض لها بعض الأساتذة الألمان، ولو اطلع عليها المؤلف لبنى عليها ولم يتعب نفسه في بحث أساسها، ولكن وزارة المعارف أخفت هذا التقرير لأنه مخالف لما كانت تأمل، فطلبت من العميد أن يطلب التقرير من الوزارة فما طلت، ثم بعثته وعطلت أثره في مجلس الجامعة، ولم أحصل على الأستاذية إلا بعد عناء، وبعد أن هدأت النفوس، وبعد أن قدمت استقالتي لأنى لم أعامل معاملة زملائي" (٤٤).

وأدى نظام الاحتراف إلى زيادة حدة الفوارق بين أستاذ الجامعة والمدرس بالمدارس الثانوية، مع مطالبة أساتذة الجامعة باستقلالها الذاتي عن وزارة المعارف، التي بدأت تشعر بالغيرة. وبعد ١٩٢٥ سعت كل من دار العلوم، ومدرسة المهندسخانة، ومدرسة التجارة، وكذلك مدرسة الزراعة للانضمام إلى الجامعة. ويرجع ذلك جزئياً إلى الرغبة في التخلص من قبضة الوزارة القوية. ولكن سرعان ما سنرى أنه حتى الجامعة نفسها لم تستطع أن تضمن استقلالها الذاتي.

وكان حظر العمل خارج الجامعة نون إذن يعنى استطاعة الأستاذ أن يعيش على راتبه. وبدا العقد الذي حدد راتب طه حسين بأربعمائة جنيه مصري سنوياً، ضخماً بالنسبة لأحمد ضيف أستاذ الألب العربي، الحاصل على دكتوراه السريون أيضاً، والذي كان يتقاضى مائتي جنيه فقط في عام ١٧ - ١٩١٨، فأصبحت الجامعة ملزمة بمساواة راتبه براتب طه حسين (٤٥). ولكن طه لكونه كفيفاً، ويعول زوجة أجنبية ظل يطالب بالزيادة. وعندما رفض الأرسنقراطيون والميسورون أعضاء مجلس الجامعة الطلب الذي تقدم به في أول أكتوبر ١٩١٩، للحصول على أربعين جنيه شهرياً لقاء استئجار قارئ له، أعلن أنه لم يؤهل أكاديمياً لتدريس فلسفة التاريخ؛ وبعد مرور ثلاثة أشهر، أضرب عن إلقاء المحاضرات في محاولة لانتزاع النقود؛ فأوقفت الجامعة صرف راتبه وهددت بتعيين أحد المستشرقين بدلاً منه. وبعد أسبوعين، رضخ طه حسين لتوسلات زوجته واعتذر ثم استأنف محاضراته (٤٦). وعاد عام ١٩٢١ ليطلب قرضاً قيمته مائة وخمسون جنيهاً،

ثم جنيها وستين قرشا بدلا عن انتقالاته أثناء إضراب عمال الترام، فرفض المجلس الطالبين^(٤٧).

وفي إبريل عام ١٩٢٢ اجتمع طه، وضيف، ومنصور فهمي، وأستاذان مصريان آخران، وأعلنوا أن أربعمئة جنيه في السنة لا تكفي لمواجهة التضخم وطالبوا بزيادة قدرها مائتي جنيه. وأذعنت الجامعة تحت الضغط فوافقت على زيادة تتراوح بين ٤٠ - ٥٠ جنيها، ولكن رفضت أن تقدم أكثر من ذلك. وكان راتباً أستاذي الأدب الإنجليزي والأدب الفرنسي قد زيدا إلى ٣٢٠ جنيه مصرياً بالإضافة إلى خمسين جنيهها للانتقالات. فأصبحت بذلك يحصلان على أقل مما يتقاضاه المصريون الذين يعملون بنظام الوقت الكامل، غير أن العمل في مصر لم يكن وظيفتهما الوحيدة؛ فقد اعتاد "كليمان" أن يهرع عائداً إلى عمله الأكاديمي في فرنسا خلال إجازته الصيفية التي تقرب من ستة أشهر^(٤٨).

وسمع الملك عما يلاقه طه حسين من مصاعب، فدعاه إلى القصر، واستفسر بالتفصيل عن أحواله المالية، وأعلن فؤاد أن على طه ألا يتردد في طلب مساعدة القصر مستقبلاً. ورد طه على ذلك بإهداء كتابه "صحف مختارة من الشعر التمثيلي اليوناني" إلى الملك، الذي بدا أنه كان ينتظر مقابلاً آخر غير إهداء الكتاب، ورفض طه أن يكون موضع شراء، فانضم مع رفاقه إلى الأحرار الدستوريين^(٤٩).

وفي عام ١٩٢٢ عرض عليه الأحرار الدستوريون رئاسة تحرير صحيفة "السياسة"، إلا أن مجلس الجامعة رفض السماح له بذلك. وكان معظم أعضاء المجلس من الأحرار الدستوريين، فأصروا على أنه يمكن لطله أن يكتب للصحيفة، فبدأ بكتابة عمود أدبي أسبوعي، ومن ثم حصل على دخل إضافي، وحقق شعبية لقلمه^(٥٠).

وبعد أن خفت متاعب طه المالية نوعاً ما، أصبح في إمكانه التركيز على قضايا أخرى أثرت في الجامعة الجديدة؛ ومن بين أكثر هذه القضايا أهمية موضوع الصراع الإنجليزي - الفرنسي العنيف بهدف بسط النفوذ، وقضية الضغط الوطني الدعوب من أجل تعيين عدد أكبر من الأساتذة المصريين.

الموامش

- ١- بالنسبة للسياسة المصرية في الفترة ما بين الحربين، انظر : عبد العظيم رمضان تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٦ (القاهرة غير مؤرخ) .
و: عبد الرحمن الرافعي - ثورة ١٩١٩ : تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١ (القاهرة ١٩٦٨) ، و : في أعقاب الثورة المصرية - الجزء الأول والجزء الثاني (القاهرة ١٩٤٧ ، ١٩٤٩) .
- Berque, Egypt ; al - Sayyid 'Marsot , *Egypt's liberal Experiment*; Deeb , *Party Politics*; and terry, *the Wafd*
- ٢- عن الدلالة التاريخية من طوابع بريد الشرق الوسط، أنظر :
- Donald M. reid, "Egyptian History through stamps," the Muslim world 62 (1962) : 209 - 29 ; and "The Symbolism of Postage Stamps : A source for the Historian," Journal of Contemporary History 19 (1984) : 223 - 249.
- ٣- للحصول على قائمة جزئية، انظر : الجامعة المصرية، حفلة توزيع الدرجات العلمية للجامعة المصرية بتشريف حضرة صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر (يوم السبت ٢٠ شوال ١٣٥٠هـ - ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٢) (القاهرة ١٩٣٢) .
- ٤- Afaf lutfy al- sayyid Marsot, *Egypt's Liberal Experiment*, p. 29.
- ٥-
- Crouchley, A.E. *The Economic Develoment of modern Egypt*, (london, 1938), pp. 191-98.
وعن اقتصاد مصر بعد الحرب مباشرة أنظر :
- Tignor, Robert L " *State, Private Enterprise, and Economic change in Egypt, 1918 - 1952* , (princeton, 1984), pp. 191-98.
- ٦- ملفات جامعة القاهرة، ٣ / ١٣٥ تقرير مجلس ادارة الجامعة، ٢ مارس ١٩١٩ .
- ٧- ملفات جامعة القاهرة ٣ / ١٣٥ تقرير مجلس ادارة الجامعة، ٧ يونيو ١٩١٩ .
- ٨- ملفات جامعة القاهرة ٣ / ١٣٥ تقرير مجلس ادارة الجامعة - ٤ أغسطس ١٩١٩ .
- ٩- د. محمد أنيس، دراسات في وثائق ١٩١٩ (القاهرة ١٩٦٣) ص - ١٦ .
- ١٠- عن الدستور ، أنظر :
- Kathelin Howard Merriam , "The Role of leadership in Nation - Building : Egypt, 1922" , Unpublished PHD dissertation, Indiana University, 1971 ; and Kedourie, "The Genesis of the Egyptian Constitution of 1923" P.M. Holt. ed, *Political and Social change in Modern Egypt* (london 1968) pp. 347 - 61

و :أحمد زكريا شالق - حزب الأحرار الدستوريين ١٩٢٢ - ١٩٥٣ (القاهرة ١٩٨٢)
وهو كتاب يبحث في تاريخ الحزب.

١١- هذه الاستشهادات من " لورد كرومر قبل التاريخ " - الجريدة ١٣ ابريل ١٩٠٧،
كما ترجمت في :

- Wendell, Charles. *The Evolution of the Egyptian National Image from Its Origins to Ahmad Luffi al - sayyid* (Bayyid , California 1972)
p. 298

-١٢

- Charles D.Smith, *Islam and the Search for Social Order in Modern Egypt : A Biography of Muhammad Husayn Haykal* (Alpaay, New York, 1983).

١٣- ملفات جامعة القاهرة ٣ / ١٣٥ - ١١ أكتوبر ١٩١٩ و ٣ / ١٣٨ تقرير مجلس
إدارة الجامعة ٢٣ مارس ١٩٢٢، و Smith, Islam, P - : 69 قارن : بدير - ص -
١٥٨، ١٦١، ١٧٧.

١٤- ملفات جامعة القاهرة ٣ / ١٣٨ تقرير مجلس ادارة الجامعة ٦ مايو ١٩٢٢ .
و :

: - Donald M. Reid : "the National Bar Assocition and Egyptian Politics , 1912 - 1954," the International journal of African Historical Studies 7 (1964) : 620- 230.

١٥- ملفات جامعة القاهرة ٣ / ١٣٨ تقرير مجلس ادارة الجامعة ٢٩ نوفمبر ١٩٢٢.

١٦- بدير - ص - ٣٠٨. وقد استقال محمود في ديسمبر ١٩٢٢. ملفات جامعة القاهرة
١٢ / ١٤ - ٨ ديسمبر ١٩٢٢.

١٧- سجلات حساب بنك مصر، في : ملفات جامعة القاهرة - صندوق ١٢٣ عن سعد
زغلول والبنك، أنظر :

- Eric Davis *Challenging Colonialism : Bank Misr and Egyptian Industrialization, 1920 - 1941* (princeton, 1983) , pp. 121 - 23.

-١٨

- F.D 848 / 19 / , Milner Mission Papers. Sectoin B. mission "Review of the Administration, and Causes of Unrest" . "Ministry of Education," p. 19.

١٩- وزارة المعارف المصرية، التقرير النهائي في للجنة الجامعة (القاهرة ١٩٢١)
ص - ٣ - ٧- توجد أوراق عمل اللجنة في : ملفات جامعة القاهرة ١١ / ٨٠٥. وحول
اللجنة أنظر :

- The Times *Educational Supplement* (london), April 19, 1917.

و : جريدة " السفور " ٢ مارس ١٩١٧.

- ٢٠ - Murphy, *American University in Cairo*, pp. 11-19.
- ٢١ - ملفات جامعة القاهرة ١١ / ٨٠٥ "لجنة الجامعة" مسودة ثانية تقرير موسمي (غير مؤرخ) ص - ١٣ - ١٥.
- ٢٢ - ملفات جامعة القاهرة ١ / ملف بدون رقم "لجنة الجامعة، مسودة تقرير موسمي حول إدارة أحوال الجامعة" ٢٧ أكتوبر ١٩١٧ ص - ١ - ٢
- ٢٣ - ملفات جامعة القاهرة ١١ / ٨٠٥ "لجنة الجامعة - مسودة ثانية تقرير موسمي (غير مؤرخ) ص - ١٣ - ١٥.
- ٢٤ - طه ورفعت وضيف ووايت وكليمان - بدير ص - ٣٢٥ - ٣٢٦.
- ٢٥ - أحمد لطفي السيد، قصة حياتي ص - ١٧٩.
- ٢٦ - رمضان، تطور ... ١٩١٨ - ١٩٣٦ ص - ٥٨٣ - ٥٩٠.
- و : عبد الرحمن الرافعي - في أعقاب الثورة المصرية (٣ أجزاء - القاهرة ١٩٤٧ - ١٩٥١) - الجزء الأول ص - ٢٢٧ - ٢٢٩
- ٢٧ - أنظر تقييم اللورد لويد في كتابه :
- *Egypt Since Cromer* (2 vols., New york, 1970; reprint of 1934 ed.), 2 : 126 ff
- ٢٨ - بدير ص - ٣٤٢ - ٣٤٨.
- ٢٩ - عبد المنعم الدسوقي : " الجامعة المصرية... " ص - ١٢٧ - ١٢٨.
- و :
- *The Hebrew Univsity of Jerusalem 1925 - 1950* (Jerusalem - 1950, pp.1-3. preface by Brodetsky
- و : صحيفة المعلمين، مجلد ٣ - العدد ٢ (مارس - ابريل ١٩٢٥) ص - ١١٥ - ١٢٤.
- ٣٠ - بدير ص - ٣٤٩ - ٣٥٤.
- ٣١ - *Good - bye to All that* (london 1929), pp. 320,
- ٣٢
- Ahmed Abdul wahab Azmy, "University Tradition, and Continuity in: Architecture as a Stimulation for Future Development of AL - Azhar University and Old Cairo" unpublished PhD dissertation, princeton University, 1966
- ٣٣
- Malcolm Muggeridge. *Chronicles of wasted time* vol.1 : the Green Stick. london 1972 p.153

- Graves, *Good bye*, p. 433.

-٣٤

-٣٥ عن أنماط النمو فيالقاهرة أنظر:

- Janet Abu lughod, *Cairo : 1001 years of the city victorious* (princeton, 1971).

- *Rapport pour l'annee 1915 presente par le conseiller judiciaire* -٣٦

(Cairo), p.29.

- Azmy , "*University Tradition*, " pp. 230-54.

-٣٧

-٣٨ الإيجيشيان جازيت ٨ فبراير ١٩٢٨.

و:

- *L'Art vivant en Egypt* (Paris), vol. 6 , No. 134 (july 15 , 1930) : 566

-٣٩ سجل جامعة القاهرة ١٩٥٠ ص - ٧ .

-٤٠ الإيجيشيان جازيت ٨ فبراير ١٩٢٨، وسجل جامعة القاهرة ١٩٥٥-١٩٥٦ ص ١٠.

-٤١ ملفات جامعة القاهرة ٣ / ١٣٤ تقرير مجلس الإدارة ١١ أكتوبر ١٩١٩ يوجد ملف طه حسين من ٢٢ - ١٩٢٥ في ملفات جامعة القاهرة ١٤ / ١٧٠. قارن بين : بيدير : ص - ١٧٨ - ١٧٩.

-٤٢

- A.J. Engel, *From {lergyman to Don : the Rise of the Accademic profession in Nineteenth - century Oxford* (Oxford 1985)

وعن التخصصات المهنية في مصر أنظر:

- Donald M. Reid. "*The Rise of Professions and Professional Organizations in Modern Egypt*," *Comparative Studies in Society and History* 16 (1974): 24 - 57,

و:

- Clement Henry Moore, *Images of Development : Egyptian Engineer in Search of industry* (Ccambridge, Massachusetts, 1980).

-٤٣

- Laurence R.Veysey, *The Emergence of the American University* (Chicago. 1965) ; Thomas, L-Hskell *The Emergence of Professional Social Science : The Americcan Social Science Association and The*

Nineteenth - Century Crisis of Authority (Urbana, Illinois, 1977); and Konrad H. Jarausch, ed. *The Transformation of Higher Learning 1960 - 1930 : Expansion, Diversification, Social Opening, and Professionalization in England, Germany, Russia, and the United States* (chicago, 1983).

- ٤٤- أحمد أمين، حياتي صص ١٨٢-١٨٦.
- ٤٥- ملفات جامعة القاهرة ١٣٤/٣ تقرير مجلس الإدارة ٢٨ ديسمبر و ١٤ أكتوبر ١٩١٨، و ١٩ أكتوبر ١٩١٩.
- ٤٦- ملفات جامعة القاهرة ١١٣٤/٣ تقرير مجلس الإدارة ١٦ أكتوبر و ٨ نوفمبر ١٩١٩. و ١٣٦/٣ تقرير مجلس الإدارة ١٣ و ٢٤ يناير و ٥ فبراير ١٩٢٠.
- ٤٧- ملفات جامعة القاهرة ١٣٧ تقرير مجلس إدارة الجامعة ١٩ مارس و ١٢ مايو ١٩٢١ و ١٣٨ تقرير مجلس إدارة الجامعة ١٠ نوفمبر ١٩٢٢.
- ٤٨- ملفات جامعة القاهرة ١٧٣/٣ تقرير مجلس إدارة الجامعة ٢٩/٢٢/١٥ أبريل ١٩٢٢.
- ٤٩- الأيام - الجزء الثالث صص ١٥٢-١٥٧.
- ٥٠- ملفات جامعة القاهرة ١٣٨/٣ تقرير مجلس إدارة الجامعة ١ نوفمبر ١٩٢٢. أعيد نشر الأعمدة المنشورة في جريدة "السياسة" في كتاب طه حسين حديث الأربعاء (٣ أجزاء - القاهرة ٢٥-١٩٤٥). الذي أعيد طباعته في الجزء الثاني من المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين (بيروت ١٩٨٠).

[٥]

الإمبرياليات المتصارعة والتمصير

ساعد استقلال مصر الجزئي بعد ١٩٢٢ الملك فؤاد على إحياء اللعبة القديمة المتمثلة في الاحتفاء بفرنسا لمواجهة إنجلترا. وكان الفرنسيون أكثر من راغبين في هذه اللعبة. فضغط فؤاد من أجل تعيين الفرنسيين بالجامعة، وعندما يتعذر ذلك، يضغط لتعيين البلجيكيين أو الإيطاليين، الأمر الذي قاومه البريطانيون بالطبع. وفي الثلاثينيات التحق بعض الأساتذة الألمان بالجامعة للعمل بها، بيد أنه لم يكن لهم ولا للإيطاليين نفوذ كبير. بينما بدأ الأساتذة المصريون يحلون محل الأوروبيين تدريجياً، ولكن ليس بالقدر الكافي لإرضاء العديد من الوطنيين. فأدرك الجميع أنه من الأسهل التغنى بفكرة التعاون الدولي في المجال الأكاديمي عن تطبيقها عملياً.

واستمر الجدل المثير حول لغة التعليم ونشر المطبوعات، حتى بعد وصول الأساتذة المصريين للجامعة، فبينما دافع الوطنيون عن اللغة العربية، دفعت الحاجة إلى الانتماء لمجتمع العلماء الدولي، الذي يهيمن عليه علماء الغرب، بالعديد من الأساتذة إلى الإبقاء على اللغة الإنجليزية.

اللورد لويد في مواجهة اللاتين :

عندما صدر المرسوم المنشئ للجامعة في ١١ مارس ١٩٢٥، كان ذهن المندوب السامي "النبى" منصرفاً إلى وجهة أخرى، فالانتخابات البرلمانية المقرر إجراؤها في اليوم التالي آخر فرصة لإظهار أن حلفاءه من المصريين "المعتدلين" يمكنهم المحافظة على الاستقرار وحماية المصالح البريطانية. ولكن الوفد فاز في الانتخابات، وقام فؤاد بتعطيل المجلس النيابي فأدرك "النبى" أن اللعبة قد انتهت. وأثناء استعداداته للرحيل، وردت مذكرة من مستشاره للشئون المالية تقرر أجراس الخطر فيما يتعلق بالجامعة : "لا يبدو أن دلائل المستقبل مشرقة كثيرة، وليس باستطاعتى الاعتقاد في أن الجامعة ستصبح هيئة جادة أبداً، فلن تصبح غير جامعة بالاسم فقط وبلا قيمة علمية"^(١).

ثم استغل كل من الملك فؤاد، وناظر المعارف على ماهر، موسم الصيف الطويل - عندما خلت الساحة من المندوب السامي - استغلالاً ذكياً ؛

فتصل على ماهر من التزامه الضمني أمام النبي بتفضيل الأساتذة الإنجليز في حالة عدم وجود أساتذة مصريين. وفيما بعد، شك اللورد لويد من أن ماهر والملك - ذو الثقافة اللاتينية والهوى الفرنسي - كانا قد وافقا على أنه في غيبة البريطانيين يتم تعيين غير الناطقين باللغات اللاتينية مع إثارة أبناء بلدان الشمال^(٢) القادرين على إلقاء المحاضرات بالإنجليزية. غير أن الملك - الذي اعتبره أحد المستشارين البريطانيين غير واع أصلا بوجود حضارة مدنية بريطانية^(٣) - قام مع وزيره، بدلا من ذلك، بتعيين أساتذة من بين الناطقين بالفرنسية. ووجه "تيفيل هندرسون"، القائم بأعمال المندوب السامي، اللوم إلى على ماهر في شهر يوليو، لأن الأخير كان يبحث تعيين عميد فرنسي لكلية الحقوق، كما عين بلجيكا لكلية الآداب، وآخر سويديا لكلية العلوم : "لقد استكرت هذا التوجه باعتباره إظهارا لروح الدعوة إلى التدويل، الأمر الذي لم يكن مطلوبا، خاصة مع ما هو معروف تماما أن معظم الأجانب لديهم نزوع متأصل لمزج حياتهم العادية بالسياسة"^(٤). ورد ماهر على ذلك بأنه ظل يبحث طيلة أشهر - دون جدوى - عن عميد إنجليزي للطب، لأن ذكرى اغتيال السيرلي ستاك كانت ما تزال حية في الأذهان، فلم يكن العمل بالقاهرة يتيح لأي مسئول إنجليزي أن يشعر بالأمن في وظيفته. وعندما حضر اللورد "لويد" في أكتوبر، وجد الأحوال في البلاد مثلها في الجامعة تدعو للقلق. فأجبر الملك على إبعاد مستشاره نشأت إلى منصب دبلوماسي خارج البلاد، بعد أن أثار بتصرفاته المستبدة غضب حتى رجال السياسة المقربين إلى القصر. ولكن لويد لم يستطع رأب الصدع بين الأحرار الدستوريين والقصر.

أما بالنسبة للجامعة، فقد أحس لويد بالارتياح لأن الإيطاليين أبعادوا عن مدرستي العلوم والطب على الأقل، رغم أنه لم يبق في أيدي الإنجليز سوى عمادة الطب وحدها ؛ أما عميد كلية العلوم، فسويدى مناوى للإنجليز بيد أن لويد شعر بانزعاج خاص إزاء الهيمنة الفرنسية على مدرستي الحقوق والآداب ؛ باعتبارهما ساحتين لتدريب السياسيين^(٥).

وكان أقصى ما يتمناه لويد بالنسبة لمدرسة الحقوق، احتفاظ الإنجليز بمنصب أو اثنين فيها^(٦)، بعد أن كانوا في عهد كرومر أراحوا معظم الأساتذة الفرنسيين عنها، وأحلوا الإنجليزية محل الفرنسية كلغة الدراسة الأولى بالكلية. وتكمن المفارقة في أن الأساتذة الإنجليز كانوا يصارعون من أجل تعليم المصريين - بالإنجليزية - القانون، الذي هو فرنسي أساسا. غير أن

النفوذ الفرنسي عاد ثانية بعد إعلان عام ١٩٢٢ ؛ فقد رأس على ماهر ثم مصري آخر مدرسة الحقوق، ولكن جئ بعميد فرنسي لوضع نظامها ككلية جامعية (بينما رجعت مصر إلى محتليها عندما طبعت الإنجليزية على طوابع البريد كلغة ثانية بدلا من الفرنسية، وذلك بعدما اتضح أن إصدار طابع بريد بالعربية فقط أمر غير عملي).

وفي كلية الآداب، أكتشف لويد وجود خمسة أساتذة فرنسيين، وأربعة بلجيكيين (من بينهم العميد)، واثنين من المصريين نوى الثقافة الفرنسية وجميعهم غطوا على الإنجليزيين الوحيدين بالكلية^(٧). وكان يعتبر الفرنسيين والبلجيك والإيطاليين مجرد لاتينيين. ألا يلقون جميعا المحاضرات بالفرنسية ؟ ومن ثم، شمر عن ساعده للوقوف بإصرار ضد المد الفرنسي بالجامعة. ولاحظ "روبرت جريفز" أستاذ الإنجليزية في تلك السنة الأولى، أن لويد : "يؤمن بوظيفته أكثر من إيماني بوظيفتي. لقد درج على السير في القاهرة بسيارة قوية - يرفرف فوقها العلم البريطاني - بسرعة حوالى ستين ميلا في الساعة، ويسير أمامه راكبو الدراجات البخارية الذين يفسحون له الطريق"^(٨). ويذكر "مالكوم موجريدج" الذي تولى تدريس الأدب الإنجليزي عقب رحيل "جريفز" إن لويد كان : "رجلا قصيرا، شاحب الوجه، نشيطا في عصبية" وكتب موجريدج وصفا - يتسم بالمبالغة - لعلاقة لويد بالملك فؤاد : "قال لي (لويد) - بالحرف - أن الملك فؤاد كثيرا ما تعود أن يبكي على كتفه عندما كان مندوبا ساميا ؛ وهو ما يستحضر إلى الذهن مشهدا مثيرا : تلك الطلعة الملكية الممتلئة، ذات الشارب الكث المرتفع إلى أعلى والمسحوب على شكل شارب القيصر، وصاحبها داعم العينين، منحنيا على لويد النحيل، تصدر عنه نهنحات عالية، وعواء مرتفع غريب، بسبب ثقب في حنجرته نجم عن إطلاق الرصاص عليه بيد عم حاسد له"^(٩).

ولا يدع عنوان مذكرات لويد "مصر منذ عهد كرومر"، ولا محتواها، مجالا للشك حول هوية بطلها المستبد ؛ فقد عززت خدمة كل من كرومر ولويد في الهند من ميولهما الأوتوقراطية، وتركت لديهما انطبعا بأن تعويد "الشرقيين" على النظام لا يتأتى بغير استخدام الشدة. ونادرا ما كان لويد يخفي ازدرائه من محاولات كل من "جورست" و"اللبي" لاجتذاب المعتدلين المصريين بأسلوب أقل استفزازا.

وحارب لويد "اللاتينيين" في كلية الآداب، عن طريق الضغط على مجلس الجامعة، والضغط على فؤاد ووزارته، بل، ودفع السفير البريطاني

في باريس للاحتجاج لدى وزارة الخارجية الفرنسية^(١٠). وفي أبريل ١٩٢٦، ظن لويد أنه أحرز نجاحا عندما قرر مجلس الجامعة ضرورة أن تكون المحاضرات في كلية الآداب بالإنجليزية، باستثناء محاضرات الأدب الفرنسي، والأدب العربي. غير أن ذلك لم يكن له طائل، حيث كان الأساتذة الفرنسيون والبلجيكي يقصرون الأمر على مجرد إعطاء ملخصات باللغة الإنجليزية في ختام محاضراتهم. ثم أخذ لويد من على ماهر - غصبا وبلى الذراع - تعهدا بالبحث أولا عن الأساتذة البريطانيين، ثم، في المقام الثاني عن أولئك الذين ينتمون لإحدى البلدان الأوروبية الصغرى خاصة الاسكندنافية^(١١). وبعد فترة قصيرة، سقطت وزارة "زيوار"، وأصبح على لويد أن يعيد الكرة من جديد.

وكتب الرجل الثاني في السلطة بعد "لويد" في عام ١٩٢٧ يقول : "لم أرتح لاختيار الأكاديمية الفرنسية الملك فؤاد كواحد من أعضائها الدائمين - فهو أكبر عدو لنا في هذا البلد فيما يتعلق بالثقافة البريطانية وأخشى أن يشجعه موقعه كعضو بهذه الأكاديمية على السعي لإرضاء الفرنسيين بدعم الثقافة الفرنسية في مصر"^(١٢).

ثم يتولى حزب الوفد وزارة المعارف في حكومتى ائتلاف الأحرار الدستوريين والوفد برئاسة عدلي، ثم ثروت من ١٩٢٦ - ١٩٢٨. وقبل ذلك بوقت غير طويل، كان أحد الكتاب الموالين للوفد قد سخر من الجامعة باعتبارها "خدعة ضخمة، وباهظة الثمن ؛ مزيج من المشروبات.. سلاطة روسية.. أحد أبراج بابل"، واعترض على لطفي السيد باعتباره مجرد كاتب بارع^(١٣)، ولكن ما أن تولى الوفد الحكم، حتى اكتشف أن الجامعة - مثلها مثل دستور ١٩٢٣، الذي كان الوفد قد أدانه من قبل - لها فوائدها. وكانت المفاجأة السارة للويد أن بدا على الشمسي ناظر المعارف متعاوناً. كما لقيت مساندة الملك للعميد البلجيكي "جريجوار" والمصالح الفرنسية بالجامعة معارضة من على الشمسي الوفدي وشاركه لطفي السيد، مدير الجامعة وهو من الأحرار الدستوريين (انعكاسا للائتلاف الحاصل على المستوى القومي). فاستقال "جريجور" من منصب العميد في يناير ١٩٢٨، وغادر البلاد محبطاً في صيف نفس العام^(١٤).

وبحلول ١٩٢٩ وجد لويد - أخيرا - فرصته لاختراق الجامعة عبر كلية الآداب. وكانت الوزارة الائتلافية قد سقطت، وأعاد محمد محمود، رئيس الوزارة، الأحرار الدستوريين إلى التحالف مع القصر وقام محمود - في خيانة للمبدأين اللذين يشير إليهما أسم حزبه - بتعطيل الدستور والحكم بموجب مرسوم ملكي. أما لطفي السيد الذي كان "يفضل جدران مكتبته الصماء على أي منصب في الوزارة" ^(١٥) فقد ترك الجامعة، رغم ذلك، ليتولى وزارة المعارف. ووافق لطفي، محمد محمود - الذي تعلم في أكسفورد - على تعيين عدد أكبر من الإنجليز في كلية الآداب. وتقبل الملك فؤاد ذلك الأمر على مضض، لحاجته إلى رضا بريطانيا عن حكومته ذات اليد القوية.

وبهذا الدعم القائم من خارج الجامعة، تغلبت المجموعة الموالية للثقافة الإنجليزية في كليتي العلوم والطب على محبي الفرنسية من كليتي الآداب والحقوق، داخل مجلس الجامعة. وإذا بالبريطانيين لا يمنحون رئاسة قسم الأدب الإنجليزي وحده، وإنما أيضا رئاسة أقسام تاريخ العصور الوسطى، وتاريخ الشرق القديم، والجغرافيا ورغم "تفجر السخط الفرنسي الذي اتخذ شكلا غير لائق تقريبا" ^(١٦) أحس لويد بالابتهاج، حيث: "يعتبر القرار بمنحنا هذه المناصب هزيمة حاسمة لكلية الآداب في مجلس الجامعة. وينبغي أن أضيف أن هذا الوضع المرضي، جاء نتيجة لأربع سنوات تقريبا من الصراع من جانبي ضد القصر - أساسا - لإحلال النفوذ البريطاني محل النفوذ الفرنسي في كلية الآداب بما لها من أهمية بالغة، ومن ثم فمن الطبيعي أن أكون قلقا للغاية، لأننا لا ينبغي أن نعجز عن اهتبال الفرصة المتاحة بينما هي في حوزتنا" ^(١٧).

وأنزعج لويد لأن تعيين على ماهر وواحد آخر من السياسيين يعنى "وجود اثنين آخرين من الملكيين - أي أنصار اللاتينيين - في مجلس الجامعة" ^(١٨)، ولكن فوزه تأكد، ويوضح جدول (٩) كشف حساب لويد قبل فوزه. ومع حلول عام ١٩٣٥ كان مجموع أعضاء الجبهة اللاتينية في كلية الآداب قد انخفض إلى اثنين، وظلت كليتا العلوم والطب ترفضان أي تطفل لاتيني ^(١٩). فاقصر انتشار اللاتينيين على كلية الحقوق، التي يوجد بها بريطاني واحد وسط تسعة أوروبيين ناطقين بالفرنسية. ورغم أن البلجيكيين والإيطاليين لم يعتبروا أنفسهم مجرد بدلاء عن الفرنسيين، إلا أن أحدا لم يستطع إقناع اللورد "لويد" بهذا. فبينما كان "سارولى"، وهو من أساتذة الأدب

البريطانيين، يرى أن العميد جريجوار وغيره من البلجيكيين إنما هم في الواقع حلفاء مأمولون لبريطانيا في مواجهة المصريين الوطنيين، وكذلك الفرنسيين. واكتشف لويد أن سارولى - الذي كان يسعى للوصول إلى منصب نائب رئيس الجامعة - بلجيكي المولد، رغم أنه بريطاني الجنسية، كما أن له أقارب في الجالية البلجيكية الصغيرة بالقاهرة. وكان غاية ما يريده لويد، تقرير عن أن جريجوار العميد البلجيكي لكلية الآداب سبق أن أشار إلى أن الجامعة "ذات مستوى بالغ التدنى، يقترب من مستوى جامعة إنجليزية" (٢٠)، فقرر المندوب السامي أن هذه "الملاحظة الواضحة وحدها، لا تدع مجالاً للشك في أن السيد جريجوار ينبغي أن يذهب".

جدول (٩)

جنسيات أساتذة الجامعة المصرية عام ١٩٢٩

إجمالي الكتلة اللاتينية	روسي	سويدي	ألماني	مصري	بلجيكي	إيطالي	فرنسي	بريطاني	الكلية
٦	--	--	--	٢	--	٢	٤	١	الحقوق
٦	١	--	--	٢	٢	١	٣	٢	الآداب
--	--	١	١	١	--	--	--	٤	العلوم
--	--	--	--	٥	--	--	--	١١	الطب

المصدر : وزارة الخارجية البريطانية ١٧٣ / ٦٧٨٣١ / ١٠١٥ من لويد إلى تشامبرلين ٦ إبريل ١٩٢٩.

أساتذة الجامعة والصراع الأنجلو فرنسي:

لم يكن بعض الأساتذة البريطانيين متحمسين تماماً للحملة الثقافية التي تشنها دار المندوب السامي (أصبحت سفارة بعد ١٩٣٦). وأسف أحد المسؤولين بالسفارة لأن عميد كلية العلوم (بانجهام) "شخص واضح التحيز ضد فئة الموظفين، يأبى أن يكون له علاقة بدار المندوب السامي، وإذا أصبح نائباً لرئيس الجامعة، سوف يكون مستقلاً على نحو مزعج" (٢١). كما ورد في مذكرة أعدت عن أستاذ آخر : "أشعر أنني مضطر للقول أنه بلغني أن أنشطة الأستاذ سنكورت هنا لم تكن مرضية تماماً من وجهة نظر الثقافة البريطانية، فلا شك أنه ينتمي - نوعاً ما - إلى الثقافة اللاتينية. وقد شكالي واحد من العاملين معي من أنه كان يساند أحد الإيطاليين المتقدمين لشغل منصب بالجامعة". كما اتهم "سنكورت" أيضاً بأنه رتب لأحد الإيطاليين إلقاء

بعض المحاضرات حول التاريخ والأدب الإيطاليين، وأنه كان يلقي بنفسه المحاضرات بفرنسية عامية أحيانا^(٢٢). ويعلق روبرت جريفز على ذلك بقوله:

"لم أكن تبينت إلى أي مدى بلغ النفوذ البريطاني في مصر، ورغم ما قيل لي عن أن مصر مملكة مستقلة، كان يبدو أن ولائي الرئيسي ليس للملك الذي أمر بتعييني، وإنما للمندوب السامي البريطاني. كما أخبرني المسؤولون البريطانيون - في نظارة المعارف بضرورة الاحتفاظ بالعلم مرفرفا فوق كلية الآداب، الأمر الذي أصابني بالحرج، لأنني لم أحضر لمصر كسفير للإمبراطورية، ومع ذلك، لم يكن في نيتي أن أدع الفرنسيين ينخرطون في أنشطة شبه سياسية على حسابي".

وفي أحد اجتماعات هيئة التدريس كان جريفز :

"مرتديا بذلتي الجبردين الصفراء الأنيقة، وجالسا على مائدة مستطيلة مغطاة بقماش أصفر في صالة اجتماعات الكلية. وأمامي قدح من القهوة التركية، وغطاء رأس للوقاية من الشمس، ومحضر طويل بالفرنسية حول تفاصيل الاجتماع الأخير. وكنت أتحدث (في فرنسية سيئة) بلهجة حادة إلى زملائي من البلجيكيين والفرنسيين، مؤيدا أستاذ اللاتينية (الإنجليزي) الشاب، الذي هب واقفا على قدميه ووجهه شاحب يشي بالبغض، معلنا أنه يرفض تماما المساهمة الإيجابية بمبلغ خمسين قرشا من أجل شراء إكليل من الزهور لتأبين أحد الفرنسيين (توفي مؤخرا)، لأنه لم يستشر في ذلك. وإذا بي أعلن أنني أيضا لن أساهم، ثم انفجر فيه بالإنجليزية أنني طالما بقيت في هذا المنصب، فعلى جميع الموتى الفرنسيين أن يدفنوا أنفسهم على نفقتهم الخاصة"^(٢٣). وأحيانا كان الدور يجيء على السفارة لتعاني الحرج بسبب أستاذ شوفيني النزعة، كما في حالة "كريزويل" أستاذ العمارة الإسلامية الشهير ؛ ففي عام ١٩٣٨، تقدم كريزويل بشكوى لسفارته من أن الفرنسيين شغلوا قسم الفلسفة بالقاهرة دون أن يعلن في إنجلترا عن افتتاحه. ولأن كريزويل اعتقد أن السفير "مايلز لامبسون" تجاهل احتجاجه، فقد دفع بأحد أعضاء البرلمان لتقديم شكوى لوزارة الخارجية^(٢٤). وسمع اللورد لويد - وهو في عزلة - بالأمر، فأصدر بيانا عنيفا بشأن الحاجة للدفاع عن المكاسب التي حققها بعد جهد :

"لقد ورد - على نحو واضح - في الاتفاقية الإنجليزية المصرية، أن أغلبية تلك المناصب المتاحة للأجانب في الجامعة المصرية ينبغي أن يشغلها رعايا بريطانيون. وعندما تسلمت منصب المندوب السامي من اللورد اللنبي كان هذا الاتفاق قد انتهك بالفعل في الجامعة لدرجة سيطرة الفرنسيين والإيطاليين شبه الكاملة على كلية الآداب، الأمر الذي استغرق منى أربعة أعوام من الجهد الشاق لاستعادة التوازن، وعندما تركت مصر، كان التمثيل البريطاني مرضيا في كليتي الآداب والطب على وجه الخصوص" (٢٥).

وخلط لويد بين التعهد للنبى وبين الخطاب الذي ألحق باتفاقية ١٩٣٦ الإنجليزية/المصرية، بعد ذلك بأحد عشر عاما ؛ والذي تعهد فيه رئيس الوزراء المصري مصطفى النحاس لوزير الخارجية البريطاني أنتونى أيدن بأن مصر سوف تفضل البريطانيين على غيرهم من الأجانب عند التعيين بالجامعة (٢٦).

واستمرت مراسلات وزارة الخارجية البريطانية بشأن شكوى "كريزويل" لما يزيد عن عام، ولم يكن يدور بذهن أحد أن بريطانيا وفرنسا سوف تدخلان الحرب العالمية الثانية كحلفين. وشعر لامبسون أن كريزويل أصبح مزعجا لأقصى حد : "الأستاذ كريزويل، أستاذ العمارة الإسلامية المشاكس، شديد العداء للفرنسيين، كان يشكو - كما هي عادته - بمرارة من تكاسلنا في معالجة الأمر... وقد برز هذا الموضوع المضجر للغاية مرة أخرى؛ فإن شكوى عضو البرلمان تعتمد حرفيا تقريبا على الشكاوى الأخيرة لصديقنا القديم كابتن كريزويل، ومن ثم فهي تطفح بالمبالغة والعبارات الكاذبة التي اعتدنا أن نتوقعها منه" (٢٧). ورفض لامبسون الاعتراف بأن رئاسة قسم الفلسفة منصب فرنسي، وأوضح أنه لم يكن هناك مرشح بريطاني يصلح للمنصب. وكان البريطانيون في وضع لا يسمح بإحضار الأساتذة من بريطانيا، أما الجامعات الفرنسية - مثل غيرها في القارة الأوروبية - فكانت تتبع وزارة التعليم، التي شجعت بشدة إرسال البعثات الثقافية. ولم يكن أساتذة السوربون المتميزون يخسرون شيئا بالذهاب إلى مصر لمدة عام أو اثنين ؛ فوزارتهم تدفع لهم رواتب بالإضافة إلى رواتبهم في مصر ثم يعودون إلى مناصبهم السابقة بمزايا إضافية (٢٨).

ولكن الحكومة في إنجلترا لم تكن تعين الأساتذة، كما لم يكن لها نفوذ على سياسات التعيين في أكسفورد أو كمبردج. ونظرا لأن الحكومة البريطانية لم تكن راغبة في تقليد دعم وزارة الخارجية الفرنسية للبعثات

الثقافية، رفضت التماسات سفارتها بالقاهرة من أجل زيادة المرتبات بهدف اجتذاب الأساتذة المتميزين. كما لم تكن الجامعات الإنجليزية راغبة في تقديم مثل هذا الدعم أو غيره من المجالات المعاونة. ومن ثم، كان عمل الأساتذة خارج البلاد لبعض الوقت يعطل مسارهم الأكاديمي.

"دعنا نبحث الأمر بواقعية؛ فأستاذ التاريخ في نيوكوليدج (أكسفورد) لن يرضيه أن يعود ثانية إلى نيوكوليدج في نهاية السنوات الثلاث، إذا كان غيابه يعني خسارته فرصة تولي رئاسة قسم التاريخ الحديث في جامعة مانشستر، أو أن يعتاد كافة مدرسي أكسفورد على نصيح تلاميذهم بالذهاب إلى محاضرات أستاذ غيره! فمن يذهب إلى القاهرة إنما يتحى عن المسار الرئيسي للدراسة والبحوث التاريخية. ولهذا السبب فإن "التركية" التي ربما يكون لها أحسن الأثر بالنسبة للذاهبين إلى جامعة أمريكية أو ألمانية، قد لا يكون لها نفس الأثر في حالة مصر".

وأدى تفضيل مصر لنظام الاستغناء تدريجيا عن الأساتذة الأجانب إلى زيادة صعوبة اجتذاب البريطانيين، الذين لم يرغبوا في أن يصبحوا "مجرد أداة لتمهيد طريق أساتذة المستقبل من المصريين"^(٢٩). واقترحت وزارة الخارجية البريطانية أن تسعى سفارتها في القاهرة لحث الجامعة على زيادة الرواتب ولكن لم يكن هناك باعث لدي الأساتذة الأوروبيين الآخرين أو سفاراتهم في القاهرة لتشجيع مثل هذا التحرك. وحدث - لمرة واحدة على الأقل - أن قام أحد البريطانيين بإفشال اقتراح تكون نتيجته أن تمنح الجامعة لأستاذ بريطاني جديد مرتبا يزيد عن مرتبه^(٣٠). وفي النهاية، قرر المجلس البريطاني في الأربعينيات زيادة مرتبات بعض الأساتذة البريطانيين^(٣١)، غير أن المشكلة لم تحل تماما.

ونتيجة لذلك، أصبح معظم الأساتذة المرشحين للعمل في القاهرة، من الشباب قليلي الخبرة، الذين لم تكن مسوغات تعيينهم تضاهي مسوغات تعيين منافسيهم الأوروبيين. وكانت شهرة روبرت جريفز، ذي الثلاثين عاما مازالت في علم الغيب، عندما زكته شبكة اتصالاته القديمة لتولي رئاسة قسم الأدب الإنجليزي في عام ١٩٢٥، ولم يكن لدى جريفز سوى شهادة البكالوريوس، التي نالها حديثا. وقد حكى في صراحة كيفية حصوله على الوظيفة وتوقعاته بشأنها: "كانت الوظيفة الوحيدة التي أستطيع القيام بها هي التدريس. ولكنني كنت في حاجة إلى درجة جامعية، لذلك استكملت أطروحتي التي نشرتها تحت عنوان "الجنون الشعري"، وسلمتها مطبوعة إلى

هيئة الممتحنين. وفوجئت كثيرا عندما قبلوها، وحصلت على درجة البكالوريوس. ولكن بقيت مشكلة التعيين؛ فلم أكن أريد وظيفة بإحدى المدارس الإعدادية أو الثانوية تبقيني طوال النهار خارج البيت... في الواقع، كانت الوظيفة الوحيدة المناسبة تماما، هي التدريس في مصر حيث المرتب المرتفع للغاية، والقدر القليل من العمل. وبعد ذلك بأسبوع أو اثنين (وهي نفسها الطريقة التي تحدث بها الأمور معي دائما في حالات الأزمات) طلب مني أن أشرح نفسي لمنصب أستاذ الأدب الإنجليزي في الجامعة المصرية حديثة الإنشاء بالقاهرة. واكتشفت، فيما بعد، أن اثنين أو ثلاثة من الأصدقاء ذوي النفوذ زكوني للمنصب، من بينهم.. ت. إ. لورانس، الذي خدم في الحرب مع اللورد لويد، وهو المندوب السامي في مصر وقتذاك". كما أن "مالكولم ماجريدج"، الأصغر سنا من جريفز، ولا يمتلك نفس مستوى علاقاته، جاء إلى القاهرة ليعمل محاضرا بالجامعة، بعد أن عمل بالتدريس لمدة عامين دراسيين في مدرسة المنيا الثانوية. ولم يكن لدي ماجريدج أيضا أوهاما حول الوظيفة أو فيما يتعلق بمؤهلاته: "من وجهه نظر السيد "توب"... لم يكن من الممكن أن يقبل مدرسا مؤقتا في إحدى المدارس الابتدائية زوجا لابنته، ومن ثم، فهو الذي نبهني إلى إعلان عن طلب مدرسين للعمل بالمدارس الحكومية في مصر. وكان الراتب أفضل مما كنت أتقاضاه في "برمنجهام"، كما بدت شروط التعيين مرضية، أما الأمر الذي زاد من رغبتى في الوظيفة، علاوة على كل ذلك، فهو أنها تتضمن فرصة جديدة للتخلص من إيمان المخدرات والعلاج منه؛ لذلك تقدمت للوظيفة، ثم قبلت بها. ولم تكن هناك منافسة كبيرة، فالعمل بالمدارس الحكومية في مصر لا يوفر - على أية حال - فرصا للترقيات أو الحصول على معاش، فمعظم المتقدمين للوظيفة أما حديثو السن للغاية، جاءوا مما يطلق عليه الجامعات حديثة النشأة" المبنية بالطوب الأحمر"، أو من متوسطى وكبار السن ذوي الكفاءات الضعيفة الذين تبدو عليهم سيما الفشل أو المعاناة المستمرة ويشبهون شخصيات ايفلين أوج" (٣٣).

* Red Brick Universities تعبير أطلق على جامعات انجليزية أنشئت في القرن ١٩ وما بعده، تميزا لها عن الجامعات العريقة مثل أكسفورد وكامبريدج المبنيتين بالأحجار مثل كافة المباني العريقة، أما الجامعات حديثة النشأة فأنشئت بعد استخدام الطوب الاحمر فى البناء - (المترجمة)

ويعتبر الطريق الذي سلكه "ماجريدج" إلى الجامعة، عبر الوظيفة الحكومية في مصر، أمراً مألوفاً بين البريطانيين الذين أقاموا بمصر وألفوا الحياة فيها. وفي عام ١٩٤٢ عندما احتاجت كل من جامعة فؤاد الأول وشقيقتها الجامعة حديثة النشأة في الإسكندرية إلى أربعة من المحاضرين بالإنجليزية، رشحتهم السفارة من بين القوات المسلحة البريطانية في مصر^(٣٥).

ولم يكن أولئك الشبان الإنجليز ليأملوا في تولى منصب الأستاذية فعليا إذا اقتصر ضغط السفارة على مجرد مرحلة تقديم الأوراق. وفي عام ١٩٢٨ سعى محمد محمود رئيس الوزراء، ولطفي السيد وزير المعارف إلى دفع مجلس الجامعة إلى تخطي عميد كلية الآداب وكذلك مجلسها، وتعيين شاب إنجليزي أستاذا للأدب الكلاسيكي بدلا من الأستاذ الإيطالي ذي الستين عاما^(٣٦). وبرر لطفي ذلك بأنه لا يستطيع سوى إنجليزي أن يدرس للطلبة المصريين باللغة الإنجليزية، وهي اللغة الأجنبية التي يفهمونها على نحو أفضل من غيرها.

تهديد ألماني :

وحتى الأساتذة المتحدثين بالإنجليزية - من غير أبناء الشعوب اللاتينية - كان لهم أحيانا مثالبهم من وجهة نظر دار المندوب السامي؛ فقد أحتج البريطانيون على تعيين عميد سويدي لكلية العلوم، كما رحل أستاذ سويدي في علم النبات، ضجرا من تصرفات البريطانيين حيال الأوروبيين. ولم تمثل الولايات المتحدة تهديدا للمصالح الثقافية البريطانية في مصر ما بين الحربين، فلم تكن الجامعة المصرية تضم ممثلين للأمريكيين. وفي عام ١٩٣٨ - ١٩٣٩ لم يكن مسجلا في المستوى الجامعي بالجامعة الأمريكية بالقاهرة غير ستة وثمانين طالبا. كما لم يكن قد حصل منها على درجة البكالوريوس سوى أربعة وثمانين طالبا إجمالا. ولم تشغل الجامعة الأمريكية اهتمام معظم المصريين سوى عدة مرات متفرقة؛ كما في عام ١٩٣١، عندما قيل أن أحد الأساتذة نوى النشاط التبشيري اختطف أحد الطلاب السابقين^(٣٨)، وكان الطالب مسلما.

ورغم طموحات موسولينى في البحر المتوسط، لم يحدث أن سعت إيطاليا بصورة جدية لمد نفوذها إلى الجامعة المصرية : وبحلول عام

١٩٣٣، لم يكن هناك أثر للمستشرقين الإيطاليين الذين جلبهم فؤاد؛ بعد أن فشلت مساعيه للانفراد بالحكم. وكان منح الدكتوراه الفخرية "لفيكتور عمانويل الثالث"، وكذلك تعيين "تالينو" في مجمع اللغة العربية ضمن آخر ما قدمه فؤاد من مجاملات للإيطاليين في المجال الأكاديمي^(٣٩).

وفيما بعد تساعل بعض البريطانيين، في دهشة، عما إذا كان تركيز اهتمامهم على الفرنسيين صرف انتباههم عن ملاحظة التحدي الألماني، خاصة في مجال الاستشراق وعلم المصريات. ففي عام ١٩٣٤ الغى المندوب السامي لامبسون تعيين المستشرق الألماني "جوزيف شاخنت"، بدعوى أنه لن يجد لديه سوى أربعة أو خمسة من الطلاب. وأثار المد الألماني انزعاج المسؤولين بوزارة الخارجية البريطانية، ثم أخذ لامبسون الأمر على نحو أكثر جدية بعد ذلك. وكان ليتمان عاد إلى الجامعة كأستاذ زائر عام ١٩٢٩، وفي العام الذي تلاه عاد "أرتور شادة" مدير دار الكتب المصرية الذي طرد عام ١٩١٤، ثم حل "شاخنت" محل "شادة" في المنصب، وتولى "باول كروس" تدريس اللغات الشرقية لبعض الوقت، وكان عالم البرديات "جوتلف برجستراسر" وعالم المصريات "هيرمان يونكر" نمساويين - تولى الأخير إدارة المعهد الألماني للآثار المصرية بالقاهرة - وأصبح الاثنان من الرعايا الألمان عام ١٩٣٨ وفقا لاتفاقية أنشلوس* كما جاء إلى القاهرة الكيميائي "الكسندر شونبرج" قادما من برلين ١٩٣٧ وظل بها حتى الخمسينيات^(٤١).

واستشاط أحد المسؤولين بالخارجية البريطانية غضبا، عندما سمح سلف لامبسون، لعالم المصريات البريطاني "تيوبري" أن يشير إلى "أيونكر" باعتباره خليفته في المنصب:

"انه لتصرف سيئ بالتأكيد.. فأنا لا أنكر حالة واحدة، خلال أربعة أعوام من العمل، كانت فيها مصالحنا في مصر محل تجاهل على نحو يتعذر قبوله كهذا... كان يجب على دار المندوب السامي أن تدرك أن الأستاذ "تيوبري"، المعادي بشدة للفرنسيين، والذي لا يهتم سوى بإبعاد الفرنسيين، ليس بالشخص الذي يسمح له بإبداء الرأي في اختيار خليفته. وسبق أن نبهنا إلى هذا الجانب من شخصية "تيوبري" طيلة عام مضى"^(٤٢).

* اتفاقية "أنشلوس" وقعت بين الرئيس النمساوي د. شوشنج والزعيم الألماني هتلر، كانت تنص على ضم النمسا لألمانيا - (المترجمة)

وساور الشك البريطانيين في احتمال أن يكون "يونكر" متعاوناً مع النازيين، ومن ثم، شعروا بالارتياح عندما نجحوا عام ١٩٣٩ في إبعاده. ومعه اثنين من المحاضرين الألمان^(٤٣). ورغم أن النازيين لم يكونوا راضين عن تعيين "كراوس" - الذي ترك جامعة برلين عام ١٩٣٣ - أو "شاخت"، الذي هاجر من ألمانيا بعد وصول هتلر إلى الحكم، مع أنه لم يكن يهودياً، كما لم يكن متورطاً في متاعب سياسية، إلا أن البريطانيين صادروا مكتبة شاخت وغيرها من ممتلكاته في القاهرة عند اندلاع الحرب، كما رفضوا السماح له بالعودة إلى مصر، فعمل في لندن بوزارة الإعلام وإذاعة "بي. بي. سي"، قبل أن ينتقل إلى جامعة كولومبيا.

وتوضح لنا حالة "هوجو فيشر" الذي كان مرشحاً لشغل منصب أستاذ الفلسفة، أن الألمان لم يكونوا - وحدهم - المعادين السامية: "أصبحت الآن قادراً على مقابلة الأستاذ فيشر والحديث معه... ويبدو أنه ألماني الجنسية، وليس لدي شك في أنه يهودي، ومن الواضح أنه يبدو خجولاً ويفتقر إلى الثقة بالنفس، وأظن أيضاً أنه يعاني من عقدة الاضطهاد التي يعاني منها العديد من المتقنين اليهود. ومع ذلك، فقد شعرت أنه سوف يتعاون مع المجلس، وسيكون نافعا أكثر من غيره بالتأكيد، إذا عين في منصب أستاذ الفلسفة بالقاهرة، في حالة عدم وجود مرشح بريطاني".

ولكن البريطانيين قرروا عدم مساندته في مواجهة المرشحين الفرنسيين.

التناحر الإنجليزي الفرنسي، ومصالح الطلاب:

كان الملك فؤاد، وكذلك بعض السفراء الأوروبيين ينظرون إلى "معركة اللغات" من منظور سياسي، ونادراً ما كانوا يتوقفون ليتساءلوا عن الأصلح للطلاب. أما خارج الجامعة، فكما كتب الروائي "د. ج. إنرايت" في أوائل الخمسينيات: "كانت اللغة الشائعة الاستخدام هي الفرنسية بالطبع، ولم تكن الإنجليزية تحظى بنفس الاهتمام في الأوساط الراقية المصرية... فأنحصرت استخداماتها القليلة في مجال الأعمال، كما كانت تتضح بتعبيراتها السوقية في كل أشكال النزوات الخلوية تقريباً. حيث يسمعها المرء أحياناً - كأحدى مخلفات الجيش البريطاني - على شفاه كناسي الشوارع، وجامعي القمامة، ومن وقت لآخر يرددها في عربات الترام الصبية الذين يدرسون

بالمدارس البريطانية. ولكن الناس المحترمين، هم الذين يتحدثون الفرنسية^(٤٤).

بيد أن اللغة الإنجليزية حلت في العشرينيات محل الفرنسية في المدارس الحكومية إلى الحد الذي لم يكن معه خريجو هذه المدارس يجيدون من الفرنسية "سوى القدر اليسير الذي يفي بالحاجة عند شراء الطلبات من السوق"^(٤٦). وكان الطلاب الذين لم يلتحقوا بالمدارس الفرنسية يفضلون تلقى الدروس بالإنجليزية إذا لم يتيسر التدريس بالعربية.

ونظرا لأن محاضرات الآداب والحقوق قدر لها أن تستمر بالفرنسية بعد عام ١٩٢٥، استلزم ذلك تدريس الفرنسية بالجامعة بشكل كاف والتوسع في تدريسها بالمدارس الثانوية - بما وافق هوى كل من الملك فؤاد والعميد جريجوار - وسرعان ما تحرك على ماهر لتعيين واحد وأربعين أستاذًا فرنسيًا، وسبعة بلجيكيين، واثنين من السويسريين من بين مدرسي المدارس الثانوية للقيام بهذه المهمة. وأقحمت الفرنسية على دروس الجامعة النظامية، وإذا "جريفز" يجد أن محاضراتيه الهزيلتين قد خفضتا إلى واحدة فقط^(٤٧).

ويروي أستاذ إنجليزي آخر أن: "الطلاب أضربوا أكثر من مرة عن حضور المحاضرات التي تلقى بالفرنسية ولا يفهمها ٩٠% منهم، وأن أولياء أمورهم كانوا يشكون من ذلك أيضا"^(٤٨). وقدّر "لويد" أنه إذا ترك للطلاب الخيار، فسوف يختار ٨٥% منهم الدراسة باللغة الإنجليزية بدلا من الفرنسية^(٤٩). وربما كان هذا هو السبب، بالإضافة إلى ضغط لويد القوي، في بداية انحسار اللغة الفرنسية بكلية الآداب منذ ١٩٢٩.

وتجاوز النزاع الإنجليزي - الفرنسي مجالى اللغة، وتعيين الموظفين، إلى فلسفات وأساليب التعليم. فكتب "توبريه"، أستاذ الإنجليزية، يقول: "من الممكن أن تطرح القضية كلها كالتالي: هل الجامعة مكان للتربية، أم مقعد للتعليم؟ في ظل الظروف الحالية قد يبدو الوصف الأول هو الأفضل. ولكن كلية الآداب تسير وفق الوصف الأخير"^(٥٠).

وكما لاحظ جريفز: "كان زملائي الفرنسيون - الاثنا عشر أو الثلاثة عشر - على أعلى المستويات الأكاديمية. ولكن اثنين أو ثلاثة من المدرسين الإنجليز بمدارس الأرياف ربما يسعدهم القيام بنفس العمل لقاء ثلث المرتب، كما سيؤدونه على نحو أفضل كثيرا"^(٥١).

ويذكر الأستاذ محمد سليم سالم، إن العميد "جريجوار" كان واحدا من أعظم أساتذة الكلاسيكيات في العالم، ولكنه استمر يتحدث لمدة ساعتين

كاملتين في أولى محاضراته عن حرف "ألفا" * بجميع اللهجات المعروفة؛ فلم يفهم تلميذاه - اللذان لا يعرفان كلمة واحدة من اليونانية - شيئاً. وقرر سالم ألا يعود إلى محاضراته نهائياً، غير أنه التقى في طريقه بمحاضر بلجيكي طلب منه أن يشتري كتاباً في قواعد اليونانية، ويبدأ في تعلم مبادئها بينما يستمر في حضور محاضرات جريجوار^(٥٢).

وكان كل من "دوبريه"، و"جريفز"، و"سارولى" مقتنعاً أن المحاضرات المماثلة لمحاضرات السوربون لم تجد مع الطلاب المصريين، الذين عجزوا عن ملاحقة المقرر الدراسي ذي اللغات الثلاث. ويقارن دوبريه بين الأسلوب الإنجليزي، والأسلوب الأوروبي، فيقول :

(أ) يهدف النظام الأوروبي إلى تخريج علماء ونخبة ذات معرفة واسعة بالعديد من الموضوعات التي يكون بعضها نظرياً. وحتى لو طبق هذا النظام بالكامل، فسيكون موضع اعتراضات كثيرة، أما إذا لم يطبق فسوف تحدث أمور خطيرة، تتمثل تحديداً في تخريج عدد ضخم من أنصاف المتعلمين. وهذا هو النظام المتبع حالياً في كلية الآداب.

(ب) بينما يهدف النظام الإنجليزي إلى بناء الشخصية، وتخريج مواطنين صالحين. ولا يحول هذا النظام دون تخريج العلماء العظام، والدليل على ذلك العديد من الأسماء ذات الشهرة العالمية في الأدب والتاريخ والعلوم. ويعتبر هذا النظام أنه من الأفضل أن تلم الإمام كاملاً بموضوع واحد من أن تكون على معرفة سطحية بموضوعات عدة ؛ حيث أن الإمام الجيد بأحد الموضوعات يتضمن فهماً معيناً للموضوعات الأخرى. وفي مجال الآداب على الأقل : تتضمن دراسة الآداب - على سبيل المثال - الإمام معيناً بالتاريخ والفلسفة. ومع هذا، وطبقاً لأكثر الآراء أهمية، تعتبر المعرفة الجيدة بأحد الموضوعات تدريباً ذهنياً جيداً، فلا يمكن أن يبدأ التفكير المستقل إلا بعد تألف مع الموضوع. وتضييق مساحة المخاطرة للغاية في حالة التخصص خاصة في المجال العلوم. ولكن إذا اكتسب الطالب إماماً كافياً بأحد الموضوعات، يكون قد تعلم بالتالي كيف يكتسب المعرفة في موضوع آخر^(٥٣). وتراوحت ردود الفعل البريطانية تجاه الطلاب المصريين من الأبوية المربكة إلى الاحتقار ؛ فبالنسبة "لما جريدج"، بدا الطلاب : "تائهين إلى حد بعيد، في صورة من صور

السعادة الغامرة، الأمر الذي يرجع بالتأكيد - في حالة الكثيرين منهم - إلى إيمانهم للحشيش... "ولكن حتى "بصرف النظر عن الحشيش، فلا يكاد يكون بينهم سوى القليل ممن يمتلكون أدنى فكرة عما تتحدث عنه محاضراتنا" (٥٤).

وكتب لويد متعطفاً على غرار بطله كرومر: "يجب إدراك أن الحصول على درجة الأستاذية نادراً ما يتطلب إعطاء دروس جامعية؛ لأن المستوى متدن للغاية. إلا أن من لديه ميول تربوية سيجد هنا الكثير مما يثير اهتمامه. فالطلاب لطاف بشكل عام، ولكنهم أطفال" (٥٥).

ويلاحظ "روبرت جريفز"، في دعاية ممزوجة بالاستعراض: "الطالب المصري ونود إلى حد مربك، سريع الحفظ، غير منظم، وكسول. كما أنه مولع بالكلام وبطبيء التفكير، وليس لديه أي اهتمام على الإطلاق بالمعارف العامة. وأفضل الأساليب في التعامل معه هو استخدام السخرية المخففة، التي يحترمها؛ ولكنه إذا ما اهتم بالسياسة فلن يجدي معه سوى تصنع الغضب العنيف. لقد كان مطلوباً مني إلقاء محاضرة واحدة في الأسبوع. وكانت هذه المحاضرة مليئة بالصخب. ولم يكن الطلاب عدائين، وإنما منفعلين فقط، ومتهلفين على إظهار احترامهم لي، وللحرية، وسعد باشا زغلول، ومصلحة مصر، كل ذلك في نفس الوقت. وغالباً ما كنت أضطر للصياح بأعلى ما أستطيع من صوت لإعادة النظام. ولم يكن لديهم كتب مقررّة من أي نوع؛ وتفتقر مكتبة الجامعة إلى وجود كتب بالإنجليزية، كما أن الحصول على أي منها بواسطة أمين المكتبة يستغرق شهوراً. وكان ذلك في يناير، بينما يعقد امتحانهم في شهر مايو، وهم يتطلعون إلى إجابة "شكسبير"، و"بايرون"، و"ووردزورث" خلال تلك الفترة. ولم تكن بي رغبة لتدريس "بايرون" و"ووردزورث" لأحد، ووددت لو أحمى شكسبير منهم. فقررت أن أحاضر في أكثر أشكال الأدب بدائية" (٥٦).

وفي العام الدراسي الذي عمل فيه "انرايت"، كان الطلاب الثائرون. رغم حبهم له - يهتفون "لتسقط بريطانيا.. لا أنت يا سيدى"، "إنيك أب لنا، ولكن لن يكون هناك عمل لمدة ثلاثة أيام" (٥٧). ويلاحظ "جريفز" أن الطلاب دائماً كانوا "إما يضربون، أو يهددون بإضراب، أو يحال بينهم وبين الإضراب بمنحهم إجازة ولكنهم كانوا يهتمون بالحصول على منكرات مطبوعة لمحاضراتي حتى يعدون أنفسهم للامتحانات. وقد سعت لدي هيئة

الكلية لنسخ بعض هذه المحاضرات ولكنني لم أحصل أبداً إلا على الوعود. فتحوّلت محاضراتي في أول الأمر إلى إملاء للمحاضرات التي لم يتيسر إعطاؤها لهم، الأمر الذي أدى لانشغال الطلاب على أية حال". وعمل "جريفز" على تشجيع قيام شكل من أشكال الرأي المستقل داخل الكلية ثم قرر الرحيل :

"كنت قد قررت الاستقالة بالفعل، وكذلك أستاذ اللاتينية - زميلي الإنجليزي الوحيد - وأستاذ الألب الفرنسي نو الساق الواحدة، وكان رجلاً شريفاً، أما الآخرون فاستمروا في العمل" (٥٨).

وتبين أن الامتحانات النهائية ما هي إلا مهزلة. فرغم احتجاج جريفز نجح جميع طلاب الآداب لهذا العام بأوامر وزارية (٥٩).

أما "توبريه" الذي تلا "جريفز" في المنصب، فقد نعى على كلية الآداب قائلاً: "بقدر ما أرى، أصبحت كلية الآداب موضعاً للسخرية خارج الجامعة، بعدما انكشفت حقيقتها بل، وأصبحت مدعاة للأسى داخلها". وكان بين أساتذة الآداب علماء مشهورين ولم يكن يسرهم أداء عمل مدرسي من الدرجة الخامسة. ويعزو "توبريه" ذلك إلى أن: "معظمهم أدرك أنهم

يتعاملون مع وظيفة لا طائل من ورائها كلية، ومن ثم كانوا يلقون محاضرتهم كأفضل ما يمكنهم، ثم لا يلقون بالآلة عدا ذلك" (٦٠).

أما الطلاب - متلقى المحاضرات - فكانوا يلجأون إلى الحفظ، وحشو أدمغتهم بالمعلومات استعداداً للامتحانات مثلهم في ذلك مثل الطلاب في كل مكان. ورغم كافة الظروف غير المواتية، كان هناك نوع من أنواع التعليم، كما ظهر بعض الباحثين المتميزين وخرج من الجامعة بعض المواطنين ذوي الثقافة الأفضل.

تمصير هيئة التدريس :

إبان عهد فؤاد الذي استمر تسعة عشر عاماً، أرسلت الحكومة عدداً مذهلاً من طلاب البعثات إلى الخارج بلغ ألفاً و ٧٩٤ طالباً، كما سافر خارج البلاد ٤٤٤ طالباً في الفترة من ١٩٣٥ حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية (٦١). ورغم ارتفاع نسبة الطلاب المتخاضين، إلا أن أولئك الذين عادوا حاملين درجة الدكتوراه حلوا بالتدريج محل معلمهم الأجانب.

وبيين جدول (٩) كيف كان الطلاب المصريون يشكلون أقلية في كلية الآداب أول الأمر. وكان معظم طلاب الجيل الأول مازلوا في الثلاثينيات من العمر؛ مثل طه حسين ومنصور فهمي، وأحمد أمين، وعالم المصريات سليم حسن، والمؤرخ شفيق غربال، ثم محمد كمال مرسى من كلية الحقوق - أصبح عميدا فيما بعد - وكانوا حريصين على إظهار حماسهم. أما علي إبراهيم خريج كلية الطب، فيكبرهم بسنوات قليلة، وكان عمره ٤٥ عاما سنة ١٩٢٥.

وبسبب نفوذ السفارة البريطانية الهائل في ذلك الوقت، والمقارنة التي أبداها الأساتذة الفرنسيون والبريطانيون، بالإضافة إلى الأفكار التحررية المرتبطة بالبعثات التعليمية، وما يستلزمه تدريب المصريين من وقت، فقد أدى كل ذلك - مجتمعا - إلى أن تمصير الجامعة استغرق ما يربو على ثلاثين عاما بعد إعلان عام ١٩٢٢. وفي أحيان نادرة، ساعد البريطانيون على التعجيل بالتمصير عندما كانوا يفضلون تعيين مصري، بدلا من أستاذ ينتمي إلى قوة منافسه؛ ففي ١٩٢٧ اعتقد البريطانيون أن المصريين ربما يكونون من الناحية السياسية - أفضل من المستشرقين الألمان، فعملوا على تعيين عميد من أهل البلاد لكلية الحقوق، بدلا من عميد فرنسي^(٦٢).

ولم تكن مفاجأة أن تصبح كلية الحقوق أول كلية تحظى بعميد مصري، لأن المصريين كانوا يدرسون القانون في فرنسا قبل ذلك بعشرات السنين، كما كان عمر مدرسة الحقوق في القاهرة أكثر من خمسين عاما، بالإضافة إلى أن معظم رجال السياسة في الحكومة والمعارضة من المحامين. واعتبرت المحاماة أرفع المهن من حيث الواجهة الاجتماعية. وبعد رحيل آخر مدير إنجليزي للمدرسة مباشرة، تولى المنصب على ماهر ثم مصري آخر ثم جاء عميد فرنسي ليعيد تنظيمها لمدة عام واحد، وبعده أصبح كل عمداء الكلية من المصريين^(٦٣).

وتلتها كلية الطب؛ حيث تولى المصريون وظائف هيئة التدريس التي خلت فجأة أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم تسارعت عملية التمصير بعد ذلك. فأصبح علي إبراهيم، في ١٩٢٩، أول عميد مصري للطب منذ التسعينيات من القرن التاسع عشر، وصار جميع من خلفوه في المنصب من المصريين^(٦٤).

وفي كلية الآداب، كان لويد يأمل أن يحل عميد إنجليزي محل العميد الفرنسي الذي غادر البلاد، إلا أن طه حسين فاز بالمنصب، الذي استمر بعد ذلك في أيدي المصريين^(٦٥).

ثم تأتي كلية العلوم في مؤخرة الكليات الأساسية بالجامعة، فقد تعين عليها أن تبدأ من الصفر عام ١٩٢٥، وتولى على مشرفة العمادة في ١٩٣٦ بدلا من "بانجهام"، ومنذ ذلك الحين صار عمداء الكلية من المصريين^(٦٦).

وحظيت المدارس العليا للزراعة، والعلوم البيطرية، والتجارة، بمديرين مصريين منذ العشرينيات، في حين استقرت كليات الهندسة والعلوم - مثلما فعلت كلية الحقوق - عميديين أجبيين، لفترة وجيزة بغرض إعادة تنظيمهما عندما انضمتا إلى الجامعة. ولا يدخل في هذا الإطار أيا من الأزهر أو دار العلوم، لأنهما وحدهما بين المدارس العليا اللتان لم يرأس أيا منهما أجنبي على الإطلاق^(٦٧).

وحتى في ظل العمداء المصريين، هيمن الأوروبيون على أقسام اللغات : الفرنسية، والإنجليزية، واللاتينية، وقسم الآثار الإسلامية - وهي مجالات كان الاعتياد على تعلمها محليا إما ضعيفا أو غائبا - إلى أن وقعت التحديات الوطنية مع إنجلترا وفرنسا في الخمسينيات، فأسدلت الستار على هذه الهيمنة تماما. وكان الأوروبيون حتى ١٩٤٥ يرأسون خمسة من الأقسام التسعة بكلية العلوم ؛ استمر ثلاثة منهم في مناصبهم حتى الخمسينيات^(٦٨).

تعريب لغة التعليم والنشر :

سارت عملية تمصير هيئة التدريس بكليتي الآداب والحقوق جنبا إلى جنب مع حركة التحول إلى اللغة العربية كلغة أولى للتعليم. ويستثنى من العمليتين المستشرقون الغربيون الذين كانوا يحاضرون بالعربية، وكذلك المصريون في أقسام اللغات الأجنبية، ولديهم مبررهم للتدريس بالإنجليزية أو - أحيانا - الفرنسية. أما في كليتي الطب والعلوم، فكانت الصراعات على أشدها بشكل ملموس بين دعاة القومية ودعاة العالمية فيما يتعلق بقضية اللغة؛ حيث يطالب دعاة القومية بأن تكون العربية لغة التدريس والمطبوعات الدراسية، إلا أن الرغبة في مسايرة العلوم في أنحاء العالم، ونيل الاعتراف الدولي كانا حافزين قويين على استخدام اللغة الإنجليزية.

وتلقي حالة علي مشرفة - عميد كلية العلوم منذ ١٩٣٦ حتى ١٩٥٠ - الضوء على هاتين القضيتين ؛ فقد كان علي مشرفة - المولود في دمياط ١٨٩٨ - طالبا نجيبا رغم فقد والده قبيل دخوله امتحان الشهادة الابتدائية مباشرة، ثم توفيت والدته قبيل امتحان شهادة التوجيهية. وسلك سبيل العلوم من خلال مدرسة المعلمين العليا. ثم أنقذته المنحة الدراسية الحكومية إلى جامعة ليفربول من الوظيفة التي لم يكن هناك مفر منها وهي التدريس بالمدارس الثانوية. وواصل دراسته للحصول على درجة البكالوريوس من جامعة لندن، ثم نال الدكتوراه في الفلسفة من الكلية الملكية بلندن في سن الثالثة والعشرين، ليضيف إليها بعد ذلك الدكتوراه في العلوم، ويصبح زميلا للجمعية الملكية. وكانت كل من درجتى الدكتوراه هي الأولى من نوعها بالنسبة للمصريين في بريطانيا^(٦٩). وجاء العام ١٩٢١ -الذي فاز فيه اينشتين بجائزة نوبل - ومشرفة يتقدم حديثا في مجال الفيزياء الكمية، باحثا، بصورة حسابية، النتائج التي توصل إليها كل من "زيمان" و"ستارك" (فقد لاحظ زيمان أن المجال المغناطيسى يقسم كل خط من خطوط الطيف إلى عدة خطوط، كما لاحظ ستارك الأثر المشابه للمجال الكهربائي القوى على خطوط الطيف الصادرة عن الذرات المشعة) وساعد كل من ج.و. نيكلسون، وأوين و. ريتشاردسون - الأستاذين بالكلية الملكية في نشر أبحاث مشرفة بكل من "المجلة الفلسفية" (ومن محرريها ج. ثومسون، الخبير بمعمل كافنديش في كامبردج) ومجلتي "نيتشر" و"بروسيدنجز" الصادرتين عن الجمعية الملكية في لندن. وزيمان، وستارك، وريتشاردسون، وThomson جميعهم من الحائزين على جائزة نوبل، فوضع مشرفة - هو الآخر - الجائزة نصب عينيه.

ونشر مشرفة اثني عشر موضوعا في تلك الصحف خلال السنوات العشر التالية، ولكنه لم ينشر سوى ثلاثة أو أربعة أبحاث أخرى في الثماني عشرة سنة التالية عليها؛ بعد أن شغلت أمور الإدارة، وتبسيط العلوم الكثير من وقته، كما قام بنشر معظم أبحاثه في هذا المجال داخل مصر. وتكرر نموذج مشرفة بين العلماء المصريين الذين تلقوا تعليميا أجنبيا ولم يهاجروا من بلادهم.

وأدرك مشرفة أن الجمعيات والصحف العلمية أمور لاغنى عنها لأي مجتمع علمي، فبذل قصارى جهده لتشجيعها ورعايتها. وعندما افتتحت كلية العلوم عام ١٩٢٥، كانت الدوريات العلمية المحلية (بالإضافة إلى الدوريات المتعلقة بالطب وغيره من العلوم التطبيقية) لا تضم سوى نشرات الجمعية

الملكية الجغرافية، والمعهد المصري - وكلاهما غير مختص أساسا بالعلوم الطبيعية - والمطبوعات التي تصدر أحيانا عن جمعية الحشرات، ومرصد حلوان. وشجع مشرفة الجريدة التي صدرت عام ١٩٣٤ عن كليته، وساعد على إنشاء الجمعية المصرية للرياضيات والعلوم الطبيعية في عام ١٩٣٦ (حيث نشر معظم أعماله الأخيرة في نشرتها "بروسيدنجز") كما ساند الأكاديمية المصرية للعلوم ١٩٤٤ ونشرتها "بروسيدنجز" وأدى عدم انتظام هذه المطبوعات وغيرها من الصحف العلمية، بالإضافة إلى تأخرها في الصدور، إلى إضعاف قيمتها، ولم تكن توزع خارج مصر تقريبا. كما أن البلدان النامية عموما - باستثناء الهند - لم تحظ بأي ذكر في المراجع العلمية الدولية، حتى في السنوات الأخيرة^(٧٠).

وكان مشرفة يردد كثيرا في محاضراته أن اللغة العربية كانت يوما ما اللغة العلمية الدولية بالنسبة للعالم الإسلامي ومنطقة البحر المتوسط، كما عمل بجدية على إحياء اللغة العربية كلغة علمية حديثة. فكان يلقي محاضرات عامة بالعربية، ووضع كتباً مدرسية في الرياضيات وكتباً علمية مبسطة باللغة نفسها، وشجع زملاءه على ترجمة المراجع العلمية إلى العربية. وأصبح قسم الرياضيات بكلية العلوم أول قسم تتكون هيئة تدريسه بالكامل من المصريين الأمر الذي أسفر عن إدخال اللغة العربية إلى قاعات الدراسة.

ورغم ما قدمه مشرفة من تضحية نسبية بأبحاثه في سبيل تبسيط العلوم وتعريبها، أدت الاعتبارات العلمية، ومعارضة معظم أساتذة العلوم إلى بطء انتشار اللغة العربية كلغة للتدريس والنشر. ودفع المتحمسون للتعريب - ومعظمهم من غير أساتذة العلوم - بأن العلم لا يمكن أن يمد جذوره في مصر إذا ظل حبيسا داخل حدود الإنجليزية، التي لا يجيدها سوى أقلية صغيرة. فاستمرت محاولات ابتكار مفردات علمية وإصدار كتب دراسية علمية مواكبة للعصر باللغة العربية، ولكن العلوم العالمية كانت دائما هدفا يتحرك بصورة أسرع. وفي عام ١٩٤٥ - بعد تسع سنوات من تولى مشرفة العمادة - لم يكن يستخدم كتباً دراسية بالعربية سوى قسمين من بين الأقسام التسعة في كليته، حتى فيما يتعلق بالمناهج الأولية^(٧١). وفي عام ١٩٨٣، بعد ما يزيد عن ثلاثين عاما من وفاة مشرفة، وبعد ضغوط التعريب في ظل عبد الناصر، أصبحت معظم مقررات السنة الأولى بكلية العلوم تدرس بالعربية، كما تم تعريب منهج الرياضيات للسنة الثانية، بينما يجرى تعريبه بالنسبة

للسنة الثالثة^(٧٢). أما بقية الأقسام فلم تكن في عجلة من أمرها لمواصلة التعريب، ويقول أحد الأساتذة : "بإمكاننا دائما أن نؤجل محاولات التعريب، بالقول أن علينا الانتظار حتى يتم ابتكار مفردات عربية في مجالنا"^(٧٣). كما استمرت النشرة الصادرة عن الكلية "بوليتين" تصدر بالإنجليزية.

وهكذا، استمرت قضية الاعتماد الثقافي على الغرب رغم النجاح في تمصير هيئة التدريس بالجامعة. وسوف يتحدث الفصل السادس عن موضوع آخر من موضوعات الكتاب الأربعة وهو تكافؤ الفرص أو المدخل الاجتماعي للجامعة.

المواش

-١

Patterson, memo of April 9 , 1925.

R.S.

- Fo 471/15956/ J1138 , *Allenby to Chamberlain*, April 29, 1925.

-٢

- Fo 371/ 13876 / j1015, *lloyd to Chamberlain*, April 6, 1929,
and
FO 371 / 11591 / j 523, *loyd to FO* , march 1, 1926.

-٣

- *Memorandum by Sir Robert on the General Cultural position in Egypt*,
p. 7 in FO 395 / 550 / p 2759, *Lampson to Eden*, June 11, 1937.

-٤

- FO 371 / 10906 / j2173, *Henderson to Chamberlin*, july 11, 1925.

-٥

- FO 371 / 13876 / j 1015. *lloyd to Chamberlain*, April 15 , 1929.

وعن الفرنسيين في الجامعة والمدارس العامة أنظر :

- Robert Carnoy , *la Colonie francaise du Caire* (doctorate en droit thesis, faculte du Droit, paris, july 18, 1924.

نشرت مع بعض التعديلات في باريس ١٩٢٧ - ص - ١٣٦ ، ١٤٤ - ١٩٤٥

٦- حول الصراع الإنجليزي - الفرنسي المبكر في مدرسة الحقوق أنظر :

- Donald. m. Reid , *Lawyers and Politics in the Arab world* , 1880 - 1960. innesota, 1981 , pp. 19 - 20.

-٧

- FO 371/11591/ j 523, *lloyd to FO*, march 1, 1926. FO 37/1159/ j 642,
lloyd to chamberlain, march 7, 1926 "List of Foreign Officials Employed by Egypt in Government".

-٨

- Robert Graves, *Good bye to All that* (london 1930) p. 430.

-٩

- Malcolm Muggridge, *Chronicles of wasted time*, I the Green Stick

(london , 1962) pp. 155 - 156.

١٠- عن احتجاج باريس أنظر :

- FO 371 / 13876 / j1895, *W. Tyrrell to Henderson* , july 3 , 1929.

-١١

- FO 371 / 13876 / j1015 , *lloyd to Chamberlain* , April 6, 1929.

وحول هذه الفقرة عموما أنظر :

- *Henderson to Shamsi* february 9, 1928. in FO 371 / 13129 / j658 , *lloyd to Chamberlain* february 24 , 1928.

-١٢

- FO 371 / 12360 / j3031, *Henderson to lloyd*, October 21 , 1927.

-١٣

- *l'Espoir*, March 28, 1926.

قصاصه مرققه طي

- FO 371/11591, J 801, *Lloyd to Chamberlain*, March 28, 1926.

-١٤

- *Lloyd to Chamberlain*: FO 371/12382/J 1114, April 22, 1927; FO 371/12382/ J 1614; June 3, 1927; FO 371/13130/ J 1818, June 3, 1928.

انظر أيضا :

FO 371/12383/ J 3004, *Henderson to Chamberlain*, October 21, 1927.

-١٥

- Afaf al. Sayyid Marsot, *Liberal Experiment*, p 226

عن تعاون لطفي رغما عنه انظر :

- FO 371/13130/ J 1923, Hoare to FO, Septemberb, 1928, and FO 371/13130/ J 3056, Hoare to Cushendun, October 26, 1928.

-١٦

- FO 371/13876/ J 1015, *Lloyd to Chamberlain*, April 6, 1929.

-١٧

- FO 371/13866/ J 682 *Lloyd to FO*, March 11, 1929.

-١٨

- FO 371/13866/ J 875 *Lloyd to Chamberlain*, March 22, 1929.

-١٩

- FO 395/525/ P 2909, K.R. Janstone minute in response to PQ, "*British Education in Egypt and the Near East*," August 27, 1935.

-٢٠

- FO 371/12382/ J 1114, *Lloyd to Chamberlain*, May 1, 1927.
حول هذه الفقره عموما أنظر تقرير سارولى في ديسمبر ١٩٢٦ .
- “*Interim Report on the Reorganisation of the Egyptian University*,” in Fo 371/18008/ J 2053, Sencourt to Thompson, August 29, 1934, and Fo 371/12382/ J 553, February 27, 1927, Lioyd to Chamberlain.
ومذكرة وزارة الخارجية البريطانية الملحقة به .
- ٢١
- FO 371/19088/ J 6825, Lampson to Simon, February 8, 1935.
- ٢٢
- FO 371/18006/ J 1518, *Lampson to Simon*, June 14, 1934.
- ٢٣
- Grares, *Good-bye*, pp. 418, 412, 433.
- ٢٤
- FO 371/23352/ J 152, *Croom-Johason to Cavendish-Bentick*, January 11, 1939; FO 371/23352/ J 1701, April 24, 1939, Wardlaw-Milne to Butler.
- ٢٥
- FO 371/233352/ J 731, *Lloyd to Cadogan*, February 16, 1939.
- ٢٦
- FO 924/38/LC 89, *Killearn to FO*, June 30, 1944,
Killearn to Nahhas, June 30, 1944. ويحتوى :
- ٢٧ نقلا عن :
- FO 371/24632/ J 798, *Lampson to Norton*, March 1, 1940, and Fo 371/23352/ J 1275, *Lampson to Oliphant*, March 17, 1939.
- ٢٨
- FO 395/524/ p 1490, Lampson to Simon, April 20, 1935- “*Report of the High Commisionees’s Advisory Committee on British Edncation and Culture in Egypt*”; FO 371/13130/ J 1837, Wood to Murray, June 13, 1928; FO 371/13130/ J 1857, Lloyd to FO, June 16, 1928.
- ٢٩ حول هذه الاستشهادات ، انظر :
- *Lord E. Percy to Chamberlain*, April 14, 1928, in; FO 371/13130/ J 1295, Wood to Seby .
- ٣٠
- FO 371/18006/ J 1518, *Lampson to Simon*, June 14, 1934.

٣١- على سبيل المثال :

- FO 371/663/ L 1071, *Lampson to FO*, March 3 , 1942; FO 371/663/ L 1293, *Lampson to* , ١٠/٢١ L CRK /٧٨٨/٣٧١ OF ; ١٩٤٢ , ٨ FO, April ١٩٥٠ , ١٥ Cairo Chancery to FO, January

-٣٢

- Graves, *Good- Bye*, P. 406.

-٣٣

- Muggridge, *Chonicles*, 2: 151.

٣٤- على سبيل المثال :

- R.S Strang, "*Note on the Conditions of Service of British Professors and Lecturers in the Faculty of Arts*,"

في:

FO 371/524/p1490, *Lampson to Simson*, April 20, 1935.

- FO 370/664/L 4307, *Lampson to FO*, November 18, 1942. -٣٥

- FO 371/13130/ J 3138, *Hoare to Cushendun*, Octber 27, 1928. -٣٦

والشكوى من ذلك في :

"*La fin de L'Universite Egyptienne*", April 1, 1929, in : FO 371/13876/ J 1015, April 6, 1929.

- FO 371/10906/ J 2173, *Henderson to Chamberlain*, Apirl 5, 1928. -٣٧

-٣٨

- Jean- Jacques Waardenburg, *Les Universites dans Le Monde arab actuel* (2 Vols. Pariss, 1966) PP. 133, 138; B.L. Carter, "*On Spreading the Gospel To Egyptians Sitting in Darkness : The Political Problem of Missionaries in Egypt in the 1930*", *Middle East Studies* 20 (1984) : 32.

٣٩- تقديم جامعة القاهرة ١٩٥٤ - ١٩٥٥ ص - ٢١٢ ، و(حول نالينو) : مجمع اللغة العربية ... الجزء الأول "المجمعيون" ص - ص - ٢٢٨ - ٢٢٩ . -٤٠

- FO 371/180006/ J 1315, *Lampson to Simon*, May 29, 1934; FO 395/550/ p 2759, *Lampson to Eden*, June 11, 1937.

٤١- عن "ليتمان" و"شاده" انظر مصادر الفصل الثاني (حاشية ٦٢ ، ٦٥) . وعن "شاخت" انظر:

- Bulletin of the School of Oriental and African Studies 33 (1970): 378-81, and Journal of the American Oriental Society 90 (1970) : 163 - 67.

وعن "برجستراسر" و"كراوسى" انظر : نجيب عفيفي - "المستشرقون" الجزء الثاني ص-ص ٤٥٠ - ٤٥١ ، ٤٧٢ . وعن "جنكر" انظر :

- Warren R. Dawson, *who was ho in Egyptology* (London 1972), 154-55.

وعن شونبرج انظر :

- Fouad I National Research Council, *Guide to Scientific and Technical workers in Egypt* (cairo, 1953) P. 66.

- FO 371/17023/ J 1080, *Minute by Peterson*, May 5, 1933. -٤٢

-٤٣ عن المحاضرين :

- FO 371/23352/ J 468, *Lampson to Halifax*, January 23, 1939.

- FO 395/567/ p3361, *Lampson to FO*, November 28, : وعن جنكر انظر : 1938, and FO 371/23352/ J468, *Lampson to Halifax*, January 23, 1939.

-FO 924/170/LC 4111, *Wayment to Bryan* September 18, 1945. -٤٤

- FO 924/171/LC 4826, *Speaight To FO*, October 16, : عن القرار أنظر : 1945. -٤٥

- D.J. Enright, *Academic Year* (London, 1955) P. 18.

-Graves, *Good- Bye*, p. 411. -٤٦

-٤٧

- FO 371 / 1111591/ J 6422, *Lloyd to Chamberlain*, March 7, 1926; Graves, *Good-bye*, p. 413.

-٤٨

- Sarolea, "*Intrim Report*," p. 303, in : FO 371/18008/ J 2053, *Sencourt to Thompson*, August 29, 1934.

-FO 371/12383, *Lloyd to Chamberlain*, June 3, 1927. -٤٩

- Dobree, "*Report on the Facuty of Arts*" p. 7: -٥٠

FO 371/12382/ J 1114, *Cairo Chancery to FO* May 1, 1927. : ضمن

-٥١

- Graves, *Good bye*, p. 412.
- ٥٢- محمود سليم سالم - مقابلة للمؤلف ٢٦ نوفمبر ١٩٨٧ .
- Dobree, "*Report*," p.2. ٥٣-
- Muggridge, *Chronicles* 1 : 153, 154. ٥٤-
- Lloyd to Percy*, in: FO 371/13129/ J 252, Wood to Patrick. ٥٥-
- Graves, *Good-bye*, p. 423,413. ٥٦-
- Enright, D.J. *Academic Year*. London, 1955. p. 18. ٥٧-
- Graves, *Good-bye*, pp. 422,414. ٥٨-
- Sarolea, "*Interim Report*," p. 299. ٥٩-
- Dobree, "*Report*," p. 4. ٦٠-
- ٦١-
- Matthews, Rodric D., and Matta Akrawi. *Education in Arab Gountries of the Near East*-Washington, Dc, 1949, p. 90. ٦٢-
- FO 371/1283/J 3004, *Henderson to Ghamberlain*, October 21, 1927.
- FO 371/12383/J 2810, *Henderson to Lloyd*, Octoberl, 1927. ٦٣-
- وقائمة عمداء الحقوق في : العيد الماسي : سجل تاريخي بمناسبة ١٦ ربيع الأول
١٤٠٤هـ - ، ٢١ ديسمبر ١٩٨٣ م . ص - ص - ٨٧ - ٨٨ . ٦٤-
- Naguib Bey MahFouz, *The History of Medical Education in Egypt* (Cairo, 1936), pp. 94-95.
- قائمة العمداء في : العيد الماسي ... ص - ص - ١٢٥ - ١٢٩ .
- FO 371/12383/J 2810, *Hendeson to Lloyd*, October 1, 1927, and ٦٥-
FO 371/14650/ J 3011, *Hoare to Henderson*, August 25, 1930,.

و: كوكب الشرق ، كما نقلته الإيجيشيان جازيت ٥ مارس ١٩٣٢ . وقائمة عمداء الآداب في : العيد الماسي ... ص-ص ٧١-٧٢ .

٦٦- قائمة عمداء كلية العلوم في : العيد الماسي .. ص-ص ١٠٢ - ١٠٣ .
٦٧- قوائم عمداء كليات الزراعة ، والطب البيطري ، والتجارة ، والهندسة ودار العلوم ، في العيد الماسي : ص-ص ١٣٩ ، ١٧٢ ، ١٥٧ ، ١٣٧ ، ١٦٥ - ١٦٦ . ويبدو أن هناك خطأ في تسجيل المديرين المعيّدين لمدرسة التجارة العليا منذ انشائها في ١٩١٣ (ص- ١٥٧) . و: ملفات جامعة القاهرة : ٨٠٥/١١ "لجنة الجامعة . مسودة التقرير الموسمي الثاني" ص- ١٥ تسجيل اسم "فريزر" كمدير لها .

٦٨- جامعة فؤاد الأول ، كلية العلوم ، دليل الكلية للسنة الدراسية ١٩٤٥ - ١٩٤٦ . و: الآثار العلمية لأعضاء هيئة التدريس بكلية العلوم بجامعة القاهرة (١٩٥٠) ص-ص ١ - ٩٩ ، ١٢٩ .

٦٩- سيرة ذاتية في : محمد محمود الجوادى : "مشرفة بين الذرة والذروة" (القاهرة ١٩٨٠) . و: عبد المنعم الدسوقي "الجامعة المصرية" - ص-ص ١١٥ - ١١٦ . وعن مؤلفاته المنشورة أنظر : الآثار ... كلية العلوم (١٩٥٠) ص-ص ٨٨ - ٨٩ .
٧٠- عن الهند ، انظر :

- Davidson Frame, Francis Narin, and Mark p. Carpenter, "*The distribution of World Science*," *Social Studies of Science*, 7 (November 1977) : 504.

٧١- كلية العلوم : دليل ... ١٩٤٥ - ١٩٤٦ ص-ص ٢٩ - ٥٤ .
٧٢- مقابلات مع ثمانية أساتذة بجامعة القاهرة ، كلية العلوم في ١٩٨٣ . وعن قضية التعريب الآن ، انظر :

- Ziauddin Sardar, *Science and Technology in the Middle East; A Guide to Issues, Organizations, and Institutions* (London, 1982) pp. 16-18.

٧٣- اتصالات خاصة اجراها المؤلف .

[٦]

قضايا التكافؤ : جامعة لن ؟

وسط أحداث الصراع الإنجليزي - الفرنسي، واستمرار عملية التحول إلى هيئة تدريس مصرية، كانت الجامعة المصرية تسعى جاهدة، أيضا، لتحديد جمهور طلابها ؛ فلم تكن قضية التحاق الطلاب بصرف النظر عن ديانتهم مطروحة للنقاش، وإنما تركز الجدل حول التحاق الفتيات، كما تركز - وان استتر خلف دعاوى المؤهلات الثقافية - على كيفية إفساح مجال الالتحاق لمختلف الطبقات الاجتماعية.

معركة التعليم المختلط :

أغلقت الجامعة الأهلية قسم الطالبات عام ١٩١٢، فارتدت المرأة المصرية إلى مجتمع الحريم وإلى العمل الخيري. واستمرت النساء بعيادات عن الضوء خلال الحرب العالمية الأولى، عندما جعل القمع البريطاني من العمل العام أمرا مستحيلا، إلا أن الحركة النسائية لم تمت. فكانت هناك صحيفة بارزة في تلك الأيام أطلقت على نفسها أسم "السفور" - من بين كتابها طه حسين، ومحمد حسين هيكل - تمثل حلقة الوصل بين صحيفة "الجريدة" قبل الحرب، وبين صحيفة "السياسة" بعد ذلك. وعادت المرأة إلى العمل العام في ١٩١٩ كجزء من حركة الاحتجاج الوطني على الحكم البريطاني ثم عادت بعد ذلك إلى قضايا المرأة بشكل محدد.

وسبقت الحركة النسائية المنظمة في الغرب، نظيرتها المصرية والتركية، بعشرات السنوات فقط لا بقرون، وليس ذلك غريبا، فقد ارتبطت الحركة النسائية الحديثة في كل مكان، بالمتغيرات التي صاحبت صعود الاقتصاد الرأسمالي في العالم. ورغم أن مصر لم تكن تعتبر من البلدان الصناعية عام ١٩١٤، إلا أنها كانت قد التحمت على نحو لا فكاك منه بالسوق العالمي الذي يهيمن عليه الغرب. وكانت الحركة النسائية الأمريكية المنظمة قد ظهرت في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، كما ظهرت الحركة النسائية البريطانية في الخمسينيات من نفس القرن. ورغم شعارات المساواة التي أعلنتها الثورة الفرنسية، عانى دعاة المساواة بين المرأة والرجل من انتكاسات متوالية ولم

تحصل النساء في فرنسا وإيطاليا على حق الانتخاب حتى عام ١٩٤٥، قبل أن تحصل عليه النساء في مصر بأحد عشر عاما فقط^(١).

وفي ١٩١٩، أثبتت نساء مصر وجودهن كوطنيات قبل التركيز على قضايا المرأة. وكما كان الحال مع "خالدة أديب" في تركيا^(٢)، صار نشاطهن الوطني والنسائي تعبيراً مزدوجاً عن نفس الروح النضالية. وفي أوروبا - ما قبل عام ١٩١٤ - أيضاً، حققت نساء المناطق التي يحكمها الأجانب شهرتهن كوطنيات قبل الاهتمام بقضايا المرأة^(٣). وشابه دعاة الحركة النسائية المصرية أقرانهم الغربيين في التركيز أساساً على قضايا أخرى غير حق التصويت.

وفي أحد أيام شهر مارس عام ١٩١٩، الذي كان يموج بالاضطرابات، فوجئ سكان القاهرة حين شاهدوا حشداً يتكون من حوالي ثلاثمائة محجبة من "بنات الأصول الثائرات"^(٤) في مسيرة عبر الشوارع، يطالبين بالاستقلال، والإفراج عن زغلول ورفاقه الوفديين. أما أولئك اللواتي وقعن العريضة التي أرسلتها للسلطات البريطانية؛ فجميعهن تقريباً من زوجات الباشوات أو البكوات. وتصدر القائمة اسم حرم حسين رشدي - قرينة رئيس الوزراء - تلاه اسم حرم سعد زغلول، والثانية كانت من أصول أرستقراطية تركية، وسرعان ما ستصبح رمزا وطنيا (أم المصريين) إلى جانب زوجها الشهير. أما التوقيع الثالث فكان مختلفاً: هدى شعراوي حرم على باشا شعراوي؛ حيث أفصحت عن هويتها الشخصية بالإضافة إلى تعريف نفسها نسبة إلى زوجها.

وبعد مرور أربعة أيام على الاحتجاج الأول، قامت قوات بريطانية منعدمة اللياقة، بالتحفظ على مظاهرة ثانية من النساء، وإيقائهن واقفات تحت الشمس طيلة ساعتين حتى تكفل القنصل الأمريكي بإطلاق سراحهن. وبعد إعلان عام ١٩٢٢، نجحت هدى شعراوي ورفيقاتها في الانتقال إلى الاهتمام بالمظالم الواقعة بشكل خاص على جنسهن؛ ففي عام ١٩٢٣ خلعت هدى شعراوي النقاب عن وجهها فجأة، ثم أسست "الاتحاد النسائي المصري" (جمعية هدى شعراوي الآن) الذي ظلت ترأسه حتى وفاتها بعد ذلك بأربعة وعشرين عاماً. وعملت زوجة طه حسين ضمن مجلس إدارة الاتحاد^(٥)، كما تولت سيزا نبراوي تحرير نشرته الرئيسية "المرأة المصرية" الصادرة بالفرنسية، الأمر الذي يوضح كيف تعين على الحركة أن تتجاوز جمهور الطبقة العليا والتجمعات الأجنبية حتى تستطيع أن تحقق انتشاراً واسعاً

النطاق. وبعد الحرب العالمية الثانية، برزت إلى الصدارة عناصر أكثر راديكالية من بين دعاة الحركة النسائية من خارج الاتحاد^(٦).

واتبعت الكثيرات من نساء الطبقة العليا والمتوسطة نموذج هدى شعراوي فيما ترتدينه من ملابس، وهدمت نساء أخريات الغرض من الحجاب بينما حافظن على الشكل، فغطين وجوههن بقماش من الشيفون الشفاف الذي لا يخفي شيئاً^(٧) (أما برقع الزفاف والبراقع على قبعات النساء فلها سمة رمزية مشابهة في الغرب). وظلت الملكة نازلي قرينة الملك فؤاد محجبة ومنعزلة تماماً، في حين ساير الملك فاروق وزوجته فريدة تطورات العصر؛ ويظهر طابع البريد - الذي صدر عام ١٩٣٨ بمناسبة زفافه - الملكة حاسرة الرأس ترتدي ثوبا أوروبيا إلى جانب عريسها^(٨) (حدث ذلك بعد مرور خمسة عشر عاما فقط منذ تجاهل فؤاد عرفا أسلاميا آخر، حين وضع صورته على طوابع البريد على قطع العملة المعدنية).

وفي العشرينيات من القرن الحالي سنت التشريعات التي حسنت، على نحو طفيف، من حقوق النساء عند الزواج والطلاق. ولكن كان على التعديلات التالية أن تنتظر حتى صدور قانون السادات عام ١٩٧٩؛ فمازالت هيبة الشريعة وقوة العرف الاجتماعي تجعلان من الصعب على رجال السياسة مناصرة المساواة القانونية بين الجنسين. وقد حصلت المرأة المصرية على حق التصويت عام ١٩٥٦، وبعد ذلك بستة أعوام أصبحت حكمت أبوزيد أول سيدة في مصر تدخل الوزارة. وفيما بعد، أضحى مألوفاً أن تتولى السيدة التي تختار ضمن مجلس الوزراء وزارة الشؤون الاجتماعية^(٩).

وفيما يتعلق بالتعليم، نص دستور ١٩٢٣ على أن تعليم البنات إلزامي مثلما هو بالنسبة للبنين^(١٠)، بيد أن تنفيذ ذلك جرى بصورة بطيئة للغاية؛ فعندما شقت سهير القلماوى وعدد آخر من الفتيات طريقهن للجامعة المصرية أواخر العشرينيات، كانت نسبة الأميات ٩٦% بين نساء بلدهن فوق سن العاشرة (نسبة الأمية بين الذكور ٧٦%)^(١١).

ولم يكن التعليم المختلط قضية مثارة عند افتتاح الجامعة العامة لأول مرة، ففي تلك السنة فقط، بدأت أول مدرسة عامة إعداد الفتيات لنيل شهادة التوجيهية. وبعد ذلك بعشر سنوات، أصبح هناك سبع مدارس ثانوية

للبنات^(١٢). وبعد تخريج أول دفعة من طالبات المدارس الثانوية أجبرت الجامعة على مواجهة التحدي.

ورغم أن ست فتيات كن قد التحقن بالسنة الإعدادية لكلية الطب عام ١٩٢٨، إلا أن المسألة لم تكن قد حسمت بعد عندما تقدمت سهير القلماوى - خريجة المدرسة الأمريكية للبنات - ومعها عدد آخر من الفتيات، بطلب الالتحاق بالجامعة في العام التالي. وقبلت الجامعة الاوبكية القاهرة أولى الطالبات بها في عام ١٩٢٨؛ وهي إيفا حبيب المصري^(١٣).

ولم يكن مدير الجامعة لطفي السيد - بالرغم من حذره - رافضا لإلحاق الطالبات بالجامعة؛ فقد سبق لوالده - وهو العمدة المتمسك بالتقاليد - أن فاجأ أقرباءه بإرسال بناته غير المتزوجات إلى المدرسة^(١٤). وأيدت صحيفة "الجريدة" تعليم الفتيات. بينما شعر رجال الإدارة الإنجليز في الجامعة بالقلق. ورفض العميد "بانجهام"، عميد كلية العلوم، إلحاق سهير القلماوى بها، فآخذ طه حسين الأمر على عاتقه ورحب بها - بالإضافة إلى أخريات - للالتحاق بكلية الآداب التي يتولى عمادتها^(١٥). وفي غضون عام أو اثنين قبلت كليتا الحقوق، والعلوم، والمدرسة العليا للتجارة - وكانت ما تزال مستقلة - التحاق الفتيات بصفوفها. أما كليات الهندسة، والزراعة، والطب البيطري، فكانت بعيدة للغاية عن اهتمام الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة في مصر (مثلما هو نفس الحال في الغرب)، فلم تلتحق الفتيات بها حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وفي ١٩٥٣، سقط آخر معقل كان مقصورا على الذكور في جامعة القاهرة؛ حين التحقت الفتيات بدار العلوم^(١٦). وشكل قرار دار العلوم، بدوره، تحديا لجامعة الأزهر، التي اضطرها عبد الناصر أخيرا لفتح أبوابها أمام الفتيات عام ١٩٦٢ ورحبت أقلية من دعاة الإصلاح في الأزهر بهذا التغير، مؤمنين بأنهم "لا يستطيعون ترك المرأة في البيت بعيدا عن مجالات المعرفة، والعقيدة، واللغة التي تتميز فيها جامعة الأزهر"^(١٧)، وهكذا أصبح لدي الفتيات المتدينات بديلا دينيا عن التعليم الجامعي العام.

ولا تستطيع الجامعات الغربية أن تدعي لنفسها أفضلية في هذا الصدد؛ فالمساواة القانونية التي حصلت عليها نساء الغرب في قاعاتها لم تبدأ إلا من القرن الحالي، كما أن ممارسة هذه المساواة لم ترق بعد إلى الصورة المثالية. وبالرغم من أن كليات البنات في أكسفورد وكامبردج ترجع إلى

القرن التاسع عشر، إلا أنها لم تحصل على المساواة الكاملة في وضعها داخل تنظيم الجامعة مع كليات البنين المناظرة لها إلا عام ١٩٤٧ بالنسبة لجامعة كامبردج، وفي الستينيات من القرن الحالي بالنسبة لجامعة أكسفورد. أما جامعة لندن، التي لم تكن مقيدة بالتقاليد، فمنحت أول فتاة درجة جامعية نظامية انجليزية في ١٨٧٨، كما عينت أول سيدة في منصب الاستاذية عام ١٩١٣. ومع أن النساء في فرنسا استطعن متابعة الدراسات الطبية منذ عام ١٨٦٦، كما استطعن حضور المحاضرات العامة في الكليات الأخرى، إلا أن أيا منهن لم تستطع التقدم لنيل شهادة علمية إلى أن بدأت المدارس العامة في إعدادهن لنيل شهادة البكالوريا عام ١٩٠٥ وبعد خمس سنوات التحقت أولى الفتيات بمدرسة المعلمين العليا المرموقة^(١٨).

ويثير موقف "شوقي ضيف" من التعليم المختلط في كلية الآداب، تردد المرء في قبول فرضية أن أصول الحركة النسائية ترجع إلى الغرب وحده. فشوقي ضيف الذي سيصبح فيما بعد أستاذًا للغة العربية، لم يكن يشير إلى أوربا - التي لم يكن رآها أبداً - وإنما كان يضرب المثل بالمدرسة الابتدائية في قريته، حيث يدرس الأولاد والبنات معا^(١٩).

وفي عام ١٩٣٣ كانت سهير القلماوى، وفاطمة سالم سيف، وطالبتان غيرهما من الآداب بالإضافة إلى نعيمة الايوبى من الحقوق؛ أول من تخرج من الجامعة من الفتيات^(٢٠). ومنذ ذلك الحين بدأت نسبة الفتيات المسجلات في كشوف التعليم العالي تتزايد في ببطء؛ من ٠,٤% عام ١٩٣٠ إلى ٧% في عام ١٩٥٠ وفي عام ١٩٦٠ وصلت النسبة إلى ١٧%، ثم ٢٦% في عام ١٩٦٩، أما في عام ١٩٨٣ فبلغت ٣٣% بل أن الفتيات عام ١٩٧٩ شكلن أغلبية بين طلاب كليتي الصيدلة والاقتصاد والعلوم السياسي بجامعة القاهرة. كما انخفضت نسبة الأمية بين الإناث من ٩٦% في عام ١٩٢٧ إلى ٨٤% سنة ١٩٦٠. ومن المتوقع أن يكون الفارق أكبر في الفترة التي تلت ذلك^(٢١).

وإضافة إلى ماروته عائشة عبد الرحمن عما واجهته من صعوبات باعتبارها إحدى الرائدات، يصور الأديب الروائى نجيب محفوظ - الذي درس الفلسفة بالجامعة - الضجة التي أثارها التعليم المختلط بين زملائه من الطلاب الذكور كان الزميلات عام ١٩٣٠ قلة لا يتجاوزن العشر عدا. وكان يغلب عليهن طابع الحريم، يحتشمن في الثياب ويتجنبن الزينة ويجلسن في الصف الأول من قاعة المحاضرات كأنهن بحجرة الحريم بالترام. لا تتبادل

تحية ولا كلمة... وفي ذلك الجو المترمت المكبوت تألقت سعاد وهبي كأنها نجم هبط علينا من الفضاء... لونت بخفة الوجنتين والشففتين، وضيق الفستان حتى نطق وتبخترت في مشيتها اذا مشت، وكانت تتعمد أن تدخل القاعة متأخرة بعد أن نستقر في مجالسنا ويتهيا الأستاذ لإلقاء محاضراته، ثم تهرول كالمعتذرة فيرتج ثدياها النافران فتشتعل الفتنة في الصفوف... وأخذ الطلبة الوقورون - الريفيون خاصة - يناقشون الظاهرة السعادية ويتساءلون عن عواقبها الوخيمة. وسرت عدوى اهتمامهم إلى الدكتور ابراهيم عقل... وانتهر فرصة اضطراب قاعة المحاضرات لارتجاج الثنيين النافرين... ثم قال : يجب أن يوجد فرق هائل بين قاعة المحاضرات بجامعةنا وبين صالة بديعة "!

فضجت القاعة بالضحك في غير موضعه

"تذكروا اننا جميعا - نساء ورجالا - هدف لمجهر الناقدین وأن جمهرة منهم لم تسلم بعد بمبدأ اختلاط الجنسين في الجامعة، بل بمبدأ تعليم الفتاة تعليما عاليا" (٢٢).

وحصلت عائشة عبد الرحمن - المعروفة باسم بنت الشاطئ - على التعليم بإصرارها القوي وحده، في عالم يهيمن عليه الرجال وكانت أمها تشجعها على الدراسة، كما ألحقها والدها - الذي تلقى تعليمه بالازهر - بالتعليم الأولي. غير أنه ذهب بنفسه ليسحب أوراقها، عندما تقدمت للالتحاق بمدرسة المعلمات بالمنصورة فعكفت على الدراسة في المنزل بجهدا الخاص، واجتازت امتحان المعادلة للحصول على دبلوم نفس المدرسة. ثم عرضت عليها وظيفة معلمة بالتعليم الأولي، الأمر الذي أثار فزع والدها. وبعد ستة أشهر من الانكباب النهم على دراسة الإنجليزية بمجهودها الذاتي تمكنت من اجتياز امتحان آخر للمعادلة بهدف الحصول على الشهادة الابتدائية وفي طريقها للعمل بالتدريس في القاهرة هتفت لنفسها متهائلة "أنا حرة". وأثناء عملها بالتدريس درست بالجهد الذاتي أيضا لاجتياز امتحان الشهادة التوجيهية ثم التحقت بالجامعة بعد ذلك وفي عام ١٩٣٩ فازت بدرجة الليسانس في الأدب العربي، ثم عكفت على دراسة مجال العمل الذي يتعين عليها الانخراط فيه، مثلما فعلت سهير القلماوى قبل ذلك ببضع سنين (٢٣).

الوظائف المهنية للنساء :

لم يكن الجدل العام حول تعليم الإناث توقف بعد في الثلاثينيات، عندما أثارت خريجات الجامعة الأوائل مسألة توظيف النساء. وعملت نساء الطبقة الدنيا دائما كعاملات في الحقول أو كخادمات، وبعض نساء الطبقة العليا اضطلعن بأنشطة الخير التطوعية، إلا أن نساء الطبقة الوسطى هن اللاتي رغبين بوجه خاص في الحصول على فرصة للعمل بالوظائف الحكومية والمهنية، إما لأسباب مالية، أو للإحساس بالتحقق والاستقلالية. وكما حدث في الغرب، أصر المحافظون على فكرة أن الله خلق النساء للبقاء في البيت باعتبارهن زوجات وأمهات، فكان عمل المرأة في مصر عارا على أقربائها من الرجال، المفترض أنهم يتكفلون بإعالتها؛ فكيف يمكن للمرأة، الضعيفة بطبيعتها، أن تقاوم الرجال المفترسين في العمل؟. ومع ارتفاع نسبة البطالة بين الرجال في فترة الكساد إبان الثلاثينيات، ربما تحل المرأة العاملة محل الرجال الذين يتكسبون العيش. واختلطت الدعاوى الدينية بالدعاوى الاجتماعية في معارضة تحرر المرأة (مع أن الإسلام الحقيقي لا يمنع المرأة من العمل خارج البيت، وتظل مع ذلك زوجة وأما صالحة كما يمكن للمجتمع أن يفيد من مواهبها، وهي تستطيع أن تحقق دخلا إضافيا للأسرة بالإضافة إلى أن الاستغلال الكامل لقدراتها يكسبها شعورا بالرضى عن النفس)^(٢٤).

وفي مصر - كما في الغرب - كانت الواجبات المنزلية، وتنشئة الأطفال والتدريس - وإلى حد أقل الطب - أعمالا تبدو ملائمة لدور المرأة التقليدي في التربية. علاوة على أن هذه الوظائف يمكن ممارستها في بيئة تمنع الاختلاط بين الجنسين، وهو اعتبار أكثر أهمية بالنسبة لبلد محافظ مثل السعودية - حتى في السنوات الأخيرة - منه في مصر^(٢٥). واجتنبت كلية الآداب الفتيات اللاتي يرغبن في العمل بالتدريس، بالإضافة إلى أولئك اللاتي يأملن في مجرد الحصول على تعليم حر. ففي العام الدراسي ١٩٥٢-٥١ كان ٢٤% من طلبة كلية الآداب من الفتيات، وهي أعلى نسبة فتيات بالجامعة. ولأن كلية العلوم تخرج أيضا مدرسين، فكان ١٣% من طلبتها من الفتيات. أما في الوظائف المتعلقة بالصحة، فشكلت الفتيات ١٣% من طلبة الصيدلية. و ١١% في كل من كليتي الطب وطب الأسنان. وقل تمثيل الفتيات في الكليات الأخرى عن ذلك كثيرا : فبلغ ٦% من عدد طلاب كل من كليتي الحقوق والطب البيطري، وفي الزراعة ٥%، والتجارة ٤%. ولم يكن

للطالبات ذكر تقريبا في كلية الهندسة، فسجلت نسبتهن بين طلبة الكلية ٢٠% فقط^(٢٦).

ورغم أن نساء الأسر الكريمة قد يقبلن القيام بأعمال خيرية في المستشفيات، إلا أنهن لا يقبلن لأنفسهن احتراف مهنة التمريض^(٢٧). وكان التدريس مفضلا، خاصة لغير المتزوجات اللاتي يضطررن للعمل؛ فتولت مدرسة السنية تأهيل معلمات التعليم الأولي منذ عام ١٩٠٠. كما أرسل بضع نساء مصريات إلى إنجلترا للتدريب على التدريس، ثم افتتح معهد المعلمات عام ١٩٣٣ لتأهيل خريجات الجامعة للتدريس بالمدارس الثانوية. وأصبحت زوجة منصور فهمي أول سيدة مصرية تعمل ناظرة لمدرسة ثانوية حكومية، كما اعتبرت مثالا للزوجة والموظفة في نفس الوقت^(٢٨).

أما في الطب، فلم تستمر للأسف - التجارب التي بدأت منذ عهد محمد علي في عمل المرأة بالطب الشعبي الذي أطلق عليه (الطبية راكبة الحمار) وبدأت تظهر المستشفيات العلاجية على النمط الغربي، التي سيطر عليها الرجال^(٢٩). ومع منتصف الثلاثينيات بدأت الجامعة تخرج عددا قليلا من الطبيبات، فعملت عدة طبيبات مسلمات في بعض المستوصفات، وكان لدي إحداهن عيادة خاصة^(٣٠).

وظهرت المحاميات في نفس الوقت تقريبا، وبعد أن أصبحت نعيمة إلياس الأيوبي - ابنة مؤرخ سورى مسيحي اعتنق الإسلام في ١٩٣٣ - أول محامية تتخرج من الجامعة، أجلت موضوع الوظيفة إلى أن حصلت على الدكتوراه من بلجيكا. وبحلول عام ١٩٤٠ ضم الاتحاد الوطني للمحامين خمس محاميات، إلا أن منصب القضاء ظل بعيدا عن متناول المرأة.

ثم أصبحت زينب حسن - خريجة قسم الكيمياء من كلية بيدفورد بجامعة لندن - أول سيدة تتضم لهيئة تدريس الجامعة عندما عيّنت مساعداً لمعمل في عام ١٩٣٠. وحاول لطفي السيد مدير الجامعة تحويلها إلى التدريس بالمدارس الثانوية، غير أن العميد "بانجهام" وعلي مشرفة دعما طموحاتها الجامعية. وأثارت زينب حسن ضجة أخرى بسبب لعبها التنس في ملاعب الجامعة فقد كانت تنظر لنفسها باعتبارها عميدة غير رسمية للطالبات، ومن ثم شجعتهن على انتهاج نهجها^(٣٢).

وكانت سهير القلماوى وفاطمة سالم أيضا من رائدات العمل الأكاديمي ففي عام ١٩٣٧ عيّنت سهير القلماوى ومعها أخريان معيدات بكلية

الأداب. ثم انتقلت سهير القلماوى للعمل كمدرس مساعد بعد حصولها على درجة الماجستير، وبعد حصولها على الدكتوراه في عام ١٩٤١ عينت مدرسا. وبعد مرور تسع سنوات، ظلت السيدة الوحيدة في هيئة التدريس بكلية الآداب، ثم أصبحت رئيسة قسم اللغة العربية بعد بضع سنوات. أما فاطمة سالم فنالت الدكتوراه من لندن، ثم رأت قسم اليونانية واللاتينية بجامعة الإسكندرية (وبالمقارنة لم يكن لدي فرنسا في عام ١٩٣٠ سوى ست سيدات فقط على درجة الأستاذية)^(٣٣).

وبعد فترة قليلة، تبعت عائشة عبد الرحمن الرائدات الأوليات، فحصلت على درجة الماجستير ثم عملت مدرسا مساعدا سنة ١٩٤١. وبعد أربعة أعوام تزوجت من أستاذها أمين الخولي، فأخراها الزواج قليلا؛ لأن الزوجين اتفقا على أن تواصل السعي لنيل الدكتوراه، على أن تتوقف عن التدريس حتى يلتحق أطفالهما بالمدرسة. وأعدت عائشة عبد الرحمن أطروحتها لنيل الدكتوراه عن الشاعر الضرير أبي العلاء المعري، كما فعل طه حسين من قبل. وفي الخمسينيات عينت مدرسا بقسم اللغة العربية في جامعة عين شمس^(٣٤).

وهكذا تمكنت المرأة من الدراسة بالجامعة والتدريس فيها، بل ورئاسة قسم أحيانا. إلا أنه - مثلما في الغرب - كان تدعيم هذه المكاسب والوصول إلى مستويات الإدارة العليا أمرا أكثر صعوبة.

عوائق الحراك الصاعد : التعليم والنظام ذو الاتجاهين:

في قضية الطبقات الاجتماعية - كما في قضية الجنسين - يحدد تشكيل سلم المدارس الابتدائية والثانوية من الذي يصل إلى الجامعة. فقد أثار مجرد ذكر التعليم العام في الصحف سيلا من خطابات الاحتجاج التي أرسلها ملاك الأراضي^(٣٥)؛ لأنهم كانوا يريدون الإبقاء على العمال في مزارعهم، في الوقت الذي يتعلم فيه أبنائهم هم باعتبارهم "القادة الطبيعيين" في المستقبل. وفي الطرف الآخر من الصورة، كان هناك الشعبويون ودعاة الاشتراكية القلائل في مصر الذين حلموا بتحرير جميع الطبقات الاجتماعية عن طريق التعليم المجاني للجميع. وأعلن طه حسين أن التعليم "كالماء والهواء يجب أن يكون مجانيا ولا يباع ويشترى مثل البصل والكرات"^(٣٦).

وينص دستور ١٩٢٣، على حق الاقتراع الحر العام للرجال، والتعليم المجاني الإلزامي في المرحلة الابتدائية لكل من الجنسين^(٣٧). إلا أن هذه الفكرة لم تكن تحققت بعد، فاقترع التعليم المجاني الموعود على المستوى الابتدائي فقط (التعليم الأولي) ولا يتاح ذلك إلا إذا كانت قرية الشخص محظوظة إلى حد وجود مدرسة بها.

ويقارن أمير بقطر الأستاذ بالجامعة الأمريكية في القاهرة - الذي تأثر بفلسفة جون ديوي التقدمية في التعليم عندما كان يدرس بكلية كولومبيا للمعلمين - بين الجامعة المصرية والمدارس الأولية، فيكتب: "إن الجامعة المصرية والكليات والمدارس العليا لمما يفخر به المرء. ولكن إذا حولنا النظر عن قصور الأرستقراطية هذه، والتفتنا إلى المدارس الأولية المبتلاة بالفقر، والملايين من الفلاحين الذين يعانون من القذارة والجهل، ومنازلهم التي يعلوها التراب، واطفالهم المغلولين، سوف يمحي كل أثر لهذا الانطباع، ولا يترك شيئاً يمكن الفخر به. أن هذه القمة البراقة للهرم التعليمي تمثل تناقضاً حاداً مع قاعدته الطينية القبيحة"^(٣٨).

وأهدى بقطر كتابه إلى "الفلاح المصري"، بل أنه سبح عكس التيار عندما نسب إلى بريطانيا أنها حسنت من قدر الفلاحين^(٣٩).

وكانت رسوم الالتحاق بمدارس الصفوة الابتدائية والثانوية عبئاً ضخماً في وجه أغلبية المصريين، وهم الفقراء ولم تلغ رسوم التعليم بالمدارس الابتدائية إلا عام ١٩٤٣ عندما أوقفت حكومة الوفد تحصيل هذه الرسوم. وساعد على ذلك أن طه حسين كان حينذاك المستشار الفني لوزارة المعارف. وسرعان ما تدفقت التحويلات من المدارس الأولية إلى المدارس الابتدائية، وكان التعليم الابتدائي العام، وقتها، يحصل على ٤٠% من الميزانية المصرية^(٤٠). ثم استمر التزايد في عدد السكان ولم تكن المدارس لتساير هذه الزيادة. وعندما أصبح طه حسين وزيراً للمعارف سنة ١٩٥٠، ألغى رسوم المدارس الثانوية. ولم يلتفت إلى الاعتراضات بخصوص التمويل، فترك لوزير المالية والأشغال العامة هم تدبير النفقات والمباني اللازمة^(٤١). وبحث طه حسين فكرة مجانية التعليم الجامعي^(٤٢)، ولكن شيئاً لم يتم بخصوصه حتى سقوط وزارة الوفد. بيد أنه بحلول عام ١٩٥٥، كان حوالي ٧١% من طلاب الجامعة يتلقون تعليمهم مجاناً؛ إما بسبب ظروفهم المادية، أو حصولهم على ٧٥% على الأقل من درجات الامتحانات^(٤٣). ثم

أتم عبد الناصر ما بدأه حزب الوفد، عندما أعلن مجانية التعليم سنة ١٩٦٢^(٤٤).

وإذا كان اسماعيل القباني وكيل المعارف وآخرون معه واضعي الأساس، فطه حسين هو الذي اتخذ خطوة المساواة المنطقية سنة ١٩٥١ لانتهاء التمييز بين نظامي التعليم الأولي والابتدائي^(٤٥).

الحواجز غير الرسمية، وتخصيص الموارد التعليمية :

في مصر - مثلما في الغرب - حافظت أسر الطبقة العليا، بذكاء، على مكانتها المتميزة رغم ظهور حق الانتخاب العام للرجال، والتعليم الإلزامي، ومبدأ الأفضلية للجدارة. وضغطت تلك الأسر على الدولة لجعل المخصصات المالية للتعليم الجامعي مقابل كل طالب أكثر كثرا من المخصص مقابل كل تلميذ بالمدارس الأولية. وكان دوجلاس دنلوب قد ادعى عام ١٩١٩ أن المدارس الأولية تتلقى ٤% من الإنفاق التعليمي غير الإداري، مقارنة بنسبة ٩٦% المخصصة للقلة من المدارس ذات النمط الأوروبي^(٤٦). وفي ذلك الوقت لم يكن يستطيع القراءة والكتابة سوى ١٠% فقط من السكان (٨٣% منهم الذكور)^(٤٧) وبعد مرور ربع قرن أصبح سلم التعليم الابتدائي/الثانوي/الجامعي يتلقى ٤٠% من الميزانية التعليمية. وارتفع نصيب المدارس الأولية فيها إلى ٤٥% في حين حصلت مدارس التأهيل المهني على ٧% من الميزانية. غير أن نظام التعليم الأولي المحروم تقريبا من الموارد كان يضم ثمانية أمثال عدد طلبة النظام الجامعي^(٤٨). وكان لامتحان الشهادتين الابتدائية والتوجيهية، وشرط إجابة اللغة الأجنبية للتوظيف مضامين نخبوية قوية. أما في أوروبا القرن التاسع عشر، فقد أسفرت حاجة الدولة للموظفين المدنيين الأكفاء، وكذلك إقبال أبناء الطبقة الوسطى على الوظائف، عن الاعتماد على الكفاءة التي تؤدي إلى المدرسة الرسمية والامتحانات المهنية، لا على المولد والمحسوبية. ففي بروسيا بدأ العمل بنظام امتحان "أبيتور" سنة ١٨٤٣ لاختيار الأقلية التي يسمح لها بدخول الجامعة من بين خريجي المدارس الثانوية. وفي فرنسا أصبح الحصول على شهادة البكالوريا شرطا لازما للتعيين في الوظائف المدنية منذ أوائل القرن التاسع عشر. أما إنجلترا، فطبقت النظام على نحو أبطأ؛ ولم تقيد جامعتها

أكسفورد وكامبردج شروط امتحان القبول إلا بعد عام ١٨٥٠، وسرعان ما سارت المدارس والمصالح الحكومية، والمؤسسات المهنية على منوالهما. بينما انتهجت امتحانات نهاية العام في مصر وكذلك شروط الالتحاق بالوظائف نهجا حازما في عهد كرومر. وتحايل الأثرياء على ذلك بالسعي إلى أفضل المدارس الحكومية أو الخاصة، والاستعانة بمدرسين خصوصيين إذا لزم الأمر. أما الفقراء فلم يكونوا قادرين لا على الاستغناء عن تشغيل أطفالهم، ولا على مساعدتهم في أداء واجباتهم، كما لا يستطيعون تدبير أجور المدرسين الخصوصيين.

وساعد شرط إجادة الإنجليزية والفرنسية أيضا على استبعاد الفقراء ؛ فكيف يمكن لابن الفلاح، مهما كان ذكيا، أن يتنافس في اللغة الفرنسية مع واحد من أبناء ثلاثة آلاف أسرة مصرية تزور فرنسا سنويا^(٥٠). وكان لشروط إجادة اليونانية واللاتينية، نفس الأثر عند الالتحاق بجامعة أكسفورد وكامبردج حتى ما بعد الحرب العالمية الأولى. وكانت الكلية ذات الإقامة الداخلية التي أقيمت في نيجيريا في عام ١٩٤٨ ملكية أكثر من الملك ؛ عندما ظلت متمسكة بشرط اليونانية واللاتينية لفترة طويلة بعد انتهاء عهدهما الذهبي في إنجلترا^(٥١).

وأيد طه حسين محاولة على ماهر الفاشلة لإدخال اللاتينية، بل واليونانية إلى المدارس الثانوية عام ١٩٢٥، الأمر الذي لا يتفق مع مواقفه الشعبية السابقة. ويمكن إرجاع هذا الموقف إلى محنته الخاصة عندما واجه اللاتينية في سن متأخرة أثناء دراسته بالسربون، بالإضافة إلى اقتناعه الراسخ بأن اللاتينية يجب أن تحظى بمكانة متميزة في أية جامعة محترمة. وأوضح طه أن القانون الروماني كان أساسا لكثير من مواد القانون الأوروبي التي اقتبستها مصر، وأن أساتذة القانون الأوروبي سوف يسخرون من زملائهم المصريين الذين لا يعرفون اللغة اللاتينية^(٥٢). أما بالنسبة لأولئك الذين أرادوا - بعكس طه حسين - حجب الفقراء عن الجامعة فلم يكونوا بحاجة إلى اللاتينية واليونانية، لأن شرط إجادة الانجليزية والفرنسية كاف في رأيهم.

كما أدى عدم وجود المدارس الليلية إلى تقييد فرص الالتحاق بالجامعة. وعندما اقترح أحد أعضاء البرلمان تطبيق نظام الدراسة من الخارج (الانتساب)، الذي يستعد فيه الطلاب للامتحان من منازلهم، رفض لطفي السيد الفكرة لأن الانتساب قد يؤدي لخفض مستويات الخريجين وزيادة

البطالة بين ذوى الياقات البيضاء. كما أن أولئك الذين يسعون للحصول على المعرفة وحدها دون درجة أكاديمية كان بمقدورهم بالفعل حضور المحاضرات بالجامعة كطلاب استماع^(٥٣).

وتوضح الجداول من (١٠) إلى (١٣) التقدم الذي حققه التعليم الجامعي قبل سقوط الحكم الملكي، إلا أنها تظهر أيضا استمرار نسبة الأمية المرتفعة بالإضافة إلى الطبيعة غير المتسقة للنظام التعليمي. فيوضح الجداول (١٠) الزيادة المطلقة في أعداد المقيدين بالمدارس. ويظهر الجدول (١١) عدد المقيدين بالنسبة لإجمال عدد السكان، ونسبة المقيدين في المستوى الأول التعليمي إلى المستوى الثالث. ويتضح من الجدول أن قمة الهرم كانت تنمو بمعدل أسرع من قاعدته، حيث تضاعف عدد الجامعات والمدارس الثانوية من عشر مرات إلى إحدى عشر مرة في الفترة ما بين ١٩٢٥ و ١٩٥٢، في حين كانت زيادة المقيدين في المستوى الأول من التعليم تربو قليلا على ست مرات فقط. وتوضح نسب المقيدين إلى إجمالي عدد السكان نفس الظاهرة، حيث تزايدت نسبة المقيدين بالجامعة والمدارس الثانوية إلى إجمالي المواطنين ثماني مرات في حين تضاعفت نسبة المقيدين بالمستوى الأول إلى عدد السكان أربع مرات فقط.

جدول (١٠)

عدد المقيدين بالمدارس وإجمالي عدد السكان في مصر

جميع أنواع التعليم العالي	الجامعة	التعليم الثانوي	المستوى الأول	السكان (بالمليون)	السنة
--	3368	16979	193144	13.8	25-1926
6760	4247	38809	373888	14.8	30-1931
8398	7515	45203	661025	15.8	35-1936
9224	8507	58867	108033 3	16.6	40-1941
17035	13927	75096	964081	18.5	45-1946
33409	31744	152552	996676	20.6	50-1951
36622	34842	192454	120959 2	21.2	51-1952

المصدر:

جدول (١١)
معدلات القيد

السنة	نسبة المقيدين في كل ألف من عدد السكان				المقيدين بالتعليم العالى بالنسبة لكل ألف من المقيدين بالمستوى الأول
	المستوى الأول	التعليم الثانوى	التعليم الجامعى	جميع المقيدين بالتعليم العالى	
١٩٢٦-٢٥	١٤	١,٢	٠,٢	—	—
١٩٣١-٣٠	٢٥,٣	٢,٦	٠,٣	٠,٥	١٨,١
١٩٣٦-٣٥	٤١,٥	٢,٩	٠,٥	٠,٥	١٢,٧
١٩٤١-٤٠	٦٥,١	٣,٥	٠,٥	٠,٦	٨,٥
١٩٤٦-٤٥	٥٢,١	٤,١	٠,٨	٠,٩	١٧,٧
١٩٥١-٥٠	٤٨,٣	٧,٤	١,٥	١,٦	٣٣,٥

المصدر : تم حساب النسبة بناء على بيانات المصدر السابق.

ويوضح جدول (١٢) أن حصة التعليم من الموازنة زادت إلى الضعف تقريبا في الفترة ما بين ١٩٥٢-٢٥ إلا أن الحصة المخصصة للجامعات تضاعفت ثلاث عشرة مرة تقريبا. وكان من شأن قيام حملة لتضييق الفروق الاجتماعية من خلال نشر التعليم العام أن تؤدي لتقليل نسبة القيد في التعليم العالى إلى عدد المقيدين بالمستوى الأول في جدول (١١). ولكن ما حدث في الواقع، أن النسبة ارتفعت على نحو حاد بعد أن كانت منخفضة في الثلاثينيات. بل أن هذه النسبة كانت أعلى من مثيلتها في روسيا قبل الحرب العالمية الأولى (حيث بلغت نسبة المقيدين بالمستوى العالى في روسيا ٦ لكل ألف من المقيدين بالمستوى الأول في عام ١٨٩٥ ثم ارتفعت هذه النسبة إلى ١٤ في عام ١٩١٤) وهي أعلى نسبة بين البلدان الأوروبية الكبرى^(٥٤).

جدول (١٢)
ميزانيات وزارة المعارف والتعليم الجامعي في مصر
(بالجنيه المصري)

السنة	إجمالي موازنة الدولة	وزارة المعارف	وزارة المعارف (%)	جامعة القاهرة	جميع الجامعات	النسبة (%) لميزانية التعليم في الجامعات
١٩٢٦-٢٥	٣٦٢٨٨	٢٣٣٦	٦,٤	١١٠	١١٠	٤,٧
١٩٣١-٣٠	٤٤٩١٥	٣٣٠١	٧,٤	٢٩٩	٢٩٩	٩,٠
١٩٣٦-٣٥	٣٢٨٤٦	٣٣٥٠	١٠,٢	٥٧٩	٥٧٩	٧,٣
١٩٤١-٤٠	٤٧٧١٨	٤٦٤٣	٩,٧	٨٤٩	٨٤٩	١٨,٣
١٩٤٦-٤٥	٨٩٩٦٨	١١٦٣٦	١٢,٩	٩٥٠	١٤٥٦	١٢,٥
١٩٥١-٥٠	٢٠٥٩٨٩	٢٢٣٣٥	١٠,٨	١٥٩٩	٣٢٥٨	١٤,٦
١٩٥٢-٥١	٢٣١٤٤٧	٢٨٠٣٠	١٢,١	—	٣٩٨٢	١٤,٢

المصدر : نفس المصدر السابق ص: ١٢٠. وتقويم جامعة القاهرة في سنة ١٩٧٠-٦٩ - بدون رقم للصفحة - الذي يشير إلى أن موازنة عام ٢٥ - ١٩٢٦ تبلغ ١٩٠٩٩٧ جنيها مصريا. ولويس عوض - الجامعة والمجتمع الجديد - الذي يشير إلى نفس الرقم في ص: ١٧. في حين ترد أرقام مختلفة في ص: ١٦ من

- Matthews, Rodric D., and Mata Arawi, "Education In Arab Countries of the Near East".

جدول (١٣)
النسبة المئوية للأمية في الفترة من ١٩٠٧ - ١٩٥٢

السنة	ذكور	إناث	إجمالي
١٩٠٧	٨٧	٩٩	٩٣
١٩٢٥	٧٨	٩٦	٨٧
١٩٣٠	٧٦	٩٥	٨٦
١٩٣٥	٧٧	٩٤	٨٥
١٩٤٠	٧٣	٩٢	٨٣
١٩٤٥	٦٨	٩٠	٧٩
١٩٥٠	٦٣	٨٧	٧٥
١٩٥٢	٦١	٨٦	٧٤

المصدر : تم حساب النسبة من Mead, Growth, P 301

وجاء استمرار ارتفاع نسبة الأمية، كأحد نتائج تركيز الموارد في سلم الصفوة (جدول ١٣). ولا توجد نسب مماثلة لهذه النسب إلا في بلدان العالم الثالث الأخرى أو بلدان أوروبا في الماضي البعيد. حيث يتميز التعليم في روسيا أواخر القرن التاسع عشر بنفس الثقل عند القمة، بينما اكتسب أساتذة مثل مندلييف وبافلوف شهرة عالمية في حين كانت الأمية في روسيا تزيد تبعا لما هو حاصل في جميع البلدان الأوروبية الأخرى باستثناء صربيا والبرتغال^(٥٥).

وعلى أية حال، فمهما كانت عيوب عدم التكافؤ، إلا أن الجامعات لها أهميتها بالنسبة للثقافة القومية، واحترام الذات، والتدريب على القيادة. كما أن الجامعات عالية التكلفة في جميع أنحاء العالم، وهي تتطلب تخصيص قدر أكبر من الموارد القومية في البلدان الأقل نموا عنها في غيرها من البلدان^(٥٦).

وأخيرا، فالجامعات ليست أدوات فقط "لتوليد التفاوت الاجتماعي" ولكنها أدوات أيضا للحراك الصاعد بين الأفراد الأكفاء في الطبقات المتوسطة، والمتوسطة - الدنيا، ولعل طه حسين مثال بارز على ذلك. ويشكو محمود كامل من الفوارق الاجتماعية في كلية الحقوق خلال العشرينيات فيقول أنه وزملاءه المفلسين كانوا يسرون على أقدامهم أو يركبون الترام خلسة من وراء الكمساري، بينما زملاؤهم الموسرون يصلون إلى الكلية في سياراتهم الخاصة، وينعمون باقامة علاقات عاطفية مع نجمات السينما^(٥٧). ولكن الجامعة وضعت كامل على بداية طريق الشهرة كمحام وكاتب. كما أن جمال عبد الناصر، ابن موظف البريد، الذي التحق بكلية الحقوق عام ١٩٣٦، لم ينتظر ليرى إلى أي مدى سوف يحمله التعليم الجامعي؛ وإنما وجه تفكيره إلى طريق آخر، كان قد فتح المجال حديثا للحراك الاجتماعي، وهو الكلية الحربية.

التحديد الجغرافي لفرص التعليم:

كان للجغرافيا أيضا - مثلها مثل الأصول العائلية والطبقية - تأثيرها الكبير في تحديد فرص التحاق المرء بالجامعة. فحظي قاطنو المدن بفرص أفضل من أبناء عموماتهم في المدن الصغيرة والقرى. كما كان وضع أبناء الوجه البحري أفضل من أبناء الوجه القبلي؛ ففي ١٩٤٧ بلغ عدد أطفال

المرحلة العمرية ٥ - ١٤ عاما الملتحقين بالمدارس في المحافظات الحضرية (القاهرة - الاسكندرية - منطقة القنال - السويس ودمياط) ضعف عدد المقيدين من أطفال الاقاليم^(٥٨). وفي منتصف الخمسينيات قدمت العاصمة (التي تضم ١٣% تقريبا من السكان) ٤٢% من طلاب جامعة القاهرة^(٥٩). وطوال عشرين عاما بعد قيامها، لم تنشئ جامعة القاهرة مدينة جامعية، الأمر الذي شكل عقبة واضحة أمام الطلاب من خارجها. ومثلما جرى العرف في أوروبا، أصبح على الطلاب الذين لا يقيمون مع ذويهم، أن يبحثوا لأنفسهم عن المأوى ومتطلبات المعيشة. ففي فرنسا كانت المدارس العليا لآبناء الصفوة (ولم تكن جزءا من الجامعة) وحدها التي تقدم الطعام والسكن حتى ما بعد الحرب العالمية الأولى^(٦٠). فإذا كانت جامعة القاهرة قد اتبعت الأمثلة السابقة في الأزهر بمافيه من أروقه، أو المدارس الداخلية الانجلو - أمريكية لكانت قد أعطت أولوية قصوى لإنشاء المدن الجامعية. فقد اضطرت أسر ليس لها أقارب في القاهرة للنزوح إليها من أجل تعليم أبنائها، وفي الحالات الأخرى، كان الطلاب القادمون من الأقاليم يتكدسون في أي مأوى يعثرون عليه مهما بدا مستواه حقيرا أو مغاليا في أجره. وفي محاولة لتحسين حالة طلاب الجامعات، يضع الأستاذ البريطاني "ت.ه. - نيوبى" يده على قضية الإسكان في روايته البسيطة الهادفة "نزهة في سقارة"^(٦١).

وبعد الحرب العالمية الأولى، أقيمت أخيرا في باريس مدينة جامعية لإسكان الطلاب، ودرست جامعة القاهرة إمكانية محاكاة نموذجها^(٦٢). فاستأجرت بعض المساكن للطالبات عام ١٩٤٠، إلا أن أول سكن للطلاب من البنين لم يفتتح إلا عام ١٩٤٩^(٦٣). ثم تلا ذلك إنشاء مساكن أخرى للطلاب، ومع هذا ظل الطلب على استئجار الحجرات يفوق كثيرا المعروض منها في القاهرة.

ذرية الجامعة الأم^(٦٤) : جامعتنا الاسكندرية وعين شمس :

فضلا عن الإسكان الجامعي، أدى انتشار التعليم العالي إلى تحسين فرص أبناء الأقاليم في الالتحاق بجامعة، وكانت مدينة الإسكندرية بما لها من طابع عالمي هي الاختيار الطبيعي لإقامة الجامعة الثانية؛ فهي تساوى خمسة أمثال حجم مدينة بور سعيد^(٦٥)، كما أنها مصيف الأثرياء من الأوروبيين

والمصريين، ولها تاريخها المجيد، بالإضافة إلى مبنائها الحديث الذي يعج بالنشاط.

وفي عام ١٩٣٧، اقترح لطفي السيد على مجلس الجامعة المصرية إقامة الجامعة الجديدة قائلاً إنها قد تخفف من الزحام الشديد في القاهرة. وكان إنشاء جامعة أخرى يعني بالنسبة للأساتذة الموجودين، وأساتذة المستقبل، فرصاً جديدة للتوظيف وإمكانية للترقي الوظيفي، بينما تخوف المعارضون من أن جامعة أخرى من شأنها أن تسحب الأموال والأساتذة من القاهرة، وربما تفاقم زيادة عدد الخريجين من أزمة البطالة بين المتعلمين^(٦٦).

ومع حلول نهاية عام ١٩٣٧، حل محمد محمود زعيم الأحرار الدستوريين والصدّيق القديم للطفّي السيد، محل النحاس في رئاسة الوزارة. وفي أبريل التالي تولى محمد هيكّل وزارة المعارف، فعمل على تحريك مشروع الجامعة إلى الأمام، نافضاً عنه المخاوف من ثورة الطلاب: "إن ثورة المتعلم ثورة إصلاح وثورة الجاهل ثورة تدمير"^(٦٧). ثم افتتحت جامعة القاهرة^{*} كليّتين فرعيتين للحقوق والآداب في خريف عام ١٩٣٨.

وسقطت وزارة محمد محمود في عام ١٩٣٩، ولكن هيكّل عاد بعد أشهر قليلة ليتولى وزارة المعارف في ظل حكومة حسن صبري، فحكومة حسين سري. ثم ترك العميد علي إبراهيم كلية الطب، ليتولى وزارة الصحة، وساعد هيكّل على دفع مشروع الجامعة إلى الأمام، بل أن علي إبراهيم اقترح إنشاء جامعة ثالثة في صعيد مصر عند أسبوط.

وقام طه حسين - بعدما أصبح الآن في المعسكر الوفدي - بحملة في الصحافة لتأييد المشروع. ووافقت وزارة سري على المشروع من حيث المبدأ قبل أن يسقطها الانقلاب البريطاني في ٤ فبراير عام ١٩٤٢.

ومع عودة النحاس والوفد قام وزير المعارف أحمد نجيب الهلالي ومستشاره الفني طه حسين بتنفيذ المشروع، وتم افتتاح الجامعة بالاسكندرية في أكتوبر عام ١٩٤٢، وعين الهلالي طه حسين مديراً للجامعة الجديدة. (وفي نفس الوقت كان جيش روميل على مسافة أقل من مائة ميل، إلا أن مونتجمري كان قد أخذ زمام المبادرة العسكرية وبدأ يطارد قوات الحلفاء عبر ليبيا).

^{*} كان اسمها حتى ذلك الوقت "جامعة فؤاد الأول" - (المترجم)

وكانت اعتبارات اللياقة - ربما أيضا العلاقة غير المستقرة مع بريطانيا - قد منعت الملك فؤاد من إطلاق اسمه على "الجامعة المصرية" التي لم يطلق عليها جامعة فؤاد الأول إلا بعد سنوات عديدة من وفاته. ولكن فاروق، بما هو معهود فيه من صبيانية، لم يبد مثل هذا التحفظ. ومن ثم، افتتحت الجامعة الجديدة بالاسكندرية تحت اسم "جامعة فاروق الأول" (فهل كان التشریف الذي منحه لنفسه نوعا من التعزية على ما حدث له منذ وقت ليس ببعيد، عندما اضطر لقبول النحاس تحت تهديد المدافع؟)

كان فاروق كارها تولي طه حسين - العدو القديم لوالده - إدارة الجامعة الجديدة، إلا أنه استطاع على الأقل، أن يعين واحدا من رجال القصر، هو صادق جوهر، سكرتيرا عاما للجامعة ليصبح عيناً له على مجريات الأمور^(٦٨). وبمجرد أن ألمح البريطانيون إلى أن تطور أحداث الحرب جعل الاستغناء عن النحاس أمرا ممكنا، أقال الملك الوزارة فورا في أكتوبر من عام ١٩٤٤. وفي غضون أسبوع خسر طه حسين منصبه كمدير للجامعة. (ولاريب أنه ابتسم، في ذكاء، عندما رأى منصور فهمي يخلفه مرة أخرى، بعد أن قبل اثناء أزمة ١٩٣٢ أن يحل محله في عمادة كلية الآداب). وشغل طه نفسه بمجلة الكاتب المصري، وهي مجلة أدبية جديدة علاوة على انشغاله بمشروعات جديدة في الكتابة. وبعد عامين أقصي فهمي عن المنصب، وكوفي صادق جوهر على ولائه بتوليته إدارة الجامعة، رغم أنه لم يكن أستاذا ولم يكن حتى حاصلا على درجة الدكتوراة.

وبطبيعة الحال، أصبحت جامعة فؤاد، النموذج الذي تحتضيه جامعة فاروق، رغم بعض الاختلافات الثانوية. وكان هناك نقص في الأساتذة، شغله البريطانيون من الجيش، أو من جهات أخرى، حتى توفر العدد المطلوب من الأساتذة المصريين. وساعد أيضا في سد نقص هيئة تدريس الاسكندرية، الأساتذة المنقولون من القاهرة، إما تطوعا أو تنفيذاً لعقوبة إدارية^(٦٩).

ودعا تاريخ الإسكندرية ذات الحضارة الهيلينية، بالإضافة إلى موقعها على البحر المتوسط وتنوع أجناس سكانها، جامعة فاروق إلى التركيز على دراسة الحضارة الإغريقية - الرومانية، والتاريخ الأوروبي الحديث، واللغات الأجنبية علاوة على دراسة ظواهر المحيطات^(٧٠)، مع ترك دراسة الحضارتين الفرعونية، والعربية/الإسلامية لجامعة القاهرة بشكل أساسي. وبينما يصور شعار جامعة القاهرة "توت" إله الحكمة عند الفراعنة، يبرز شعار جامعة الاسكندرية؛ منارة الاسكندرية في العصر اليوناني (وهي

إحدى العجائب السبع في العالم القديم) (انظر الرسم التوضيحي رقم ٦) كما اتخذت ثلاث جامعات أنشئت بعد ذلك شعارات فرعونية أيضا، وهي عين شمس، وأسيوط والمنيا.

وتواعت السمة اليونانية في الشعار بالتحديد مع ميول طه حسين مدير الجامعة المولع بالأدب الكلاسيكي، والذي أعلن بوضوح في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" اعتناقه لفكرة انتماء مصر لهوية الغرب والبحر المتوسط.

وما زالت المطبوعات المصورة لجامعة الإسكندرية تتباهي بمجد المدينة اليونانية الزائل. كما أن المنارة مازالت باقية في شعار الجامعة، وما زال معهد أبحاث المحيطات يؤدي وظيفته. غير أن مظاهر الملامح الغربية التي كانت تميز بينها وبين جامعة القاهرة لا يكاد يتبقى منها شيء يذكر؛ فلم يعد السكان الأوروبيون في الإسكندرية يعتبرون جامعتها خاصة بهم، كما أن معظمهم هاجر من المدينة بعد وصول عبد الناصر إلى الحكم. فضلا عن أنه لا يكاد يكون بين المصريين من يرى شبها بين العصر الحالي والحقبة البطلمية أو الرومانية التي سادت بلادهم منذ زمن بعيد.

* * *

في عام ١٩٥٠ عاد طه حسين إلى السلطة كوزير للمعارف في حكومة النحاس الأخيرة. وجاء ذلك في الوقت الملائم ليشرف على إنشاء ثالث الجامعات المصرية التي حملت اسم إبراهيم باشا ابن محمد علي والجد الأكبر لفاروق. وطرح طه حسين قضية الجامعة الجديدة على البرلمان المصري، موضحا ازدحام جامعة فؤاد بعدد طلابها البالغ ١٧ ألف طالب ومشيرا إلى تكس الطلاب في كلية الحقوق. كما أقر حملة طلاب وأساتذة المعاهد العليا بالقاهرة الذين يتوقون إلى الاستقلال والمكانة اللذين يتيحهما الانضمام إلى الجامعة الجديدة، وربما يكون قد أضاف إلى ذلك أن خريجي ما بعد الحرب العالمية الثانية، (بفضل تشجيع الفاروق) كانوا يعودون بالدكتوراه خاصة من الولايات المتحدة - ويحتاجون إلى وظائف^(٧١).

ومرة أخرى، كان هناك بعض المعارضين، فتساءل عثمان أمين الاستاذ بجامعة القاهرة عن السبب الذي من أجله تحظى العاصمة بجامعة ثانية في حين لا توجد أي جامعة بالمدن الأخرى : فهل كان ذلك من الديمقراطية ؟ إذا كانت جامعة واحدة تكفي باريس "مدينة النور" فلماذا تحتاج القاهرة اثنتين^(٧٢) ؟

ولم يكن من الصعب التوصل إلى الإجابة. إذ أن جماعة الضغط في القاهرة كانت قد حولت مسار خطة عام ١٩٤٩، الخاصة بإنشاء جامعة ثالثة في أسيوط بصعيد مصر، تسمى باسم محمد علي في الذكرى المئوية لوفاة. ولأن أهل الصعيد أفقر من أهالي الدلتا، وأكثر ريفية وأقل تطورا، فقد كانوا يتطلعون إلى المزايا التي يمكن أن تعود عليهم من إنشاء جامعة لهم، إلا أن جماعة الضغط في القاهرة ربت على ذلك بأن العاصمة لديها بالفعل عدد من المعاهد التي يمكن أن تشكل أساسا لجامعة، وأن أسيوط ربما تكون - بعد سكانها البالغ ٩٩ ألف نسمة - أكبر مدينة في الوجه القبلي، ولكن القاهرة - بسكانها المليونين و ٥٧٥ ألف نسمة - تفوقها ست مرات، كما أن أسيوط كانت تأتي في المرتبة الثامنة بين مدن مصر من حيث عدد السكان، فلم تكن تلي القاهرة والإسكندرية فقط، وإنما بورسعيد وطنطا، والمحلة الكبرى، والسويس، ثم المنصورة أيضا^(٧٤). فلم يكن مستغربا أن تقام الجامعة الجديدة بالقاهرة الكبرى.

ومع قيام جامعة محمد علي - على الورق على الأقل - بقي اسماعيل فقط من بين أسلاف فاروق القريبيين الذي لا توجد جامعة باسمه ولكن لم يتح له أو لسلالته ما يكفي من الوقت لسد هذا النقص.

وأفتتح طه حسين رسميا أول اجتماع لمجلس جامعة إبراهيم باشا في أكتوبر عام ١٩٥٠. وكان أول مدير لها محمد كامل حسين الطبيب المشهور بكتاباته الأدبية والدينية^(٧٥). ونظرا لعدم وجود حرم جامعي في أول الأمر، استقرت إدارة الجامعة في المنيرة، بينما تناثرت كلياتها في أنحاء القاهرة - وبعد الثورة، قررت الحكومة إقامة الحرم في العباسية، حول قصر الزعفران. وانتقلت إدارة الجامعة إلى القصر مباشرة بعد أن أخلته كلية العلوم التابعة لجامعة فؤاد الأول.



صورة رقم (٦)
شعارات الجامعات

وبعد الثورة، تحولت جامعة فؤاد إلى "جامعة القاهرة"، كما أعيد تسمية جامعة فاروق باسم "جامعة الإسكندرية"، بينما تحولت جامعة إبراهيم باشا إلى "جامعة عين شمس"، وكانت سميت في أول الأمر جامعة هليوبوليس، نظرا لقربها من مدينة "أون" المصرية القديمة - مدينة هليوبوليس في العصر اليوناني - وهي الضاحية التي كان مقاول بلجيكي قد اشتراها وأعاد تسميتها باسمها اليوناني. واستمرت الجامعة تحمل اسم "جامعة هليوبوليس" لمدة عام، ثم تحولت إلى تسمية عريقة مرادفة "عين شمس" ويصور شعار الجامعة مسلة مدينة "أون" الباقية مع صقرين يمثلان إله الشمس "رع - حور أخت". كما تؤكد مطبوعات الجامعة على شهرة مدينة "أون" بالتعليم. وإلى القرب من قصر الزعفران، تكاثرت المباني غريبة الشكل، التي تشبه الصناديق، ذات النمط الرتيب - مثل بقية المباني في عصر عبد الناصر - وفي عام ٦١ - ١٩٦٢، انتقلت إلى الحرم الجديد كليات الآداب والعلوم. ثم تطورت عن المعاهد العليا التي كانت قائمة من قبل كل من كليات : الآداب، والعلوم، والتجارة، والتربية، والهندسة بالإضافة إلى كلية الزراعة، أما كلية الطب فكانت فرعا من جامعة فؤاد. وفضلا عن استمرار محاكاة نموذج جامعة القاهرة، كانت جامعة عين شمس تعكس أيضا أوضاع العصر باتباع بعض التوجهات الأمريكية. وكان الاستاذ الدكتور أبو الفتوح رضوان من بين أولئك الذين عادوا معهم بنظريات التربية المتقدمة، بعد دراسته بكلية المعلمين بجامعة كولومبيا^(٧٦). فكانت جامعة عين شمس أول جامعة مصرية تضم قسما مستقلا لعلم النفس، كما أنشئت بها كلية مستقلة للتربية^(٧٧). وفيما بعد، أصبحت كلية الألسن - وهي ليست بالضرورة على النمط الأمريكي - احد عوامل تميز الجامعة.

كما لم تشتمل أي من جامعة القاهرة أو الاسكندرية على كلية مناظرة "لكلية البنات" بجامعة عين شمس، وهي التي نشأت عن المعهد العالي للمعلمات. وفي أول عهدها، لم تكن هذه الكلية تتيح سوى الحصول على درجات البكالوريوس العام في الآداب والعلوم والاقتصاد المنزلي والتربية، في مقررات دراسية تساوى ضعف تقريبا تلك المقررات في الكليات الأخرى ومن هذه الكلية خطت * عائشة عبد الرحمن خطواتها إلى الوزارة في عام ١٩٧٢^(٧٨).

ويبدو أن المؤلف يقصد د. عائشة راتب، إلا أنها ! لم يحدث أن دخلت د. عائشة عبد الرحمن أي وزارة * تخرجت من كلية الحقوق وليس البنات - (المترجم)

وفي ١٩٥٢-٥١ بلغ عدد المقيدين بجامعة القاهرة مثلي عدد المقيدين في جامعة عين شمس تقريبا، وثلاثة أمثال المسجلين في الإسكندرية (أنظر الجدول ١٤) كما تلقت جامعة القاهرة في ذلك العام ٤٩% من مجموع ميزانية الجامعات. وفاقت جامعة عين شمس في السنة الأولى من انشائها، جامعة الإسكندرية من حيث عدد المقيدين. وكانت الجامعات المصرية تماثل نظيرتها التركية من حيث سرعة التزايد، مع أن جامعة استانبول سبقت الجامعة الأهلية في مصر بثمانية أعوام، كما سبقت الجامعة المصرية العامة بخمس وعشرين سنة؛ لأنه لم يكن هناك "كرومر" ليعوق قيامها. ثم افتتح كل من البلدين جامعتيه الثانية في الأربعينيات (في تركيا كانت جامعة أنقرة ثانية الجامعات) وفي الخمسينيات افتتحت مصر جامعتين أخريين، وافتتحت تركيا أربعا، وهكذا^(٨٠).

ومنذ ذلك الحين جرى - على نحو بطيء - توسيع القاعدة التي تستمد منها الجامعة الأم، والجامعات التي تلتها، طلابها. ثم حان أوان الالتفاف إلى معركة الاستقلال التي شغلت الجامعة في الثلاثينيات بالإضافة إلى غيرها من القضايا السياسية في ذلك العقد ثم في العقد الذي تلاه.

جدول (١٤)

المقيدون بالجامعات وغيرها من معاهد التعليم العالي

إجمالي التعليم العالي	المعاهد التي ألحقت فيما بعد بجامعة القاهرة	جامعة عين شمس	جامعة الإسكندرية	جامعة القاهرة	السنة
٣٤٦٨	١٤٤١	—	—	٢٠٢٧	١٩٢٦-٢٥
٦٧٦٠	٢٠٩٢	—	—	٢١٥٥	١٩٣١-٣٠
٨٣٩٨	٤٩٤	—	—	٧٠٢١	١٩٣٦-٣٥
٩٢٢٤	١٥٤	—	—	٧٨٢٠	١٩٤١-٤٠
١٧٠٣٥	—	—	٣٣٩٣	١٠٥٣٤	١٩٤٦-٤٥
٣٣٤٠٩	—	٧٥٣١	٥٩٨٧	١٨٢٤٦	١٩٥١-٥٠
٣٦٦٢٢	—	٩٨٣٠	٦٤٥٧	١٨٥٥٥	١٩٥٢-٥١

المصادر : (مصدر سابق) Jean - Jacques Waardenburg ص ص ٧٨، ٧٩، ٨٢،

٨٥ و "Universities" shafshak ص ص ٣٠٥ - ٣٠٧

الهوامش

- ١- تعتمد الملاحظات حول الحركة النسائية الغربية بشكل خاص على :
- Richard Evand, *The Feminists* (London, 1979).
- ٢- Memoirs of Halide Edib (1926; reprint ed., New York, 1972).
- ٣- Evans, *Feminists*, pp. 87-88, 238.
- ٤- العبارة من :
- Afaf Lutfi al-Sayyid Marsot's : "The Revolutionary Gentlewoman in Egypt," in Nikki Keddie and Lois Beck, eds., *Women in the Muslim World* (Cambridge, Massachuetts, 1978), pp. 261-67.
وعن مظاهرات ١٩١٩ ومطالبها انظر : عبد الرحمن الرافعي : ثورة ١٩١٩ (القاهرة ١٩٦٨) الجزء الأول ص- ص- ١٢٦ - ١٣٠ ، ١٤١ - ١٤٢ . انظر أيضا مذكرات هدى شعراوي ص- ١٨٠ وما بعدها .
- ٥- Earl L.Sullivan, *Women in Egyptian Public Life* (Syracus New York 1986), p. 30.
وبالنسبة للاتحاد النسائي المصري ، اعتمدت على :
- Baheega Sidky Rasheed et al., *The Egyptian Feminist Union* (Cairo, 1963),
وكذلك المقابلتين مع مدام رشيد في ٣ و ٤ يناير ١٩٧٨ .
- ٦- Eadran, "Independent Women", pp. 16 - 23.
- ٧- يناقش هذه المرحلة "الشعبية" من الحركة النسائية المصرية .
- Woodsmall, *Moslem Women*, PP. 53 - 55.
- ٨- Scott, Standard Postage Stamp Catalogue. 1982 (4 Vols., New York, 1981) 2 : 817, "Egypt", No. 223.
- ٩- حول المرأة المصرية في الحياة العامة ، أنظر :
- Sullivan, Earl L. *Women in Egyptian Public Life* (Syracuse, New York, 1986).

١٠- محمد خليل صبحي ، "تاريخ الحياة النيابية في مصر من عهد ساكن الجنان محمد علي باشا" (الأجزاء من ٤ - ٦) القاهرة (١٩٣٩ - ١٩٤٧) الجزء الخامس ص- ٥١٨ - المادة ١٨ .

١١- Mead, *Egyptian Economy*, p. 301.

١٢-

- Hekmat Abou-Zeidd et al., *The Education of Women in the U.A.R. during the 19 th. and 20 th. Centuries* (Cairo, 1970), p. 23; Woodsmall, *Moslem Women*, p. 176.

١٣- سهير القلماوى ، مقابلة - ١٦ فبراير ١٩٨٣ . وتقويم جامعة فؤاد الأول ١٩٥٠ ص- ص- ١٢٨ - ١٢٩ . و: Woodsmall, *Moslem Women*, p. 177.

ومذكرات هدى شعراوي . وزعلوك . وترجع بعض المصادر التحاق المرأة بكلية الطب إلى ١٩٢٩ : تقويم جامعة فؤاد الأول ١٩٥٠ ص- ١٣٠ . و:

- ShafshaK, Mahmud Abd Al-Rahman. "*The Role of the University in Egyptian Elite Recruitment: A Comparative Study of Al-Azhar and Cairo Universities*". Ph D. dissertation. University of Chicago, 1964. p 306.

وربما يكون الالتحاق بالسنة الاعدادية في عام ١٩٢٨ سببا في هذا التناقض الظاهري . وعن التعليم المختلط بالجامعة الأمريكية في القاهرة أنظر :

Murphy, Lawrence R. "*The American University in Cairo : AUC History*". (1973), p 42. Eva el Masri Sidhom, *Memoirs of an Egyptian American or the Life Story of the First Co-Ed at the American University in Cairo* (Jas Per, Arkansas, n.d).

١٤- Afaf al-Sayyid Marsot, *Liberal Experiment*, p. 220.

١٥- سهير القلماوى . مقابلة - ١٦ فبراير ١٩٨٣ . ومع ذلك يوضح شفشق في رسالته للدكتوراه ، أن ثماني فتيات التحقن بكلية العلوم في عام ٢٩ - ١٩٣٠ .

١٦- تقويم جامعة فؤاد الأول ١٩٥٠ ص- ص- ١٢٨ - ١٢٩ . و:

- Hekmat Abou- Zeid, *Education*, P. 39; and Shafshak, "*Universities*," pp. 305 - 307.

١٧- تقويم جامعة الأزهر ١٣٨٣/١٩٦٤ ص- ١٥٥ .

١٨-

- V.H. Green, *The Universities* (Harmonds Worth, Middlese, England, 1969), pp. 120, 127- 128. and George weisz, *The*

Emergence of Modern Universities in France, 1863 - 1914 (princeton, 183), pp. 242 - 47.

- ١٩- شوقي ضيف ، "معى" (القاهرة ١٩٨١) ص-ص ١٨ - ١٩ ، ٩٩ .
٢٠- عبد المنعم الدسوقي ، "الجامعة المصرية ..." ص- ٨٣ .
٢١-

- Szyliowicz, Jose Ph S. *Education and Modernization in the Middle East* (Ithaca, New York, 1973), p 463.

و: الإيجبشيان ميل ١٢ فبراير ١٩٨٣ ص- ٣ . و: المركز القومي للبحوث التربوية ،
"المرأة والتعليم في جمهورية مصر العربية" (القاهرة ١٩٨٠) ص-ص ٥٠ ، ٥٦ و:
Mead, Growth, p. 301.

٢٢- نجيب محفوظ ، المرايا (مكتبة مصر - الطبعة الرابعة ١٩٨٠) ص- ١٥٨ - ١٦١
[نقل مؤلف الكتاب العبارات عن الترجمة الفرنسية للرواية ، إلا أنني رأيت من الأنسب
للقارئ العربي أن أحيله إلى الأصل العربي - (الترجمة)] .

٢٣- مقابلة مع عائشة عبد الرحمن في عبد التواب عبد الحى : عصير حياتي (القاهرة -
غير مؤرخ) ص-ص ١١٩ - ١٢٥ .

٢٤- عبد المنعم الدسوقي "الجامعة المصرية ..." ص- ٨٤ . و:

- Giora Elirza, "Egyptian Intellectuals and Women's Emancipation, 1919 - 1939", Asian and African Studies 16 (1982): 95 - 120.

-٢٥

- Woodsmall, *Moslem Women*, pp. 183, 249; Abou Zeid, *Education*, pp. 7, 27; and Katheleen Howard- Meriam, "Women, Education, and the Professions in Egypt", (omparative oducation Review 23 (1979) : 256 - 270. -٢٦- Shafshak, "Universities", pp. 307- 309.

- Afaf al-sayyid "Revolutionary Gentlewoman", p. 270. -٢٧

- Woodsmall, *Moslem Women*, pp. 183, 245. -٢٨

- La Verne Kuhnke, "The Doctress'on a Donky: Women Health Officers in Nineteenth Century Egypt", Clio Medica 20 (1974): 193 - 205. -٢٩

- Woodsmall, *Moslem Women*, p. 248. -٣٠

٣١- فريد زعلوك - مقابلة - ٢٠ يونيو ١٩٨٣ . وعزير خانكى وجميل خانكى
"المحامة قديما وحديثا" (القاهرة ١٩٤٠) . ص- ٦٣ .

- ٣٢- زينب حسن - مقابلة - ٢٦ ابريل ١٩٨٨ .
- ٣٣- سهير القلماوى - مقابلة . و: تقويم جامعة فؤاد الأول ١٩٥٠ ص- ١٣٣ . و:
الكتاب الفضي لكلية الآداب ١٩١٥ - ١٩٥٠ ص- ١١٠ . و: الآثار العلمية لأعضاء
هيئة التدريس بجامعة القاهرة ١٩٥٨ ، ص- ص- ٩ - ١٠ . وعن فاطمة سالم سيف
أنظر : جامعة الإسكندرية ، كلية الآداب ١٩٥٥ - ١٩٥٦ ص- ٨٠ . وعن فرنسا انظر:
- Weisz, Emergence, p. 247.
- ٣٤- عبد الحى ، "عصير ... " ص- ص- ١١٩ - ١٢٥ .
- ٣٥- Boktor, Amir. *The Development and Expansion of Education in the United Arab Republic*, (Cairo 1963) p. 153.
- ٣٦-
- Cachia, Piere. *Taha Husayn: His Place in the Egyptian Literary Renaissance* (London, 1956), p. 121.
وبالنسبة للمعالجة التالية لاصلاحات طه حسين التعليمية ١٩٤٤ - ١٩٥٢ ، ٥٠ - ١٩٥٢
انظر خاصة الصفحات من ١٢١ - ١٢٧ .
- ٣٧- خليل صبحى ، "تاريخ .. الجزء الخامس ص- ص- ٢٥٣ - ٢٢٥ ، ٨٠٣ - ٨٠٥ .
- ٣٨- Bokror, School, pp. 220-221.
- ٣٩- المرجع السابق ص- ص- ٥٤ ، ١٥٣ - ١٥٤ .
- ٤٠- Matthews and Akrawi, *Education*, pp. 30, 41, 49.
- ٤١- Cachia, *Husayn*, pp. 125-126.
- ٤٢- ورد في كتاب : Cachia, *Taha Husayn*, p. 124.
- انه رغب في الغاء رسوم التعليم الجامعي . بينما لا تتفق سهير القلماوى مع ذلك الرأي -
مقابلة معها ١٦ فبراير ١٩٨٣ .
- ٤٣-
- Saad El-Din, "*La nouvelle Function des Universites d'Egypte*,"
Civilisations (1955), 5 :
348.
- ٤٤- Waardenburg, 1 : 102.

-٤٥

- Cachia, Taha Husayn, pp. 122 - 123; Radwan, Abou Al-Futouh, *Old and New Forces in Egyptizn Education* (New York, 1972) pp. 108 - 110; and: Kerr, in Coleman, *Education*, p. 175.

-٤٦

- FO 848131 Milner Mission Papers. Douglas Dunlop, "Education in Egypt", p. 4.

- Mead, *Growth*, p. 301.

-٤٧

- Matthews and Akrawi, *Education*, pp. 17, 34.

-٤٨

-٤٩

- Charles E. Mc Clelland, *State, Society and University in Germany, 1700-1914*. (Cambridge, 1980), p 158; John H. Weiss, "Bridges and Garriers : Narrowing Access and Changing Structure in the French Engineering Profession, 1800 - 1850", in Gerald L. Geison, ed., *Professions and the French State. 1700 - 1900*, (Philadelphia, 1984), pp. 19 - 22; R.J. Montgomery, *Examinations : an Account of their Evolution as Administrative Devices in England* (Pittsburg, Pennsylvania, 1965).

- Berque, *Egypt*, pp. 422 - 23.

-٥٠

-٥١

- Engel, *From Clergyman to Don*, p. 224; Pierre L. Van den Burghe, *Power and Privilege at an African University* (Cambridge, Massachusetts, 1973), pp. 19 - 20.

-٥٢

- Taha Hussein, *The Future of Culture in Egypt*, trans. Sidney Glazer (New York, 1975), pp. 73-82.

إلعله من الأنسب ان احيل القارئ العربي إلى طبعة عربية من مستقبل الثقافة في مصر للدكتور طه حسين، وجدها ضمن المجموعة الكاملة لأعمال الدكتور طه حسين الصادرة عن دار الكتاب اللبناني - بيروت - المجلد التاسع - تحت عنوان "علم التربية" ص- ٢٦٢ - ٢٨٢ - حيث لم أعثر للأسف على طبعة صادرة في مصر وإن كنت قد سمعت

أن الهيئة المصرية للكتاب بصدد إصدار طبعة منه* . لذلك سوف أسند باقى الاستشهادات من الكتاب إلى الطبعة اللبنانية المذكورة بعد تحقيقها (المترجمة) . و: الأيام - الجزء الثالث ١١٧ - ١٢٠ .

٥٣- محمد كامل مرسى ، الأهرام ٢٤ فبراير ١٩٥١ . كما نقله عبد المنعم الدسوقي في: "الجامعة المصرية ... ص-ص - ٥٩ ، ٦١ : حاشية رقم ٢٤ .
- ٥٤

- Mac Clelland, James C. *Autocrats and Academics: Education, Culture, and Society in Tsarist Russia*, (Chicago, 1979), pp. 49- 50.

- ٥٥

- Daniel R. Brower, *Training The Nihilists: Education and Radicalism in Tsarist Russia* (Ithaca, New York, 1975), P. 37; James C. Mac Clelland, "Diversification in Russian - Soviet Education," in Jarausch, *Transformation*, p. 183.

- Burghe, *Power*, p. 57. - ٥٦

- ٥٧

- Mahmoud Kamel, *Journal d'un avocat égyptien: Le cote Humain du barreau* (cairo, 1946, trans. of :
يوميات محامى مصري (١٩٤٤) ص-ص - ٥ - ٧ .

- Mead, *Growth*, p. 30. - ٥٨

- ٥٩

- James A. Bellamy, "Cairo University", *Middle Eastern Affairs* 6 (1955): 188.

تعتبر نسبة ١٥% من القاهرة الكبرى التي وردت في كتاب بيلامى مرتفعة للغاية ، وقد فضلت بدلا منها نسبة ١٣% التي وردت في :
Eccel, *Egypt* p. 49.

Weisz, *Emergence*, pp. 302 - 303. - ٦٠

٦١- انظر : P.H. Newby, *The Picnic at sakkara* (London, 1946).

٦٢- الإيجيشيان جازيت ٨ فبراير ١٩٢٨ .

٦٣- عبد المنعم الدسوقي : "الجامعة المصرية ... ص ٨٤ .

* أثناء إعداد هذه الترجمة للنشر أصدرت هيئة الكتاب بالفعل طبعة من كتاب د. طه حسين ضمن سلسلة مكتبة الأسرة في إطار مهرجان القراءة للجميع عام ١٩٩٦ - (المترجم)

- ٦٤- سليمان حزين ، شجرة الجامعة في مصر (القاهرة ١٩٨٥) - اهداء الكتاب .
٦٥- تم جمعها من : Eccel, Egypt, p. 49.
- ٦٦- للحصول على معلومات عن جامعة فاروق الأول ، انظر : "مجد الإسكندرية : جامعة فاروق الأول" المقتطف ١٠٢ (١ يناير ١٩٤٣) ص- ص- ١٣٠٨ . و: هيكل "مذكرات ... الجزء الثاني ص- ص- ١١٩ - ١٢٠ ، ومطبوعات جامعة الإسكندرية لسنة ١٩٥٧ - ١٩٥٨ و ٦٣ - ١٩٦٤ .
- ٦٧- هيكل : "مذكرات ... الجزء الثاني ص- ١١٩ .
- ٦٨- فريد زعلوك . مقابلة - ٢٠ يناير ١٩٨٣ .
- ٦٩- عن النقل التأديبي انظر
- A. Cecil Alport, *One Day of Justice: The Black Book of the Egyptian Hospitals and a fellaheen Charter* (London 1948), p. 178.
- ٧٠- المقتطف العدد ١٠٢ (١٩٤٣) ص- "مجد الأسكندرية" .
- ٧١- حول عين شمس انظر : جامعة عين شمس في ظل الثورة (القاهرة ١٩٦٣) ، ص- ص- ٧ - ١٨ . و: جامعة عين شمس : "اليوبيل الفضي لجامعة عين شمس ١٩٥٢ - ١٩٧٧" ؛ وتقريرها لسنة ٥٨ - ١٩٥٩ (باللغة العربية) لسنة ٦٣ - ١٩٦٤ (بالانجليزية).
- ٧٢- عثمان أمين ، نحو جامعات أفضل ، (القاهرة ١٩٥٢) ص- ٥٩ .
- ٧٣- جامعة أسيوط في عشر سنوات ١٩٥٧ - ١٩٦٧ (القاهرة - غير مؤرخ) ص- ١١ .
- ٧٤- احصائيات السكان من : Eccel, Egypt, pp. 48 - 49, 238 - 40.
- ٧٥- محمد محود الجوادى : دكتور محمد كامل حسين : عالما ومفكرا وأديبا (القاهرة ١٩٧٩) .
- ٧٦-
- Abou al- Footuh Radwan, *Old and New Forces in Egyptian Education* (New York, 1972).
- ٧٧- المجلس الأعلى للجامعات ، دليل الجامعات في جمهورية مصر العربية (القاهرة ١٩٧٩) ص- ص- ٦٣ - ٦٤ .
- ٧٨- جامعة عين شمس في ظل ... ص- ١٢٨ .
- ٧٩- الجمهورية العربية المتحدة ، وزارة التعليم العالي ، التعليم العالي في ١٢ عاما (القاهرة ١٩٦٤) ص- ٤٤ .
- ٨٠- عن تركيا ، انظر :

- Joseph S.Szyliowicz, *Education and Modernization in the Middle East* (Ithaca, New York, 1973), pp. 375 - 86.

[٧]

الجامعة والسياسة ١٩٣٠ - ١٩٥٠

أن تعلو الجامعة فوق السياسة - كفكرة مثالية - شئ، أما الواقع فشئ آخر تماماً!! ففي عام ١٩٣٦، مثلت عودة طه حسين إلى منصب العمادة - الذي أزاحته عنه قبل أربع سنوات حكومة إسماعيل صدقي القوية - انتصاراً جزئياً لمبدأ استقلال الجامعة. ومنذ ذلك الحين أصبحت المظاهرات الطلابية أمراً مألوفاً. فتصدر الطلاب المظاهرات المطالبة بالاستقلال، كما مارسوا الصدام نيابة عن الأحزاب المتنازعة، وعارضوا السياسات التي كانت تهدد نجاحهم في الدراسة، أو فرصهم في العمل مستقبلاً.

أما بالنسبة للأساتذة، فأصبح العمل الأكاديمي طريقاً مؤدياً إلى مقعد الوزارة، الأمر الذي زاد من جانبية الانخراط في العمل السياسي بالنسبة للأكاديميين وفي الأربعينيات عجز الأساتذة، الذين خلفوا طه حسين ولطفى السيد، عن توجيه الطاقة السياسية لطلابهم على نحو بناء؛ فتسللت عوامل الضعف التي سيطرت على مصر والعالم العربي إلى الحرم الجامعي. واكتملت العقدة "الجوربية" * التي كان يتعين قطعها، أو كما عبر عنها عبد الناصر : "نور هائم على وجهه يبحث عن بطل يقوم به" ^(١).

استقلال الجامعة والتخلص من طه حسين :

جاء فصل طه حسين في مارس ١٩٣٢ أثناء آخر محاولات الملك فؤاد للحفاظ على الحكم الأوتوقراطي، وأطولها عمراً. وكان الملك يعمل من خلال إسماعيل صدقي رئيس الوزراء، الذي استبدل في عام ١٩٣٠ بدستور ١٩٢٣ دستوراً آخر يركز السلطة تماماً في يد الملك. ولم يعترض البريطانيون على هذا الوضع، إلا أن حزبي "الوفد" و"الأحرار الدستوريين" قاطعا الانتخابات التالية، ومن ثم سيطر حزب الشعب الجديد برئاسة إسماعيل

* عقدة أحكم مدها جورديوس ملك فريجيا، وزعموا أنه لن يحلها إلا سيد آسيا المقبل، فجاء الاسكندر الأكبر وقطعها بسيفه - (المترجم)

صدقي ومعه "حزب الاتحاد" الموالي للملك على البرلمان. فانطلقت جبهة من الوفد والأحرار الدستوريين إلى الصحف والمقاهي والشوارع مطالبة بعودة دستور ١٩٢٣^(٢). ولقي صدقي تأييدا بين كبار ملاك الأراضي، والطبقة الصاعدة من رجال المال، والتجار، ورجال الصناعة؛ لأنه أمر بتيسير شروط القروض الممنوحة لكبار ملاك الأراضي بهدف معاونتهم في التغلب على حالة الكساد. كما أنشأ بنكا للرهونات العقارية لمساعدة أعيان الفلاحين. ولما كانت مصر استرحت أخيرا سيادتها على جماركها، فقد أستؤنف فرض الحماية الجمركية لصالح رجال الصناعة. وشعر أبناء الطبقتين الدنيا والوسطى في المدن، وعمال الصناعة، ومعظم الفلاحين، بالإضافة إلى شعور الطلاب وخريجي الجامعات الذين يعانون من البطالة، أنهم خارج اهتمام الحكم.

وكان للأحداث التي جرت أثناء الافتتاح الرسمي للحرم الجامعي بالجيزة، صباح ٢٧ فبراير عام ١٩٣٢، أثرها في تقجير قضية طه حسين: فقد خرج من مبنى كلية الحقوق كل من لطفي السيد مدير الجامعة، ومحمد حلمي عيسى وزير المعارف، وكذلك أحد ممثلي الطلاب لتحية موكب سيارات الملك فؤاد، وقام الملك بزيارة قاعات محاضرات كلية الحقوق، ثم كلية الآداب التي يتولى عمادتها طه حسين. وبعد ذلك عبر الطريق إلى مبنى الإدارة حيث كان ينتظره إسماعيل صدقي ووزرائه وغيرهم من الشخصيات البارزة^(٣). وألقى حلمي عيسى خطبة مفعمة بالتزلف مبرزاً أيادي الملك فؤاد وشقيقته فاطمة هانم على الجامعة؛ فاتهمته جريدة "البلاغ" الوفدية بأنه انتقص من قدر إسهامات كل من قاسم أمين، وسعد زغلول، ومحمد فريد، وعبد العزيز فهمي فضلا عن علي الشمسي الوزير الوفدي الذي وضع حجر الأساس للحرم الجامعي قبل أربع سنوات^(٤).

أما خطبة لطفي السيد فأشارت بوضوح إلى لجنة عام ١٩٠٦ (التي استهلت العمل في المشروع بون تشجيع ملكي) وكذلك إلى سعد زغلول. وكان صدقي قد طمأن الملك القلق على أن الطلاب تحت السيطرة تماما، إلا أنه كان مخطئا إذ لاحظ الطلاب قلة عدد الوفديين والأحرار الدستوريين بين الجالسين على المنصة، كما لاحظوا أن السياسيين المواليين للملك، وليسوا العلماء، هم الذين صعدوا إليها لاستلام الشهادات الفخرية. ولم يلق اقتراح طه حسين بتكريم الوزراء الوفديين السابقين نجاحا بالطبع^(٥). ومن ثم، أفسد الطلاب المناسبة عن طريق التصفيق الانتقائي: حيث صفقوا مهللين تحية

لعدلي يكن عضو الاحرار الدستوريين، وعلي ابراهيم نائب رئيس الجامعة؛ بينما استقبلوا بالصمت البارد اسماعيل صدقي، وحلمي عيسى، وعلي ماهر. وفي التو، غادر الملك وصدقي المكان حائقين، يلقيان باللوم على طه حسين، ثم صدر الأمر بإبعاده عن الجامعة.

وكان طه حسين - منذ عشر سنوات - قد ربأ بنفسه عن السعي لنيل الخطوة لدي فؤاد، مرددا بيتا من أبيات الشاعر العباسي "أبو نواس" يقول فيه:

"وما أنا بالمشغوف ضربه لازب ولا كل سلطان على أمير" (٦)
وبعد ذلك كتب طه :

"... ونظر صاحبنا فاذا هو بين عدوين لايدري أيهما أنكى له من صاحبه يراه السعديون مارقا مالا المارقين، ويراه القصر كافرا بالنعمة جاحدا للجميل. ويرى أنه قد أرضى ضميره وأدى واجبه وليكن بعد ذلك ما يكون" (٧).

وكان طه حسين قد أعرض عن قبول عرض إسماعيل صدقي برئاسة تحرير جريدة حزب الحكومة "الشعب" في عام ١٩٣٠، بعد توليته منصب عميد كلية الآداب بيومين فقط، فشجع ذلك عليه نوى الاتجاهات الدينية المحافظة، الذين ما برحوا يتوقون إلى النيل من مؤلف كتاب "في الشعر الجاهلي". والمعركة حول كتاب طه حسين المنشور في ١٩٢٦، واحدة من أشهر المعارك الأدبية في القرن الحالي ؛ فقد شابته قضية إلى حد كبير قضيتي جورجى زيدان، ومنصور فهمي: هل يجوز استخدام أساليب المستشرقين في الدراسات النقدية لدراسة الموضوعات التي لها قداسة عند المسلمين؟ فضلا عن وجود نقاط أخرى للالتقاء بين هذه القضايا ؛ فطه عندما كان طالبا بالأزهر، كان يؤجل مذاكرة دروسه أحيانا حتى يتمكن من الانتهاء من قراءة إحدى روايات زيدان التاريخية (٨). كما أنه استفاد من قراءة أعمال زيدان التاريخية غير الروائية.

وكان طه والجامعة المصرية اصطلما بنوى النزعات الدينية المحافظة من قبل في عام ١٩١٤، حين نما إلى علم أحد أعضاء الجمعية التشريعية أن رسالة طه حسين حول أبى العلاء المعرى حبتت على نحو شديد الوضوح استخدام مناهج المستشرقين بدلا من المناهج الازهرية. ولكن عندما قدم العضو اقتراحا بأن تقطع الحكومة معونتها عن الجامعة لأنها

خرجت "ملحدا"، احبط سعد زغلول مبادرته بأن هدد بقطع المعونة الحكومية عن الأزهر الذي خرج نفس "الملحد".

ويعتمد كتاب "في الشعر الجاهلي" على أفكار المستشرق البريطاني "مارجوليوت"، محاولاً إثبات أن معظم الشعر الجاهلي تعرض للتزييف بعد ظهور الإسلام. بل أن طه تعرض بالبحث لرواية القرآن حول بناء إبراهيم وإسماعيل للكعبة؛ فغضب الأزهر، واعتبر الكتاب تجديفاً في حق الله، وطالب بفصل طه حسين من الجامعة وحظر تداول كتابه. ولما كانت الجامعة لم تعد معهداً خاصاً ذا تأثير هامشي، إنما أصبحت تعلو قمة نظام المدارس العامة، فقد أصبح الأمر، بالتالي، قضية قومية، وطرح للمناقشة في البرلمان^(١١).

ولم يكن طه حسين صحفياً سورياً معزولاً يدين بالمسيحية مثل جورجى زيدان، كما لم يكن مجرد مرشح للدكتوراه قليل الخبرة مثل منصور فهمي؛ وإنما أستاذ جامعي لديه أنصاره الأقوياء من الأكاديميين والساسة. وعلى الرغم من أن الملك فؤاد كان يسعده أن يلقي بطله إلى الذئب، إلا أنه وقف موقف الدفاع عام ١٩٢٦، بعد أن وجد نفسه مضطراً لقبول عودة خصومه الوفديين إلى الحكومة. كما عارض سعد زغلول وكثير من الوفديين طه حسين - ربما لإدراكهم ما يتيح الدفاع عن الإسلام من شعبية - إلا أن الوفد لم يكن قوياً، ولم يكن بمقدوره المخاطرة بتحطيم التحالف مع الأحرار الدستوريين الذين دافعوا عن طه باعتباره منتصياً لهم.

فساند مدير الجامعة، لطفي السيد، طه حسين على أساس أن الأمر قضية حرية فكرية. كما أيدته "السياسة" الناطقة بلسان الأحرار الدستوريين، ويكتب طه حسين عموداً بها. وقام رئيس الوزراء عدلي بإبعاد المشكلة عن الجدل البرلماني، عندما أحال الموضوع إلى القضاء، الذي أسقط القضية بعد ذلك. وأكد طه حسين على إيمانه بالإسلام، كما حذف الإشارة إلى إبراهيم وإسماعيل في الطبعة التالية: وبدلاً من أن يفقد وظيفته، ارتقى العالم الكفيف إلى منصب عميد كلية الآداب، حيث انتخبه زملاؤه في الكلية لتولي المنصب. ومن المفارقة، أن أول وزير للمعارف في عهد إسماعيل صدقي هو الذي أصدر قرار تعيينه.

وتعقب أعداء طه حسين خطواته منذ تولى العمادة انتظاراً لأية زلة؛ فاتهموه بممالأة الأساتذة الأجانب على حساب المصالح الوطنية، وإثارة خلاف على المناهج الدراسية بين المؤسسة الجديدة للتعليم العالي وبين

الأزهر، بالإضافة إلى اتهامه بتشجيع الاختلاط غير الأخلاقي بين الجنسين في كلية الآداب.

وبعد يومين من صدور قرار ٣ مارس ١٩٣٢ بعزل طه حسين من الجامعة، أضرب الطلاب مسجلين احتجاجهم في مكتب لطفي السيد، ثم طافوا شوارع المدينة حتى منزل "طه" حسين في هليوبوليس ليؤكدوا تأييدهم له. وفي اليوم التالي احتشد طلاب الآداب والحقوق في الحرم الجامعي، ثم عبروا كوبرى عباس لينضم اليهم المئات من طلاب الطب، وتوجهوا إلى قصر عابدين لتقديم التماسهم. وفي السابع من مارس انضم طلاب كلية العلوم في مبناهم البعيد بقصر "الزعفران" إلى الإضراب، واحتشد طلاب الكليات الأربع عند كلية الحقوق في اليوم التالي. ويعلن أساتذة كلية الآداب، واغلبهم مازالوا من الأجانب، قرارهم بتأييد عميدهم المخلوع^(١٣). وعندما أرسل اسماعيل صدقي قوات البوليس إلى الحرم الجامعي في التاسع من مارس، واجه لطفي السيد خيارا صعبا؛ فصدقي صديقه منذ أيام مدرسة الحقوق، عندما كانا محرران معا صحيفة طلابية، كما أن صدقي هو من أعاده إلى منصب مدير الجامعة الذي تركه عام ١٩٢٨ ليشترك في وزارة محمد محمود باشا^(١٤) - بل أنه سوف يشارك بعد الحرب العالمية الثانية كنائب لرئيس الوزراء للشئون الخارجية في وزارة مكروهة أخرى برئاسة صدقي - إلا أن مدير الجامعة قرر أنه يجب أن يستقيل هذه المرة^(١٥).

وفي اليوم التالي قرر الطلاب إرسال برقيات احتجاج إلى جميع جامعات العالم^(١٦)، ثم نجحوا في مراوغة البوليس يوم ١١ مارس عندما احتشدوا - على غير توقع - بكلية العلوم في قصر الزعفران. وكان صبر الحكومة قد نفذ؛ فقبلت استقالة لطفي، وعينت علي إبراهيم نائب مدير الجامعة وعميد كلية الطب للقيام بأعماله. وناشد فريد زعلوك وآخرين من الطلاب، علي إبراهيم الاستقالة، إلا أنه رد على ذلك بأنه ربما يتم تعيين شخص أسوأ للمنصب. واتفق عمداء الكليات على إصدار أمر بعودة الطلاب إلى المحاضرات، وحظر دخول الطلاب مباني كليات أخرى غير كلياتهم. ولكن الإضراب استمر؛ فأغلق علي إبراهيم الجامعة يوم الأربعاء ١٦ مارس. ثم عاد معظم الطلاب إلى الدراسة يوم الاثنين التالي تحت التهديد بالطرد من الجامعة، وتعرضت القلة التي رفضت الانصياع للأمر إلى الإيقاف عن الدراسة لمدة أسبوع أو أكثر؛ فخسرت الجامعة أسبوعين من

الدراسة كما خسرت مديرا وعميدا محترمين، فخيم الصمت الكئيب على الحرم الجامعي.

ولم يكن هذا مجرد شأن من شئون الجامعة؛ فشعر رئيس الوزراء أنه مطالب بالدفاع عن تصرفاته في البرلمان. وفي ٢٨ مارس، جلس صدقي ووزراؤه مؤيدين بينما كان أحد نواب الحزب الوطني يلقي خطبة ضد طه حسين على مدى ثلاث ساعات تقريبا^(١٧). وربما يكون النائب أخذ على عاتقه مهمة إلقاء الخطبة حتى ينفي عن الهجوم صفة الحزبية. ولم يتصد للدفاع عن طه أي من أعضاء البرلمان الموالين لصدقي. وسحب حلمي عيسى منصب الموجه بالوزارة الذي كان سيمنح لطه حسين على سبيل الترضية - وكان طه رفضه على أية حال - وقام بفصله من الخدمة الحكومية.

وفي العام التالي نالت الجامعة لائحة جديدة صارمة^(١٨). فبعد أن كان مجلس الكلية يوصي بتعيين أحد الأساتذة في منصب العميد لمدة غير محدودة، أصبح وزير المعارف هو الذي يختار العميد من بين ثلاثة مرشحين لمدة ثلاث سنوات. وانضم إلى مجلس الجامعة خمسة معينون من خارجها، كما لم يعد المجلس يضم أساتذة مساعدين إلا في حالات خاصة.

واوقف حلمي عيسى قسم الدراسات الكلاسيكية، الذي كان طه يدافع عنه، وجعل اليونانية واللاتينية تدرسان فقط باعتبارهما من أبواب البحث^(١٩). كما خفض مستوى علم الاجتماع من مادة قائمة بذاتها، إلى مادة مساعدة للفلسفة والجغرافيا. وتساءل أستاذ الاجتماع (ولم يكن سوى أستاذ الانثروبولوجيا إيفانز بريترشارد) عن السبب، ففسرت الوزارة الأمر بصراحة مشيرة إلى أنها لم تكن مهتمة على الإطلاق بالمضي في هذه الدراسات إلى حد بعيد، نظرا لان أثرها على شباب مصر لم يكن معروفا، وربما يكون لعلم الاجتماع أثر تخريبي؛ فاستقال إيفانز بريترشارد.

تبرئة طه حسين :

لم تكن فترات الانتكاس في الحياة الشخصية تمثل صعوبات مادية للطفي، غير أن الحياة كانت دائما أصعب بالنسبة لطه. وقد ساعدته الجامعة الأمريكية في القاهرة على الخروج من هذه الصعوبات، عندما عينته لإلقاء محاضرات على طلاب قسم الدراسات الحرة، كما اشتغل أيضا في الصحافة يكتب المقالات، ويدير تحرير صحيفة "كوكب الشرق" الوفدية^(٢٢).

ولم يستطع صدقي وعيسى أن يجدا بديلا لمدير الجامعة، كما واجها متاعب مع منصب عميد كلية الآداب أيضا ؛ فقد ألمح عيسى إلى أنه سيدفع بالعمادة إلى "ت.س.سترلينج" نائب العميد وأستاذ الآداب الإنجليزي، إلا أن الوزارة، التي لم تكن تتمتع بالشعبية، تخوفت من السماح بأن يؤول المنصب إلى أجنبي. كما لم يكن أمر منصور فهمي ليقلق صدقي وعيسى كثيرا، وهو الأستاذ المصري الوحيد الباقي في كلية الآداب؛ فظلا يماطلان إلى أن استقال سترلينج^(٢٣)، فاصبح فهمي عميدا رغم كل شيء، ثم عينه فؤاد مديرا لمجمع اللغة العربية الجديد، ربما ليعزز من ولائه له.

وكان عبد الفتاح يحيى - الذي خلف صدقي عام ١٩٣٣ - شديد الخضوع للقصر إلى حد أثار شكوى "سيرمايلز لامبسون"، المندوب السامي الجديد. ثم تولى محمد توفيق نسيم المنصب بعد يحيى، فشجع الملك - وكان مترددا - على إلغاء دستور صدقي المكروه. كما سمح لفريد زعلوك الزعيم الطلابي الوفدي باستئناف دراسته سرا بكلية الحقوق، التي طرد منها عقب الاضراب^(٢٤). واستطلع نسيم رأي البريطانيين في السماح بعودة لطفي وطه. وجاء الرد مؤيدا عودة لطفي، ولكن "لسوء الحظ، كان طه حسين قد انضم بعد فصله إلى هيئة محرري كوكب الشرق الوفدية. كما أنه تورط في الكثير من المواقف الهجومية المعادية للأجانب والمناهضة لبريطانيا في سياق الحملة الصحفية التي استمرت طويلا ضد حكومتى صدقي باشا ويحيى باشا. بل أنه هاجم كتاب العمارة الإسلامية الذي وضعه كابتن كريزويل، مدرس العمارة الإسلامية في كلية الآداب، على أساس أنه يحتوى على فقرات معادية للإسلام"^(٢٥).

وفي ديسمبر ١٩٤٣ وافق البريطانيون على السماح لنسيم بإعادة طه إلى الجامعة كأستاذ للغة العربية "بشرط منعه من مهاجمة الأجانب"، ولكنهم لم يوافقوا على عودته إلى منصب العميد. وفي أبريل من العام التالي، استأنف لطفي عمله كمدير للجامعة بعد أن تلقى تأكيدات بأن الأساتذة لن يتعرضوا للنقل مرة أخرى دون موافقة الجامعة. كما شهد الأزهر حركة عودة أخرى، عندما أبعد الظواهري - رجل القصر - وعاد المراغي شيخا للأزهر أثر شهور من السخط الطلابي واحتجاج هيئة التدريس^(٢٦).

ولم يكن تراجع الملك فؤاد هزيمة بأية حال - فقد أرادت الجامعة إلغاء شرط تعيين خمسة أعضاء في مجلسها من الخارج، إلا أنها قبلت تخفيضهم إلى أربعة فقط مع اشتراط أن يكون قد سبق لهم إلقاء محاضرات

بإحدى الجامعات أو المدارس العليا^(٢٧). واحتفظت وزارة المعارف بحق اختيار العمداء من بين ثلاثة من مرشحي هيئة التدريس.

وسرعان ما نفذ صبر المصريين إزاء إذعان نسيم - المتردد - لبريطانيا. ثم دفع السير "صامويل هور" وزير الخارجية البريطاني بالأزمة إلى الذروة، عندما ألقى في نوفمبر ١٩٣٥ خطبة بلندن وصف فيها دستوري ١٩٢٣ و ١٩٣٠ معا، بأنهما غير عمليين (وكان دستور ١٩٢٣ هو الرمز الذي أمد الوطنيين بالأمل خلال خمسة أعوام من حكم القصر، واستمرار الاحتلال) وبدأت مظاهرات الاحتجاج في الجامعة المصرية، وأصبح على سياسة الأمة أن يسارعوا للحاق بها. ولم تكن القاهرة قد شهدت ما يشبه هذا منذ ١٩١٩.

ثم فتح رجال الشرطة بقيادة الضباط البريطانيين النيران على الطلاب عند كوبري عباس، فقتلوا طالبا، وأصابوا آخرين. وساند الاساتذة في كل من دار العلوم والأزهر مطالب الطلاب، وحضر لطفي - مضطرا - احتفالا طلابيا باقامة نصب تذكاري للشهداء، وشكل مصطفى النحاس وعدد من رجال السياسة الآخرين - على مضض - جبهة موحدة. ثم أذعن نسيم وأعاد دستور ١٩٢٣. إلا أن مارء الاحتجاج الطلابي كان قد خرج من قمقمه، ولن يستطيع، سوى فرض الاحكام العرفية - اثناء الحرب العالمية - أن يجبره على التراجع، مؤقتا^(٢٨).

ثم حل علي ماهر محل نسيم، وبدأ يعد للانتخابات التي ستجرى في شهر مايو. وجاءت وفاة الملك فؤاد في ٢٨ ابريل ١٩٣٦، لتوفر عليه عار مواجهة فوز الوفد بعد أربعة أيام. كما أنقذ علي ماهر، منصور فهمي من ذل مؤكد، عندما نقله من منصب عميد كلية الآداب، إلى وظيفة مدير دار الكتب القومية، في آخر قرار - تقريبا - يصدره كرئيس للوزارة؛ فقد جاء قرار إعادة طه حسين إلى عمادة كلية الآداب بين القرارات الأولى لحكومة النحاس الجديدة^(٢٩). وجاء لقب البكوية ليتوج انتصار العالم الكفيف.

وكان الأمير فاروق يتلقى علومه بالأكاديمية العسكرية الملكية في "قولفيتش" وقت وفاة والده. فأسرع المستشارون بإعادة الشاب قليل الخبرة - رغم ما عرف عنه من استهتار - إلى بلاده ثم إلى العرش. وهكذا بدأت جولة جديدة في اللعبة السياسية القديمة.

بطالة المتعلمين واستياء الطلاب :

"كان من الملاحظ أن طلاب الحقوق في سنتهم الدراسية الأولى بالكلية يتطلعون لأن يصبحوا رؤساء وزارات يوما ما، وفي السنة الثانية يقنعون بالتطلع إلى مناصب الوزراء، أما في السنة الثالثة فيصبح حلمهم أن يتولوا القضاء، فإذا بهم عند لتخرج يحلمون بمجرد العثور على عمل فحسب"^(٣٠). واختلط بمطالب الطلاب المعارضين من أجل الاستقلال القومي وحكومة ممثلة للشعب، مجموعة موازية من المطالب العملية من أجل تغيير المقررات الدراسية، والامتحانات، وسياسات التوظيف التي من شأنها أن تحسن من فرصهم للترقى بشكل شخصي.

وتعكس عناوين ثلاثة من المنشورات الصادرة في الثلاثينيات أيام الكساد السوداء، كما تعكس الوعي الناشئ بالمشكلات، فتقول هذه العناوين : "أزمة البطالة في مصر"، "المشكلة السكانية في مصر"، و"التعليم والبطالة في مصر"^(٣١).

وعزا الكثيرون السبب في البطالة بين المتعلمين، إلى الأجانب من المسؤولين والمهنيين، ورجال الأعمال ؛ لانهم شغلوا الوظائف التي اعتقد المصريون أنها من حقهم. وكانت حركة التمهير تسارعت عقب إعلان عام ١٩٢٢، كما شهدنا بين أعضاء هيئة التدريس الجامعة. أما خارج وزارة المعارف، فانخفض عدد الموظفين الأجانب في المصالح الحكومية من ٢٢٢٩ في عام ١٩٢٢، إلى ٤٤٠ في عام ١٩٣٦^(٣٢). وفي عام ١٩٣٧ بدأ تصريح "مونرو" ينهي مرحلة المحاكم المختلطة. واخذت فرص العمل تزيد أمام المصريين من المحامين والأطباء والمهندسين، كما أتاح مشروع شركة "مصر"، وغيرها من المشروعات المزيد من فرص العمل.

الا أن التمهير استغرق ما يربو على ثلاثة عقود، ولم يكن باستطاعة المتعلمين من الطلاب استشراف المستقبل؛ فالأجانب ثبتوا أقدامهم في الجامعة وفي كل مكان آخر، وظلوا هناك أطول فترة في استطاعتهم. كما زاد عدد الأجانب في وزارة المعارف - فعليا - من ١٦٣ في عام ١٩٢٢، إلى ٨٦٧ في عام ١٩٣٦ ؛ معظمهم من مدرسي اللغات للوفاء بحاجة شبكة المدارس العامة التي كانت تتسع على نحو سريع.

وكان مرسوم صدر عام ١٩٢٧ يشترط وجود اثنين من المصريين على الأقل في مجلس إدارة كل شركة برأس مال مشترك، إلا أن ذلك لم يطبق بحزم. فاستفاد من زيادة التمثيل المصري بمجالس إدارات الشركات

قلة من الباشوات نوى الاتصالات القوية، مثل إسماعيل صدقي، وليس خريجو كلية التجارة أو الحقوق العاديون. وفي عام ١٩٣٦ اقترح مكرم عبيد وزير المالية تشريعا ينص على أن يكون ٥٠% من الموظفين و ٩٠% من العمال في أي شركة جديدة من بين المصريين، إلا أن الاقتراح لم يقدر له أن يخرج إلى حيز التنفيذ. ولم يكن إحجام رجال الأعمال الأجانب عن توظيف عاملين مصريين من قبيل الشوفينية تماما، فمعظم المتقدمين للعمل - وقتذاك لم تكن لديهم خبرة في التجارة ولا يتقنون لغة أجنبية.

أما السبب الثاني في بطالة المتعلمين، فيرجع إلى أن المدارس كانت تخرج أعدادا كبيرة ممن يتطلعون إلى مناصب نوى الياقات البيضاء في حين قل الاهتمام بالتعليم الفني والحرفي. وأسهمت ضغوط الطلاب وأولياء الأمور والأساتذة في الوصول إلى هذه النتيجة، الواضحة منذ أيام كرومر إلى عهد الناصر وحتى عهد مبارك. وبسبب التكاليف الشديدة على الاحترام الذي يلقاه نوى الياقات البيضاء، انهارت مقترحات لا حصر لها من أجل تعديل نظام التعليم ليتواءم مع الاحتياجات الاقتصادية.

ويشير تفسير ثالث إلى عجز الاقتصاد غير المتوازن عن توفير الوظائف المناسبة لخريجي الجامعة؛ لأن مصر كانت تصدر المواد الزراعية وتستورد السلع الصناعية بينما التصنيع مازال في أول عهده والأجانب يسيطرون على تجارة التصدير والاستيراد، فلم يكن أمام الخريجين سوى فرص ضئيلة في المشروعات الخاصة. كما لم تكن الجماهير العادية قادرة على تحمل ارتفاع أسعار السلع الاستهلاكية، أو خدمات المحامين والأطباء في المكاتب والعيادات الخاصة. أما الجهاز الحكومي فهو الملجأ الأخير للتوظيف، الذي يسحب لهذا الغرض قدرا متزايدا من مخصصات الموازنة كان من الممكن استثماره على نحو أكثر إنتاجية. بل أن حتى صمام الأمان هذا، أغلق في منتصف الثلاثينيات؛ عندما كان خريج الجامعة يعمل في الحكومة لقاء ثمانية جنيها ونصف فقط شهريا. فتراكمت أعداد المتعطلين بصورة أكبر ولم يكن بمقدور أي حكومة أن تدع مثل هذا الأمر يستمر بلا نهاية.

ليست برجا عاجيا : الجامعة في أواخر الثلاثينات :

لم تكن الاضطرابات الطلابية أمرا جديدا على الأزهر، الذي شكل مركز حشد الجماهير ضد نابليون، ثم مرة أخرى عام ١٩١٩. أما طلاب المدارس العامة فبدأوا عام ١٩٠٦ التقليد الخاص بهم في الاحتجاج، بإضراب مدرسة الحقوق ضد لوائح الحضور^(٣٣). كما نال طلاب الحقوق قصب السبق في مظاهرات ١٩١٩، عندما كانت الجامعة الأهلية مجرد مدرسة ليلية هامشية. ولكن طلاب الجامعات بدأوا منذ ١٩٢٥ يتولون لواء احتجاج الشوارع المرة تلو الأخرى. وازداد عدد المرشحين للانضمام إلى المظاهرات بزيادة عدد المقيدون بالتعليم الجامعي. وفارق كبير بين أن يتعامل وزير الخارجية مع ألفي طالب جامعي عام ١٩٢٥، وأن يتعامل مع الثلاثين ألف طالب في الجامعات الثلاث عام ١٩٥٠ (ناهيك عن طلاب الأزهر، والمدارس الثانوية، بل حتى والابتدائية).

ومع أواخر الثلاثينيات لم يكن حتى الرجال المحترمين مثل أحمد لطفي السيد، وطه حسين قادرين على وقف تسييس الجامعة الذي بات يمزقها. وعلى الرغم من القيم الليبرالية المشتركة بين مدير الجامعة وعميد الآداب، باعدت بينهما السياسة والعوامل الشخصية. فمع أن لطفي السيد تولى منصب مدير الجامعة بوقاره وهو في الرابعة والستين، والناس من جميع الاتجاهات يكتنون احتراماً لاستقامته، ألا أن ليبراليته التي تنتمي إلى ليبرالية القرن التاسع عشر، وتحفظه الأرستقراطي، بالإضافة إلى زوجته ذات الأصول التركية وانتمائه للأحرار الدستوريين، كلها عوامل أعطته طابع جنلتمان من المدرسة القديمة، وهكذا، بدا من المتعذر على العامة الاتصال به. أما طه، الذي بلغ من العمر ٤٧ عاما في ١٩٣٦، فهو محارب صهرته المحن، ولديه معرفة بأوروبا وجامعاتها أعمق مما لدي لطفي، كما أن زوجته فرنسية، وليبراليته التي تنتمي إلى القرن العشرين ممزوجة تماما بالنزعة الشعبوية. وقد وفر له لطفي والجامعة مظلة حماية بينما طور هو من ملكاته المؤثرة، ووفرت صحيفة "السياسة" التي يرأس تحريرها محمد حسين هيكل، متفسا لقلمه كما دافعت عنه ضد أعدائه.

وفي ١٩٢٨، كان طه محسوبا على الأحرار الدستوريين، ومن ثم لم يؤيد الوفد توليه عمادة كلية الآداب، رغم أن ذلك كان من شأنه أن يصبح انتصارا للتمصير^(٣٤).

أما في ١٩٣٢، وبعد فصله من الجامعة، فلم يكتب طه في "السياسة" أو "السياسة الأسبوعية"، سوى مرات نادرة، مفضلا الصحف الوفدية وغيرها من الصحف. وتهاشم المنتقدون بأن الوفد دفع في قلمه سعرا أغلى من الأحرار الدستوريين، ثم رددوا بعد ذلك أن طه يخطط لأن يحل محل لطفي السيد في إدارة الجامعة^(٣٥). وعلى أية حال، كان لدي طه حسين أسبابا سياسية سليمة للتحويل إلى الوفد؛ فالحزب يتمتع بأكبر عدد من التابعين في الجامعة، الذين تصدروا حركة الاحتجاج على فصله، ولم يكن بين طه ونبلأ الأحرار الدستوريين الكثير من الأمور المشتركة، كما أنه أكثر تقدمية من هيكل وغيره من متقفي الحزب. أما الوفد، فيضم كبار ملاك الأراضي أيضا - خاصة بعد ١٩٣٤ - ولكن التأييد الرئيسي الذي يلقاه أثناء المعارك يجيء من الطبقة الوسطى ذات القاعدة الأوسع في الريف والحضر (وسوف ينشأ بالوفد بعد الحرب العالمية الثانية جناح راديكالي صغير ولكنه مؤثر).

ومع انطلاق الحماس السياسي الطلابي لم تستطع أي من ليبرالية لطفي أو ليبرالية طه، ولا زعامتهما توجيه هذا الحماس بعد عام ١٩٣٦. ويصف أحد الأساتذة البريطانيين، حالة التخبط التي سادت الجامعة فيقول: "رئيس الجامعة، رجل ساحر وودود، لديه عدد من الأفكار الانسانية حول ما يجب أن تكون عليه الجامعة، ولكنه لم يكن في الواقع يلزم نفسه بوظيفته. كما أن السكرتير العام، يعطي انطبعا بتجنب أي نوع من أنواع العمل. أما عميد كلية الآداب، فهو رجل قوى ومستدير يعنى كثيرا بالتعليم، ولديه خطط كثيرة لإصلاحه، إلا أنه أبعد كثيرا عن أن يكون رجل إدارة - نظرا لأن كف بصره يعتبر بالطبع عائقا كبيرا في هذا الصدد"^(٣٧). وعلى الرغم من جهود لطفي في مقاومة اشتغال الطلاب بالسياسة، فقد سعى كل من الوفديين، والأحرار الدستوريين، وأعضاء الحزب الوطني، والملكيين مثل على ماهر بالإضافة إلى السعديين (وهم أعضاء الحزب المنشق عن الوفد عام ١٩٣٨) إلى استقطاب الطلاب. فلم يعد الطلاب يمثلون تلقائيا "جيش الوفد" كما وصفهم أحد الكتاب في عام ١٩٢١^(٣٨)، بل أن فرق القمصان الزرق شبه العسكرية نشطت بوجه خاص داخل الحرم الجامعي، وهي الفرق التي تشكلت أواخر عام ١٩٣٥ لمواجهة فرق "القمصان الخضراء" التابعة لحزب أحمد حسين "مصر الفتاة". وكانت هذه الفرق (على غرار مليشيات بيير الجميل، "الكتائب" في لبنان حاليا) تتشبه بالمنظمات الفاشية في أوروبا، ولكن بأيديولوجيا محلية ذات جذور اجتماعية. وضمت "القمصان الزرق" وحدتين

متنافستين تحت قيادة زهير صبري، ومحمد بلال الطالب بكلية الطب. وقمع مصطفى النحاس، رئيس الوزراء، فرق "القمصان الخضر"، حتى تغير الحال مع سقوط حكومته في ديسمبر ١٩٣٧. وبعد عدة أشهر قام محمد محمود فجأة بحل كل هذه الجماعات شبه العسكرية^(٢٩).

وكان أحمد حسين وفتحي رضوان يبلغان من العمر ٢٢ عاما فقط عندما أسسا مصر الفتاة عام ١٩٣٣ للكفاح من أجل تحقيق استقلال مصر. وكانا مشهورين بالفعل منذ دراستهما بكلية الحقوق، حين دعا أحمد حسين من خلال "مشروع القرش" إلى مقاطعة السلع البريطانية، وجند الطلاب لجمع الأموال من أجل إقامة صناعات يملكها المصريون. ثم اعتبرت "مصر الفتاة" موالية إلى حد كبير للملك - الصبى - الذي وصل إلى العرش في عام ١٩٣٦. وفي القصر، شجع علي ماهر الحزب باعتباره حليفا مناوئا للوفد. وانسحب فتحي رضوان من الحزب على أثر قمع "القمصان الخضر"، ثم أرسى أحمد حسين مبدأ عبادة الزعيم، كما سائر العصر عن طريق اتباع خط اشتراكي إسلامي.

وكانت الحركة الإسلامية تجمع قواها ضد علمانية العشرينيات. ومع أن اتحاد الشبان المسلمين - الذي تأسس عام ١٩٢٧ - يشابه نظيره المسيحي من حيث تقديم الأنشطة الرياضية والاجتماعية، والخدمات في إطار مناخ ديني؛ إلا أن حركة الإخوان المسلمين تميزت بمستقبل أكثر درامية. فقد أثرت أفكار رشيد رضا، وحركة السلفية الإصلاحية على حسن البناء، المدرس خريج دار العلوم، ومؤسس الحركة عام ١٩٢٨. فأمن البناء بأن تفسخ أحوال المسلمين، وهجوم الغرب المسيحي عليهم، بالإضافة إلى تقليد أساليب الحياة الغربية، كلها عوامل تسببت في انحطاط المجتمع الإسلامي، وأن القومية العلمانية مستورد أجنبى لم يسفر إلا عن انقسام الأمة وإضعافها. وطالب البناء بالعودة إلى تعاليم الشريعة وإلى الإسلام الحقيقي الأصيل؛ إسلام "محمد" والخلفاء الراشدين. ووجد الشباب القادم لتوه من الريف، والذي انتزع من جنوره هناك، في الإخوان زعيما "كاريزميا"، وتصورا عن الأمل والصلاح، بالإضافة إلى اتجاه ينتمى إليه. وبعد الحرب العالمية الثانية، سوف يصبح البناء والإخوان منافسا رئيسيا على السلطة في الحركة السياسية على الصعيدين الطلابي، والقومي معا^(٤٠).

وفي أكتوبر ١٩٣٧، اندلعت حركات الاحتجاج الطلابية، لتعكس التوترات على المستوى القومي. ووقع الصدام بين فرق "القمصان الزرق"،

و"القمصان الخضر". وكان لطفي السيد على خلاف مع طه حسين، فضغط النحاس رئيس الوزارة على لطفي حتى استقال، إلا أن الوزارة سقطت في أواخر العام. فإذا بالعداء للوفد والرغبة في العمل لصالح القصر هما السمة المشتركة لوزارة محمد محمود التي تلتها*. ومع عودة كل من إسماعيل صدقي، وعبد الفتاح يحيى، ومحمد حلمي عيسى، بل وحتى لطفي السيد إلى الوزارة، أزيح العميد طه حسين ليجد نفسه في موضع الدفاع. وفي يوليو ١٩٣٨ أقنع محمد حسين هيكل، وزير المعارف، لطفي السيد - وكان يتولى الوزارة حينذاك - بالعودة إلى منصب مدير الجامعة بعد أن وعده بوقف تدخل الحكومة في شئون الجامعة^(٤١).

ولم يستطع هيكل الوفاء بوعدده، فاستمرت الفوضى داخل الحرم الجامعي. وفي إحدى المرات اندفع الطلاب إلى مكتب طه ووجهوا له الاتهامات بسبب تأييده التعليم المختلط^(٤٢). وفي مايو ١٩٣٩ دفع محمد محمود رئيس الوزارة، طه حسين إلى الاستقالة من منصب العميد، ثم قبول منصب مشرف ثقافي في وزارة المعارف، مع الاستمرار في إلقاء المحاضرات بالجامعة^(٤٣).

وأعرب لطفي السيد مرة أخرى عن حلمه بجامعة بلا سياسة، في خطبة ألقاها قبيل استقالته في مايو ١٩٤١: "ان الجامعة عبارة عن مجموعة من الباحثين الذين كرسوا أنفسهم للعلم... مثلما يكرس الزهاد أنفسهم لعبادة الله"^(٤٤). ويوضح التشبيه الذي استخدمه الفجوة التي تفصل مدير الجامعة الملمس عن طلابه الجامعيين، ناهيك عن الجماهير، وعلماء الأزهر، والإسلاميين أمثال حسن البنا.

ثم ترك لطفي الجامعة ليصبح عضواً في مجلس الشيوخ، وتولى رئاسة مجمع اللغة العربية لبضع سنوات وفي عام ١٩٤٦ عاد للوزارة لعدة أشهر نائباً لرئيس الوزراء - إسماعيل صدقي - للشئون الخارجية. ورغم أن لطفي السيد لم يعمل بالتدريس أبداً، إلا أنه يذكرنا بصورة الأستاذ ماهر عبد الكريم، الشخصية التي ابتدعها نجيب محفوظ في "المريا". وأن كان يسبقها بجيل من الزمان :

* الوزارة الانتلافية - (المترجمة)

** نقلاً عن الانجليزية - (المترجمة)

"كان أستاذًا مساعدًا بالكلية عندما التحقت بها عام ١٩٣٠. وكان في منتصف الحلقة الرابعة، يتمتع بسمعة علمية وأخلاقية وإنسانية كأنها عبير المسك - ولم أعرف أستاذًا فتن طلبته بسجايه الروحية وسماحة وجهه مثله. هو سليل أسرة عريقة بثرائها... والحق أنه لم يعلن عن ميل سياسي قط، ولم يقع في رنيلة التعصب أبداً، ولم ينطق في حديث عن هوى أو تحيز أو حقد، ووهب نفسه للعلم والخير... وكان قصره القديم بالمنيرة ملتقى أهل العلم والأدب والفكر، وبه متسع دائماً لطلبه فيقدمهم إلى الكبار ويعاملهم معاملة الأنداد. وما أكثر الذين عرفتهم في صالونه من رجال الفكر. وكان التيار الجارف في أحاديث الصالون ثقافياً بالمعنى العام ولم تكن السياسة تخالطه إلا في ظروف نادرة... أما سالم جبر، فكان يحبه ويعجب به ولكنه يرى أنه من طبقة النبلاء، لم يعرف الفقر. ويرى الشعب من فوق، وله رؤيته الخاصة وهي رغم جاذبيتها ونقائها غريبة عنا كأنها لغة كوكب آخر" (٤٥).

وفي ١٩٢٤، خسرت جامعة فؤاد الأول خدمات طه حسين أيضاً؛ عندما عاد الوفد إلى الحكم - أثر انقلاب بريطاني ضد الملك للأسف - ورغب في الاستفادة الكاملة من ملكاته؛ فعينه أحمد الهلالي - وزير المعارف في حكومة النحاس، مستشاراً له. وفي أكتوبر عينه مديراً للجامعة الجديدة في الإسكندرية (٤٦).

الطريق الأكاديمي إلى النخبة السياسية :

فتح سلك الأكاديمية الطريق إلى مقاعد الوزارة، مما زاد من إقبال الأساتذة على الانخراط في العمل السياسي. ففي القرن التاسع عشر كانت الخدمة في الجيش، والجهاز الحكومي، أو الحاشية الملكية تتيح الحنكة والاتصالات الشخصية للدخول ضمن النخبة السياسية العليا (٤٧). وقبل عام ١٩٠٠، لم ينضم إلى الطبقة الحاكمة التركية - الشركسية، والأرمنية أحياناً في الوزارة، سوى اثنان من المصريين وقبطي واحد. ومع ذلك طمس التزاوج المتبادل الفارق بين العنصرين، المصري والتركي - الشركسي، وفي العشرينيات دخل المصريون من أهل البلاد إلى البرلمان والوزارة (٤٨). وبحلول عام ١٩٠٠ كان قد دخل الوزارة اثنان أو ثلاثة من حاملي شهادة الحقوق، وسرعان ما حل التعليم العالي الرسمي محل الخبرة، شرطاً لمنصب الوزارة. وفي حكومة بطرس غالي ١٩٠٨ كان خمسة من

بين الأعضاء الستة يحملون درجات جامعية، أربعة منهم في الحقوق. ويعتبر عدلي يكن وعدد قليل من كبار السن الذين شغلوا مناصب وزارية في العشرينيات، آخر الوزراء - تقريبا - الذين لم يحصلوا على تعليم عال رسمي.

وتشكلت الأغلبية العظمى من الوزراء فيما بين ١٩٠٨ - ١٩٢٥ من خريجي الحقوق؛ فربما تولى مهندس وزارة الأشغال العامة، وطبيب وزارة الصحة، ولواء الحربية، وأزهري الأوقاف؛ إلا أن المحامين اعتبروا نوى قدرات شاملة تصلح لتولي أية وزارة. وباستثناء ضباط الجيش، تلقى جميع الوزراء تقريبا تعليمهم بالجامعة والمصرية أو بإحدى المدارس العليا التي انضمت إليها بعد ذلك.

ومن بين وزراء العشرينيات، يعتبر أحمد ماهر الأكاديمي المحترف الوحيد؛ فعند دخوله الوزارة كان يحمل درجتى دكتوراه من فرنسا في القانون والاقتصاد السياسي، كما عمل بالتدريس لمدة أحد عشر عاما في مدرسة التجارة العليا. وأهله قدراته التنظيمية لنيل إعجاب سعد زغلول بعد عام ١٩١٩، ثم خدم في وزارة ١٩٢٤ الوفدية، ولم يعد بعدها إلى السلك الأكاديمي أبدا. أما مكرم عبيد، فعمل بالتدريس في مدرسة الحقوق، قبل أن يفصل منها بسبب نشاطه الوفدي. كما عمل علي ماهر شقيق أحمد ماهر ناظرا لمدرسة الحقوق لفترة قصيرة. وكذلك انتقل لطفي السيد رئيس الجامعة منها إلى الوزارة. إلا أن أحدا من هؤلاء الوزراء - في العشرينيات - لم يحقق لنفسه مجدا فعليا في قاعات الدرس، وإنما كان الناس ينظرون إليهم باعتبارهم ساسة - محامين، وليسوا أساتذة^(٤٩).

ومن بين الوزراء الجدد في الثلاثينيات، تميز بهي الدين بركات وأحمد نجيب الهلالي، ومحمد حسين هيكل، بالخبرة الأكاديمية. ولكن هيكل اعتبر محاميا، وصحفيا، وسياسيا أكثر منه أستاذا جامعيا. أما قدرات بركات والهلالي فأقل وضوحا. وتولى مصطفى عبد الرازق تدريس الفلسفة بالجامعة المصرية لعدة سنوات، إلا أنه سوف ينهي حياته شيخا للأزهر؛ وربما كانت صفته كعالم إصلاحى في نفس قوة إحساسه بأنه أستاذ جامعي^(٥٠). وفي السنوات العشر الأخيرة قبل قيام الثورة، تزايد دخول مديري الجامعات، وعمداء الكليات وأساتذتها إلى الوزارة. ومن بين هؤلاء طه حسين، وعلي إبراهيم، ومحمد كامل مرسى، وحامد زكي، وزكي عبد المتعال، وإبراهيم شوقي، وعبد الرازق السنهوري. ولا حظ الناس هذه الظاهرة أيضا، فعرف

أربعة أعضاء في وزارة النحاس الأخيرة باسم "الأساتذة" ^(٥١). ومع أن معظمهم اختير بسبب خبرته ليتولى الوزارة الملائمة لتخصصه، إلا أنهم لم يكونوا تكنوقراطيين بالمعنى الضيق للفظ. فعلى سبيل المثال كانت آفاق طه حسين وعلي إبراهيم والسهنوري أوسع كثيرا من آفاق التكنوقراط الأكاديميين في سنوات حكم عبد الناصر، والسادات.

الجامعة تتخبط : السياسة في الأربعينيات :

كان رؤساء الجامعة الذين خلفوا لطفي السيد يتمتعون بالاحترام في مجالات تخصصهم، كما كانوا - بعكس لطفي - أكاديميين محترفين ارتقوا من خلال السلك الجامعي؛ ولكنه عصر التمسك بالقديم، لا عصر التجديد. وباستثناء علي إبراهيم، قصرت فترات بقائهم في المنصب، فلم يترك أي منهم بصمة ثابتة على الجامعة، فضلا عن أنهم جاعوا في فترة من الفترات العvisية، انعكست فيها مشكلات المجتمع بوجه عام على الجامعة، كما هو الحال دائما.

ومع فرض القيود على الواردات أثناء الحرب، انطلقت الصناعات المحلية، ومعظمها - وقتذاك - مملوك للأجانب. وحصلت النقابات العمالية على الشرعية في نهاية المطاف، وأصبحت مطالب عمال الصناعة أكثر جراءة. كما ساعد تدفق القوات العسكرية إلى البلاد على استقرار ميزان المدفوعات، وحققت مصر تقدما في تسديد ديونها العامة. وانتعشت أحوال المضاربين والمستثمرين بكافة أنواعهم. ومثلما كان الحال أثناء الحرب الأولى، ارتفعت نسبة التضخم على حساب أصحاب الدخول الثابتة، فزادت نفقات المعيشة في الفترة من ١٩٣٩ وحتى ١٩٤٥ بواقع ثلاثة أمثال، ثم انخفضت بعد ذلك حتى عام ١٩٥١ ^(٥٢).

وكان لكبار ملاك الأراضي نفوذ في الأحزاب السياسية الكبرى، بما فيها الوفد؛ ومن ثم لم تسنح الفرصة أبدا لتطبيق الإصلاح الزراعي وواصل الفلاحون في الريف المكتظ بالسكان، نزوحهم من الأرض. وقضى النمو السكاني على كثير من المكاسب الاقتصادية؛ حتى أن الدخل القومي بالنسبة للفرد عام ١٩٥٢ لم يكن يزيد كثيرا عنه في عام ١٩١٤ ^(٥٣). وتراجع التدفق الكبير لجماهير الأقاليم على القاهرة أثناء فترة الكساد، إلا أنه استأنف سيرته الأولى أثناء الحرب. ففي عام ١٩٤٧، كان عدد سكان العاصمة مليونين، أو

ما يساوى ١١% من سكان البلاد؛ لأن القاهرة باتت تنمو بمعدل يساوى ضعف معدل النمو السكاني في مصر كلها^(٥٤). وكانت هناك بعض الدلائل المبشرة؛ حيث أنشأت مصر وزارة للشئون الاجتماعية (١٩٣٩) ووصل الإنفاق على الصحة والتعليم إلى معدلات ارتفاع جديدة في ٤٧ - ١٩٤٨ بلغت ٦,١% و ١٢,٦% من الموزانة لكل منهما على التوالي^(٥٥). وقدمت "الجامعة الشعبية" محاضرات للمتعلمين فوق سن ١٦ سنة مقابل رسوم قليلة، لا تؤهل للحصول على درجة جامعية، ولكن بلغ من نجاحها أنها فتحت فروعاً إقليمية لها^(٥٦).

وفي فبراير ١٩٤٢، ومع دخول الاحتلال "المؤقت" عقده السابع، أجبرت القوات البريطانية الملك فاروق على تعيين وزارة وفدية؛ فوضع إزال الملك نهاية لما تمثله معاهدة ١٩٣٦ من نفع مشروط بالنسبة لمعظم المصريين. فقد لعب سير مايلز لامبسون، ضخمة الجثة (طوله ستة أقدام وخمس بوصات، ووزنه ٢٥٠ رطلا) دور البلطجي إزاء فاروق، مثلما فعل كرومر مع عباس من قبل (وكانت ميول لامبسون محافظة، ومن ثم عزلته وزارة العمال البريطانية عام ١٩٤٦ في محاولة للترضية).

ولعله كان من الممكن أن يكتب أيا من : كرومر أو كتشنر أولويد نفس التقييم الذي كتبه لورد "كيلرن" (لامبسون) عند رحيله عن مصر : "المصريون - في الأساس - شعب طبع وودود، ولكنهم يشبهون الأطفال في نواح عديدة. فهم يحتاجون إلى يد قوية توجههم، على أن تكون عادلة ومعاونة أساساً. فالشعار الذي تحتاجه مصر هو : الحزم والعدل"^(٥٨).

وبحثت حكومة العمال إبرام معاهدة مؤقتة مع صديقي (رئيس الوزراء) ولطفي (وزير الخارجية) ولكن صديقي في الواحدة والسبعين من عمره، ولطفي في الخامسة والسبعين كانا هدفين بعيدى المنال. وكذلك كان زعيم المعارضة النحاس قد تجاوز سني شبابه وأصبح في السابعة والستين. وعلى الرغم من احتفاظ الوفد ببقايا تفويض الأمة له، إلا أن تعاونهم مع البريطانيين أثناء الحرب أفقده قدرًا من شعبيته؛ فاذا بالساسة الشباب الذين كانوا متألقين في ١٩١٩ يصبحون الآن رجعيين ومناورين محنكين في الخمسينيات من عمرهم. وكان النقراشي، ومكرم عبيد، والراحل أحمد ماهر تحولوا من الوفد إلى أحزاب مشاكسة منشقة، أما هيكل فلم يكن يعنيه سوى حماية مصالح الطبقة العليا وأن يصبح رئيساً للوزراء. كما عجزت الوزارات الائتلافية من "أحزاب الأقلية" عن السيطرة على الشارع، ولم يكن رئيساً

الوزراء السعديان أحمد ماهر والنقراشي سوى أبرز ضحايا الاغتيال السياسي.

أما المفكرون أمثال طه حسين، وعلي عبد الرازق، وإبراهيم عبد القادر المازني، والعقاد، فهم ينتمون إلى نفس جيل ماهر والنقراشي وعبيد وهيك. ورغم أن توفيق الحكيم يصغرهم قليلاً، إلا أنه غالباً ما يرتبط بهم أيضاً. وكان هذا الجيل من الأدباء أنتج بالفعل أفضل أعماله. وتوضح إحدى الدراسات العلمية أنهم خانوا الليبرالية العلمانية التي اعتنقوها في شبابهم، بعودتهم إلى الكتابة في الموضوعات الإسلامية، بينما ترى دراسة أخرى أنهم التحفوا بعباءة الإسلام لمجرد التغطية على استمرار علمانيتهم^(٥٩). ورغم أن طه حسين تجنب الارتباط بملاك الأراضي مثل هيك، إلا أن ليبراليته العلمانية كانت من طراز قديم، بالإضافة إلى ظهور بدائل من الراديكالية الاشتراكية أو الإسلامية.

وعلى النقيض من هذا الجيل من الأدباء ذي المناهل التعليمية المتعددة (أو جيل ١٩١٩، إذا ركزنا على الصعيد السياسي)، يطلق لويس عوض على كتاب جيله "جيل الجامعة"؛ فمعظمهم درس بالجامعة المصرية في الثلاثينيات.

(ولد عوض عام ١٩١٥ لعائلة قبطية ونشأ في المنيا، وأتاح له والده - وهو موظف درس بمدارس الإرساليات التبشيرية - مدخلاً جيداً لدراسة الإنجليزية، فكان يقرأ له بصوت عالٍ مما تحتويه مكتبته الخاصة التي تضم "حياة نلسون" لساذي، وكتابات ثورو، وإمرسون، كما قرأ عليه الترجمات الإنجليزية لماركوس أويليوس، وأبيقطيتس وباسكال ومونتنييه. واتسعت آفاق عوض بفضل مدرسيه البريطانيين في المدرسة الثانوية، ثم أساتذة اللغتين الإنجليزية والفرنسية بالجامعة المصرية. ثم ساعده أحد الأساتذة في القاهرة على الالتحاق بكلية الملوك "كامبردج" حيث واصل دراساته وانشغل بالمناظرات الدائرة في ذلك الوقت بين الفاشية والنازية، وبين الديمقراطية والماركسية، وحول الحرب الأهلية الإسبانية والحرب العالمية الثانية. ثم ارتبط باليسار الديمقراطي الاشتراكي. وأثارت قصائده الطليعية في ديوانه

" روبرت ساذي" (١٧٧٤-١٨٤٣) شاعر إنجليزي ارتبط بالحركة الرومانتيكية في الشعر، و"ثورو" (١٨١٧-١٨٦٢) كاتب وشاعر أمريكي عرف بمقاومته الشديدة للاسترقاق والاستعمار. و"إمرسون" (١٨٠٣-١٨٨٢) فيلسوف وشاعر أمريكي يعرف مذهبه باسم مذهب التعالي. و"أبيقطيتس" فيلسوف يوناني، و"باسكال" عالم رياضيات وفيلسوف فرنسي و"مونتنييه" أديب ومفكر فرنسي - (المترجمة)

"بلوتولاند" ضجة في القاهرة بعد الحرب. وعمل عوض بالتدريس في جامعتي الاسكندرية والقاهرة قبل أن يحصل على الدكتوراه من جامعة برستون في أوائل الخمسينيات^(٦٠).

كما ينتمي إلى نفس الجيل الروائي نجيب محفوظ، ومحمد مندور الذي يكبره قليلا، والذي حالت آراؤه دون تعيينه بالجامعة وكثيرا ما أوصلته إلى السجن. وكذلك إبراهيم عبده أستاذ الصحافة بجامعة القاهرة، الذي هاجم بعنف نظام عبد الناصر، ففصل من وظيفته. ويصغر هؤلاء، قليلا، الكتاب من خريجي الجامعة أمثال عبد الرحمن الشرقاوي المشهور برواياته الاشتراكية "الارض"، ويوسف أريس الذي كتب أيضا عن أحوال الفقراء.. كما ينتمي أيضا "العالم" الأزهرى التقمي خالد محمد خالد إلى نفس الجيل.

وأسهب راعول ماكاريوس في شرح احباطات "جيل ١٩٤٦"، الذي كان قد بلغ سن الرشد لتوه بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، ويكاد وصفه للإحباطات - الاقتصادية، والاجتماعية، والأكاديمية والجنسية، والسياسية - أن ينطبق على الوضع الحالي دون تغيير يذكر^(٦١). وانشغل رؤساء الجامعات، وعمداء الكليات، وأساتذتها تماما بمجريات الحياة الجامعية اليومية.

وعند وفاة مدير الجامعة علي إبراهيم عام ١٩٤٧، كان قد تعرض لما يكفيه من الصعوبات : فقد التحق بمدرسة الطب عام ١٨٩٧، في نفس الوقت الذي أحكم فيه البريطانيون قبضتهم عليها؛ وبعد تخرجه، عمل في مصلحة الطب الحكومية، وحقق لنفسه خبرة إضافية بالعمل في عيادة خاصة. وبعد أن نجا من اتهام رسمي بريطاني له بالتقصير في العمل، استمر في طريقه إلى أن وصل إلى قمة مهنته. وكان دوره مؤثرا في تأسيس نقابة الأطباء المصرية التي شغل منصب نقيبها منذ ١٩٢٦ وحتى وفاته؛ ونظرا لأنه عمل بكلية الطب أستاذا وعميدا ثم نائبا لمدير الجامعة في الثلاثينيات، فقد عرف كل صغيرة وكبيرة عن الجامعة، كما أنه تولى وزارة الصحة عام ١٩٤٠. وعندما استقال لطفي السيد من إدارة الجامعة كان علي إبراهيم هو الاختيار الطبيعي للمنصب، فحل الأكاديمي المحترف محل المتقف النبيل. ولكنه - أيضا - كان يشعر بالتوافق مع النظام القديم؛ فهو متزوج من أسرة تركية، وينتمي إلى الأحرار الدستوريين، كما أنه حاصل على الباشوية بطبيعة الأمر. وكان من الصعب غالبا أن تجد مدير الجامعة النشط هذا في مكتبه مع ما لديه من اهتمامات عديدة.

وأدى حقد طبيب بريطاني حانق كان قد استقال من كلية الطب، إلى تنغيص فترة إدارة علي إبراهيم للجامعة ؛ فقد ألقى كتاب " سيسيل ألبرت " بمسؤولية كافة نقائص مهنة الطب في مصر - حقيقة كانت أم متخيلة - على عاتق علي إبراهيم. وكان ألبرت غاضبا على مصر، يعتقد أن كرومر كان هبة من الله إلى المصريين، ويهوى الاقتباس من أقوال "كيبلينج" * في هذا المجال. وكان ألبرت سلك الطريق الخطأ في كلية الطب عندما حذر علي إبراهيم من أن ابنه الأصغر نادرا ما يحضر دروس العيادة، ومن المحتمل أن يرسب في امتحان بكالوريوس الطب ولكن : "لو أنني كنت أعلم أشياء أكثر عن سياسة الطب في مصر، لما حلمت أبدا بأن أقول أن ابن عميد الطب قد يرسب في الامتحان النهائي، سواء كان يعرف شيئا عن المادة، ام لا" (٦٣).

ولم يستطع علي إبراهيم مدير الجامعة، ولا عمداؤها أو أساتذتها أن يفعلوا شيئا حيال مظاهرات الطلاب عام ١٩٤٦ ضد البريطانيين. وتصور رواية "ب.ه- نيوبى" "نزهة في سقارة" الفوضى التي وقعت أثناء محاضرة في جامعة فؤاد الأول عن شكسبير : "نون إنذار، فتح الباب بعنف، واندفعت منه جماعة من الطلاب الثائرين. ولم يكن 'بيرى' قد شاهد أحدا منهم قبل ذلك، فهم من طلاب كلية أخرى، ربما كلية الحقوق التي تبدأ منها معظم المتاعب. تجاهل الطلاب القادمون بيرى. ووقف شاب في بذلة جيدة التفصيل على الطراز الإنجليزي إلى جانب بيرى على المنصة يخطب في القاعة باللغة العربية... فيهتز زر طربوشه الأسود، ثم ضرب بقبضته على مكتب بيرى، وكان ذلك أقصى ما يستطيعه ليجعل صوته مسموعا وسط هتافات رفاقه الذين اندفعوا في ممرات المدرج يحضون الطلاب على الخروج والانضمام إلى المظاهرة. ومال أحد الزائرين على أذن بيرى قائلا : سيدى، نحن نطالب بوحدة وادى النيل، والانسحاب الفوري لكل القوات البريطانية. فنظر إليه في دهشة ؛ كان الفتى قد تحدث بلطف وهو يقف الان مترشا وابتسامة ثقة تعلو وجهه، ثم واصل حديثه : إن دماء زملائنا القتلى تصرخ من أجل الحرية. فوجه بيرى حديثة لكل من في القاعة : اذا لم تغادر المكان انت وزملاؤك، فسوف أسجل أسماءكم جميعا وأبلغها للعميد. كيف تجرؤون على اقتحام محاضرتى على هذا النحو؟. إلا أنه كان من المستحيل أن

* رديارد كيبلينج - شاعر روائى انجليزى كان يمدد الاستعمار البريطانى توفى ١٩٣٦ - (الترجمة)

يتحدث بصوت يعلو هذه الجلبة. وشعر أنه يبدو كالأحمق، فهو يعرف أن وجهه أصبح يماثل في احمراره مغيب الشمس - فدائما ما يتلون وجهة عندما يرتبك تماما - ثم صاح "بلطجية!"، فإذا بطالب سعودي يسجل الكلمة* في كراسة محاضراته" (٦٤).

وكان بيرى يعرف مثله مثل أي شخص، أن الإبلاغ عن الطلاب لن يفيد. ففي الأحداث الواقعية، شكت السفارة البريطانية إلى حكومة صدقي من أن العميد لم يفعل شيئا عندما عطلت المظاهرات المحاضرات في قسم الأدب الإنجليزي، واحتج العميد بأن يديه مغلولتان، ولجأ إلى الوزير الذي كان علاجه الوحيد هو القمع.

ورأى أحد الأساتذة البريطانيين في الثلاثينيات أن هناك ثلاثة عوامل جعلت طلاب الآداب أسلس قيادا من الناحية السياسية عن أقرانهم في الكليات الأخرى؛ فنسبة كبيرة منهم حاصلة على منح دراسية، وهي معرضة بوجه خاص للانتقام منها بسحب المنحة. كما أن الطلاب يكونون احتراماً كبيراً للعميد طه حسين. وكان للأساتذة البريطانيين (خاصة في القسم الإنجليزي) تأثير على طلبتهم خارج قاعة المحاضرات (٦٦). وكان طلاب الآداب في رواية "سنة دراسية" التي كتبها د.ج انرايت - التي تصور جامعة فاروق الأول (الإسكندرية) حوالي عام ١٩٥٠ - أقل نشاطاً أيضاً: "أن المكانة المتدنية لكلية الآداب، من المحتمل جداً أن تكون مرتبطة بما عرف عنها من جبن في مجال الإضرابات والمظاهرات، على الرغم بالطبع من أنه يمكن إرجاع اعتدال طلابها النسبي إلى الأثر الحضاري لما تقدمه من دراسات. وعلى أية حال، كان بقية طلاب الجامعة ينظرون إلى زملائهم في الآداب بقدر كبير من سوء الظن مع قليل من الازدراء. فعندما يقوم طلاب العلوم باحراق قاعة المحاضرات، فإن طلاب الآداب على أقصى تقدير قد يحطمون نافذة. وحين يلقي طلاب الطب بأساتذتهم إلى الشارع ويحطمون رؤوس رجال الشرطة؛ ربما يكون طلاب الآداب منهمكين في الثرثرة حول فجاجين القهوة في مطعم الكلية بينما يستقل أساتذتهم الممتنون عربات الترام عائدين إلى منازلهم، أو يقومون بجولة في شوارع المدينة للفرجة على المكتبات. حتى أنه كانت هناك مناسبات تصبح فيها كلية الآداب غائبة عن العمل في الوقت الذي يحترق فيه طلاب الكليات - الأكثر احتراماً - في أتون حقيقي.

*كان بيرى يحاضر بالإنجليزية، فسجل الطالب اللفظة الإنجليزية "HOOLIGANS" (المترجمة).

ومن ثم، أصبح مألوفاً أن ترسل الكليات المسئولة عن الإضراب مندوبين عنها لتقوية صلابة كلية الآداب، ودفعها للوفاء بالتزاماتها، والتأكد من أنها تسير وفق الخط المرسوم. وربما شعرت كلية الآداب بما تتعرض له من مهانة، إلا أنها لم تكن تفكر في المقاومة؛ فهي لم تكن خائنة حقيقة، وسرعان ما أصبحت ضحية للخطب البلاغية حول مفهوم الرجولة التي تلقىها هذه الوفود، ومعظمها من كلية الحقوق. وكانت كلية الحقوق معروفة باختلاق أسباب للإضراب، بالإضافة إلى وجود خطباء مفوهين لإذاعة هذه الأسباب وجعلها مقنعة. تماماً كما تخصصت كلية العلوم في تصنيع القنابل من أجل المناسبات ذات الأهمية الخطيرة. ومع أنه لم تكن هناك أية مناسبات ذات خطورة، إلا أنه كان مطلوباً إحداث الفوضى في الجامعة ككل في فترات التجمهر، الذي كان يبدو رمزياً بالمقارنة بما يحدث في شقيقتها الكبرى بالقاهرة. وربما ساعدت مياه البحر المتوسط ومربوط التي تحيط بالمدينة على فتور همتها : فقد زحف مناخ الشواطئ الرطب على ميادين المعارك السياسية والفكرية والقي ضباباً على القضايا المثارة فيها. ثم أن القاهرة - أيضاً - كانت مقر الحكم "أو سوء الحكم" كما أن بها العديد من المباني الرسمية الضخمة، ذات النوافذ الواسعة المستفزة، مثل وزارة المعارف^(٦٧).

وهناك ثلاثة ملامح تحدد الحركة السياسية الطلابية في مرحلة ما بعد الحرب : أولها أن الإخوان المسلمين برهنوا على قوتهم المؤثرة داخل وخارج الحرم الجامعي، في تحد خطير للقيادات ذات الميول العلمانية في الجامعة والأمة. والثاني : أن فرقا شيوعية صغيرة بدأ صوتها يسمع في الجامعة وفي كل مكان آخر. أما الملمح الثالث : فهو أن الطلاب بدأوا يتصلون بالنقابات العمالية، كما حدث عام ١٩٤٦ في اللجنة الوطنية العليا للعمال والطلبة التي كان لها أهميتها، وإن لم تعمر طويلاً^(٦٨).

ثم اشتد غليان الغضب ضد البريطانيين أثر حادثة كوبرى عباس التي وقعت يوم ٩ فبراير ١٩٤٦. ويصف الميجور "سانسوم" مسئول الأمن البريطاني الحادث الذي ارتكبه : "أكثر من قابلته من قادة البوليس فظاظة وقسوة على الإطلاق"، أثناء محاولته فض أضخم مظاهرة حدثت منذ الحرب، فيقول : "لم يحاول سليم زكى سد مدخل الكوبرى. وواجه المتظاهرين في جراءة تامة وأمرهم بالبقاء كما هم عند ضفة النيل التي يقفون عليها ؛ فتوقف قادتهم للحظة متأثرين بما له من قوة شخصية هائلة. إلا أنه لم يكن لهم سيطرة على من خلفهم، الذين نحوهم جانباً مع اندفاع الجسم الرئيسي

للمظاهرة الذي تدفق على الكوبرى منطلقا إلى الأمام. فصاح سليم زكى منذرا إياهم، فلم يزددهم ذلك الا سخرية منه واستهزاء به. فتساءلت : ما العمل الآن؟ على الرغم من معرفتي بالرد، كما كنت أعرف أنه الرد الوحيد الممكن الذي يجب تنفيذه. أما الأمر الذي لم يعجبني، والذي أشمأزت نفسي منه، فهو أن قائد البوليس متحجر القلب انتظر إلى أن أصبح حوالى خمسمائة شخص - معظمهم من الطلاب - يركضون فوق الكوبرى ثم أعطى الأمر بفتحه... إن الحادث باعتباره ممارسة لفض جمهرة ضخمة ذات خطورة بحفنة قليلة من رجال البوليس يعد عملا ذكيا، ولعل سليم زكى محق في ادعائه أن عدد الضحايا ربما كان سيزيد كثيرا، إذا ترك الغوغاء يعبرون الكوبرى. إلا اننى سررت بأننى لم أكن الشخص الذي تعين عليه إصدار أمر فتح الكوبرى... وقد تساءلت إلى متى سوف يستمر على قيد الحياة...." (٦٩).

وانهارت حكومة النقراشي تحت وقع الصدمة، ولكن اختيار اسماعيل صدقي لخلافته لم يؤد سوى إلى زيادة الأمور سوءا. وراقب لطفي السيد - وزير الخارجية - في غضب، طلابه السابقين وهم يتحدثون الوزارة. وفي يوم ٢١ فبراير، لم يفتح أحد كوبرى عباس، فاحتشد عشرات الآلاف من المتظاهرين في ميدان الإسماعيلية، حيث أطلقت القوات البريطانية النار فأصابت العشرات. ثم هدأت التوترات لفترة، اثر استدعاء اللورد كليرن، وقرار بريطانيا بسحب قواتها من القاهرة والدلتا إلى منطقة القناة واستئناف المفاوضات المصرية - الإنجليزية، بالإضافة إلى اقتراب امتحانات الربيع. ولكن العجلة استأنفت دورانها في الخريف، بعد أن عطلت المظاهرات مشروع اتفاقية صدقي، واضطرته إلى الاستقالة. وكان لطفي وعدد من اعضاء الوزارة قد تركوها قبل شهر من سقوطها (٧٠).

ولم تفلح أي من وزارتي النقراشي الائتلافيتين في تحقيق تقدم خلال العامين السابقين على اغتياله في ديسمبر ١٩٤٨؛ ففي عام ١٩٤٧ منى النقراشي ومصر بهزائم موجهة في الأمم المتحدة، أولا في مسألة استقلال مصر، ثم في قضية تقسيم فلسطين.

وفي ظل هذه الظروف لم يستطع مدراء الجامعة الثلاثة الذين تولوا بعد علي ابراهيم لفترات قصيرة أن يحققوا شيئا يذكر (٧١)؛ فقد استبعد العميد مشرفة من الترشيح للمنصب نظرا لعدم رضا القصر عنه، أما ابراهيم شوقي، طبيب الاطفال وعميد كلية الطب، فعمل مديرا للجامعة لمدة عامين (١٩٤٧ - ١٩٤٩) قبل ان يصبح وزيرا للصحة، فوسع نطاق منح الإعانات

الدراسية، وأرسل عددا أكبر من الطلاب إلى الخارج لنيل الدراسات العليا، وشجع نظام المنح البحثية للأساتذة وتبادل الخبرات مع الجامعات الغربية.

وفي أواخر ١٩٤٨، كان شوقي مديرا للجامعة، عندما تصاعد عنف الشوارع، بعد أن غدت صدمة الهزيمة في فلسطين الشعور بالإحباط، خاصة بعدما أصبح بعض الطلاب مسلحين؛ فكان الإخوان المسلمون وغيرهم من الراديكاليين يقومون بجملة من أعمال التفجير والاعتيالات. ففي الرابع من ديسمبر قتل سليم زكي قائد البوليس في كلية الطب، ونكرت الأرقام الرسمية أن الجرحى بلغ عددهم ٥٦ من رجال الشرطة و٧٤ طالبا، علاوة على عدد أقل من الإصابات التي وقعت في الحرم الرئيسي بالجيزة. ونكر كريسويل أن الطلاب أجبروا العميد والسكرتير العام على مغادرة مكاتبتهم ثم نهبوا^(٧٢). ويلاحظ سانوم أنه "لم يذرف أحد دموعا من أجل سليم زكي إلا أن مصرعه أفرع الحكومة إلى حد أفقدها صوابها"^(٧٣). فأغلقت الجامعة وأقدمت على اتخاذ القرار المتهور بحظر جماعة الإخوان المسلمين وإلقاء القبض على زعمائها فيما عدا البناء، لماله من شعبية. وبدأ البناء يعمل بهمة لتهدئة الأمور، لأنه لم يعد له سيطرة على الجهاز السري للإخوان، ثم أقدم واحد من الإخوان على قتل النقراشي رئيس الوزراء فاغتال رجال البوليس البناء أوائل عام ١٩٤٩، ثم عادت مظاهر الهدوء السطحي إلى البلاد بفضل القمع العنيف في ظل حكومة إبراهيم عبد الهادي.

وتولى محمد كمال مرسى إدارة الجامعة أواخر عام ١٩٤٩، وكان قد سبق له التدريس في كلية الحقوق، وتولى عمادتها في فترة مبكرة (١٩٢٨ - ١٩٣٦) كما عمل بالمحاماة، وشغل عدة مناصب قانونية. ولأنه لم يكن من أصدقاء الوفد، فقد ترك العمادة عند عودته إلى الحكم عام ١٩٣٦، ثم خدم في وزارة صدقي عام ١٩٤٦. وفي مايو ١٩٥١، استقال من إدارة الجامعة بدعوى أن وزير المعارف الوفدي طه حسين لم ينصفه في نزاع مع الطلاب^(٧٤).

أما عبد الوهاب مورو، الجراح وعميد كلية الطب الذي كان له من العمر تسعة وستون عاما، فقد خلف مرسى في إدارة الجامعة، وظل في منصبه إلى أن طرد الضباط الأحرار الملك.

ولكن قبل أن نترك أحوال الجامعة في ظل النظام القديم، علينا أن نبحث قضية العلمانية والدين داخل الحرم الجامعي.

الهوامش

١ - Gamal Abdul Nasser, *Egypt's Liberation: The Philosophy of the Revolution* (Washington, Dc, 1956) pp. 49, 88-87.

[جمال عبد الناصر - فلسفة الثورة - صادر عن وزارة الإرشاد القومي - مصلحة الاستعلامات غير مؤرخ - ص - ص - ٥٣ ، ٧٠ (المترجمة)] .

٢ - حول فترة الثلاثينيات عموماً أنظر : عبد العظيم رمضان : تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٦ (القاهرة - غير مؤرخ) . و : تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩٣٨ إلى سنة ١٩٤٨ (القاهرة - بمقدمة ١٩٧٣) . و :

- Deeb, Marius. *Party Politics in Egypt : The Wafd and Its Rivals* 1919 - 1939 (London, 1979) .

و :

Terry, *The Wafd*; Afaf Marsot, *Egypt's Liberal Experiment*; Berque, *Egypt*;

و : الرافعي ، "في أعقاب .." الجزء الثاني والثالث و :

A.E Croucley, : *The Economic Development of Modern Egypt* (London, 1938).

٣ - عن الاحتفال ، أنظر : جريدة "البلاغ" ١ ، ٢ ، ٣ مارس ١٩٣٢ . و : صحيفة الجامعة المصرية "حفلة توزيع الدرجات العلمية للجامعة المصرية" ، (٢ يناير ١٩٣٣) ص - ص - ٨٣ - ٩١ (نسخة مصححة) .

٤ - زكي مبارك "خطبة وزير المعارف" ، جريدة البلاغ ٤ مارس ١٩٣٢ . الجامعة المصرية ، "حفلة توزيع الدرجات العلمية للجامعة المصرية" (كتيب) القاهرة - نص الخطاب في الصفحات ١ - ١٨ .

٥ - صحيفة "كوكب الشرق" - كما نقلته الإيجبشيان جازيت ٥ مارس ١٩٣٢ .

٦ - الأيام الجزء الثالث ص - ١٦٥ .

٧ - المرجع السابق ص - ١٦٣ .

٨ - عبد الرحمن بدوي "إلى طه حسين في ميلاده السبعين" . دراسات مهداة من أصدقائه وتلامنته - (القاهرة ١٩٦٢) ص - ١٥ . كما ورد في :

Cachia, Taha ... pp. 48 - 49.

- Philip, Zaidan, pp. 44.

-٩

١٠ - الأيام الجزء الثالث ص - ١٤٠ .

- ١١- حول مشكلة "الشعر في العصر الجاهلي"، انظر:
- Cachia, Taha, pp. 59 - 62.
- ١٢- جريدة "البلاغ" ٤ مارس ١٩٣٢ ص- ٤ . وانظر أيضا :
Cachia, Taha, pp. 56 - 64.
- ١٣- الرواية التالية للأحداث عن جريدة البلاغ ٤ - ٢٤ مارس ١٩٣٢ . وفريد زعلوك
- مقابلة - ٩ مارس ١٩٧٨ . كما غطت القصة كل من صحيفتي الأهرام والسياسة
وغيرهما - قارن :
Cachia, Taha, pp. 56 - 640
- ١٤- تولى صدقي الوزارة في ١٩ يونيو ١٩٣٠ ، وأصبح لطفي مديرا للجامعة في أول
أغسطس .
- ١٥- رواية لطفي السيد للأحداث ، من كتابه "قصة حياتي" ص- ص- ١٩٦ - ١٩٨ .
- ١٦- البلاغ ، ١٠ مارس ١٩٣٢ ص- ٤ .
- ١٧- "Chamber of Deputies," Egyptian Gazette, March 30, 1932.
- ١٨- Loi No. 21 de 1933 relative aux conditions de Service et a la discipline du Corps enseignement de L'universite egyptienne (Cairo, 1933).
(اقتباسا من : Journal Officiel) . أنظر التحليل في :
FO 371/17023/ J 2388, Loraine to Simon, February 3, 1933.
- ١٩- طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر .
- ٢٠-
- FO 371/17024/ J 2729, Lorain to Simon, November 11, 1933.
- ٢١-
- Murphy, American University, p. 83.
- ٢٢- ورد تعيين طه حسين مديرا لتحرير كوكب الشرق في :
- J.H.G. Jansen, "Ibrahim Abduh (b. 1913). His Autobiographies and His Polemical Writings," Bibliotheca Orientalis 37 (1980): 129.
- بينما لا يحوى كتاب جونز وحمدي سكوت "أعلام الأدب" الجزء الأول: طه حسين، أي
مقالات له في كوكب الشرق .
- ٢٣- FO 371/17023/J 653, Campbell to Simon, March 4, 1933.
- ٢٤- زعلوك . مقابلة - ٩ مارس ١٩٧٨ .
- ٢٥- هذا الاستشهاد والذي يليه من :

- FO 371/18006/ J 3069, *Peterson to Simon*, December 3, 1934.

٢٦- عن تغيير الأزهر انظر : عبد المطلب "دور .." ص- ص- ٣٤٣ - ٣٤٦ .

-٢٧- FO 371/19088/ J 3948, *Kelly to Hoare*, September 20, 1935.

وفي عام ١٩٥٠ كان تنظيم الجامعة مازال سلطوبيا ، فالوزير هو الذي يعين عميد الكلية من بين خمسة من كبار اساتذة الكرسي يزكيهم مدير الجامعة . أما نائب مدير الجامعة - وهو مسئول منتخب وفقا لقانون عام ١٩٢٧ - فكان معيناً من الوزير "تقويم جامعة فؤاد الأول لعام ١٩٥٠" ، ص- ص- ٨ ، ١٧ .

٢٨- عن مظاهرات ١٩٣٥ ، انظر محمد ضياء الدين الرئيس : "الدستور ، الاستقلال والثورة الوطنية ١٩٣٥" (جزآن - القاهرة ١٩٧٥) ، وعبد المطلب "دور ... ص- ص- ٣٥٩ - ٤٣٨ . انظر أيضا أحمد عبد الله : "الطلبة والسياسة" . ص- ص- ٥٥ - ٥٨ .

٢٩- استنتاجا من تواريخ المناصب في "دار الكتب القومية ، ١٩٧٩ ، وكرم : "النظارات والوزارات المصرية" .

- Kerr, in Coleman, *Education*, p. 184.

-٣٠-

-٣١-

- A. el-Emary, "La Crise du chômage en Egypt et ailleurs, ses causes et ses remedes," *L'Egypte Contemporaine*, 27 No. 164 (may 1936).

و : عبد الحميد فهمي مطر : التعليم والمتعلمون في مصر (الاسكندرية ١٩٣٩) و : Wendell Cleland, *The Population Problem in Egypt* (Lancadter, Pennsylvania, 1936).

- Eeeb, *Party Politics*, P. 318.

-٣٢-

وحول بقية هذا الفصل أنظر : ص- ص- ٣٢٠ - ٣٢٢ . انظر أيضا أحمد عبد الله "الطلبة والسياسة ... ص- ص- ٤٧ - ٥٠ .

٣٣- الرافعي ، مصطفى كامل ص- ص- ١٩٥ - ١٩٧ .

- Cachia, *Taha* p. 48.

-٣٤-

٣٥- زعلوك - مقابلة - ٩ مارس ١٩٧٨ .

- FO 395/550/P 2760, *Lampson to Eden*, June 17, 1937.

-٣٦-

٣٧- المرجع السابق .

٣٨- فكري أباطة ، الأهرام ١٦ مايو ١٩٢١ نقله عبد العظيم رمضان في : تطور ...

١٩١٨ - ١٩٣٦ ص- ص- ١٧٥ ، ١٩٤ ، حاشية ١٣٥ .

- ٣٩- أحمد حسين "يماني" (القاهرة طبعتان ١٩٣٦ و ١٩٤٦) يعتبر مصدر جيد .
 انظر تحليل : James Jankowski, *Egypt's Young Rebels "Young Egypt"* : 1933 - 1952 (Stanford, California, 1975) .
 و : Deeb, *Party Politics*, pp. 371 - 78.
- و : رمضان ، تطور ... ١٩٣٧ - ١٩٤٨ ص - ص ٢٧٩ - ٣٢٥ ، و : محمد زكي : الإخوان المسلمين والمجتمع المصري (الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٨٠) .
 -٤١
- FO 371/20886/ J 4990, Kelly to FO; FO 371/20886/ J 4482, Kelly to FO, Oct. 25, 1937.
 و : لطفي السيد - قصة حياتي ص - ص ١٩٨ - ١٩٩ .
 -٤٢- لويس عوض - مقابلة - ٢٠ أبريل ١٩٨٣ .
 -٤٣- Cachia, *Taha*, p. 67.
- ٤٤- كتيب أحمد لطفي السيد "رسالة الجامعة" (القاهرة ١٩٤١) .
 -٤٥- نجيب محفوظ ، المرايا - الطبعة الرابعة ١٩٨٠ ص - ص ٥٧ - ٥٨ و ٦١ - ٦٢ .
 -٤٦- Cachia, *Taha*, p. 67.
- ٤٧- وعن أنواع التخصصات المهنية في النخبة المصرية فيما بين ١٨٥٠ - ١٨٨٢ ، أنظر :
 F.Robert Hunter, *Egypt under the Khediver, 1805 1879 : From Household Government to Modern Bureaucracy* (Pittsburgh, Pennsylvania, 1984) .
- ٤٨- الملاحظات عن المحامين وغيرهم في الوزارات اعتمدت على كرم : النظارات ... وبيانات مجمعة من مجموعة مصادر متنوعة للغاية.
- ٤٩- ملاحظة أبدأها زعلوك - مقابلة - ٩ يناير ١٩٨٣ . وعن أحمد ماهر انظر : محمد إبراهيم أبو روى : "الشهيد أحمد ماهر - الجزء الأول (القاهرة ١٩٤٥) وعن عبيد أنظر : دار المحفوظات (أرشيفات وزارة المالية) ، ملفات الخدمة ٥٤٢٧٧/١٩٧/٥/١/١٠٠ ، ٢٥ فبراير ١٩٤٦ . والإيجيشيان جازيت ٣ يوليو ١٩٢٦ ص - ٢ . وعن على ماهر أنظر : محمود عزمى "الأيام المائة" (القاهرة ١٩٣٦) ، و : Berque, *Egypt*, pp. 460-62.
- ٥٠- عن عبد الرازق أنظر : على عبد الرازق ، من آثار مصطفى عبد الرازق (القاهرة ١٩٥٧) . وعن الهلالي انظر : الإيجيشيان جازيت ٢ مارس ١٩٥١ ، الصفحة الأولى وزعلوك - مقابلة ٩ مارس ١٩٧٨ .

-٥١

- Joel Gordon *"The False Hopes of 1950 : The Wafd's Last Hurrah and the Demise of Egypt's Old Orders"* draft article, 1987.

-٥٢

- Meade, *Growth*, p. 400.

وحول الأربعينيات أنظر :

- Charles Issawi, *Egypt at Mid- Century An Economy Survey* (London 1954).

و : عاصم أحمد الدسوقي ، "مصر في الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ - ١٩٤٥ (القاهرة ١٩٧٦) . وعبد العظيم رمضان : "تطور ... ١٩٣٧ - ١٩٤٨" . والرافعي "في أعقاب ... الجزء الثالث . وطارق البشري "الحركة السياسية المصرية ١٩٤٥ - ١٩٥٢ (القاهرة ١٩٧٢) .

-٥٣

- John Waterbury, *The Egypt of Nasser and Sadat : The Political Economy of Two Regimes* (Princeton, 1983), p. 51.

-٥٤

- Abu Lughod, *Cairo*, p. 121, 128 - 29.

-٥٥

- Tignor, *State*, p. 237.

-٥٦

- Matthews and Akrawi, *Education*, p. 12.

-٥٧

- William Roger Louis, *The British Empire in the Middle East (1945 - 1951): Arab Nationalism, the United States, and Postwar Imperialism* (Oxford, 1984), P. 49.

-٥٨- المرجع السابق ص- ٢٢٦ ، نقلا عن

- FO 371/53288/ J 1135, *Killern to Bevin*, March 6, 1946.

-٥٩- ولنفس المؤلف :

- Smith, Islam, *"The Crises of Orientation" : The Shift of Egyptian Intellectuals to Islamic themes in the 1930s*, IJMES (1973) : 382 - 410.

-٦٠- لويس عوض - مقابلة - ٢٠ ابريل ١٩٨٣ . انظر أيضا :

- Louis Awad, *"Cultural and Intellectual Developments in Egypt Since 1952"*, in P.J. Vatikiotis, ed., *Egypt Since the revolution*

(New York, 1968). Sasson Somekh, *The Changing Rhythm : A study of Najib Mahfuz's Novels* (Leiden, 1973), P. 25.

يتحدث أيضا عن "جيل الثورة".

-٦١

- Raoul Makarius, *La Jeunesse intellectuelle d'Egypte au Lendemain de la Deuxieme guerre mondiale* (Paris, 1960).

-٦٢- سهير القلماوى - مقابلة - ٢٣ فبراير ١٩٨٣ . وعن علي إبراهيم انظر : دار المحفوظات ، ملفات الخدمة ، ٨ أكتوبر ١٩٤١ ، ٤٧٤٢٢/٤٢١٤/٤/٣٩١ . المستندات أرقام ٥٩ و ٦٠ و ٦٦ و ٦٧ و ٧١ بخصوص قضية التقصير لعام ١٩٠٨ . و:

The Journal of the Egyptian Medical Association, 23 (October and November 1940) Nos. 10 and 11.

طبعة خاصة عن علي إبراهيم ، تحتوى مادة عن سيرته الذاتية على صفحات ٤ ، ٥٥٢ - ٥٥٦ . و: نقابة الأطباء المصرية . اليوبيل الذهبى ٢٠ - ١٩٧٠

(عدد خاص من The Journal of the Egyptian Medical Association)

و: مقابلة مع زعلوك (٩ يناير ١٩٨٣) وسهير القلماوى (٢٣ فبراير ١٩٨٣) .

-٦٣

- A Cecil Aipor, *One Day of Justice: The Black Book of the Egyptian Hospitals and a Fellaheen Charter* (London, 1946), p. 31.

-٦٤

- P.H. Newby *The Picnic at Sakkara* (New York, 1955), pp. 20 - 21.

- FO 371/53288/ J 1186, Bowker to FO, March 14, 1946. -٦٥

-٦٦

- Furness letter enclosed in FO 395/550/P 2760, Lamson to Eden, June 17, 1937.

- Enright, *Academic Year*, P. 129. -٦٧

-٦٨

- Mitchell, Richard. *The Society of the Muslem Brothers*, (London, 1969), 62 - 77.

- A.W. Sansom, *I Spied Sies* (London, 1965), pp. 196 - 98. -٦٩

٧٠- عن سياسة الطلاب في ١٩٤٦ أنظر : عبد المطلب ، "دور" ، ص-ص - ٤٩٥ - ٥٧٣ . والرافعي : أعقاب - الجزء الثالث ١٧٩ - ٢١٧ . وأحمد عبد الله "الطلبة والسياسة في مصر" ص-ص - ٨٢ - ٩٧ .

٧٢- FO 371/69211/ J 7782, Campbell to FO, Decemer 5, 1984.

- Sansom, *I Spied*, p. 226.

-٧٣

-٧٤

- A.J.M. Craig, "Egyptian Students, "The Middle East Journal. 7 (1963): 296.

[٨] قضية الدين

حددت الجامعة المصرية، تحت إدارة الدولة، مهمتها - جزئيا فيما يميزها عن منافسها العتيق - الأزهر - مثلما قطعت من قبل الجامعة الخاصة. فكانت الجامعة المصرية في تصور معظم الناس تمثل الحديث، والعلماني، والغربي؛ بينما يمثل الأزهر التقليدي والإسلامي والأصيل. ويتضمن هذان التصوران قدرا من الحقيقة، رغم أن كلا من المؤسستين عجزت عن تحقيق طابعها المثالي، كما أصبح بينهما من الأمور المشتركة أكثر مما يرغبان التسليم به. فلم يغيب الدين أبدا عن الجامعة المصرية، كما اخترقت التأثيرات الغربية العلمانية الأزهر.

وثار أحد الخلافات الدينية - العلمانية حول الحق في إعداد مدرسي اللغة العربية للعمل بالمدارس الحكومية، وادعت كل من الجامعة المصرية والأزهر، ودار العلوم هذا الحق لنفسها دون غيرها. وفي آخر الأمر، انضمت دار العلوم إلى الجامعة المصرية من أجل مقاومة محاولات الأزهر ابتلاع هذا الحق. وعندما خسرت مدرسة القضاء الشرعي معركة مماثلة عادت لتحتمي بالأزهر. كما ظهرت التوترات الدينية - العلمانية أيضا في وضع الأقباط في الجامعة، الحرج أحيانا. ولعل نفوذ المستشرقين الأوروبيين في الجامعة، وقضية خلف الله عام ١٩٤٧، يلقيان الضوء على جوانب أخرى للقضية.

الجامعة المصرية ومشكلة وظيفة الأزهر:

أزعجت الجامعة التي "ليس لها دين إلا العلم" الأزهريين الذين يمثل العلم والمجتمع والحياة نفسها بالنسبة لهم نسيجاً إسلامياً لا ينفصم. وفصلت الجامعة المصرية العلم عن أي قالب ديني، كما قسمت التعليم إلى تقسيمات إدارية متخصصة. فصار احترامها لمناهج الأساتذة الملحدون المستوردين، إساءة للأزهر؛ الذي يؤكد على الحفظ والاستظهار والنص الإسلامي المنزل. كما لم يكن الأزهر راضياً عن الضغط المتواصل عليه لإعادة تنظيم نفسه على غرار الجامعة المصرية، بالامتحانات التحريرية، والدرجات الجامعية،

والاهتمام بالأبحاث الجديدة والتخصص، بالإضافة إلى مجالس الكليات، والبيروقراطية الإدارية. ومما زاد الأمور سوءاً، أن الأساتذة (أمثال طه حسين وأمين الخولي) كانوا يبديون آراءهم علناً في القضايا الدينية، التي اعتبرها الأزهر منطقتَه المحرمة.

وعلى الصعيد العملي، كانت هناك منافسة على المخصصات المالية، والطلاب، والوظائف. فقد أصبحت الحكومة بمثابة الصراف الذي يدفع للأزهر والجامعة المصرية معاً. وعلى الرغم من أن موازنة كل منهما تأتيها من وزارة مختلفة، إلا أن المنافسة بينهما لا فكاك منها على مصادر التمويل. كما اصطدم الأزهريون، الباحثون عن عمل، بخريجي الجامعات والمدارس العامة الذين ينسبون لأنفسهم في كل مكان مؤهلات أفضل؛ وذلك باستثناء فرص العمل المحدودة للوعاظ، وأئمة المساجد والمؤننين بالإضافة إلى التدريس بالأزهر والمعاهد التابعة له.

ويوضح مسح للقوى البشرية أجرى عام ١٩٦٥، أنه من بين ١٠٥ أزهرياً من خريجي دفعة ١٩٣٠ الذين يشغلون وظائف معلومة، يعمل ٢١% أئمة مساجد، أو وعاظ، أو في غيرها من وظائف المساجد و ٢٨% مدرسين أو إداريين بالأزهر ومعاهده. أما النصف الباقي فيشغل وظائف يتنافس الأزهريون فيها مع غيرهم: مثل تدريس اللغة العربية أو الدين في المدارس غير الأزهرية (٢٨%)، والعمل بالمحاكم الشرعية (٩%)، أو العمل بالمحال التجارية (٩%)^(١).

والأكثر من ذلك، أن الوظائف الأزهرية المضمونة لم تكن جذابة تماماً، فكما يوضح جدول (١٥) فإنه حتى الأساتذة في قمة نظام الأزهر كانوا يحصلون على رواتب هزيلة مقارنة بمدرسي المدارس الحكومية والجامعة. ويتلقى المدرس العادي في المدارس الابتدائية مرتباً أكبر من "العالم" في النظام الأزهرى. صحيح، أن شيخ الأزهر كان يتلقى راتباً شهرياً كبيراً (١٦٦٧ جنيه مصري) بالمقارنة براتب لطفي السيد (١٥٠ جنيه مصري)، ولكن ذلك يرجع فقط إلى الحظوة الشخصية التي تمتع بها الشيخ محمد الظواهري لدى الملك. وفيما عدا ذلك، فإن أقل مستويات الأجر بالجامعة أو المدارس العليا (المعيدون في الأغلب) كانت تزيد كثيراً عن أعلى مستويات الأجر في الأزهر. فيحصل كل من ثمانية وستين معيداً بالجامعة والمدارس العليا على أكثر من ضعف أكبر أجر يتقاضاه أستاذ بالأزهر. بل أن حتى

هذه الرواتب الضئيلة تفضل كثيرا ما كان يتقاضاه الأزهريون منذ سنوات قليلة^(٢).

كما وجد الأزهريون مشقة أيضا في العثور على عمل بالمحاكم؛ فالمحاكم المختلطة التي يسيطر عليها الأجانب كانت بعيدة المنال، ما لم يكن الشخص يعرف القانون الفرنسي ويتحدث الفرنسية أو الإيطالية، أما المحاكم الأهلية فلم يستطع أن يقف أمامها بعد عقد الثمانينيات من القرن الماضي سوى عدد قليل من خريجي الأزهر، مثل سعد زغلول؛ نظرا لأن الشروط المشددة في التعيين أوصدت الباب دون الأزهريين. بالإضافة إلى زيادة المعروض من خريجي مدرسة الحقوق^(٣) فلم يتبق إذا سوى المحاكم الشرعية، حيث القضايا أقل ربحا، والقضاة أقل راتبا: فرئيس محكمة الاستئناف يتقاضى ١٦٦ جنيها مصريا و٦٧٨ مليما شهريا في عام ١٩٣٠، بينما رئيس أكبر المحاكم الشرعية يتقاضى مائة جنية مصري لا غير^(٤).

وتنافس الأزهريون مع خريجي مدرسة القضاء الشرعي على العمل بالمحاكم الشرعية منذ ١٩١٠ وحتى ١٩٣٠. غير أن خريجي مدرسة القضاة كانت لهم الأفضلية عند التعيين بها. فلم يكن الأزهر يمنح سوى درجة العالمية غير المتخصصة، بينما يتخصص خريجو مدرسة القضاة في قوانين الشريعة، وأجزاء من القانون المدني والعلم "الحديث"، بالإضافة إلى الجغرافيا والتاريخ^(٥).

غير أن المدرس أو القاضي الأزهري وجد وظيفة على الأقل، وهو الأمر الذي لم يكن متاحا للكثيرين من زملائه: ففي الفترة من ١٩١٧ - ١٩٣٢ كان الأزهر يمنح ٢٦٥ درجة عالمية سنويا - في المتوسط - بينما متاح في كل عام أربعون فرصة عمل للتدريس في المدارس الدينية، وبضع وظائف خالية في المحاكم الشرعية. فتعين على العديد من الخريجين أن يقبعوا في وظائف المساجد، إن استطاعوا العثور عليها^(٦).

ومع إحجام شباب الطبقة العليا - مثل لطفي السيد - عن الالتحاق بالأزهر، أصبح الطالب العادي في الأزهر أكثر فقرا وريفية، كما أصبح مستوى إعداده أقل. سواء بالنسبة لطلاب الأزهر السابقين، أو بالنسبة لأقرانه في التعليم المدني. وفي أوائل الثلاثينيات، أعرب الشيخ الظواهري عن حزنه لأن العائلات الكريمة بالقاهرة لم تعد ترسل بأبنائها إلى الأزهر، بل أن شابا من خريجي الأزهر اكتشف أن أساتذته أنفسهم لا يفعلون ذلك^(٧).

وجاءت الزيادة المطردة في حجم الجامعات والمدارس العامة على حساب الأزهر والنظام الديني في التعليم ؛ ف فيما بين ١٩٤٤ و ١٩٤٦ أصبح ٩٣% من طلاب الثانوي يدرسون في المدارس العامة، تاركين ٧% فقط للمدارس الدينية^(٩) . وبعد ثلاث سنوات من إنشاء الجامعة العامة، كانت تضم ألفين و ٢٣٠ طالبا بما يزيد عن عدد طلاب الأزهر في المستوى الجامعي (ألف و ٩٧١ طالبا). وبحلول عام ١٩٤٥ - ١٩٤٦ ضمت جامعة فؤاد الأول ما يربو على أربعة أمثال المقيدين بالمستوى الجامعي في الأزهر وعددهم ألفان و ٥٨٤ طالبا؛ كما ضمت جامعتا فؤاد وفاروق معا ٨٤% من طلاب المرحلة الجامعية في البلاد في حين ضم الأزهر ١٦% فقط. وبلغت الزيادة في عدد المقيدين بالأزهر منذ ١٩٢٨/١٩٢٩ وحتى أوائل الخمسينيات ٥٢% فقط، بينما تضاعف عدد طلاب الجامعة بالقاهرة إلى ثمانية أمثاله^(٩) . وكانت ميزانية جامعة القاهرة تساوى تقريبا خمسة أمثال ميزانية الأزهر في عام ١٩٤٠/١٩٤١. ومع عام ١٩٦٣ أصبحت ميزانية القاهرة توازي عشرة أمثال ميزانية الأزهر تقريبا^(١٠) ، علاوة على أنه أصبح هناك ثلاث جامعات عامة جديدة.

فما هو الخيار الذي كان مطروحا؟.. خطوة اثر أخرى، بدأ الأزهر - في تناقل - يحاكي التنظيمات الغربية للمدارس العامة والجامعة: هيكل إداري - مجالس للكليات - امتحانات تحريرية - تقسيم الطلبة على أساس السن ومستوى الصف الدراسي - مكاتب ومقاعد - فصول نظامية - نطاق أوسع من الموضوعات الدراسية - بالإضافة إلى شهادات متخصصة. ومثلت إعادة تنظيم الأزهر عام ١٩٣٠ أكثر تحولاته راديكالية حتى عهد عبد الناصر: عندما أصبح الأزهر - رسميا - جامعة مثلما هو جامع^(١١) . وأفسحت شهادة العالمية (الموحدة) الطريق للشهادة العليا المتخصصة من ثلاث كليات منفصلة : أصول الدين، واللغة العربية، والشريعة. وفي نهاية الأمر، أصبح الأزهر يمنح درجات علمية معادلة للماجستير والدكتوراه. وكانت أول جامعة إسلامية في العالم أرسلت في عام ١٩٣٦ أولى البعثات الطلابية للحصول على دراسات متقدمة في أوربا الملحدة، بعد أن ظلت موضع ازدرائها زمنا طويلا^(١٢) . كما لم يعد مدرسو الأزهر "علماء" فحسب دون تمييز، وإنما بدأوا طريق التحول إلى أكاديميين محترفين.

وبعد الحرب العالمية الثانية ببضع سنوات، أقيم حرم جامعي جديد خلف الجامع القديم^(١٣)؛ تنتشر " موتيفات " العمارة الإسلامية عبر أرجائه في إشارة إلى التراث القديم. واختفت الدروس من الجامع نفسه فيما عدا المحاضرات العامة المفتوحة أمام الجماهير. وأخيراً، أوضح إنشاء قاعة اجتماعات، وإطلاق اسم محمد عبده عليها، أن الأحوال تغيرت بالفعل^(١٤).

جدول (١٥) الرواتب الشهرية للمدرسين ١٩٣١

جنيه مصري	الجامعة والمدارس العليا		الأزهر		المدارس العامة الابتدائية والثانوية	
	الوظيفة	عدد شاغليها	الوظيفة	عدد شاغليها	الوظيفة	عدد شاغليها
١٦٦,٧			شيخ الأزهر	١		
١٥٠	مدير الجامعة	١				
١٥٠	مدير	١				
١٢٥	عميد	١				
٩٧,٥	عميد	١				
٩٢,٥	مدير	١				
٩٢,٥	هيئة تدريس	٩				
٧٦	مدير	٥				
٧٦	نائب مدير	١				
٧٦	هيئة تدريس	٤٧				
٦٨	نائب مدير	٦٨				
٦٢	هيئة تدريس	٣٥				
٥٤-٧٠	(متوسط ٦٢ جنيها)	—				
	هيئة تدريس	١١٤			مدير ونائب مدير مدرسة ثانوية	١١
٤٠-٥٨	(متوسط ٤٩)	—			مدير ونائب مدير مدرسة ثانوية	٢٤
		—			هيئة تدريس مدارس ثانوية	٢٥

تابع جدول (١٥)
الرواتب الشهرية للمدرسين ١٩٣١

الجامعة والمدارس العليا		الأزهر		المدارس العامة الابتدائية والثانوية		جنيه مصري
الوظيفة	عدد شاغليها	الوظيفة	عدد شاغليها	الوظيفة	عدد شاغليها	
	—			مدير مدرسة ابتدائية	٥	
هيئة تدريس	١٣٩			هيئة تدريس مدارس ثانوية	٣٩١	٣١,٣
	—			مدير مدرسة ابتدائية	٤١	٢٠-٤٢,٥ (متوسط ٣١,٣)
	—			هيئة تدريس مدارس ابتدائية	٢٦	
	—	هيئة تدريس	١٥			٣١
	—	هيئة تدريس	٦٠			٢٧
هيئة تدريس	٧٥	هيئة تدريس	٢			٢٤
				هيئة تدريس مدارس ثانوية	٤٢٠	١٥-٣٣ (متوسط ٢٤ جنيها)
				هيئة تدريس مدارس ابتدائية	٧٦٨	
		هيئة تدريس	١٠٠			٢٢,٥
		هيئة تدريس	٢٧			٢١
		هيئة تدريس	١٦٧			١٩,٥
		هيئة تدريس	٣٦			١٨,٥
		هيئة تدريس	٢٧			١٧,٥
		هيئة تدريس	٣			١٧
		هيئة تدريس	٢٨			١٦,٥
		هيئة تدريس	٣			١٣,٥
				هيئة تدريس مدارس ابتدائية	٨٦	٨-٢١ (متوسط ١٣,٣ جنيه)
		هيئة تدريس	٢			١٢

المصدر : بيانات أعيد ترتيبها من :

- Eccel, Chris Egypt, Islam and social Conflict and. Accomodation in
Al. Belin, 1984 Azhar .

ص ص : ٢٥٢ - ٢٥٣

من يتولى تدريس العربية ؟

إبان فترة الحرب وبعدها، شملت المعركة الدائرة حول من الذي يتولى تدريس اللغة العربية كلا من : لطفي السيد رئيس الجامعة، والمراغي شيخ الأزهر، والملكين فؤاد وفاروق، وأعضاء الحكومة، والمدرسين بالإضافة إلى الطلاب. وكان غياب مدرسة المعلمين العليا عن الميدان في أوائل الثلاثينيات، قد ترك ثلاثة متنافسين : الجامعة المصرية، والأزهر، ودار العلوم^(١٥).

وفي ١٩٤٦ عدد كل من الأزهر ودار العلوم ادعاءاته في التماس مقدم إلى الملك: فركز "أبناء كلية اللغة العربية" صياغة بيانهم حول الخدمات التي ظل معاهدهم يؤديها للدين واللغة العربية منذ ألف عام، وحرصوا على الإشادة برعاية أسلاف الملك فاروق للأزهر، وادعوا أن الأزهريين هم وحدهم المؤهلون لتدريس اللغة العربية والدين، وأن اتهامات دار العلوم للأزهر بإغفال التاريخ الإسلامي والجغرافيا جميعها أكاذيب ؛ وأشاروا إلى أن دار العلوم أهملت - على نحو مزر - الشروح، والبلاغة، وغيرها من الجوانب الأساسية في تعليم اللغة العربية. كما اعتبروا أن اللغات الشرقية الإضافية التي تفتخر دار العلوم بنفسها بسببها، ليس لها علاقة بمدرس التعليم الابتدائي والثانوي في المستقبل؛ وأن إصلاحات عام ١٩٣٠ شكلت بداية سليمة، بإنشاء كلية اللغة العربية وإحلال كلية الشريعة محل المدرسة المستقلة للقضاة، ومنح الأزهريون حق التدريس بالمدارس العامة، أما الآن فقد حان الوقت لقصر حق تدريس مادتي اللغة العربية والدين على الأزهر وحده إلى الأبد^(١٦).

أما الالتماس المقابل الذي قدمته "دار العلوم"، فحرص على الإلحاح في التذكير بالخدمات التي قدمتها المدرسة للغة العربية، منذ إنشائها على يد إسماعيل جد فاروق، وأن الجمود الأعمى في الأزهر هو الذي فرض ضرورة قيام دار العلوم، وأن رسالة الدار النبيلة هي تزويد مدرسي اللغة العربية في البلاد بثقافة الأزهر القديمة إلى جانب ثقافة الغرب العلمية الجديدة. كما أنها تفوقت على الأزهر من حيث نوعية طلابها ؛ الذين جاءوا من المعاهد الدينية عبر امتحان مسابقة. بينما بقي للدراسة في الأزهر أولئك الذين لم يحققوا المستوى المطلوب، وفي المطبوعات البحثية أيضا فاق أساتذة دار العلوم الأساتذة بالأزهر إلى حد بعيد^(١٧).

وكان الصوت الثالث صوت طه حسين الذي خرج على الأزهر، ليتحدث باسم الجامعة المصرية، فذكر أنه من المخالف للعقل أن يدعى الأزهر احتكاراً أبدياً لتدريس اللغة العربية؛ أليست العربية أيضاً لغة مسيحية مصر الذين لا علاقة لهم بالأزهر؟ وهل يصبر رجال الدين في أوروبا على احتكار تعليم اليونانية واللاتينية على أساس أنهما كانتا لغتي الدين؟ كما أن النحاة العرب العظام جاءوا قبل الأزهر، الذي حافظ فقط على علوم اللغة العربية، ولم يبدعها وأن تعليم اللغة العربية بالأزهر عتيق، كما أن خريجيه غير مناسبين للتدريس في المدارس العامة^(١٨). وسلم طه حسين بأن دار العلوم خرجت بعض المدرسين الجيدين، إلا أنها لم تدرب أيًا من فطاحل الشعر العربي أو النثر العربي الحديث، **"ويقف خريجوها مترددين مثلها بين العلم القديم والعلم الجديد، غير مؤهلين لتدريس أي منهما"**^(١٩).

وكان طه حسين قد أوصى عام ١٩٣٥ بإخضاع دار العلوم لإشراف الجامعة، إلا أن الهلالي وزير المعارف اكتفى بالابتسام وذكر أن ذلك مستحيل من الناحية السياسية.

وهاجم طه حسين أيضاً بيروقراطية وزير المعارف فقال إنه بعد حوالي عشرين عاماً من الاتصال المباشر بالمدرسين والطلاب والمشرفين، وغيرهم من المسؤولين، **"لا أنتظر أن يخالفني أحد فيما أقول... من أننا لا نعرف وزارة من وزارات الدولة المصرية يشتد فيها التنافس البغيض بين الموظفين، ويشتد فيها ما يتبع هذا التنافس من التباغض والتحاسد، ومن الكيد والمكر، ومن الارتياح بكل شيء وبكل إنسان، وسوء الظن بكل شيء وبكل إنسان كوزارة المعارف"**^(٢٠). واستمر طه موضحاً أن خريجي مدرسة المعلمين العليا، وخريجي دار العلوم كانوا يتصارعون في وزارة المعارف، فذكر أن: **"الفنيين الذين يباشرون شئونها من قريب، لم يكونوا قط من الجامعيين، ولعل الناس لم ينسوا بعد ما بين وزارة المعارف ذات التاريخ والتقاليد وبين الجامعيين الذين تخرجوا من الجامعات الأوروبية أو من الجامعة المصرية من خصومة صماء ولكنها خطيرة عنيفة، تعلن عن نفسها بين حين وحين وتحدث أثراً سيئاً في شئون التعليم وفي حياة الشباب"**^(٢١). وأبرز طه أن آراء الجامعة في أي موضوع نادراً ما تتفق مع آراء الوزارة، واستمر مشيراً إلى أن الوزارة تتجاهل دائماً توصيات الجامعة حول المقررات الدراسية والامتحانات. وأنها شددت القيود على معاهد التربية

التي تؤهل خريجي الجامعة للعمل بالتدريس * . كما أُصرّت على تخصيص معهد منفصل للفتيات، برغم أن خريجي الجامعة كانوا قد تلقوا تعليماً مختلطاً طيلة أربع سنوات^(٢٢) .

ولم تستطع الجامعة المصرية أن تعول على مساندة مؤسسها الملك فؤاد، الذي كان يتوّد إلى الأزهر ليكون عوناً له على تحقيق أحلامه في الخلافة الإسلامية، وباعتباره قوة تعادل نفوذ الوفديين في الجامعة. وكانت حكومة زيور الموالية للقصر قد وافقت على تعيين الأزهريين في الجهاز الحكومي، ولكن حكومة ائتلاف الوفد والأحرار الدستوريين ألغت هذا الإجراء، ونقلت حق تعيين شيخ الأزهر من الملك إلى رئيس الوزراء. فعين محمد محمود رئيس الوزارة أحد زملائه في حزب الأحرار الدستوريين - محمد مصطفى المراغي - شيخاً للأزهر بتأييد من بريطانيا، فكان المراغي هو الذي وضع خطة إعادة تنظيم الأزهر عام ١٩٣٠، إلا أن الملك فؤاد استعاد مرة أخرى حق تعيين شيخ الأزهر، ففرض رجله - الظواهري - على المنصب، ثم أجبرت القوى المعارضة لتعيين الظواهري - من داخل وخارج الأزهر - الملك فؤاد على إعادة المراغي في ١٩٣٥. وبدأ المراغي يلعب أوراقه بحذر هذه المرة، محققاً لنفسه نفوذاً كمستشار ديني لفاروق الشاب. وبعودة محمد محمود رئيساً للوزارة عام ١٩٣٨ ضمن المراغي وجود صديق قوي في الحكومة أيضاً^(٢٣) .

ومع تخرج أول دفعة من كلية اللغة العربية بالأزهر في ١٩٣٥، أصبحت قضية وظائف التدريس ملحة من جديد. وحول محمد محمود طلب المراغي - تدبير وظائف للأزهريين في المدارس العامة - إلى هيكل وزير المعارف واعتبر هيكل الأزهريين غير مؤهلين لتولي الوظائف، وأصر على إيعادهم عنها بأي ثمن؛ فاقترح تحسين تعليم اللغة العربية بإعادة القسم التمهيدي لدار العلوم، وبذلك يضمن تصفية المتقدمين من النظام الأزهر في مرحلة مبكرة. وتقدم المراغي بشكوى إلى رئيس الوزارة، الذي ألغى الاقتراح وطلب من هيكل التوصل إلى حل توفيقي. فاقترح هيكل أن يسعى

* انشئ معهد التربية عام ١٩٢٩ لإعداد خريجي كليتي العلوم والآداب للعمل بالتدريس وأصرّت وزارة المعارف على أن تكون لها السيطرة عليه فجعلته قسمين الأول يقبل الحاصلين على الشهادة الثانوية لإعدادهم للتدريس بالمدارس الابتدائية بعد ثلاثة أعوام. والقسم الثاني يقبل خريجي الجامعة ومدة الدراسة به عامان يحق للخريج بعدهما العمل بالتدريس في المدارس الثانوية - (المترجمة - نقلاً عن كتاب مستقبل الثقافة في مصر - ص: ٣٣٣)

الأزهريون للتدريس بالمدارس الخاصة أولاً، ولإثبات أنفسهم، ثم التقدم إلى وظائف التدريس بالمدارس العامة جنباً إلى جنب مع خريجي دار العلوم. فأضربت دار العلوم احتجاجاً على هذا الاقتراح، ثم تلاها الأزهريون والطريف، أن هيكـل طرح اقتراحين آخرين : أن يثبت الأزهريون استعدادهم للتدريس عن طريق اجتياز امتحان دار العلوم، أو الالتحاق بمعهد المعلمين كما كان ينبغي على خريجي الجامعة المصرية، والاقتراح الثاني : أن تكون هناك مسابقة بين خريجي دار العلوم و خريجي الأزهر. ونظراً لفشل هيكـل في تنفيذ مقترحيه، عين لجنة لفحص الموضوع برئاسة عبد العزيز فهمي، ولم تكن مقترحات اللجنة مرضية، كما سقطت وزارة محمد محمود بعد فترة وجيزة، تاركة الموضوع في غياهب النسيان^(٢٤).

ولحسن حظ دار العلوم، لم يكن المراغي - صاحب النفوذ - على وفاق مع حكومة الوفد أثناء الحرب العالمية، ثم توفي عام ١٩٤٥. وكان مصطفى عبد الرازق خليفته في مشيخة الأزهر من تلاميذ محمد عبده، وقد درس في السوربون، ثم تولى تدريس الفلسفة بالجامعة المصرية، وحرص عبد الرازق على الاحتفاظ بلقب الشيخ وملبسه. ثم عينه محمد محمود وزيراً للأوقاف عام ١٩٣٨. ومن المفارقة، أن أول شيخ معمم يدخل الوزارة في القرن العشرين، جاء عبر الجامعة العامة! وعندما عاد عبد الرازق إلى الأزهر شيخاً له، كان المحافظون يقفون له بالمرصاد في كل مناسبة^(٢٥).

ومن ثم، لم يكن الأزهر عام ١٩٤٦ في موقف يسمح له بإعاقه ضم دار العلوم إلى جامعة فؤاد الأول ككلية منفصلة. وبهذا تخلصت دار العلوم من القبضة الحديدية لوزارة التعليم، كما تجنبت النوبان إما داخل الأزهر أوفي كلية آداب القاهرة. ولكن وضعها كان شاذاً في بيتها الجديد؛ فهي كلية للمسلمين فقط - ولبضع سنوات للرجال فقط - في جامعة علمانية أساساً تتميز بالتعليم المختلط.

ولم يحقق أي من الأطراف انتصاراً نهائياً في قضية تدريس اللغة العربية بالمدارس. ولكن مع فتح باب التعليم الابتدائي والثانوي على مصراعيه في الأربعينيات والخمسينيات، كان من المطلوب تعيين مدرسي اللغة العربية أينما وجدوا ؛ فأتاحت فرص العمل الجديدة لكلية اللغة العربية بالأزهر شعبية أكبر من كليتي أصول الدين والشريعة^(٢٦).

نتاج الطريق الوسط : أبناء دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي :

يبرز بين خريجي دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي ثلاثة أنماط للمستقبل المهني والأيدولوجية المرتبطة به. أولها: استخدام هاتين المدرستين كمعبر من المدارس الدينية إلى الجامعة أو المدارس العامة الأخرى؛ ومن ثم إلى مهنة في قطاع المهن "الحديث" أو المدني؛ وتكون النتيجة غالباً رؤية أكثر علمانية (يمثل طه حسين ومصطفى عبد الرزاق الاستثناء النادر من حيث الانتقال مباشرة من الأزهر إلى الجامعة المصرية). أما النمط الثاني: فهو مواصلة شغل الموقف الوسطى التقليدي، بالاستمرار في التدريس بدار العلوم؛ وغالباً ما يتبنى أساتذة دار العلوم مواقف وسطية كذلك في القضايا الأيدولوجية.

ودفعت النظرة الشمولية - لا المهنية - أصحاب الاتجاه الثالث إلى اختيار الفكر الإسلامي (ويعتبر حسن البنا وسيد قطب، زعيماً الإخوان المسلمين مثليين بارزين على هذا الاتجاه؛ فقد ترك كلاهما الوظائف في النظام التعليمي المدني من أجل السعي لتطبيق تصوراتهما المثالية). ومن بين أمثلة الاتجاه الأول - الذي استخدم دار العلوم أو مدرسة القضاء جسراً إلى الوظائف الجامعية - أحمد أمين، وعبد الوهاب عزام وأمين الخولي، وإبراهيم بيومي مذكور، وشوقي ضيف، وجميعهم شغلوا مناصب متميزة في كلية آداب القاهرة^(٢٧)، ومن الجيل الأصغر، سعد هجرسي الذي كان يعمل بإدارة المكتبات والمحفوظات. وجميع هؤلاء الرجال يعدون أنفسهم مسلمين صالحين، إلا أن نظرتهم للعالم تركت لديهم فسحة من القيم العلمانية.

وربما يحدث الانتقال من المدارس الدينية إلى المدارس المدنية عند مراحل مختلفة عبر المسار المهني للفرد؛ فقد تخرج كل من أحمد أمين وأمين الخولي من مدرسة القضاء الشرعي، وعمل بالتدريس فيها، ثم شغل وظائف أخرى قبل أن ينضم إلى جامعة القاهرة عند منتصف حياته المهنية. وعلى الطرف الآخر، جاء شوقي ضيف من القسم التمهيدي بدار العلوم إلى جامعة القاهرة كطالب مبتدئ في ١٩٣٠، وحصل على الدرجات الجامعية الثلاث من قسم اللغة العربية، ثم التحق بالعمل في كلية الآداب.

ويجب أيضاً ملاحظة أن دار العلوم نفسها في رموزها الخارجية من لقب وملبس كانت أقرب إلى عالم الأفنديات من عالم الشيوخ. وكان شوقي

ضيف طالبا بالقسم التمهيدي عندما تقرر استخدام الزي الأوروبي في ١٩٢٩ - ١٩٣٠، فاعتبر التغيير ملاما لتطلعاته الأدبية^(٢٩).

ويوضح نموذج أحمد شلبي - صاحب المؤلفات العديدة - كيف أن أصحاب الاتجاه الثاني من أبناء دار العلوم، أدى بهم العمل بالتدريس في مدرستهم الأم إلى منطقة الوسط مهنيا، وفي أغلب الأحوال أيديولوجيا أيضا. فقد ولد أحمد شلبي بالزقازيق في زمن الحرب العالمية الثانية تقريبا، والتحق بالكتاب، ثم بأحد المعاهد الأزهرية الإقليمية عندما ألقى به نشاطه الوطني إلى خارج مسار الأزهر، بعد أن منعه معهد الزقازيق من دخول الامتحان، ومن ثم ذهب إلى القاهرة ليتخذ طريقه إلى دار العلوم. وحصل على الدرجة الجامعية منها في ١٩٤٣، ثم نال دبلوما في الدراسات العليا. وفي أول أعوام الحرب العربية - الإسرائيلية، وصل شلبي إلى لندن في بعثة تعليمية، حيث اكتشف أن عددا كبيرا من أساتذة التاريخ من اليهود. ثم انتقل إلى كمبردج، ونال الدكتوراه تحت إشراف "أ.ج. أربري"، ثم عاد للتدريس في دار العلوم. وكان شلبي شديد التحمس للإسلام، ينتقص من قدر الكيانات القومية، ويؤكد على الأمة الإسلامية الواحدة. وهو مع ذلك، يقر علنا بأنه يدين بالفضل "لأربري"، كما كان مستعدا للاقتباس من الغرب على نحو انتقائي^(٣٠).

ويعبر حسن البنا وسيد قطب عن الاتجاه الثالث بين خريجي دار العلوم الإسلامية. وجدير بالملاحظة أن دار العلوم - وليس الأزهر المحافظ أو جامعة القاهرة ذات النزوع العلماني - هي التي أفرزت كلا من المرشد العام للإخوان المسلمين، والمنظر الأساسي لهم. ولم يكن البنا وقطب من "العلماء"، حيث بدأ كل منهما حياته المهنية في وزارة المعارف. وتظهر الصور الفوتوغرافية الشخصية، البنا مرتديا سترة الأفنديات ورباط العنق والطربوش، وهو ما كان يرتديه قطب أيضا، على الأقل أثناء العمل بوزارة المعارف. ووجد الاثنان جمهورا جاهزا في الجامعات والمدارس الثانوية.. كان "إسلام الأفنديات" قد وصل^(٣١).

وقد ولد الرجلان عام ١٩٠٦ في بلدين صغيرتين بالأرياف لعائلتين متواضعتين؛ فالبنا من مديرية البحيرة الواقعة في الدلتا، أما قطب فمن أسبوط أحد المراكز الدائمة للنشاط الإسلامي. وكان والد البنا الذي تعلم بالأزهر يعمل إماما وواعظا بمسجد البلدة. أما والد قطب، فكان يشترك في جريدة مصطفى كامل "لواء"، ويستضيف في بيته المتعاطفين مع الحزب الوطني.

وحفظ البنا القرآن في أحد الكتاتيب، في حين حفظه قطب كنشاط خارج المقرر الدراسي في إحدى المدارس العامة، والتحق البنا أيضا بمدرسة عامة بعد ذلك. ونظرا لأن آفاق تطلعات الأسرتين كانت محدودة، ذهب الصبيان إلى مدرستين لتأهيل معلمي الابتدائي - البنا في دمنهور، وقطب في القاهرة - بدلا من الالتحاق بالمدارس الثانوية الأكاديمية. ومن الواضح أن قطب تخلف في دراسته لفترة، لذلك لم يتخرج الاثنان في نفس الدفعة، حيث تخرج البنا ١٩٢٧، بينما تخرج قطب عام ١٩٣٣.

واتخذ كلاهما التدريس بالمدارس العامة مهنة له بعد التخرج؛ فعمل البنا في وزارة المعارف تسعة عشر عاما، وقطب ثمانية عشر، لكن كليهما لم يركز حياته على وظيفته العادية. ومثلما فعل جمال الدين الأفغاني، عاش البنا حياته أعزبا، وترك كتابات قليلة إلا أن حضوره كان مؤثرا. وتعرض البنا وقطب للسجن، وتوفي كل منهما شهيدا، البنا على يد قاتل تابع للبوليس في ١٩٤٩، أما قطب، فأعدم في عهد عبد الناصر عام ١٩٦٦.

ومع ذلك، كان الرجلان مختلفين للغاية أيضا، فالبنا ذو نزعة إسلامية متقدة منذ سنوات مراهقته الأولى، يتحرق شوقا إلى تطهير المجتمع الشرير الذي واجهه في القاهرة في العشرينيات من القرن الحالي: من عاهرات، وساسة متنازعين، وتقليد أعمى للأوروبيين، وبعثات تبشير مسيحية، وملحدين، إلى ضباط بريطانيين متواجدين في كل مكان. فكان شعاره **العودة إلى الإسلام الحق**.

وعلى العكس من ذلك، كانت الحياة السياسية والأدبية الحافلة، هي التي جذبت سيد قطب. فبدأ ذا مسلك علماني في كل من عمله بوزارة المعارف، وفي موهبة الكتابة لديه معا. وتأثر قطب بطه حسين (برغم الخلاف بينهما على صفحات الصحف) كما حمل إعجابا خاصا لعباس محمود العقاد الكاتب متعدد المواهب. ثم تغيرت أفكار سيد قطب تدريجيا في الأربعينيات؛ فثار على السياسة والعقاد، ورجع إلى الدين الذي تعلمه في طفولته. ثم سافر إلى الولايات المتحدة بدعوى إعداد تقرير عن التعليم الأمريكي، وأسفرت إقامته هناك عن تعميق عدائه للغرب وعاداته كلها. وبعد عودته، اضطر إلى الاستقالة من وزارة المعارف. وفي ١٩٥١ كان قطب قد **"ولد من جديد"** (٣٢) كأخ مسلم. ثم قضى السنوات الباقية من عمره في السجن، يشرح لزملاء زنزانته تصوراتَه عن الإسلام في المجتمع المعاصر، ويدون كتاباته عنها.

وكسب الإخوان المسلمون أنصاراً في كل من الأزهر وجامعة القاهرة، إلا أن كليهما لم يكن يشعر نحو البناء بارتياح، كما لم يرتح هو إليها، فقد اتهم الجامعة بأن مقرراتها "غير إسلامية" وأنه "ما كان" من الممكن أن تصبح جامعة علمانية ما لم تتمرد ضد الدين وتحارب التقاليد الاجتماعية المأخوذة عنه" (٣٣). كما اتهم رشيد رضا الجامعة بأنها "مؤئل للهرطقة ومرتع لتربية الإلحاد" +. وذكر محمد الغزالي، عضو الإخوان المسلمين، "إن لغيراليها دمي يحركها الأوروبيون، وهم عبيد لهم يخدمون قضية الاستعمار المسيحي" #.

ووجه حسن البناء اللوم إلى الأزهر لتخليه عن رسالته الإسلامية، واستسلامه أمام ضغوط المدنية العلمانية. وعلى الرغم من أنه كان على وفاق مع الشيخ المراغي، إلا أن العديد من الأزهريين استاءوا من المرشد العام الذي تجاهلهم - وهو من غير "العلماء" - وتوجه بالوعظ إلى الناس مباشرة (٣٤).

وقتل البناء وقطب، كما دمرت جماعة الإخوان المسلمين تقريباً، غير أنها كانت قد غرست بذور البعث الإسلامي التي اكتسحت الجامعة ومصر كلها خلال السبعينيات والثمانينيات.

الأقباط* والجامعة :

كان الأقباط من بين مجموعات طلاب الجامعة التي لم تشعر بما يتمتع به حسن البناء من جاذبية شخصية (كاريزما). فأضحت علمانية الجامعة فرصة استفاد منها أعداد كبيرة من بينهم.

* + # نقلاً عن الانجليزية - (المترجمة)

* اختار المؤلف تعبير "أقباط" للإشارة إلى المسيحيين المصريين، وهو خطأ شائع (يشير إلى أرثوذكس مصر بالتحديد)، يستخدمه الكثيرون بحسن نية؛ بينما يستخدمه بعض دعاة التفرقة الطائفية والمتعصبون على الجانبين بخبث. فالمتعصبون المسيحيون يصرون على استخدامه للتأكيد على أن المسيحيين وحدهم هم المصريون أصلاً، بينما المسلمون نسل العرب المحتلين، كما يستخدمه المتعصبون المسلمون للتدليل على أن الأقباط ليسوا أتباع المسيح الحقيقيين. وفي الحقيقة كما يعرف المنصفون فإن القبطية جنسية وليست ديانة، والقبطي تاريخياً هو المصري بصرف النظر عن ديانته. ويرجع البعض التسمية إلى اسم مصر في اليونانية القديمة "إيكيتوس" بينما يرجعه آخرون إلى "حوط كا بتاح" في اللغة المصرية القديمة وتعني محط روح الإله بتاح. وتشير تفسيرات أخرى إلى أن التسمية ترجع إلى "شبت" وهو اسم مصر بلغتها القديمة وتعني الأرض السوداء أو الخصبة، وتحورت إلى "جبت" التي انتقلت إلى معظم لغات العالم، بينما يقلب العرب حرف الجيم المخففة المصري إلى قاف ومن هنا جاءت التسمية قبط وأقباط. ورغم اختلاف مع المؤلف، فقد اتبعت التسمية التي اختارها احتراماً لأمانة الترجمة - (المترجمة)

وبالرغم من أن معظم المصريين كانوا أقباطا وقت الفتح العربي الإسلامي، إلا أن اللغة القبطية اندثرت تدريجيا، باستثناء استخدامها في الطقوس الكنسية. وفي آخر المطاف، أصبح المسلمون يشكلون أغلبية السكان في مصر بعد التحول إلى الدين الإسلامي. وتشير الإحصاءات السكانية في القرن الحالي إلى أن الأقباط يشكلون حوالي ٧% من عدد السكان. وربما يكون هناك قدر من الصحة في ادعائهم أن الإحصاءات خفضت من أعدادهم الحقيقية لتقليل أهميتهم إلى أدنى حد، حيث تبلغ نسبة الأقباط في تقديراتهم الخاصة ٢٠% من عدد السكان أو أكثر، إلا أن نسبة ١٠% قد تكون تخمينا معقولا (٣٥).

ونظرا لأن معظم الأقباط كانوا فلاحين مثل جيرانهم المسلمين؛ فلم يكونوا قادرين على أداء دور الوسيط الذي أداه لمصر في القرن التاسع عشر المهاجرون من اليونانيين والشوام والأرمن (٣٦). ولا يكاد يكون ضمن أعضاء البعثات الدراسية إلى أوروبا في القرن التاسع عشر سوى قلة من الأقباط (إن وجد أقباط ضمنها أصلا) (٣٧)، ومع ذلك أسفرت الفرص التي أتاحت ضمن مدارس الإرساليات الكاثوليكية والبروتستانتية، والمدارس العامة، ومدارس التجمعات القبطية، عن قدر من الإحياء الديني بينهم. وعمل الأقباط منذ زمن طويل بوظائف الصرافة في وزارة المالية وغيرها من المصالح الحكومية. ووفقا للإحصاءات الرسمية عام ١٩١١، شغل الأقباط نسبة كبيرة من الوظائف الحكومية (٤٥%)، وفي وزارة الداخلية وصلت نسبتهم إلى ٦٢% (٣٨). وقدرت إحدى الصحف القبطية أنهم يشكلون نسبة ٣٠% من المصريين المتعلمين، كما يسيطرون على ١٩% من النشاط الاقتصادي (٣٩). وفي المدارس المهنية العليا، شكل الأقباط ٢١% من خريجي مدرسة الحقوق، و١٩% من خريجي الهندسة، و١٥% من الطب، و١٢% من خريجي تأهيل المعلمين فيما بين عامي ١٨٨٦ و ١٩١٠. وفي عام ١٩٢٧، كان ثلث طلاب المدارس العامة من المسيحيين (٤٠). ورغم أن المسؤولين البريطانيين لم يكن لديهم ميل دائم لتفضيل الأقباط، كما يتهمهم المسلمون غالبا (٤١)، إلا أنه بدون الاحتلال البريطاني ربما لم يكن من الممكن أن يتولى اثنان من الأقباط رئاسة الوزارة في أوائل القرن الحالي. ومع تنامي أعداد المسلمين بين خريجي المدارس العامة كان على هذه النسب

المئوية السابقة أن تتخفّض، فبحلول عام ١٩٣٧ انخفضت نسبة الأقباط في الجهاز الحكومي إلى ٩% ^(٤٢).

وربط العديد من الأقباط مصائرهم بالحركة الوطنية المصرية، وبالوفد عقب الحرب العالمية الأولى. وفي الفترة ما بين الحربين، كانوا يتمتعون بتمثيل طيب في البرلمان والحكومة كلما وصل الوفد إلى الحكم. بل، حتى عندما يخسر الأقباط في الانتخابات التي تجيء نتيجتها في غير صالح الوفد، كان الفائزون يعرضونهم من خلال التعيين في البرلمان، كما حدث في ظل إسماعيل صدقي ومحمد محمود في الثلاثينيات ^(٤٣).

ومنذ ترك مكرم عبيد - الصديق الحميم للنحاس - الوفد في ١٩٤٢، ضعف موقف الأقباط في البرلمان، والحكومة، وفي حزب الوفد. وكان الوفد من قبل يضم قبطيين في كل حكومة يشكلها، فأصبح يضم قبطيا واحدا، كما يعين عددا أقل من الأقباط لمقاعد البرلمان.

وأدت زيادة جاذبية الإخوان، إلى انزعاج الوفد، بعدما كان قد اطمأن لتخلصه من بعض ما أشيع عنه من موالاته الأقباط. وحتى عندما فاز الوفد في انتخابات ١٩٥٠، وصلت نسبة مقاعد الهيئة القبطية إلى ٢,٥% وهو أدنى مستوى بلغته على الإطلاق ^(٤٤).

وكان الأقباط قد شاركوا في الدعوة لإنشاء الجامعة الأهلية، وكما يوضح الجدولان (١٦) و(١٧) أصبح تمثيلهم جيدا بعد ذلك في الجامعة العامة. ومع أن الجدولين لا يميزان الأقباط عن غيرهم من المسيحيين، إلا أن السواد الأعظم من المسيحيين كانوا أقباطا (في عينة من طلاب جامعة القاهرة عام ١٩٦٢ بلغت نسبة المسيحيين ١٦% منهم ١٥% أقباط، وأقل من ١% كاثوليك بينما البروتستانت ٣,٠% فقط) ^(٤٥). وفي أثناء الخمسينيات كان تمثيل الأقباط جيدا في الكليات المتميزة (وهي الطب البشري، وطب الأسنان، والصيدلة، والهندسة) إلا أن عددا كبيرا منهم التحق بكليتي الآداب والحقوق اللتين تتيحان فرص عمل أقل بريقا.

وأثارت نسبة الأقباط في المدارس والجامعة استياء بعض المسلمين، وهو ما استغله الأحرار الدستوريون وغيرهم ضد الوفد. واقترحت جريدة السياسة تحديد نسبة لعدد الأقباط المسموح بدخولهم امتحانات المدارس ^(٤٦).

* يقصد المؤلف بهذه النسبة المسيحيين الأرثوذكس - (المترجمة)

وفي بعض الأحيان، كان يطلب من أساتذة الجامعة المسلمين الاقتصاد في منحهم الدرجات العليا^(٤٧). وكانت نسبة الأقباط بين الأساتذة أقل منها بين الطلاب. ففي عام ١٩٥٠ ضمت كلية الآداب ستة أساتذة أقباطا يشكلون ١١% من أعضاء هيئة التدريس. وبالطبع، لم يشغل قبطي منصب رئيس الجامعة. وربما يكون سامي جبرا عميد معهد الآثار، القبطي الوحيد الذي تولى عمادة كلية. كما شكل الأقباط قلة نادرة بين رؤساء أقسام الكليات، من ضمنها لويس عوض رئيس قسم اللغة الإنجليزية. وأثناء فترة رئاسة عوض القصيرة سرت تعليقات متذمرة تطالب بأن رؤساء الأقسام يجب أن يكونوا مسلمين. ولكن الأحقاد الشخصية والسياسية كانت السبب في فصله ضمن حركة التطهير في ١٩٥٤.

ويوضح الجدولان (١٦) و(١٧) أن تمثيل الطلاب الأقباط كان كبيرا في جميع أقسام كلية الآداب، ما عدا قسم الفلسفة (ونلك لأن لهم فلسفتهم الخاصة أساسا) وقسم اللغة العربية (حيث لم يكن لهم تواجد تقريبا) ولم يلتحق أي من المسيحيين بدار العلوم. وفي عام ١٩٥٠ كان ثلاثة من بين الأساتذة الأقباط الخمسة من أساتذة المصريات. أما الآخرون فمن قسم اللغة الإنجليزية، وهو مجال لم يكن اشتراك الأجانب والمسيحيين فيه محل جدل مثله مثل المصريات، واللغة الفرنسية، واليونانية واللاتينية. أما قسم اللغة العربية. فلم يكن به أساتذة أقباط^(٤٩).

ويرجع تجنب الأقباط لقسم اللغة العربية إلى أنه لا يكاد يوجد بينهم من يجيد تماما الأدب العربي الفصيح كما وجد في القرآن، أما المسلمون، فهم يتشربون القرآن منذ الميلاد تقريبا. كما كان أدب الحديث النبوي وغيره من آداب التراث يرتبط أيضا بالإسلام إلى الحد الذي يجعل من الصعب على المسيحيين التوافق معه. أما الأقباط ذوو الميول الأدبية، فوجدوا مجالهم في الصحافة، مثل سلامة موسى، أو في قسم اللغة الإنجليزية مثل لويس عوض. بل، وحتى إن وجد القبطي الذي لديه المعرفة التامة بالقرآن والأدب العربي الفصيح، فسوف يمنع من تدريس اللغة العربية بالمدارس العامة لأسباب دينية^(٥٠)، ترجع لخشية المسلمين أن يخفي تدريس الأقباط للغة العربية وراءه نشاطا تبشيريا.

ويفسر هذا السبب قلة المسؤولين الأقباط في وزارة المعارف، ففي عام ١٩١١ شكلوا ٦% فقط من موظفيها برغم زيادة تمثيلهم في الوزارات الأخرى^(٥١). ولم يشغل قبطي منصب مدير مدرسة ثانوية من المدارس

العامة في ظل العهد الملكي، باستثناء واحد أمضى في المنصب فترة وجيزة. كما لم يتول أي منهم وزارة التعليم، أو الداخلية، أو العدل، أو الأوقاف. وشكا الأقباط من عدم تمثيلهم في مجمع اللغة العربية؛ إلا أن عددا منهم نال عضوية المجمع فيما بعد^(٥٢).

وشكل تدريس الدين بالمدارس العامة قضية حساسة أيضا. ففي الجامعة، كانت العلمانية قوية بما يكفي لمقاومة الضغوط التي تحدث أحيانا من أجل تدريس الدين الإسلامي إجباريا^(٥٣). ولكن الأمر لم يكن كذلك في المدارس الابتدائية والثانوية، حيث كان الجميع، بل وحتى لطفي السيد وطه حسين، يؤمنون أن تعليم الإسلام الصحيح أمر هام. وكان سلامة موسى، وحده من بين الأقباط الذي دافع عن إبعاد الدين عن المدارس. وقد أعلن دستور ١٩٢٣، أن الإسلام هو الدين الرسمي للدولة، إلا أنه أكد أيضا على المساواة بين الأديان أمام القانون، وحرية العقيدة والعبادة (دون إخلال بالنظام العام والأخلاقيات). ومع ذلك، تجنبت الحكومات المتعاقبة إصدار قرار بإعفاء غير المسلمين من حضور حصص الدين الإسلامي. وحتى عندما سمح للمسيحيين بالانسحاب من هذه الحصص، نادرا ما كانت الدولة تعين من يقوم بتدريس الديانة "الأخرى". فكان تعليم الدين المسيحي يبدو من الناحية العملية غير متاح في المدارس الأولية، وإنما يوجد فقط على نحو متفرق في المدارس الابتدائية والثانوية التي تضم عددا كبيرا من الأقباط^(٥٤).

ومع ما أثارته مادة الدين من مشكلات، لم يكن الطلاب يأخذونها بجدية، لأنها لا تدخل ضمن الامتحان النهائي للشهادة الثانوية الذي يتحكم في الالتحاق بالجامعة^(٥٥).

جدول رقم (١٦)
النسبة المئوية للطلاب المسيحيين بكليات جامعة القاهرة

جميع الكليات	دار العلوم	الحقوق	الآداب	التجارة	الزراعة	العلوم	الهندسة	الطب البيطري	الصيدلة	طب الأسنان	الطب البشري	العام الجامعي
٢٢	--	٧	٢٤	١٦	١٧	٢٦	٢٦	٢٨	--	--	٤٢	-٤٩ ١٩٥٠
٢٤	--	٨	٢٥	١٩	١٩	١٧	٢١	٣٠	٣٩	٤١	٣٣	-٥٧ ١٩٥٨
--	--	١٢	**٩	--	--	*١٣	١٧	--	--	--	٢٥	١٩٦٢

ملحوظة : أرقام ١٩٦٢ مأخوذة من عينة تمثل حوالي ١٣% من المقربين بالسنوات النهائية
(*) من الواضح أن الرقم يمثل الطلاب في قسم الفيزياء نظرا لأن طلاب البيولوجي قيدوا ضمن طلاب الطب.
(**) يضم الرقم المسيحيين الذين يمثلون ١٢% في الدراسات الإنسانية، ٥% في العلوم الاجتماعية.
المصادر :

jean jaque waardenburg : "Les Universites dans Le monde arab actuel (paris, 1966)

الجزء الثاني من ص ١٣١ - ١٣٤
- في العام الجامعي ٤٩/ ١٩٥٠ كان ٧٧% من طلاب الجامعة مسلمين، ونسبة لا تكاد تذكر من اليهود (٠.٦%). أما في عام ١٩٥٧ فكان المسلمون ٧٦%، في حين اختلفت اليهود تقريبا (٠.٢%)

جدول (١٧)
بيان الانتماء الدينى لخريجي أقسام كلية الآداب
(جامعة القاهرة)

١٩٥٠				١٩٤٠				١٩٣٠				القسم
إجمالي	غير معروف	مسلم	مسيحي	إجمالي	غير معروف	مسلم	مسيحي	إجمالي	غير معروف	مسلم	مسيحي	
٢٩	١	٢٧	١	٢١	-	٢٠	١	٧	٢	٥	--	اللغة العربية
٣٩	٣	٢٢	١٤	٤٦	١	٣٣	١٢	١	--	--	١	اللغة الإنجليزية
١٦	--	٧	٩	٢٣	٢	١٣	٨	--	--	--	--	اللغة الفرنسية
١٠٠	٤	٥٩	٣٧	٤٢	٣	١٣	٨	٢١	--	١٥	٦	التاريخ
٤٦	١	٣٨	٧	٣٠	١	٢٣	٦	٩	١	٥	٣	الجغرافيا
٢٠	١	١٨	١	٨	١	٧	--	١١	--	١٠	١	الفلسفة
٣٨	٣	١٧	٨	--	--	--	--	٦	١	٣	٢	علم الاجتماع
٢	--	١	١	٣	--	٢	١	١	--	--	١	اليونانية
												واللاتينية

ملحوظة : كان علم الاجتماع فرعاً من قسم الفلسفة في ١٩٤٠، ولم يكن تخصصاً مستقلاً.

المصدر : تم تجميع البيانات من الكتاب الفضي ص ص ٢١١ - ٢١٥، ٢٦٣ - ٢٧١، ٢٨٤ - ٣٩٤

رحيل المستشرقين :

"ومن أحسن ما قرأت في هذه الفترة... كتاب تاريخ الفلك عند العرب للأستاذ "تالينو"، قرأته بإمعان واستفدت منه كيف يبحث كبار المستشرقين، وكيف يصبرون على البحث، وكيف يعيشون في المادة التي تخصصوا فيها، وكيف يسبرون في بحثهم من البسيط إلى المركب في حذر وناة. فإذا قلت أنني استفدت منهج البحث من هذا الكتاب لم أبعد عن الصواب" (٥٦).

ولم يكن أحمد أمين الأستاذ بالجامعة ليستطيع أن يعبر عن شعوره بالامتنان نحو تالينو بعبارات أقوى من هذه العبارات، كما كان لدي طه حسين، ومنصور فهمي، وعدد آخر غيرهم نفس هذا الشعور.

وهاجم النقاد - خاصة من الأزهر - طه حسين بسبب اقتباسه من الغربيين في أمور شديدة الصلة بالهوية الدينية والقومية، كما اتهموا المستشرقين بالتحالف مع الإرساليات التبشيرية لهدم الإسلام، ومن ثم استنكروا إقبال الجامعة على تعيين المستشرقين وخلفائهم من المصريين الذين تدربوا على أيديهم. وكان أعنف الهجوم على المستشرقين يأتي من خارج جامعة القاهرة، الأمر الذي ليس هذا مجال تفصيله. كما ثار الجدل حول نفس القضية في عدة منابر هامة من بينها مجلة رشيد رضا "المنار" - مجلة الأزهر "ومجمع اللغة العربية"، وصدرت كتب حولها مثل كتاب محمد البهي الذي تضمن اتهامات خطيرة لحركة الاستشراق، وكتاب نجيب العقيلي الذي مثل دفاعاً جريئاً عنها (٥٧). وفي العشرينيات كان الإعجاب بالمستشرقين مازال قويا بين طلاب الجامعة المصرية؛ فيختتم أحد الطلاب حواراً صحفياً أجراه مع ثلاثة من المستشرقين الذين يعملون بالتدريس فيها قائلاً: "وهكذا أنهيت حواراتي مع الأساتذة المستشرقين العظماء. ولاشك أن كلية الآداب تسعد بوجودهم هنا يعلمون المصريين، ويطلعونهم على أصول اللغة العربية، وتاريخها، وثرائها - وهي مملكة قائمة على البحث والاقتناع، وليس على التعصب والحفظ" (٥٨).

إلا أن الفترة التي تمتع المستشرقون فيها بالنفوذ الأكبر في الجامعة كانت قد انتهت بالفعل، وحل رجال مثل طه حسين، وأمين الخولي، وعبد

الوهاب عزام، وأحمد أمين محل الأساتذة المستشرقين. فاستوعب الأساتذة المصريون ما بدا لهم مفيدا من أساليب المستشرقين، كما تبنا بعض آرائهم. وأصبح ما كان يبدو مميزا لثقافة الغرب والمستشرقين، أمرا مألوفا. ولم يكن أولئك الذين درسوا على يد طه حسين وأحمد أمين مدركين تماما للأصول الأجنبية لبعض أفكار أساتذتهم. وفي إحدى المرات وصف نالينو سهير القلماوى (تلميذة طه حسين في الثلاثينيات) بأنها حفيذة، ولكنها ذكرت أن المستشرقين على أيامها كانوا يتولون التدريس أساسا في فرع اللغويات من القسم الذي تخرجت منه، ومن ثم كان تأثيرهم عليها طفيفا^(٥٩).

وكما توضح ملاحظة سهير القلماوى، فإن تدريس اللغة العربية كان قد أصبح قاصرا على المصريين بالأساس، والمسلمين منهم بالذات. فأمين الخولي - وليس مستشرقاً أوروبياً - هو الذي ترك أثرا قويا على جيل الطلاب الذي ضم نجيب محفوظ، ويحيى حقى، وعادل كامل^(٦٠).

وأعيد تنظيم قسم اللغة العربية واللغات السامية، كما تغيرت تسميته عدة مرات، وفي بعض الأحيان كان ينقسم إلى قسمين منفصلين^(٦١). وبمجرد أن استخلص الأساتذة المصريون لأنفسهم القسم المتخصص في اللغة والأدب العربيين بما له من أهمية جوهرية، قل الإلحاح على تمصير تدريس قسم اللغات "الشرقية". ولعلها لم تكن مصادفة ألا يتخصص القبطي الوحيد البارز في هذا المجال - "مراد كامل" - في اللغة العربية، وإنما في اللغات السامية الأخرى. وكان الطالب العادي في قسم اللغة العربية لا يتعرض لدراسة العبرية والسيريانية، والفارسية، والتركية إلا على نحو سطحي. ويكاد لا يكون هناك من تخصص في المجالات الصعبة مثل اللغات السامية المقارنة، والتي ظل المستشرقون يتولون تدريسها.

وفي ١٩٢٥، أعاد الملك فؤاد المستشرقين الإيطاليين إلى الجامعة المصرية، كما أوضحنا، إلا أنهم اختفوا منها عام ١٩٣٣؛ ولم يستطع البريطانيون سد الفراغ بمواطنيهم، كما أنه لم يكن من الممكن أن يسمحوا بتعيين فرنسيين، ومن ثم أصبح للمستشرقين المتحدثين بالألمانية الغلبة في الجامعة إبان الثلاثينيات. وبرز أيضا عالم المصريات النمساوى "هرمان جنكر" في تلك الفترة.

وكان ممكنا، حتى عام ١٩٤٠، أن يتولى تدريس اللغة العبرية، أستاذ يهودي - كما كان في مصر، فيما بين الحربين، يهودي نال عضوية مجلس الشيوخ ومجلس الوزراء - فقد حصل "إسرائيل ولفنسون" (المولود بالقس)

على درجتى الدكتوراه من الجامعة المصرية الأهلية وجامعة فرانكفورت، وكان يكتب بالألمانية والعربية والعبرية، وكتب كل من طه حسين ومصطفى عبد الرازق مقدمة أحد كتبه الصادرة باللغة العربية. كما حاول و"فنسون" من خلال اتحاد الشباب المصري اليهودي دفع اليهود للمشاركة في معركة استقلال مصر، ولكنه لم ينجح. وأثناء الحرب العالمية الثانية هاجر إلى فلسطين، وغير اسمه إلى "بنزييف"، ثم أصبح إسرائيلياً. وكانت عائشة عبد الرحمن - التي ستصبح أستاذة جامعية فيما بعد - تستاء من تأكيده على وحدة الأصول العبرية - العربية، والصلة الوثيقة بين اليهود والعرب. وترى أنه، وكذلك (شاخت) - الذي يظن البعض، خطأ، أنه يهودي - جزء من مؤامرة تضم اليهود والمستشرقين لتقويض الحركة العربية والإسلام^(٦٣).

وعلى أية حال، كان الوجود الاستشراقى يتلاشى بصورة سريعة في الأربعينيات. إلا أن المستشرقين استمروا في مجمع اللغة العربية، حيث أشاد طه حسين بقيمتهم العلمية هناك. كما أعلن أنه من الضروري أن نتناسى السياسة عندما نتناقش الشئون الأكاديمية - فهل يجب أن أساند الاستعمار الفرنسي، أو أتفق سياسياً مع جورج مارشيه حتى أعترف بفضله على دراسة اللهجات العربية في شمال أفريقيا^(٦٤) ؟

ومع ما يدور اليوم من جدل عنيف في الغرب، كما في العالم الإسلامي، حول حركة الاستشراق؛ إلا أن هناك اختلافات هامة بين موقف أدوار سعيد المعادي للاستشراق، وبين موقف عائشة عبد الرحمن الذي يتميز بالدوافع الدينية بشكل أكبر^(٦٥).

قضية محمد أحمد خلف الله :

رغم أن معظم المستشرقين كان قد غادر الجامعة عام ١٩٤٧، إلا أن قضية "محمد أحمد خلف الله" توضح أن آثارهم بقيت مثيرة للجدل، مثلما كانت قبل عشرين عاماً مع طه حسين. فقد جاءت أطروحة خلف الله لنيل الدكتوراه عن القصص القرآني، في توقيت سيئ؛ فالاضطراب يغمر مصر بعد الحرب العالمية الثانية (نلك الاضطراب الذي سيسفر عن قيام ثورة فيما بعد) وبريطانيا مازالت في منطقة القناة والإخوان المسلمون منتشرون في

الشوارع، بينما تتولى الحكم حكومة بلا شعبية يساندها القصر. وكان ذلك عام قرار تقسيم فلسطين الذي أصدرته الأمم المتحدة^(٦٦).

ولم يكن طه حسين هو المشرف على رسالة خلف الله، وإنما أمين الخولي الأكثر احتراسا. وقد تخرج الخولي من مدرسة القضاء الشرعي، لذلك فهو لم يدرس رسميا على أيدي المستشرقين. وكما حدث مع الطهطاوي منذ قرن من الزمان، أتاحت له فترة العمل "إماما" لدى بعض السفارات المصرية في أوروبا احتكاكا مباشرا بالغرب، كما أنه تميز بسعة الاطلاع. وما أن بدأ العمل بالتدريس في الجامعة المصرية، حتى أصبح له أيضا زملاء من المستشرقين. ونظرا لالتزام الخولي بما تعلمه في مدرسة القضاء الشرعي، فقد سلك طريقا وسطا فيما يتعلق بقضايا الدين : فاحتفظ بزي الشيوخ بين الأساتذة الأفنديا حتى أن شوقي ضيف، أحد تلاميذه المعجبين به، شعر أنه من الضروري التأكيد أن ذلك لا يعنى عقلا جامدا^(٦٧). وكان الخولي يصر على أن يقرأ طلابه كل شيء بعين ناقدة. وقد تزوج من سيدة غير عادية ذات ثقافة عالية، كان صيتها قد ذاع بالفعل، وهي تلميذته عائشة عبد الرحمن.

ويعكس تقييم الخولي للمستشرقين منهجه الوسطي. فكان معجبا بأساليب المستشرقين إلا أنه انتقد كتابات "جوزيف شاخنت" و"بول كروس" - زميليه في جامعة القاهرة - والتي نشرت في "الموسوعة الإسلامية"^(٦٨). ولم يكتب الخولي أبدا في تفسير القرآن، وهو الأمر الذي اضطلعت به أرملته بعد وفاته (ركزت عائشة عبد الرحمن، في أول تفسير قرآني تكتبه سيدة، على النواحي الأدبية، أكثر من تركيزها على الموضوعات الدينية، كما أكدت في حذر شديد، على الإطار التاريخي ومؤثراته)^(٦٩).

وسار محمد أحمد خلف الله على درب الخولي في احتراس، مركزا على دفاعه الخاص عن الإسلام في مواجهة المستشرقين، بينما يستخدم بعض أساليبهم في البحث. فهو يتهم المستشرقين بالتضليل عندما شككوا في حقيقة بعض القصص القرآنية، وأنهم جاوزوا الصواب عندما عجزوا عن التمييز بين القصص التاريخية وبين الرمز والمجاز. وأشار إلى أن القصص الرمزية والمجازية، الهادفة إلى نصح المستمع وتحذيره، إنما تعبر عن "الحقيقة الأدبية" وليس الواقع التاريخي. كما ركز خلف الله في رسالته على المسائل النفسية والاجتماعية، مثل التصوير القرآني للنبوّة، وأحوال النساء، تاركا بحث الحقائق الدينية للآخرين ولكن كل هذا الاحتراس، لم يرد عنه

المتمسكين بالمعنى الحرفي من المسلمين، الذين أدانوا أسلوبه باعتباره مأخوذاً من الغرب وغير مقبول كلية.

ولم ينجح خلف الله في الامتحان لأن اثنين من أعضاء اللجنة الممتحنين أسقطاه، هما أحمد أمين وأحمد الشايب. وقيل أن الشايب فعل ذلك نكاية في أمين الخولي الذي سبق أن أسقط أحد تلاميذه.

ولكن العاصفة الحقيقية هبت خارج جامعة فؤاد الأول: من الأزهر. وقد أجرت "الرسالة" مناظرة بين خلف الله وبين مهاجميه، الذين اتهموه باستلهم أفكاره من مبشر مسيحي يدعى "سانت كلير"، في إخراج التأويلات القديمة للقرآن عن سياقها، علاوة على اتهامه بالتدليل على أن محمداً هو الذي ألف القصص القرآني وليس الله، كما استكروا التسليم للنقد التاريخي والأدبي الزائل، بالحكم على كتاب الله الدائم.

ودافع خلف الله عن نفسه، مؤكداً على تدينه وتقواه، مستلهماً روح محمد عبده في النضال ضد منتقديه. إلا أن الخلاف دخل منعطفاً ينذر بسوء، حين توعدّه منتقدوه بأن "حكم الإسلام على المرتد معروف" (٧٠) وأن: "إحراق الرسالة غير كاف؛ فعليك أولاً أن تقوم بإحراق الشيطان الذي يملأ روحك بأباطيله ويسلطها عليك. فإذا أحرقت الشيطان، استقل من كلية الآداب وشهادتها للدكتوراه، ولتختل بنفسك في حجرتك حيث يمكنك أن تنتحب على تضليل الشيطان إلى أن يتقبل الله توبتك" (٧١).

وطالب المنتقدون بوقف خلف الله، والخولي "الدعامة الأولى في هذه الجريمة" (٧٢) انتظاراً لتحقيق المفتي الأكبر، وفصل الخولي من مجلس أساتذة الأزهر، وتطهير المدارس والجامعات من الكفر وتقديم تعاليم الإسلام الصحيح.

وحصل أعداء خلف الله على نصف ما كانوا يأملونه، إلا أنه كان كافياً لترويع أولئك الذين كانوا يميلون إلى السير في طريقه؛ فقد أصرت جامعة فؤاد الأول على إعلان رفض التدخل الخارجي من الأزهر. ولكن كان على خلف الله أن يستقيل من عمله كمعيد بالجامعة، وأن يكتب رسالة جديدة في موضوع بعيد عن الدين حتى يحصل على درجة الدكتوراه. وفي عام ١٩٥٣ نشر رسالته الأولى - غير نادم - ومعها مقدمة الخولي، وفي ذلك الحين كان عهد جديد قد بدأ في الجامعة، ومصر، بل والعالم العربي.

الهوامش

- ١ - Mahmud Abd al - Rahman Shafshak, *"The Role of the University in Egyptian Elite Recruitment : A Comparative Study of AL- Azhar and Cairo Universities"*, Unpublished PHD dissertation, University of Chicago, 1964, p. 319.
- ٢ - المرجع السابق ص - ص - ٢٥٢ - ٢٥٣ .
- ٣ - Reid, Donald M. *Lawyers and Politics in the Arab World, 1880- 1960*. Mineapolis, Minnesota, 1981, pp. 44-457.
- ٤ - Eccel, *Azhar*, pp. 257 - 60.
- ٥ - عبد المنعم الدسوقي الجميعة ، مدرسة القضاء الشرعي : دراسة تاريخية لمؤسسة تعليمية ١٩٠٧ - ١٩٣٠ (القاهرة ١٩٨٦) .
- ٦ - Eccel, *Azhar*, pp. 235, 257 262.
- ٧ - المرجع السابق ص - ص - ٢٩٠ - ٢٩٢ .
- ٨ - Eccel, *Azhar* p. 293.
- ٩ - Eccel, *Azhar*, pp. 233-34; Shafshak, *"University"*. pp. 305, 306; Waardenburg 2 : 82.
- ١٠ - Eccel, *Azhar*, pp. 244 - 245. and Waardenburg 2 : 119.
- ١١ - Waardenburg 1 : 251. وحول بقية الفقرة انظر : Eccel, *Azhar*, 279 - 81.
- ١٢ - Berque, *Imperialism*, p. 509.
- ١٣ - Azmy, *"University Tradition"*, pp. 260-266.
- ١٤ - المرجع السابق ص ٢٦٦ و Eccel, *Azhar*, p. 396.

- Eccel, Azhar, pp. 263-67, 275 - 77, 281 - 83. -١٥

حول الصراع الوظيفي .

١٦- أبناء كلية اللغة العربية ، قضية اللغة العربية بين كلية اللغة ودار العلوم - ١ مايو ١٩٤٦ (القاهرة ١٩٤٦) .

١٧- قضية اللغة العربية : مذكرة مرفوعة إلى مقام حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم من طلبة كلية دار العلوم ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م (القاهرة ١٩٤٦) .

١٨- حول هذه الفقرة انظر ، طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر ، ص- ص- ٢٩٠ - ٢٩٤ .

١٩- المرجع السابق ص- ٣٥٤ .

٢٠- المرجع السابق ١٧٣ - ١٧٤ .

٢١- المرجع السابق ص- ٢٩٩ .

٢٢- المرجع السابق ص- ٣٨٧ .

٢٣- المرجع السابق ص- ص- ٣٧٢ - ٤٥٠ . و:

Crecelius, "Ulama", pp. 307 - 09, 316 - 28.

٢٤- هيكل ، منكرات ... الجزء الثاني ص- ١٠٥ - ١١٩ .

٢٥- سيرة ذاتية في : عبد الرازق ، آثار مصطفى عبد الرازق ص- ص- ٥ - ٧٦ . و:

- Crecelius, "Ulama", pp. 329 - 30, and Berque, Imperialis, p. 510.

- Eccel, Azhar, pp. 262, 292. -٢٦

٢٧- عبد الجواد ، دار العلوم ص- ص- ٢٣٦ - ٢٦٧ . بخصوص خريجي دار العلوم الذين تولوا التدريس في الجامعة . وحول هذا الفصل انظر أيضا : شوقي ضيف "معى" (القاهرة ١٩٨١) . و: أحمد أمين : "حياتي" . وكمال سعيان ، "أمين الخولي" (القاهرة ١٩٨٢) . وتقديم يحيى الخشاب لعبد الوهاب عزام في مجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة) ١٩ (مايو ١٩٥٨) ص- ص- ٣ - ١٠ . انظر أيضا حامد شعبان ، أمين الخولي والبحث اللغوي (القاهرة ١٩٨٠) وإن كنت لم أطلع على نسخة من هذا الكتاب .

٢٨- سعد هجرسي ، مقابلة ٢٥ فبراير ١٩٨٣ .

٢٩- ضيف ، "معى" ص- ٨٩ . وحول الحملة لتغيير زى طلاب دار العلوم ولقبهم انظر : عبد الجواد "تقويم دار العلوم" ص- ص- ٥٥١ - ٥٥٤ .

٣٠- أحمد شلبي ، "رحلة حياة" (القاهرة ١٩٨٢) .

٣١- أحمد عبد الله "الطلبة والسياسة" . ص- ٦٢ . وعن البنا انظر :

"Mitchel, Muslim brothors" ، خاصة الصفحات ١ - ١١ . أما عن قطب فانظر :

Gilles Kepel, *Muslim Extremism in Egypt : The Prophet and Pharaoh*, trans. Jon Rothschild (Berkeley, California, 1986), pp.

36 - 42; Adnan Mahmoud Musallam, *"The Formative Stages of Sayyid Qutb's Intellectual Career and His Emergence as an Islamic Da'iyah, 1906 - 1952"*, Unpublished Phd dissertation, University of Michigan, 1983; Olivier Carre, *Mystique et Politique : Lecture revolutionnaire du Coran Par Sayyid Qutb, Frere musulman radical* (Paris 1984).

- ٣٢ - ذكر قطب أنه ولد في ١٩٥١ . - Keppel, *Muslim Extremism*, p. 41.

- Mitchell, *Muslim Brothers*, p. 4 - ٣٣

- Shafshak, *"University"*, p. 173. والاستشهادان التاليان من :

- Mitchell, *Muslim Brothers*, pp. 211 - 12. - ٣٤

- ٣٥ - توجد خلفية لهذا الفصل في :

- B.L. Carter, *The Copts in Egyptian Politics* (London, 1986).

- ٣٦

- Charles Issawi, *"The Transformation of the Economic Position of the Millets in the Nineteenth Century"*, in Benjamin Braude and Bernard Lewis, eds., *Christians and Jews in the Ottoman Empire : The Functioning of a plural Society*, Vol. 1 : The Central Lands (New York 1982), p. 264; Doris Behrens-Abouseif, *"The Political Situation of the Copts"*, in Braude and Lewis, *Christians and Jews*, 2 : *The Arabic-Speaking Lands*, pp. 185, 186.

- ٣٧

Gilbert Delanoue, *"Reflexions et questions sur la politique scolaire des vice-rois reformateurs"*, in *L'Egypte au XIXe siecle, Colloques internationaux du Centre National de la Recherche Scientifique*. No. 594, Group de Recherches et d'etudes Sur La Proche-Orient (Paris, 1982), p. 323.

- ٣٨

- Gorst's 1911 report, quotes in Kyriakos Mikhail, *Copt's and Moslems under British Control* (1911; reprint ed., Port Washington, New York, 1971), p. 44.

- ٣٩- جريدة الوطن ٧ أكتوبر ١٩١٠ كما ورد في
- Behrens-Abouseif, "Political Situation", p. 198.
-٤٠
- Abdel Aziz Chaouiche, in *Recueil des travaux du Premier Congrès Egyptien* (Alexandria, 1911), pp. 156 - 159, and Carter, *Copts*, p. 244.
- Carter, *Copts*, pp. 58 - 88. -٤١
- ٤٢
Gabriel Baer, *Population and Society in the Arab East* (New York, 1964), p. 97.
- Carter, *Copts*, pp. 128 - 53. -٤٣
- ٤٤ - المرجع السابق ص-ص ١٤٢ - ١٥٣ .
-٤٥ - Shafshak, "Universities", pp. 131 - 133.
- ومن المحتمل ان العديد من البروتستانت والكاثوليك كانوا أيضا من أصول قبطية .
-٤٦ - "المصري" ١٦ سبتمبر ١٩٢٩ ، كما ورد في :
- Carter, *Copts*, p. 245, n.30.
- ٤٧ - معلومات تأكدت من مقابلات مع أساتذة مسلمين .
-٤٨ - شكل الأوروبيون ١٦% والمسلمون ٧٥% . وبلغ إجمالي العدد ٥٨ أستاذًا من بينهم مصري غير معروف الديانة . جامعة فؤاد الأول : الكتاب الفضي لكلية الآداب ١٩٢٥ - ١٩٥٠ (القاهرة ١٩٥١) ص-ص ٣٢ - ١٤٣ .
-٤٩ - المرجع السابق .
-٥٠ - يبدو أن الحظر أصبح رسميا في عام ١٩٤٠ . المصري ، ١٢ ابريل ١٩٤٦ كما ورد في :
- Cater, *Copts*, pp. 129, 223 - 30.
- ٥١ - Mikhail, *Copts*.p. 44.
- ٥٢ - Carter, *Copts* pp. 212, 214, 221, 295.
- قبطيان على الأقل في "مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما" - الجزء الثاني /المجمعيون (القاهرة ١٩٦٦) .
-٥٣ - على سبيل المثال طلب من طلبة كلية الحقوق في مارس ١٩٣٧ ، و"المصري" ٧ مارس ، كما ورد في :
Carter, *Copts*, p. 228, 258. n.,147.

Carter,. *Copts*, p. 129, 223 - 230. -٥٤

- Eccel, *Azhar*, P. 431. -٥٥

- ٥٦- أحمد أمين ، "حياتي" (القاهرة ١٩٦١) ، ص- ص- ١٤٩ - ١٥٠ .
 ٥٧- محمد البهي ، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي (الطبعة الثامنة ، القاهرة ١٩٧٥) ، وقد استشهد في أكثر من موضع بكتاب نجيب . العقيقي "المستشرقون".
 ٥٨- سالم فريد ، صحيفة الجامعة المصرية (١ مايو ١٩٤٩) : ١١٤ .
 ٥٩- سهير القلماوى - مقابلة - ١٩ فبراير ١٩٨٣ .
 -٦٠.

- Somekh, *Changing Rhythm*, pp. 27 - 28.

- ٦١- أحمد الشايب ، دراسة أدب اللغة العربية بمصر في النصف الأول من القرن العشرين (١٣٢٠ - ١٣٧٠ هـ) : فؤاد - مناهج - آثار علمية (القاهرة ١٩٦٦) ص- ص- ١٧ - ١٩ .
 -٦٢

- "Murad Kamil", *Bulletin de la Societe d'Archeologi Copte* 23 (1976 - 79) : 299 - 301 .

- ٦٣- عقيقي ، المستشرقون ، الجزء الثاني ٤٦٠ . و :
 - William N-Brinner, "An Egyptian Anti- Orientalist", in Gabriel R.Warburg and Uri M. Kupferschmidt, *Islam, Nationalism, and radicalism in Egypt and the Sudan* (New York, 1983), pp. 239,246,n. 19; Gudrun Kramer, "Radical Nationalists, Fundamentalists, and the Jews in Egypt, or who Is a Real Egyptian?" in Warburg and Kupferschmidt, *Islam*, p. 360.
 و: يحيى الخشاب - مقابلة - ١٤ مارس ١٩٨٣ .
 - Hamzaoui, *Academi*, p. 107. -٦٤

- Brinner, "Anti-Orientalist", *Islam*. -٦٥

- ٦٦- المصادر الأولية هي : محمد أحمد خلف الله ، الفن القصصي في القرآن الكريم (الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٥) . وصحيفة الرسالة بداية من ١٥ سبتمبر ١٩٤٧ . كما رجعت أيضا إلى:

"Quelques Positions actuelles de L'exegese coranique en Egypte revelees par un Polemique recente (1947 - 1951)," *Melanges*,

Institut dominican d'Etudes Orientales du Caire, 1 (1954) : 39 - 72.

و:

Yvonne Yazbeck Haddad, *Contemporary Islam and the Challenge of History* (Albany, New York, 1982), 46- 53.

٦٧- ضيف "معي" ص- ص- ١٠٥ - ١٠٦ .

٦٨- كمال سعيان ، أمين الخولي " (القاهرة ١٩٨٢) ص- ص- ١٦٦ - ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٦ .

-٦٩

- J.J G. Jansen, *The Interpretation of the Koran in Modern Egypt* (Leiden, 1974), pp. 65 - 72.

- Jomier, "positions", p. 48. ٧٠- وردت في

- Haddad, *Contemporary Islam*, p. 50. ٧١- وردت في :

٧٢- مجلة الأزهر ١٩ (محرم ١٣٦٧ هـ - [١٩٤٧]) : ٨٩ .

القسم الثالث
في ظل عبد الناصر
١٩٥٢-١٩٦٧

[٩]

نهاية النظام القديم

في ١٩٥٠، احتفلت جامعة فؤاد الأول بعيدها الخامس والعشرين بينما كانت مصر تمر بمتاعب خطيرة. وعاد النحاس - في الواحدة والسبعين من عمره - على رأس حكومة وفدية، في محاولة أخيرة، ولكن الحزب لم يعد يفي ببقية الآمال المعقودة عليه. وعلت الوجوه دهشة عندما قبل النحاس يد الملك البدين، الذي أصبحت حياته الليلية مثار حرج قومي - كما كانت إسرائيل قد هزمت مصر، وما زالت بريطانيا تحتل قناة السويس. ويستحوذ ٤٠% من ملاك الأراضي الزراعية على ثلث المساحة المزروعة، بينما يمتلك ٩٤% من الملاك ٣٦% منها فقط، ولم يكن العديد من الفلاحين يملك أرضاً على الإطلاق^(١). صحيح، أن حكومة الوفد أدخلت إصلاحات على التعليم، ووفرت الضمان الاجتماعي لبعض العمال، ورفعت ضرائب الدخل والأراضي على الأغنياء.. إلا أن المحافظين مثل وزير الداخلية فؤاد سراج الدين ضمنوا ألا تضار طبقتهم على نحو جدي.

وكان كل من يسار الوفد، والحزب الاشتراكي (مصر الفتاة سابقاً)، والإخوان المسلمين، والتيارات الماركسية الصغيرة، وجماعة الضباط الأحرار السرية، يتطلع إلى تحول بعيد المدى، وإن اختلفوا حول مدى هذا التحول واتجاهه. كما تصدر طلاب الجامعة والمدارس الثانوية احتجاجات الشوارع إلى جانب الطبقة العاملة النامية.

وباتت أيام النظام القديم معدودة، كأيام البريطانيين والفرنسيين في الجامعة، بل وأيام الجامعة الليبرالية نفسها كما تصورها رجال مثل لطفي السيد وطه حسين وعلي مشرفة وعلي إبراهيم.

الكتابات النقدية الليبرالية حول الجامعة :

عقب قيام ثورة ١٩٥٢ بوقت قصير، نشرت دراستان بعيدتا الأثر حول الجامعات المصرية : الأولى "تحو جامعات أفضل" لعثمان أمين، والثانية "تقرير لجنة التعليم الجامعي للرئيس الدكتور علي ماهر". وفي عهد عبد الناصر، نفذ عدد قليل مما اشتملت عليه الدراسات من توصيات، لكن

التوصيات الأخرى كانت تختلف اختلافا كبيرا عن جدول أعمال النظام الجديد ؛ فقد كان الأكاديميون الذين صاغوا تقرير علي ماهر في الستينيات والسبعينيات من العمر ، وهم يعيشون في عالم ذهني يختلف عن عالم الضباط الشبان المتحمسين قليلي الخبرة ، الذين استولوا على الحكم لتوهم .

وكان عثمان أمين أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة ، من تلامذة مصطفى عبد الرازق ، ومن ثم فهو من تلاميذ محمد عبده على نحو غير مباشر ، وقد اقترح أمين تكريم ذكره بإنشاء كرسي في الآداب يحمل اسمه ^(٣) . كما عمقت دراسة أمين في السوربون من معرفته بديكارت ، وغيره من الفلاسفة الغربيين . وظهرت "نحو جامعات أفضل" في بادئ الأمر على هيئة سلسلة مقالات نشرت بالأهرام فيما بين ١٩٤٨ وسبتمبر ١٩٥٢ . وأعلن أمين أن الجامعة لها وظيفة مزدوجة : تكوين صفوة مختارة من شبيبة الأمة وإعدادها لقيادة بلادها ، والعمل على تقدم المعارف الإنسانية بتشجيع البحث العلمي الأصيل ، ولا يجب أن يقل أي من الجانبين شأننا عن الآخر ^(٤) .

وقد أرسى المقال الأول "الجامعة في خطر" عام ١٩٤٨ اتجاه باقي السلسلة ، حيث حذر فيه من أن مستوى الجامعتين القائمتين أدنى كثيرا من المستويات الغربية ، وأشار إلى أنه من الأفضل تحسين أحوالهما بدلا من إنشاء جامعة ثالثة . ففي الواقع "أرى أنه من الأفضل لمصر كرمز للعالم العربي الحديث ، أن يكون لديها جامعة واحدة بالمعنى الصحيح للكلمة ، من أن يكون بها العديد من المعاهد العليا التي تعتبر جامعات بالاسم فقط" ^(٥) .

كما رأى أن الجامعات المصرية لا تزيد كثيرا عن كونها مدارس ثانوية ، لافتقارها إلى الطابع العقلي ، والحرية الأكاديمية اللازمين لقيادة حركة تنوير الرأي العام . بينما بدا أمين قانعا بأن الجامعات مفتوحة على نحو مرض بالفعل أمام أفراد من الطبقات الاجتماعية المختلفة . وأشار إلى أن رحيل الأساتذة الأجانب المتميزين تسبب في تدهور الجامعة بدلا من أن يكون انتصارا للأمة ، وأن الوطني الحقيقي يجب أن يقر صراحة بأنه مازالت هناك حاجة للاستعانة بكبار الأساتذة الأجانب ؛ فالمصريون والأوروبيون المعينون حديثا كانوا غالبا أقل كفاءة ، واعتمدت الجامعتان على المعينين والمدرسين المساعدين الذين يفتقرون إلى الخبرة ولا يكادون يكبرون طلبتهم سنا ، وقليل منهم من يتمتع برؤية واسعة ، أو من سبق له السفر إلى الخارج . كما ذكر أن صغار الأساتذة يهتمون بالترقيات أكثر من اهتمامهم بالإجادة في المحاضرات ، في حين كان العمداء وكبار الأساتذة خارج البلاد غالبا ، أو

تركوا الجامعة من أجل وظائف أعلى. أما في أوروبا، بالمقارنة، فيعتبر الأساتذة مقاعدهم أرفع مكانة من المنصب الوزاري ويلتصقون بها. وفيما يتعلق بالطلاب المصريين، فإن مهم الوحيد هو اجتياز الامتحان والحصول على الشهادة التي هي غاية الغايات؛ عن طريق حفظ الإجابات الصحيحة دون أن يتعلموا التفكير النقدي. فقد كانت "الروح الجامعية" الحقبة مفتقدة^(٦).

ويتفق اثنان من المراقبين الفرنسيين، سجلا تعليقاتهما قبل أمين بسنوات عديدة، على أن مستوى جامعة القاهرة قد تدهور. صحيح، أنه "هناك أكثر من طالب مصري تفخر أي كلية أخرى في العالم بتعليمه، وقد واصل هؤلاء دراساتهم بنفس القدر من التفوق كما لو كانوا في أكسفورد، أو باريس، أو برينستون"^(٧). ولكن معظم الأبحاث التي قدمت إلى قسم اللغة الفرنسية لنيل الليسانس لم تكن لتتال أننى درجات النجاح في فرنسا، الأمر الذي لم يكن كذلك قبل عشر سنوات.

ويبدو الكثير من انتقادات أمين صحيحا، إلا أنه مثل العديد من الإصلاحيين في الشرق الأوسط يقارن وقائع مصرية بغرب منسوب إليه صفات مثالية. فهو يذكر أن الأكاديميات الفرنسية تخاطب كل شخص - سواء كان رئيس الجامعة، أو عميد كلية، أو موظفا - بلقب شعبي "السيد" والطلاب يصلون إلى كلياتهم مبكرين، ويلتزمون بالهدوء في قاعات الدرس، ويملاون قاعات المكتبات. كما أن الجامعات تحيا بمعزل عن السياسات الحزبية، وأنه لم يشهد إطلاقا طالبا باريسيا يتظاهر أو يضرب عن الدراسة أو يشاغب^(٨).

وصدر المقالان الأخيران في هذه السلسلة، بعد وقت قصير من قيام الثورة، واقترح أمين أن تسمى الجامعة باسم موقعها لا بأسماء أشخاص، الأمر الذي ربما يكون عودة إلى التقليد الأصلي "للجامعة المصرية"^(٩). وسرعان ما تحقق هذا فتحولت جامعتا فؤاد وفاروق إلى جامعتي "القاهرة" و"الإسكندرية" ولكن معظم مقترحاته الأخرى لم تكن لتتحقق في ظل نظام يؤمن بزيادة كم الفرص بدلا من النوعية، وسيطرة الدولة بدلا من الحرية الأكاديمية، وبالتطبيق أكثر من المعرفة النظرية.

وكان رئيس لجنة علي ماهر، سياسيا بارعا ترجع خبرته بالحياة الأكاديمية إلى ثلاثين عاما تقريبا. وقد لجأ الضباط الأحرار إليه ليرأس الوزارة في نفس يوم الانقلاب الذي قاموا به، نظرا لضعف ثقتهم في قدرتهم على القيادة. غير أن علي ماهر وقف في وجه الإصلاح الزراعي، فحل

اللواء محمد نجيب محله في سبتمبر ١٩٥٢. وفي أكتوبر، عين إسماعيل القباني وزير التعليم على ماهر رئيسا للجنة مهمتها إعداد تقرير عن أحوال الجامعات، ربما كشكل من أشكال الترضية، وعين في نفس اللجنة أيضا بعض كبار الأكاديميين المصريين الذين يتمتعون باحترام كبير مثل : لطفي السيد، والقاضي عبد الرازق السنهوري، والكيميائي أحمد زكي، والمؤرخ شفيق غربال، والمهندس وليم سالم حنا^(١٠).

وانتقدت النتائج الختامية لتقرير اللجنة، الذي صدر في أغسطس التالي، إلى حد كبير مع آراء عثمان أمين (وهنا أيضا، لم ترد إشارات تذكر عن أن الجامعات الغربية ربما لا تكون مثالية تماما، أو أنها قد لا تكون أفضل النماذج بالنسبة لمصر) كما أصرت اللجنة على ضرورة تعيين الأساتذة الأجانب - إنجليزا كانوا أم أمريكيين، أو فرنسيين، أو ألمان، أو نمساويين - بصرف النظر عن الاعتبارات السياسية^(١١).

وركز تقرير علي ماهر على قضية استقلال الجامعة بمالها من حساسية :

"يحكم التعليم الجامعي اليوم مبدآن مجردان : المبدأ الأوروبي العام في الحرية المطلقة للجامعات... واستقلال الجامعة فيما يتعلق بإدارتها المالية وشؤون ميزانياتها..."

جميع الجامعات العامة هناك حرة، طبقا لمبدأ الشخصية القانونية للجامعة. وينطبق نفس الحال على كل كلية أو معهد للتعليم العالي لا ينتمي إلى جامعة وهذا النظام يسود اليوم معظم بلدان أوروبا وأمريكا الجنوبية، وأي بلد يتبناه يحقق نتائج ممتازة"^(١٢).

كانت الجامعات المصرية بأقسامها وموظفيها الدائمين تتمتع بقدر ضئيل للغاية من الاستقلالية. واقترحت اللجنة أن ينتخب كبار الأساتذة العمداء الذين يشغلون المنصب لمدة عامين غير قابلين للتجديد، وأن يتغير لقب "مدير" الجامعة - الذي يبدو مثل موظف الحكومة البيروقراطي، أو حاكم المديرية - إلى "رئيس"^(١٣). وكان من الغريب أن تأتي التوصيات باستقلال الجامعة من سياسى معاد للديمقراطية مثل علي ماهر، ولكن ماهر لم يكن سوى مجرد انتهازي.

* نقلا عن النص الإنجليزي - (المترجمة)

واستمرت قائمة القصور تتوالى؛ فقد تكس خمسون ألف طالب في ثلاث جامعات، ولم يكن الطلاب يفعلون أكثر من حشو أدمغتهم بالمعلومات من أجل امتحانات آخر العام، بينما يبيع الأساتذة نسخا من محاضراتهم، ويقومون بإعطاء الدروس الخصوصية للطلاب. وأوضح التقرير أنه يجب على الأقسام تقديم محاضرات إضافية رسمية في مجموعات دراسية مفتوحة أمام الجميع، وألا يقوم الأساتذة بأي عمل خارجي دون موافقة رسمية^(١٤). وفي نهاية المطاف، تم تنفيذ العديد من التوصيات: إيجاد منصب أستاذ بلا كرسي (لفتح طريق الترقية أمام المدرسين)، وإقامة مجلس لتنسيق السياسات بين الجامعات (كان طه حسين قد أنشأه عام ١٩٥٠، ولكن الجدل الذي تلا ذلك أجهض عمله) ثم إنشاء لجنة للتنسيق بين الجامعات تقوم بتوزيع الطلاب على الجامعات وكلياتها (أصبحت بعد ذلك مكتب التنسيق)^(١٥). وفيما عدا ذلك لم تلق التوصيات أذنا صاغية؛ فمنذ الذي يعين الأجانب بينما كان الأساتذة البريطانيون قد طردوا لتوهم، والفرنسيون على وشك أن يتبعونهم؟ وكانت استجابة الحكومة للتوصيات محبطة. فجاء العنوان الرئيسي لجريدة الأهرام: "الجامعات" * في مصر منعزلة عن الحياة العامة - ضرورة أن تتفق رسالتها في العام الجديد مع دور الوزارات^(١٦). كان ذلك قبل تطهير الجامعة بعام واحد!.

أقول نجم بريطانيا وفرنسا :

في خريف ١٩٥١ كانت جامعة فؤاد الأول في خضم التيار المعادي لبريطانيا، الذي تموج به مصر. ولم يكن النحاس بقادر - مهما حاول - على الإفلات من الضغوط التي تطالبه بالعمل في حزم على إنهاء الاحتلال. وفي الثامن من أكتوبر اجتاز نقطة اللاعودة، عندما طالب البرلمان بإلغاء المعاهدة الإنجليزية - المصرية من طرف واحد، وكان قد وقعها بنفسه عام ١٩٣٦؛ فانطلقت جموع المهللين تجوب الشوارع، كما ترك العمال في منطقة القناة أعمالهم. وصدرت طوابع البريد تعلن فاروق "ملك مصر والسودان". وسلحت الحكومة المتطوعين، الذين لم تستطع السيطرة عليهم، ثم أرسلتهم إلى منطقة القناة^(١٧).

* نقلا عن الإنجليزية - (المترجمة)

وفي ذلك الخريف، لم يشهد حتى أولئك الطلاب العاديون (من غير المسيسين) قاعات المحاضرات إلا لماماً؛ حيث أضرب الطلاب وقاموا بمسيرات، وانتشرت "كتائب التحرير" المسلحة في الحرم الجامعي. وانسلخ طلاب العلوم والصيدلة يستخدمون علمهم في تصنيع الأسلحة المتفجرة والصغيرة. ثم سافرت أولى كتائب الطلاب إلى القناة في التاسع من نوفمبر. ووقف نائب مدير جامعة القاهرة يخطب في الطلاب، معرباً عن تأييده وتأييد مدير الجامعة للنضال الوطني العظيم^(١٨). وفي أواخر نوفمبر منحت الجامعة الدكتوراه الفخرية لرئيس الوزراء الإيراني مصدق، الذي تحدى بريطانيا قبل ستة أشهر عندما أمم شركة البترول الإنجليزية - الإيرانية^(١٩).

وفي اليوم التالي منحت وزارة المعارف المدرسين والأساتذة البريطانيين، وبتراوح عددهم بين ١٠٠ و ٢٠٠ شخص إجازة مفتوحة^(٢٠) ثم في التاسع من ديسمبر قامت الحكومة بفصل جميع الموظفين البريطانيين^(٢١). (ذكر كاتب كلاسيكي بريطاني، أحب مصر، وكان يمضي فترات الصيف متجولاً بين جبال الصحراء الشرقية، أن حالات الفصل وقعت في عيد الميلاد)^(٢٢) كما أمم النحاس أيضاً نادي الجزيرة، وكان السفير البريطاني ما يزال رئيسه^(٢٣). ثم أعلن حالة الطوارئ في ٢٧ ديسمبر، وأغلق الجامعات والمدارس في محاولة لتهئية الأمور واستؤنفت الدراسة في الأسبوع الثاني من يناير ١٩٥٢. ولكن في الخامس والعشرين من يناير قتلت القوات البريطانية في الإسماعيلية خمسين من قوات احتياط البوليس المصري، الذين رفضوا أن يطردوا من ثكناتهم؛ فأصبح اليوم التالي يوم "السبت الأسود" وفيه اندفع العامة في شوارع القاهرة ينهبون ويحرقون المحال الأجنبية والفنادق والملاهي الليلية، ونادي الفروسية (حيث يتجمع البريطانيون) فارتعد الأثرياء المصريون، وسقط النحاس والوفد. وخسرت المدارس، وفقاً للأرقام الرسمية ٥٦ يوماً دراسياً فيما بين بداية الدراسة في أكتوبر والسادس عشر من فبراير التالي له^(٢٤)، وربما يزيد الرقم عن ذلك بالنسبة للجامعات.

ولم تتأثر بعض أقسام الجامعة برحيل الأساتذة البريطانيين، إلا أن قسمي اللغة الإنجليزية، واليونانية واللاتينية أصابهما الخراب. حيث خسر قسم اللغة الإنجليزية "ديفنز" رئيسه بالنيابة (وهو من مقاطعة ويلز) وربما اثني عشر أستاذاً آخرين. وقبل عامين، كانت السفارة البريطانية أرسلت تقريرها حول قسم اللغة الإنجليزية إلى لندن، ولم يكن بالقسم حاصل على

درجة الأستاذية الكاملة؛ فكان ديفنر يقوم بأعمال رئيس القسم منذ حوالي ١٩٤٠، إلا أنه حصل بالكاد على درجة أستاذ مساعد عام ١٩٤٦، ورفضت الجامعة أن تجعل منصبه دائماً. وعمل تحت رئاسته ثلاثة عشر محاضراً بريطانيا بالإضافة إلى اثنين من المحاضرين المصريين. ورغم أن مستوى المصريين لم يكن مرضياً تماماً، إلا أن القسم ربما اضطر إلى تعيين المزيد منهم، نظراً لأن انخفاض الرواتب جعل من المستحيل تقريباً اجتذاب مدرسين جدد من إنجلترا^(٢٥).

ونجا من حركة الفصل محاضر سويدي، لم يكن لدى قسم اللغة الإنجليزية غيره سوى حفنة من المصريين، من بينهم واحد فقط حاصل على الدكتوراه. وكان رشاد رشدي قد عاد لتوه في هذا العام حاملاً الدرجة، وعين مدرسا، ومن ثم لم يكن جديراً بالعمل حتى كرئيس قسم بالنيابة؛ فكان على أستاذ للجغرافيا أن يدير القسم من خارجه^(٢٦). كما خسر قسم اليونانية واللاتينية رئيسه "دل دور" بالإضافة إلى "ل. أ. تريجنزا" وآخرين. وكان "د.س. كراوفورد" قد لقي مصرعه مع زوجته يوم السبت الأسود. وظل قسم اليونانية واللاتينية يدار من خارجه لعدة سنوات. ثم فقد أستاذان يونانيان وظيفتهما أيضاً في الخمسينيات^(٢٧). ومع ذلك لم يجد كمال الدين حسين وزير التعليم الفرصة لإغلاق القسم تماماً^(٢٨). وفي العمارة الإسلامية، لم تكن النعرات الشوفينية التي أثارها كريزويل قد خبت بعد، ولكن الجامعة خسرت خبيراً عالمياً في هذا المجال.

وبقي الأساتذة الفرنسيون بالقاهرة خمس سنوات بعد رحيل البريطانيين حتى قيام أزمة السويس عام ١٩٥٦^(٢٩)؛ عندما أمم عبد الناصر قناة السويس في ذلك الصيف، إثر غضبه من "جون فوستر دالاس"، الذي سحب فجأة معونة السد العالي بعد صفقة الأسلحة التي اشترتها مصر من الكتلة الشرقية. كما اعتبر الفرنسيون عبد الناصر مسئولاً عن إشعال حرب الجزائر، واعتزموا الرد على تأميمه للقناة. ومع حلول الخريف، كانت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل تدبر هجومها المشترك على مصر، فلم يستطع الأساتذة الفرنسيون العودة إلى القاهرة. ثم اضطرت مدرسة الحقوق الفرنسية الخاصة بالقاهرة إلى إغلاق أبوابها بعد نيف وستين عاماً^(٣٠). ولم يعد الفرنسيون لتدريس الفرنسية بجامعة القاهرة كأساتذة زائرين حتى ١٩٦٤؛ بعد عامين من استقلال الجزائر، الذي مهد الطريق أمام ديجول لإعادة بناء

الجسور مع العرب. وهكذا استكملت جامعة القاهرة فجأة تمصير هيئة تدريسيها الذي بدأ منذ وقت طويل، ولكن على حساب بعض الاعتبارات الأكاديمية. ومن الآن فصاعدا سيقوم الأساتذة الغربيون بالتدريس كأساتذة زائرين بصفة مؤقتة بدعوة من الحكومة التي أصبحت سيدة في بيتها.

الأمريكيون قادمون :

كانت الولايات المتحدة تقع داخل الكواليس، بينما تغادر بريطانيا المسرح. واحتاجت مصر إلى قوة كبرى راعية في حقبة ما بعد الاستعمار (أو لعلها حقبة الاستعمار الجديد)، فتنافست الولايات المتحدة مع الاتحاد السوفيتي على المنصب.

وبدأ النفوذ الأمريكي الكبير في الجامعات المصرية قرابة العام ١٩٥٠، بينما ترجع مدارس الإرساليات الأمريكية إلى القرن التاسع عشر. ولكن المصريين لم يبدوا اهتماما كبيرا بالولايات المتحدة أو مدارسها في مصر، إلا بعد أن جعلت منها الحرب العالمية الثانية قوة عظمى. وكانت الجامعة الأمريكية بالقاهرة نموذجا - بالفعل - لكلية آداب أمريكية ليبرالية؛ من حيث التركيز على الموضوعات الاختيارية، وتحديد الدرجات الدراسية على مدار الفصل الدراسي، والتعليم المختلط، والمكتبة ذات الأرفف المفتوحة، ووجود منهج لدراسة الصحافة، وقسم إضافي لتعليم الكبار، وكلها ملامح أمريكية. وقامت صحيفة الجامعة الأمريكية "جريدة التعليم الحديث" التي تصدر بالعربية، بنشر الأفكار التعليمية الأمريكية على نطاق أوسع بين الجماهير. ولكن ماذا يساوي ١٣٤ طالبا في المستوى الجامعي للجامعة الأمريكية بالقاهرة، عند المقارنة بجامعة فؤاد الأول التي كان عدد المقيدين بها يبلغ عشرة آلاف و ٥٣٤ طالبا؟ وحتى عندما تضاعف عدد طلاب الجامعة الأمريكية إلى أربعة أمثاله في الخمسينيات، ظلت تمثل أقلية^(٣١).

كما ساعدت الاعتبارات الدينية والأخلاقية أيضا في إبعاد معظم المصريين عن الجامعة الأمريكية بالقاهرة؛ التي اجتذبت نسبة كبيرة من الطلاب اليونانيين واليهود والأرمن. ففي عام ١٩٤٠/١٩٤١ كان ٣٠% فقط من طلبتها مسلمين مقارنة باليهود الذين شكلوا ٢٢%، و ٤٨% مسيحيين (أرثوذكس يونانيين، وبروتستانت، وأقباط، وكاثوليك، وأرثوذكس أرمن)^(٣٢). ولم يتول مسلم وظيفة التدريس الأكاديمي على نحو دائم بها حتى عام

١٩٥٨^(٣٣) ، وهي الحقيقة التي أغفل ذكرها التاريخ الرسمي للجامعة المنشور مؤخرا. ولم يتجاوز عدد الطلاب المسلمين المقيدين بالجامعة الأمريكية عدد المسيحيين بها إلا في الستينيات^(٣٤)؛ نظرا لهجرة اليونانيين واليهود والأرمن، والتحاق المسلمين من أبناء الدول العربية الأخرى بها. وكانت الجامعة الأمريكية قد حققت شهرة بوصفها مدرسة للطالبات، والأثرياء، والذين سيصبحون مهاجرين فيما بعد^(٣٥).

ومنذ الخمسينيات فصاعدا، لقيت الجامعة الأمريكية اهتماما من الدوائر الرسمية المصرية والأمريكية معا. وكان رئيسها السابق "جون بادو" عضوا سابقا في بعثة تبشيرية، ويجيد الحديث بالعربية، ثم عينه الرئيس "كيندي" سفيراً في مصر، فأصبح على علاقة طيبة بعد الناصر. و أرسل عبد الناصر ابنته إلى الجامعة الأمريكية على الرغم من خلافاته المتكررة مع الولايات المتحدة، كما أن قرينة الرئيس حسنى مبارك من خريجاتها كذلك. ومن خريجياتها أيضا مصطفى أمين وأخوه التوأم على، اللذان رأسا تحرير جريدة الأخبار اليومية التي تمتعت بشهرة جماهيرية حتى منتصف الستينيات عندما اتهما بالتجسس لصالح الولايات المتحدة^(٣٦).

وكانت وزارة الخارجية الأمريكية قد طلبت من المجلس الأمريكي للتعليم في ١٩٤٥ إعداد دراسة عن التعليم في الشرق الأوسط. وقامت الوزارة بتوزيع الدراسة التي أعدها "رودريك د. ماثيوس"، "ومتى عكراوى" **"التعليم في بلدان الشرق الأدنى العربية"** على المسؤولين عن التعليم في الشرق الأوسط. وقد أعدت هذه الدراسة من أجل: **"الرجال المفكرين داخل الحكومات وخارجها معا. وسوف يكون لها أيضا قيمة ملموسة لرجال التعليم الأمريكيين، ومسجلي الجامعات والكليات عند تقييم سجلات الإنجازات التعليمية للطلاب والمدرسين القادمين من الشرق الأدنى إلى الولايات المتحدة، وغيرها من البلدان الغربية بأعداد تتزايد كثيرا كل عام. والواقع، أن أحد أسباب إجراء هذه الدراسة هو التشجيع على زيادة تبادل الطلاب والمدرسين"**^(٣٧).

وعاد المصريون الذين تخرجوا في الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية إلى جامعة القاهرة، حاملين في أذهانهم النموذج الأمريكي. ولم يكن قد ذهب إلى الولايات المتحدة قبل الحرب أكثر من خمسة طلاب من بين مئات المصريين الذين أرسلوا في بعثات تعليمية إلى الخارج. ثم توقفت معظم البعثات المصرية الخارجية أثناء الحرب. وتفجرت الأزمة عام

١٩٤٥، عندما أرسل ٣٥٧ طالبا إلى الخارج من بينهم ٢٤٢ طالبا جديدا^(٣٨). وكما يوضح الجدول (١٨) ظلت بريطانيا حتى عام ١٩٤٦ هي البلد المضيف لمعظم الطلاب، إلا أن الولايات المتحدة كانت قد بدأت تنشط في هذا المجال. وفي ١٩٦٣ فاق عدد طلاب البعثات إلى الولايات المتحدة (وكندا التي تتدرج معها ضمن هذه الإحصائيات) عدد المبعوثين إلى بريطانيا العظمى بشكل كبير.

وفي ١٩٥٣ أوضح دليل أعد عن العلماء والفنيين المصريين، أن حوالي ٢١% منهم يحملون شهادة الدكتوراه الأمريكية (مقارنة بـ ٤٥% من بريطانيا و ٢٨% من مصر^(٣٩) وفي نفس الوقت تقريبا بدأ المصريون ينشرون أعمالهم في المطبوعات العلمية الأمريكية^(٤٠).

وشكل برنامج فولبرايت للمنح العلمية، الذي بدأ في مصر منذ ١٩٥٠، قناة أخرى للنفوذ، فالمصريون الذين حصلوا على منحة فولبرايت جلبوا معهم إلى مصر خبرتهم الأمريكية، كما ترك الأساتذة الزائرون الأمريكيون بصماتهم على الكليات المصرية وطلابها. وفي ١٩٥٩ ألحقت الجمهورية العربية المتحدة في طلب المساعدة الأمريكية لإصلاح نظم التدريس والبحث العلمي. فحضر العلماء الأمريكيون لإجراء أبحاث عن مناهج العلوم بجامعة القاهرة وغيرها، وفي عام ١٩٦٠-١٩٦١ تركز معظم نشاط فولبرايت في مصر على المواد العلمية في المستوى الجامعي، ومنذ ذلك الحين اتسع نشاط البرنامج كثيرا^(٤١).

جدول (١٨)
البلدان المضيضة للطلاب المصريين المبعوثين للدارسة في الخارج

الدولة	أكتوبر ١٩٤٦ (بعثة دراسية)	يناير ١٩٦٣ (بعثة دراسية)	يناير ١٩٦٣ (إجازة دراسية)
بريطانيا العظمى	٢٤٤	٣٣١	١٦٧
الولايات المتحدة الأمريكية	١٨٧	---	---
الولايات المتحدة وكندا	---	٧٩٣	٢٨٠
فرنسا	٥٣	٨٤	٢٠
الاتحاد السوفيتي	---	٢٦٧	---
سويسرا	٣٥	٥٥	١٢
إيطاليا	٣	٢٨	٢٩
تشيكوسلوفاكيا	---	---	٢١
ألمانيا الغربية	---	١٧٣	١١٦
ألمانيا الشرقية	---	---	١٦
المجر	---	---	١٤
هولندا	---	---	١٤
اليونان	---	---	١٣
النمسا	---	---	١٢
دول أخرى*	---	---	٦٥
إجمالي	٥٢٢	١٧٣١	٧٩٩

(+) الدانمرك، وتركيا، والنمسا، والسويد، وأسبانيا، وبولندا، ورومانيا وبلجيكا.
المصادر :- الآثار العلمية لأعضاء هيئة التدريس بجامعة القاهرة (القاهرة ١٩٥٨).
Jaques Waardenburg, Les universites dans Le monde arabe actuel.
(الجزء الثاني ص ص ١٣٠ - ١٣١)

ومن بين امثلة نشاط القائمين على برنامج فولبرايت، التقرير الذي أعده "ستيفن أ. مكارثي"، مدير جامعة كورنيل، عن مكتبات جامعة القاهرة. فقد صدم مكارثي بما اكتشفه، وجاء تقريره صريحا إلى حد مفزع؛ فأشار إلى أن العاملين بهذه المكتبات لم ي تلق أي منهم تدريبا على العمل كأمين مكتبة (رغم وجود قسم أنشئ مؤخرا لدراسة علم المكتبات) كما لم يكن هناك أمينات للمكتبات من النساء. وانعدم التنسيق بين مكتبة الجامعة الرئيسية، ومكتبات الكليات المختلفة. واتسم أمناء المكتبات بالحرص الشديد في حراسة كتبها لأنهم مسئولون شخصا عن أي خسارة أو تلف تتعرض له. فكان معدل الاستعارة الداخلية للطالب كتابا واحدا في السنة، وكتابا آخر للاستعارة الخارجية وتعين على الطالب أن يدفع جنيها مصريا كتأمين على الاستعارة الخارجية لكل كتاب وأن يقنع أحد الأساتذة لكي يضمنه ماليا. كما يشير التقرير إلى أنه حتى لو كان المعدل الأمريكي للإنفاق على المكتبة (١٥ جنيها مصريا لكن طالب) قد خفض إلى النصف، لبلغت ميزانية المكتبات مائة ألف جنيه مصري بدلا من قيمتها الواقعية وقتذاك، وهي تسعة وستين ألفا (وتشير ملاحظة مكتوبة بالقلم الرصاص على هامش نسخة التقرير الموجودة بالمكتبة الرئيسية إلى أن الميزانية كانت تبلغ في الواقع ٤٥ ألف جنيه مصري في ذلك الوقت ثم انخفضت بعد ذلك إلى ما بين ٣٠ - ٣٦ ألفا)^(٤٣). كما استلزم الحصول على الكتب للمكتبة موافقة ثلاث إدارات، ويشترط موافقة مدير الجامعة على المصروفات التي تتجاوز عشرة جنيهات، حتى لو تجاوزت قائمة للكتب هذا المبلغ. وكانت الكتب ترتب على أساس أمر الشراء، وليس على أساس الموضوع، وتفهرس ضمن قصاصات من الورق في مجلدات ضخمة. ولم يكن هناك فهرسة حقيقية على أساس موضوع الكتاب. كما أغلقت رفوف المكتبة. بينما شك الأساتذة من أن الحصول على الكتب يستغرق أكثر من ساعتين.

ولم تكن اللباقة وتفهم الظروف المصرية من بين مميزات مكارثي، فلم يلق تقريره غير التجاهل. ورغم إجراء بعض التحسينات، ألا أن أحوال المكتبات لم تكن تعين على البحث الذي أعلن الجميع منذ لطف السيد وطه حسين، إلى عثمان أمين ولجنة على ماهر، أنه لازم لأي جامعة حقيقية.

ويؤكد كتاب ماثيوس وعكراوى الذي ذكرناه سابقا، أهمية الجامعة الأمريكية بالقاهرة وكلية المعلمين بجامعة كولومبيا في تعريف المصريين بالأفكار التعليمية الأمريكية. وقد عمل ماثيوس - الذي كان أستاذا بجامعة

بنسلفانيا - بالتدريس في الجامعة الأمريكية بالقاهرة لبضع سنوات. أما
عكراوى، وهو عراقى، فامضى سنوات دراسته الجامعية الأولى بالجامعة
الأمريكية في بغداد، ثم تخرج في كلية المعلمين بجامعة كولومبيا. كما تخرج
أمير بقطر (الذي ترجم كتاب ماثيوس وعكراوى إلى العربية) من كلية
المعلمين جامعة كولومبيا أيضا، ثم أصبح أستاذا وعميدا بالجامعة الأمريكية
في القاهرة. وفي الثلاثينيات، حصل راسل جالت - عميد الجامعة الأمريكية
بالقاهرة - على درجة الدكتوراه من كولومبيا عن رسالته "أثر المركزية
على التعليم في مصر الحديثة". كما يرجع حماس أبو الفتوح أحمد رضوان
- الأستاذ بجامعة عين شمس - من أجل "فلسفة الديمقراطية والتجريب" إلى
أساتذته في كولومبيا، ورائدهم جون ديوي.

وهناك دلالة أخرى على أحوال تلك الفترة، تتمثل في التوصية باتباع
التجارب الجامعية الأمريكية إلى جانب التجارب الإنجليزية، والفرنسية،
والألمانية. ويشير أحد التقارير الصادرة عام ١٩٥٥ عن جامعة القاهرة إلى
أنه في الواقع: "أوضحت التجربة أن اللوائح السابقة شابتها أخطاء، كما
اعتراها نقص ولمعالجة ذلك، تم إقرار بعض القواعد المنظمة للجامعات
الأمريكية وغيرها، والتي تتسق مع الظروف المصرية بعد تمصيرها
وتعديلها بحيث تفي بالاحتياجات المحلية" * (٤٦).

وكان أستاذ الفلسفة عثمان أمين قريبا إلى أفكار ويليام جيمس
البراجماتية، وقد وصف الجامعات الأمريكية بأنها ذات طبيعة عملية، حيث
يتكفل رجال الأعمال بتمويل الكثير منها على نفقتهم الخاصة. ولكن لم يعجبه
تركيز هذه الجامعات على الرياضة البدنية، وكتب أن الأمريكيين يتجاهلون
الأدب، ويفضلون المجالات على الكتب. ومع ذلك، تأثر بفكرة استخدام قاعات
البحث لاستكمال مناقشة ما يدرس في المحاضرات العامة، مع إتاحة فرص
تطور الشخصية الفردية للطالب داخل الحرم الجامعي (٤٧).

ثم اقنع أستاذ زائر في علم اللغويات قسم اللغة الإنجليزية بإضافة
منهج اللغويات إلى مقرر الأدب، وتم إيفاد الخريجين إلى الولايات المتحدة
للحصول على التدريب اللازم (٤٨). ورغم أن مدرسة الاقتصاد بلندن كانت
النموذج الذي أقيمت على غرارها كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة
القاهرة (٤٩)، إلا أن التأثير الأمريكي بدا واضحا على الكلية. ويقول "السيد

يس"، مدير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بجريدة الأهرام، "إن علم السياسة نظام أمريكي" (٥٠).

والمعروف أن الشعب الأكاديمية، والتخصصات الدراسية المتميزة نشأت أصلاً في الولايات المتحدة (٥١)؛ ففي أكسفورد وكامبردج، كانت الكليات هي الوحدات الأساسية للجامعة. وفي ألمانيا تكونت الوحدة الأساسية من أستاذ كرسي يترأس مجموعة من الزملاء الأحدث والطلاب في نفس مجال تخصصه. أما في جامعة القاهرة، فالأقدمية لها اعتبار أكثر مما لها في الكليات الأمريكية، ولكن استحداث مناصب أساتذة بدون كرسي في ١٩٦٣ (٥٢) ثم إلغاء التمايز بين أستاذ الكرسي والأستاذ بعد ذلك بسنوات قليلة قرب أكثر بين الوضع في مصر وبين العرف الأمريكي (وربما كانت الضغوط الداخلية هي الحاسمة في هذه الحالة أكثر من التأثير الأمريكي).

وكان الأمريكيون الذين عادوا إلى بلادهم من ألمانيا في أواخر القرن التاسع عشر حاملين درجة الدكتوراه في الفلسفة، تجاهلوا أن التركيز الألماني على الأبحاث لم يسفر عن قيام كليات منفصلة، وأن الدكتوراه في الفلسفة لم تكن سوى مجرد الدرجة العلمية الأساسية في كليات الدراسات الفلسفية. وإذا بالأمريكيين يجعلون الدكتوراه في الفلسفة درجة تعلو البكالوريوس والماجستير (٥٣). وبعد الحرب العالمية الأولى، شجعت احتياجات الطلاب الأمريكيين الحاصلين على منحة "روس" المقدمة من أكسفورد على إنشاء تخصصات دراسية مختلفة (٥٤). أما جامعة القاهرة، فبدأت مناهج التخرج في الآداب والعلوم في الثلاثينيات، قبل أن تصبح العلاقات التعليمية المصرية - الأمريكية ملموسة، ومن ثم فإن أي تأثير أمريكي في هذا الصدد ربما جاء بصورة غير مباشرة، قد تكون عبر إنجلترا.

وكانت عملية "التأمرك" محدودة في جامعة القاهرة. ففي أول الأمر، كانت الأساليب الوطنية والفرنسية والبريطانية قد تألفت معاً لتشكل تقليداً جامعياً مصرياً متميزاً، قبل أن يصبح التأثير الأمريكي محسوساً عند منتصف القرن. حيث صمم المصريون العائدون من الولايات المتحدة على إعادة تشكيل الجامعة على النسق الأمريكي، وسرعان ما مضوا قدماً في تنفيذ ما صمموا عليه. وأصبحت قديمة امتحان نهاية العام، ومذكرات الحفظ، والمقرر الدراسي الجامد مع قلة فرص الاختيار مثاراً لانتقادات أنصار تطبيق النظم الأمريكية وغيرهم من الإصلاحيين.

وفي نفس الوقت، انتقد لويس عوض، ومعه كتاب مجلة "الطلیعة" اليسارية، الأمريكيين بسبب ادعائهم أن طرق التدريس وعلم نفس التعليم من المجالات الأكاديمية التقليدية. وذكرهم ذلك برغبة "توجلاس دنلوب" في تخريج أجيال من التكنوقراط قليلي الثقافة، بدلا من مواطنين متحرري الفكر. كما أكدت الطلیعة، ولويس عوض، على أن الحكومات الائتلافية بزعامة السعديين في أواخر الأربعينيات، كانت ترغب في توفير التعليم الابتدائي الأساسي فحسب للجماهير، مع قصر فرص الالتحاق بالجامعة على القلة، وذلك نظرا لما كانت تتمتع به الحكومات من تأييد رأسمالي قوى^(٥٦).

واتهمت الطلیعة برنامج "النقطة الرابعة الأمريكية للمعونة" (السابق على وكالة التنمية الدولية الحالية AID) وبرنامج الترجمة التابع لمؤسسة "فرانكلين" بأنهما يتبعان أسلوبا مشابها في الخداع، والانحياز التقني. وكتب أنور عبد الملك يقول: "من جورج سارتون إلى بيرل باك، مروراً ببديل كارنيجي ومفكري الحرب الباردة والأسلوب الأمريكي في الحياة؛ ومن الميتافيزيقيا إلى وسائل التجميل، لكل نوع مكانه وجمهوره. ومن السهل أن تتصور أي نوع من الاشتراكية يمكن أن تقدمه هذه المؤسسات للفكر المصري"^(٥٧).

كما أسفر لقاء مصر العابر بالتعليم السوفيتي في الستينيات عن كثير من التطلعات. فالمصريون الذين لم يكن أمامهم خيار آخر للحصول على الدكتوراه سوى السعي لنيلها من الاتحاد السوفيتي، لم تكن لديهم عادة أي معرفة سابقة باللغة الروسية، كما أنهم وجدوا المناخ والثقافة الروسيان لا يتفقان مع طبيعتهم. وعاد أولئك الذين واصلوا الدراسة حتى نهايتها بدرجة "دكتور مرشح" وأصبح لقب "الدكتور" ذو الأهمية البالغة يسبق أسماءهم ولكن لم يكن له نفس المكانة والهيبة اللتين يضيفيهما الحصول على الدكتوراه الغربية، أو المصرية، أو درجة الدكتوراه السوفيتية الأكثر تقدما. وعلى الرغم من أن كثيرا من المصريين رحبوا بالتوجه نحو الغرب في ظل السادات. إلا أن التبعية الزائدة للولايات المتحدة واجهت عوائق في الحياة الجامعية المصرية، كما في غيرها.

* وفقا لما ذكر لي أحد الحاصلين على نفس الدرجة أنها ترشح حاملها للحصول على درجة الدكتوراه في العلوم، والتي كان يحق للحصول عليها فقط أن يحمل لقب "دكتور" في الاتحاد السوفيتي السابق - (المترجمة)

الثورة وتطهير الجامعة عام ١٩٥٤ :

يندر أن يكون هناك من واثته الفرصة في الحياة لإصلاح أحوال الجامعة التي طردته، ولكن عبد الناصر وكمال الدين حسين - وزيره للتعليم - وجدا هذه الفرصة^(٥٨). فكلاهما التحق بكلية حقوق القاهرة لعدة أشهر غير مستقرة، قبل أن يلتحق بالكلية الحربية ويسلك - كما تبين في نهاية الأمر - طريقا جديدا للسلطة. وبحلول عام ١٩٥٤ كانا في موقع يتيح لهما إصلاح الجامعة التي اعتقدا أنها خذلتها، فضلا عن إصلاح مصر أيضا.

ورغم مظاهر السخط الشعبي التي سبقت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، إلا أنها بدأت كإنقلاب عسكري صريح دون مشاركة من الطلاب أو العمال، أو أي مشاركة جماهيرية أخرى. فكان رجال عبد الناصر من صغار الضباط في أوائل الثلاثينيات من أعمارهم، كما كان معظمهم ينتمي إلى الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى. وحمل الانقلاب بعدا جيليا، كما حمل بعدا طبقيًا؛ لأن الساسة المخضرمين في تلك الوقت مثل النحاس، وهيك، ومكرم عبيد، كانوا في الستينيات أو السبعينيات من العمر. كما أن الانغماس في الملذات أضفى على الملك فاروق ما يجعله يبدو أكبر سنا مما هو في الواقع، فبدت حقيقة أنه لم يكن أكبر سنا في الواقع عن الضباط الأحرار الذين أسقطوه كما لو كانت اكتشافا مفاجئا.

ولم يأسف أحد لفاروق، ولكن لم يكن لدى عبد الناصر أو أي شخص آخر فكرة كبيرة في بادئ الأمر عما قد يؤول إليه النظام الجديد. وفي سبتمبر أدى تأميم ملكية الأراضي التي تزيد عن مائتي فدان (أو ٣٠٠ فدان للأسرة بأطفالها) إلى الاصطدام بملاك الأراضي الذين سيطروا على النظام القديم. وتلا ذلك خطوة أخرى في يناير ١٩٥٣، مع حظر قيام الأحزاب السياسية، وتشكيل مجلس قيادة الثورة. ثم شهد يونيو ١٩٥٣ نهاية الملكية الاسمية، وقيام الجمهورية حيث تولى اللواء محمد نجيب رئاسة الجمهورية؛ ورئاسة الوزراء، وتولى عبد الناصر منصب نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية.

وكان عام ١٩٥٤ حاسما بالنسبة لجامعة القاهرة، وعبد الناصر ونجيب، كما كان حاسما بالنسبة لمصر. ففي يناير تقرر حظر نشاط الإخوان المسلمين أثر أعمال شغب بجامعة القاهرة. وخوفا من قيام ديكتاتورية عسكرية، احتشد حول محمد نجيب تحالف غير متجانس، يطالب بالعودة إلى الحكم الدستوري. وضم التحالف الإخوان المسلمين، والشيوعيين، والوفديين، والاشتراكيين (من أعضاء مصر الفتاة سابقا)، والطلاب، بالإضافة إلى تيار

داخل الجيش يتزعمه الضابط اليساري خالد محيي الدين. وفي فبراير، استقال الرئيس محمد نجيب، ثم عاد مرة أخرى إلى موقعه كرئيس للجمهورية ورئيس للوزراء ومجلس قيادة الثورة وصدر وعد بإجراء انتخابات الجمعية التأسيسية وإعادة الأحزاب السياسية.

ولكن عبد الناصر تمكن من استرداد منصب رئيس الوزراء بتأييد من الجيش وإثر مظاهرة عمال النقل. وأدى ما أعقب ذلك من خلاف مع الإخوان المسلمين، إلى توالي حسن الهضيبي المرشد العام للجماعة عن الأنظار، كما امتنع عبد الناصر لفترة قصيرة عن الظهور في الأماكن العامة خشية تعرضه للاغتيال^(٥٩). ثم جاء شهر أكتوبر بنجاح في السياسة الخارجية، كانت الحاجة ماسة إليه؛ وذلك عندما وافقت بريطانيا على الجلاء عن منطقة القناة. وبعد ذلك بأسبوع، حاول الإخوان المسلمون إطلاق النار على عبد الناصر في الإسكندرية، ثم أسفر ماتلا ذلك من قمع عن شل حركة الإخوان، وكذلك حركة جميع المعارضين المحتملين. وكان نجيب قد عزل من مناصبه، وتم التحفظ عليه في منزله.

ذلك هو المناخ الذي وقعت فيه حركة تطهير الجامعات في سبتمبر، بينما فاق عدد الضباط في حكومة عبد الناصر التي تشكلت في سبتمبر، عدد المدنيين للمرة الأولى؛ فحل الصاغ كمال الدين حسين محل أستاذ الجغرافيا محمد عوض محمد (أستاذ سابق بجامعة القاهرة، ورئيس جامعة الإسكندرية) وزيرا للتعليم. ومثلما فعل أنور السادات، كان ضابط المدفعية كمال الدين حسين قد نأى بنفسه بشكل كامل عن علاقاته السابقة بالإخوان المسلمين حتى ينجو بنفسه عند سقوطهم. ثم قام بتطهير النقابات العمالية من القوى المعارضة لعبد الناصر، أثناء توليه وزارة الشؤون الاجتماعية والقوى العاملة. وها قد حان الآن دور الجامعات ووزارة التعليم؛ حيث قام بعزل من عينهم الوزيران الوفديان أحمد نجيب الهلالي، وطه حسين. وفي التاسع من سبتمبر أحل كمال الدين حسين رجالا لن يعرقلوا سياسات عبد الناصر محل رؤساء الجامعات الثلاث؛ فنحى أحمد زكي رئيس جامعة القاهرة ذا العقلية المستقلة عن منصبه ليتولاه محمد كامل مرسى، رئيس الجامعة السابق. وبعد أسبوع أصدر قرارا بتعيين نواب جدد لرؤساء الجامعات، علاوة على تغيير عدد من عمداء الكليات. فاصبح المسرح معدا لأحداث ٢١ سبتمبر، عندما فقد ستون أو سبعون أكاديميا مواقعهم الجامعية فيما بين أستاذ ومعيد، ولم يعلن على الإطلاق أي تبرير لهذا الإجراء. وكان الضحايا من اتجاهات أيديولوجية

مختلفة، مثلما كان مؤيدو محمد نجيب؛ من بين نوى الميول الوفدية، وأصحاب الفكر الماركسي، والإخوان المسلمين، بالإضافة إلى آخرين لا يميزهم سوى أنهم ممن يتسمون بشجاعة القول. كما أثرت الصراعات الشخصية داخل جامعة القاهرة على تشكيل قائمة المبعدين أيضا. وتجاوزت حركة التطهير كل ما كان يحلم به فؤاد أو فاروق^(٦٠).

ثم أصبحت القبضة الحديدية للحكومة على الجامعة رسمية بموجب القانون رقم ٥٠٤ الصادر في ٢٧ سبتمبر ١٩٥٤. وصدر كتيب دعائي لتفسير القانون؛ تنصده صورة عبد الناصر، في الموضع الذي كانت تحتله دائما صورة الملك. ومنذ ذلك الوقت أصبح وزير التعليم يعين عمداء الكليات من بين رؤساء الأقسام المرشحين بواسطة رئيس الجامعة (المعين هو الآخر، بقرار وزاري بالطبع) وذلك "لتجنب الصراعات التي كانت تحيط بعملية انتخاب العميد"^(٦١). ولم تعد الجامعة إلى انتخاب ثلاثة مرشحين لمنصب العميد من بين هيئة التدريس إلا في سبتمبر ١٩٧٢، طبقا للسياسة الليبرالية التي انتهجها السادات^(٦٢) وهكذا، أصبح ضابط جيش أميناً عاما لجامعة القاهرة.

كما أنهت الحكومة اشتغال الطلاب علنا بالسياسة "حتى" يستطيع الطلاب تركيز اهتمامهم على دراستهم^(٦٣). فتوقفت انتخابات اتحاد الطلاب لبضع سنوات، ثم استؤنفت تحت إشراف صارم. واختفت المظاهرات الطلابية حتى ما بعد حرب ١٩٦٧. ودافع مصطفى أمين عن موقف الحكومة، فكتب في أخبار اليوم مدلا على صحته: "ويخطئ من ينكر الدور الذي لعبته الجامعة في حركات التحرير. أن مدرسة الحقوق كانت أول من صاح في وجه الخديوي عباس: نريد الدستور، ومدرسة الحقوق أيضا هي أول من لبي نداء سعد زغلول عندما دعا الشعب إلى الثورة على الإنجليز. ويوم ينتهي الاحتلال، يبدأ نور الجامعة في بناء مصر الحديثة، فنحن الآن في حاجة إلى علماء وباحثين ومستكشفين ومخترعين.. ولم تعد في حاجة إلى هتافه وقادة مظاهرات! لقد خرجت من جامعات أوروبا الأفكار الحديثة والنظريات الاقتصادية، ولم تخرج في شكل مظاهرات، وإنما خرجت في

* نقلا عن النص الإنجليزي - (المترجمة)

* نقلا عن النص الإنجليزي - (المترجمة)

هيئة كتب ومحاضرات وبحوث كانت أقوى من المظاهرات وأعلى صوتا من المتنافات^(٦٤) :

ولم يعد إلى السلك الجامعي في مصر أحد من ضحايا التطهير تقريبا، فبعضهم غادر البلاد، والبعض الآخر عمل بالتدريس في المدارس الخاصة، أو عاش حياة قلقة في الصحافة. ثم طالت النار الصحافة أيضا، ففي ١٩٦٠ أممها الحزب السياسي الوحيد في البلاد (الاتحاد القومي، الذي أصبح بعد ذلك الاتحاد الاشتراكي العربي). وفي حين أتاحت صداقة محمد حسين هيكل الشخصية لعبد الناصر، حيزا من التجاوزات لإمبراطورية الأهرام؛ فاستطاع أن يستكتب اليساريين المعتلين في جريدته، ثم رعى مجلة "الطلعة" التي ظلت لعدة سنوات متنفسا للماركسيين المستأنسين^(٦٥). وقد أهدى لويس عوض الكتاب الذي ألفه عن الجامعات إلى هيكل "لأنه جعل الأهرام جامعة للشعب"^(٦٦).

وروى عدد من الضحايا قصصهم عن التطهير. ولم يخف لويس عوض - الذي كان يؤيد الوفد - اعتقاده أن رشاد رشدي، وهو أستاذ آخر بقسم اللغة الإنجليزية، سرب شائعات إلى المباحث ساعدت في الإيقاع به. وكان رشدي - كما ذكرنا من قبل - قد عاد لتوه بشهادة الدكتوراه، وأصبح مدرسا بالكلية حين طرد الأساتذة البريطانيون. وعندما رجع لويس عوض بالدكتوراه من "برينستون" في أكتوبر ١٩٥٣، عين أستاذا مساعدا، ثم تولى رئاسة القسم نظرا لعدم وجود أساتذة به. وربما يكون قد لوحظ أن عوض توقف عن كتابة عاموده في صحيفة الثورة اليومية الجديدة "الجمهورية"، بعد أزمة مارس ١٩٥٤. كما لفت عوض، الذي يتسم بالصراحة في الحديث، الانتباه أيضا خلال تأكيده على ضرورة انتخاب عميد دائم لكلية الآداب، وكان المنصب شاغرا منذ فصل العميد زكي حسن والأستاذ أمين الخولي، الذي كان دائم الخلاف معه، في ديسمبر ١٩٥٢. ثم اختير يحيى الخشاب وفقا لذلك في إبريل ١٩٥٤، ولكن ليخرج بعدها بخمسة أشهر في تطهير كمال الدين حسين. ومع خروج لويس عوض من قسم اللغة الإنجليزية، سرعان ما ارتقى رشاد منصب رئاسة القسم.

أحمد شلبي، ضحية أخرى من ضحايا التطهير؛ لأنه كان متعاطفا مع الإخوان المسلمين أثناء عمله مدرسا بدار العلوم، ولكنه يصر على أنه لم يكن عضوا بالجماعة، كما أدان جهاز العنف السري للإخوان، إلا أنه كان

يتحدث علانية ضد الحكم العسكري. وفي عام ١٩٥٤ لم يكن هناك سوى قلة من الجامعات العربية التي يمكن للاجئ سياسي التدريس فيها؛ فتلقى شلبي عرضاً للتدريس في بغداد، من الحكم الملكي الموالي لبريطانيا في العراق، ولكن جمال سالم نائب رئيس الوزراء رفض، لأن المفصولين كانوا محل عقاب. فأخفي أحمد شلبي درجة الدكتوراه التي يحملها، ليجد عملاً بالتدريس في مدرسة خاصة بالزمالك. وفي ١٩٥٥ تركه عبد الناصر يسافر ليعمل بالتدريس في الجامعة الإسلامية باندونيسيا. وبعد ثمانية أعوام سمح له العودة إلى مصر وإلى عمله بدار العلوم، ولكن دون اعتبار للأقدمية التي ظن أن سنوات خبرته في إندونيسيا تتيحها له.

أما إبراهيم عبده، الذي فصل من الجامعة عقب قيام الثورة ببضع شهور، فقد صب مشاعره في كتابه اللاذع "الثور في متحف الخزف" (٦٩) والثور هو الوزير الذي فصله (من المحتمل أنه إسماعيل القباني) وجامعة القاهرة هي متحف الخزف. ولما كان إبراهيم عبده قد كافح للحصول على المجانية في التعليم الثانوي والجامعة، فقد سره أن أتاح طه حسين له عموداً يومياً في صحيفة "كوكب الشرق" ثم اشتغل بالتدريس في معهد الصحافة بجامعة فؤاد الأول وكتب العديد من المؤلفات حول تاريخ الصحافة العربية. وكان أستاذاً مساعداً حين صدر قرار فصله. وقد صودر كتابه "الثور في المتحف الخزف" فلجأ للعمل بالصحافة في السعودية والكويت، قبل أن يعود إلى مصر لينشئ دار نشر خاصة. وعندما أصدر السادات عفواً عن بعض الأساتذة المفصولين لم يكن لدى عبده رغبة في العودة للسلك الأكاديمي. ثم أيد حزب الوفد الجديد المعارض وهاجم حكم عبد الناصر في عدة كتب مثل "رسائل من نفاقستان" (٧٠).

ويبدى اثنان من الصحفيين الفرنسيين أسفهما على "الحالة التي تتعرض فيها الجامعة للقهر طيلة ثلاث سنوات من أحد الوزراء، وهو الصاغ كمال الدين حسين، الذي لا تخفي رتبته العسكرية حقيقة أنه يحمل عقلية يوزباشي. لقد بلغ القمع العسكري والبوليسي فيما بين ١٩٥٤ و ١٩٥٦ حداً من الإطلاق يجعل الوزير قادراً على استدعاء جميع قوات الحرس تقريباً، المتمركزة بشكل دائم عند نقاط استراتيجية من مباني الجامعة؛ لأن إدخال مرشدي البوليس إلى الجامعة يمكن السلطات من الإشراف على عقل الطلاب من الداخل، وإخماد أقل علامات ابتسورة... إن

الجامعة ساكنة على نحو مقلق، وغارقة في الصمت، خاضعة للسلطة، وإلى حد ما مهزومة لدرجة الخنوع" ^(٧١).

وكتب أحد المصريين في المنفى: لقد فرض الصمت على كثير من مفكرينا، والهجرة على آخرين، وأغرق الإحساس بالغربة في الوطن حياتنا الثقافية في جو من الكآبة. ومن المؤكد أن الجذور العميقة لهذا كله تكمن في حقيقة أن حركة مجتمع الجامعة في مصر نحو الحرية أوقفتها ثورة ١٩٥٢، وركود تيار الحرية. حتى أن الجامعة المصرية توقفت عن أداء دورها الحضاري" ^(٧٢).

ولكن، لم يكن جميع المثقفين المهتمين بالمجتمع متشائمين إلى هذا الحد، فماهر عبد الكريم الأستاذ في رواية نجيب محفوظ، كان من ملاك الأراضي، وكان راغبا في التضحية بثروته الشخصية بأمل تحقيق مستقبل أكثر إشراقا للجميع :

"ومرت به الأحداث وهو ثابت في وقاره، ولكن استشففت قلقا في ذاته في مواقف من حياتنا لا تنسى، مثل الاغتيالات السياسية، حريق القاهرة، ثورة يولية، القوانين الاشتراكية... ولا أظن أن إقطاعيا تلقى الضربة التاريخية في مثل هدوئه، تلك الضربة التي نزلت من يده عشرة آلاف من الأفدنة، وقد باع قصره القديم في المنيرة، واشترى فيلا جميلة بمصر الجديدة مازالت حتى اليوم تستقبل أهل الفكر والرأي، وواصل عمله الجامعي بنفس الهمة حتى أحيل إلى المعاش عام ١٩٥٤ لبلوغه السن القانونية، فعمل أستاذا زائرا، وعين عضوا في المجلس الأعلى للآداب، ونال جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية، كما نال وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى. إن قدرته له الثورة مكانته العلمية وسمعته العطرة واستقامته العامة التي أبعدته عن الشبهات، وهو وإن لم يعطن ولاءه للثورة لبعده عن مجالات الإعلام ولرغبته عن إقحام نفسه فيها بطريقة غير طبيعية خشية أن يرمى بشئ مما يمس الكرامة، فانه لم يتردد في إعلان ذلك الولاء في مجالسه الخاصة، فقال يوما :-أننى مقتنع بما يقع فهو أقل ما يمكن عمله كي يصلح الوطن للحياة وتصلح الحياة له. ولم أستشعر في حديثه أو سلوكه أي أثر لمرارة" ^(٧٣).

الموامش

Charles Issawi, *Egypt in Revolution*, p.156. -١

٢- عثمان أمين "نحو جامعات أفضل" (القاهرة ١٩٥٢). وتقرير لجنة التعليم الجامعة للرئيس الدكتور علي ماهر (القاهرة ١٩٥٤).

٣- عثمان أمين "نحو جامعات ... ص-ص ٦٥ - ٦٧. وعن عثمان أمين أنظر : Anouar Abdel Malek, *Anthologie*, 2 : Essais, p.

و: الآثار العلمية لأعضاء هيئة التدريس بجامعة القاهرة (القاهرة ١٩٥٨ ص-ص ٥٨ - ٥٩).

٤- عثمان أمين "نحو جامعات ... ص-ص ٢١ - ٢٧.

٥- المرجع السابق ص- ١٤، وحول بقية الفقرة انظر : ص-ص ١٩ ، ٣٦.

٦- المرجع السابق ص- ١٥ - ١٨.

٧- Jean and Simone Lacouture , *Egypt in Transition* (London, 1958), p. 416.

٨- عثمان أمين "نحو جامعات ... ص-ص ٤٦ - ٥٠.

٩- المرجع السابق ص- ٦٠.

١٠- تقرير ... علي ماهر، ص-ص ٣ - ٦. و:

Fawzi M.Najjar, "State and University in Egypt during the Period of Socialist Transformation, 1961 - 1967", *The Review of Politics*, 38 (1976) : 58.

ومع ذلك يذكر Waardenburg 1 : 6 , 48 أن اللجنة عينت قبل الثورة . كما يذكر النجار أيضا أن لطفي السيد رفض التعاون معها لأسباب صحية .

١١- تقرير ... علي ماهر ص- ٦٨ - ٦٩.

١٢- المرجع السابق ص- ٢٨.

١٣- المرجع السابق ص- ٣٠ - ٣٥.

١٤- المرجع السابق ص- ٤٥ - ٤٧.

١٥- المرجع السابق ص- ٣٥ - ٣٦ ، ٤٢ - ٤٣ ، ٥١.

و: Waardenburg 1 : 232

- Najjar, *Review*, pp. 59 . -١٦

- 60

١٧- عن أحداث ١٩٥١ حتى يناير ١٩٥٢، أنظر :

- *Great Britain and Egypt 1914 - 1915* , Royal Institute of International Affairs , Information Papers NO. 19 (London , 1952),

- و : عبد الرحمن الرافعي : "مقدمة ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢" (القاهرة، ١٩٦٤) . و
: طارق البشرى "الحركة السياسية في مصر" ١٩٤٥ - ١٩٥٢ . (القاهرة، ١٩٧٢)
ص - ٤٧٥ - ٥٨١ .
- ١٨- الإيجيشيان جازيت ١٠ ديسمبر ١٩٥١، الصفحة الأولى. و: أحمد عبد الله : الطلبة
والسياسة ... ص - ٩٧ .
- ١٩- تقويم جامعة القاهرة ١٩٥٤ - ١٩٥٥، ص - ٢١٣ .
- ٢٠- يتراوح تقرير عدد المفصولين بين ١٠٠ و ٢٠٠ أستاذ : الأهرام ١٠
ديسمبر ١٩٥١، الصفحة الأولى. و: الإيجيشيان جازيت ١٠ ديسمبر ١٩٥١، الصفحة
الأولى. و:
- L.A. Tregenza, *Egyptian Years* (London 1958), p. 192.
- ٢١- الأهرام ١٠ ديسمبر ١٩٥١، الصفحة الأولى . والإيجيشيان جازيت ١٠ ديسمبر
١٩٥١، الصفحة الأولى. و:
- Austin Moore, *Farewell Farouk* (Chicago, 1954).
- Tregenza, *Egyptian Years*, p. 192. -٢٢
- Egyptian Gazette , December 10, p. 1. -٢٣
- Moore, *Farewell Farouk*, p. 53. -٢٤
- ٢٥
- FO 924/788/CRL 21/10 Chancery (Cairo) to Foreign Office,
January 15, 1950.
- والمرفقات في:
- Davies to British Ambassador, September 29, 1949, and
Furness to Moris , October 20, 1949.
- ٢٦- مقابلتان مع سعد الجمال - ٢٣ ابريل ١٩٨٣، ولويس عوض - ٢٠ ابريل ١٩٨٣.
وحول ديفيز أنظر : الكتاب الفضي . ص - ٨٦ .
- ٢٧- سامية أحمد أسعد، مقابلة، ٩ يونيو ١٩٨٣ . وعن : D.S Crawford أنظر
كتابه:
- (Aberdeen 1955), Preface E.G. Turner, p. VII.
- ٢٨- لويس عوض، مقابلة ٢٠ أبريل ١٩٨٣ .
- ٢٩- تعتمد هذه الفقرة على مقابلة مع سامية أسعد ٩ يونيو ١٩٨٣ .
- Waardenburg 1 : 10 - 11. -٣٠
- Murphy , American University. -٣١ انظر

- ٣٢- انمرجع السابق ص- ٢٧١ .
- ٣٣- كان الأستاذ هو محمد النويهي . أنظر :
- Lawrence Murphy, "Bridge to the Arab world : The American University in Cairo , Egypt," 1979 .
- نسخة مطبوعة على الآلة الكاتبة في أرشيف الجامعة الأمريكية بالقاهرة ص- ٤٠٠ ،
- قارن : ٣٤- Murphy, American University, pp. 245 - 55
- Murphy , American University, ,p. 167.
- ٣٥-
- George H.Weightman, "Children of the Ancient Regime in a Changing Society. A Study of the Egyptian Students at American University in Cairo", Asian Studies, 8 (1970) : 307 - 17.
- تم إضافة بيانات حديثة في :
- Raymond A. Hinebusch, "Childrlen of the Elite: Political Attitudes of the Westernized Bourgeoisie in Contemporarg Egypt," MDJ, 36 (1982) : 535 - 61.
- ٣٦- حول وجهة نظر الأخوين أمين في عبد الناصر أنظر :
- John S. Badeau, *The Middle East Remembered*, Washington, DC, 1983. خاصة الصفحات ٥٦ - ٥٧ ، ١٣٧ وما بعدها .
- ٣٧-
- Mathews and Akrawi, *Education*, p. vi.
- ٣٨- المرجع السابق .
- ٣٩-
- Sabet, Guide. A.B. Zahlan, *Science and Science Policy in the Arab World* (London, 1980), pp. 35 - 41.
- ٤٠- أنظر قوائم المطبوعات في : " الآثار العلمية لأعضاء ...
- ٤١-
- Walter Johnson qnd Francis J. Colligan, *The Fulbright Program: A History* (Chicago, 1965), pp. 141 - 144.
- ٤٢- "Science in the United Arab Republic", (Washington, DC: Bareau of Educational Affairs, Department of State, October, 1960 - mimeographed).
- Stephen A. Mc Carthy, "Final Report to the Rector, Cairo University of a Survey of the Libraries of Cairo University.

أنظر أيضا : نعمات سيد أحمد مصطفى، "دور المكتبات العلمية في البحث العلمي : دراسة واقعية لمكتبة جامعة القاهرة . رسالة دكتوراه غير منشورة - كلية الآداب . جامعة القاهرة ١٩٧٦ .

- Mac Carthy, "Final Report", p. 3. -٤٣

-٤٤

- Matthews and Akkrawi, *Education*, pp. v-vi; Galt, *Effects*, (Cairo : AUC Press, 1936).

والغلاف الخارجي لكتاب أمير بقطر :

- *The Development and Expansion of Education in the United Arab Republic*, (cairo, 1963).

-٤٥

- Abou Al-Futouh Ahmad Radwan, *Old and New Forces in Egyptian Education* (New York, 1951), p. x.

-٤٦ - تقويم جامعة القاهرة ١٩٥٥ - ١٩٥٦، ص - ٣ .

-٤٧ - عثمان أمين، "نحو جامعات ... ص - ٥١ - ٥٨ .

-٤٨ - سعد الجمال - مقابلة ٢٣ أبريل ١٩٨٣ .

-٤٩

- Z.N. "The New Faculty of Economics and Political Science", *L'Egypte Contemporaine* 50, No. 298 (October 1962), p. 38.

و على الدين هلال الدسوقي - مقابلة - ١٥ مايو ١٩٨٣ .

-٥٠ - السيد ياسين - مقابلة - ٢٤ يناير ١٩٨٣ .

-٥١

- Terry Nicols Clark, *Prophets and Patrons : The French University and the Emergence of the Social Sciences* (Cambridge Massachausetts, 1973), p. 86.

- Laurence R. Veysey, *The Emergence of the American University* (Chicago, 1965) pp. 320 - 323.

-٥٢

- Waardenburg 1 : 246.

-٥٣

- John S. Brubacher and Willis Rudy, *Higher Education in Transition : A History of American Colleges and Universities, 1636 - 1976* (New York 1976), pp. 193 - 95.

- Engel, *From Clergyman*, p. 265. -٥٤
- ٥٥ - حول تواريخ مناهج التخرج أنظر : Qubain, *Education*, p. 83.
- ٥٦ - الطليعة، عدد خاص عن التعليم، ٤، العدد ١٠ (أكتوبر ١٩٨٦) خاصة ص- ١٦، ولويس عوض : *الجامعة والمجتمع الجديد* ص- ص- ٢٦ - ٢٨ ولويس عوض - مقابلة - ٢٠ أبريل ١٩٨٣ . -٥٧
- Anwar Abdel Malek, *Egypt : Military Society*. Trans., Charles Lam Markmann, New York 1968. p. 305.
- (طالعت الترجمة العربية الصادرة عن دار الطليعة - بيروت بعنوان : *المجتمع المصري والجيش* - ترجمة محمود حداد وميخائيل خوري - الطبعة الأولى، مارس ١٩٧٤ - ورأيت من الأنسب أحالة القارئ العربي إليها - ص- ٢٩٨ [الترجمة]) وحول مشكلات المنح التعليمية الأمريكية منذ ١٩٧٤، أنظر :
- Judith Cochran, *Education in Egypt* (London, 1986). -٥٨
- P.J. Vaticioitis, *Nasser and His Generation* (New York, 1978), p. 29 (pp. 174 - 75).
- وتقديم عبد العظيم رمضان للحوار الذي أجراه حمدي لطفي مع كمال الدين حسين "قصة ثوار يوليو" - المصور ١٩ ديسمبر ١٩٧٥ ص- ٢٤ . وتتضمن الروايات حول ١٩٥٢ - ١٩٥٤ : أنور عبد الملك : *المجتمع المصري والجيش* " . و :
- Lacouture, *Egypt*.
- عبد العظيم رمضان السيرة الاجتماعية والسياسية في مصر منذ قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى نهاية أزمة مارس ١٩٥٤ - (القاهرة ١٩٧٥) .
- ٥٩ - Mitchell, *Muslim Brothers*, pp. 141 - 42.
- ٦٠ - عن التطهير أنظر : أنور عبد الملك *المجتمع المصري* "... و :
- Ghali Shoukri, *Egypt : Portrait of a President, 1971 - 1981* (London, 1981), p. 100.
- ومقابلات مع : لويس عوض في ٢٥ أكتوبر ١٩٨٢، ٢٠ أبريل ١٩٨٣ وسعد جمال ٢٣ أبريل ١٩٨٣ . والتعينات في الوقائع المصرية العدد ٧٤ (١٦ سبتمبر، ١٩٥٤) ص- ٣، والعدد ٧٥ (٢٠ سبتمبر ١٩٥٤) ص- ٣، وليس هناك إشارة إلى الفصل . أنظر أيضا أحمد عبد الله *الطلبة والسياسة* "... ص- ١٤٤، ١٤٨ -٦١ - الجامعات المصرية في العام الثالث من الثورة ١٩٥٤ - ١٩٥٥ (القاهرة ١٩٥٥ - ص- ٣) .

- ٦٢- هيكل وأنماط التعليم الجامعي وتطور التعليم الجامعة في مصر (القاهرة ١٩٨٠) ص - ٥١ .
- ٦٣- الجامعات المصرية في العام الثالث ... ص - ٣ .
- ٦٤- أخبار اليوم ٢٥ سبتمبر ١٩٥٤ ص - ٦
- ٦٥- أنور عبد الملك، المجتمع المصري والجيش ... ص ١٣٨ - ١٤٤ . و:
- William A. Rugh, *The Arab Press, News Media and Political Processes in the Arab World* (Syracuse, 1979), pp. 37 - 38, 45.
- ٦٦- لويس عوض، الجامعة والمجتمع الجديد ... "صفحة الإهداء .
- ٦٧- لويس عوض - مقابلة ٢٠ ابريل ١٠٨٣ . ولم أستطع مقابلة رشاد رشدي الذي توفي في ربيع ١٩٨٣ .
- ٦٨- أحمد شلبي رحلة حياة (القاهرة ١٩٨٢).
- ٦٩- إبراهيم عبده الثور في متحف الخزف (القاهرة ١٩٥٣) .
- ٧٠- J.J. G. Jansen, "Ibrahim Abduh (b. 1913). His Autobiographies and His Polemical Writings", *Bibliotheca Orientalis* 37 (1980) : 128 - 32.
- ٧١- Lacouture, *Egypt in Transition*, p. 299.
- ٧٢- Ghali, *Egypt*, p. 16.
- ٧٣- نجيب محفوظ ، "المرايا" ص - ٣٦٣ .

[١٠]

الكيف، والكم، والوظائف

توسيع فرص دخول الجامعة:

كان عبد الناصر - مثل طه حسين - شعبويا، يؤمن بأن للفقراء حقا أساسيا في التعليم. وبعد اثني عشر عاما من الثورة، صدر تقرير يوضح النظرة الرسمية للتطوير في التعليم العالي: "كانت مهمة التعليم العالي قبل الثورة هي تخريج الموظفين لخدمة الأجهزة التي تسيطر عليها الميول الرجعية والمبادئ الاستعمارية، والمفاهيم المعبرة عن المصالح الأنانية. فوضع العراقيل في طريق الطبقات الفقيرة، وضيق دائرة التعليم العالي. وأخضع قبول الطلاب للاعتبارات الطبقيّة، التي يراعى فيها وضع الأسرة، وتلعب فيها المحسوبية والمستوى المادي دورا بارزا. وتغيرت الصورة كلية في عهد الثورة، الذي قفز فيه التعليم العالي قفزة ناجحة إلى الأمام مع انهيار حكم الطبقة، وإقامة العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص.

فأصبح العلم حقا مشاعا لكل مواطن وفقا لكفائته بصرف النظر عن مكانته الاجتماعية أو قدراته المالية أو اتصالاته. وقد بدأ التطور الكبير مع خفض رسوم التعليم وصولا إلى توفير مجانية التعليم في جميع المراحل حتى مرحلة التعليم العالي^(١).

ولأن عبد الناصر اعتبر التعليم الجامعي حقا وليس امتيازاً، فقد أعلن مجانيته في ٢٦ يوليو ١٩٦٢، بمناسبة الذكرى العاشرة لتنازل فاروق عن العرش^(٢).

وبهذا اكتملت المسيرة الطويلة نحو مجانية التعليم التي بدأت منذ رحيل كرومر قبل نصف قرن. وتحقق أحد المعالم المهمة في التاريخ، بالرغم من أن الفتاة الصعيدية لم تكن قد أصبحت قادرة - بعد - على منافسة ابن الباشا في القاهرة.

وجرى أيضا اختراق حاجز الانتقائية الأكاديمية، عندما اقترح وزير التعليم كمال الدين حسين في ١٩٥٧ فرض رسوم معتدلة للقبول بالجامعة، فأعلن برلمان عبد الناصر - المطيع - الرفض بالطبع.. وحل ناصر مجلس الأمة، وأبقى وزيره، ولكن الاقتراح لقي إهمالا؛ فأصبح التعليم العالي حقا مقدسا لكل من يتخرج من المدارس الثانوية^(٣).

وربما سبقت مصر بذلك عصرها قليلا؛ فقد سلمت الجامعات الإيطالية بأتاحة فرصة الالتحاق للجميع في عام ١٩٦٩^(٤)، كما فعلت نفس الشيء بعض الجامعات الأمريكية.

وأدى التوسع في إقامة المساكن الجامعية للطلاب إلى زيادة الفرص أمام طلاب الأقاليم للالتحاق بجامعة القاهرة. وكانت أول مدينة جامعية للبنين افتتحت عام ١٩٤٩، وافتتحت واحدة أخرى بعد ثلاثة أعوام.

ولكن أول مدينة للبنات لم تفتتح إلا في عام ١٩٥٧، رغم أن الجامعة كانت قبل ذلك تستأجر المساكن لإقامة الطالبات. وبحلول عام ١٩٦٦/١٩٦٧ وفرت الجامعة السكن لخمسة آلاف وخمسمائة طالب، بما يساوي تقريبا نسبة "العشر" من المقيدين المنتظمين بالجامعة. ولم تكن المدن الجامعية تقبل سوى العزاب من أبناء الأقاليم، غير أن أبناء الشهداء وأبناء العاملين بالجامعة كانت لهم استثناءات. ثم فاق الطلب كثيرا حجم المعروض، فأصبحت المدن في عام ١٩٨٢ لا تفي سوى "ربع" ما هو مطلوب^(٥).

وظهرت وسيلة أخرى لتوسيع الفرصة، وهي جعل المناهج الجامعية متاحة لأولئك الذين يشغلون وظائف ثابتة. فلم تكن مناهج "الجامعة الشعبية" للكبار التي بدأت عام ١٩٤٥ معترفا بها رسميا^(٦). وكان لطفي السيد مدير الجامعة قد حذر في ١٩٣٦ من اقتراح طرح في البرلمان بإنشاء فصول ليلية، مشيرا إلى أنها سوف تقلل من مستوى نوعية الخريجين، وتزيد البطالة بين المتعلمين^(٧). ثم أتاح تطبيق نظام الانتساب الذي بدأ عام ١٩٥٣، للطلاب أن يدرس بمعرفته، ثم يحضر إلى الجامعة عند امتحان نهاية العام فقط. وطبق النظام في كليات الحقوق والآداب والتجارة، ثم دار العلوم فيما بعد، وجميعها كليات "نظرية" لا تحتاج إلى معامل. وبحلول عام ١٩٦٢ - ١٩٦٣ كان ٢٤% من الطلاب المستجدين بالجامعات المصرية من المنتسبين^(٨). ولم يكلف هذا النظام الجامعة كثيرا، لكنه ساعد في إرواء العطش إلى التعليم الجامعي. بل إن بعض طلاب الانتساب واصلوا الدراسة

حتى حصلوا على الدكتوراه، ولكن معدل الرسوب كان مرتفعاً بينهم، مما حدا بالكثيرين إلى التساؤل عن جدوى الدراسة من الخارج.

ويوضح جدول (١٩) الزيادة في عدد المقيدين بالجامعة، والتي نجمت عن توسيع فرص القبول بجامعة القاهرة وغيرها من الجامعات. وعند وفاة عبد الناصر كانت جامعة القاهرة تضم خمسين ألف طالب (دون حساب عدد المنتسبين)، وهو يساوي مرتين ونصف عدد طلابها وقت وصوله إلى الحكم.

وفي ظل عبد الناصر، أنشئت جامعة رابعة عام ١٩٥٧؛ هي جامعة أسيوط كما أفتتح العديد من الكليات الفرعية، والمعاهد العليا. وتمشيا مع برنامج التكنوقراطي، أعطت جامعة أسيوط الأولوية للمجالات العلمية والتقنية، فلم يكن بها كلية للحقوق أو الآداب، حتى بعد مرور عشر سنوات على إنشائها.

واستمر تكاثر الجامعات في السبعينيات مع إنشاء كليات فرعية لجامعات القاهرة والإسكندرية وعين شمس، بالمنصورة وطنطا والزقازيق. وفي عهد السادات انفصلت هذه الفروع لتكون جامعات مستقلة، كما افتتحت جامعات جديدة في المنيا، والمنوفية، وقناة السويس. وافتتحت جامعة أسيوط أفرعا لها في قنا والمنيا وسوهاج وأسوان. وكررت جامعة حلوان تاريخ جامعة عين شمس، عندما ما جمعت المدارس العليا وحول القاهرة في جامعة جديدة.

وأنشأ عبد الناصر المعاهد العليا المكملة للجامعات، لإعداد المتخصصين في الصناعة والتجارة والزراعة والصحة والتدريس، وغيرها من المجالات. وكان من المفترض أن تركز المعاهد على التعليم التطبيقي أكثر من النظرى، وأن توفر الفنيين من المستوى المتوسط اللازم لمجتمع صناعي. وبحلول عام ٦٣-١٩٦٤ أصبح ما يربو على ٢٥ ألف طالب مقيد في ٣٨ معهدا، إلا أن هذا العدد كان يمثل ١٧% من المقيدين بالمستوى التعليمي الثالث* في حين كان طلاب الجامعات يمثلون ٧٧%، وطلاب الأزهر ٦% (١٠).

* نقلا عن النص الإنجليزي - (المترجم)

ويوضح جدول (٢٠) أن ميزانية جامعة القاهرة زادت بواقع أربعة أمثال في ظل عبد الناصر، وكانت تزداد بصورة أسرع من زيادة الكتلة الطلابية. كما وسع ناصر بالفعل من الفرص المتاحة أمام الأسر محدودة.

جدول (١٩) المقيدون بالجامعة والتعليم فوق الثانوي

السنة	جامعة القاهرة (انتظام)	جامعة القاهرة (آخرون)	جامعة الإسكندرية	جامعة عين شمس	جامعة أسيوط	إجمالي المقيدون بالجامعات إلى	إجمالي المقيدون بالجامعات إلى
١٩٢٦-٢٥	٢٠٢٧	* ١٣٤١	لم تكن أنشئت بعد	لم تكن أنشئت بعد	لم تكن أنشئت بعد	٣٣٦٨	---
١٩٣١-٣٠	---	---	لم تكن أنشئت بعد	لم تكن أنشئت بعد	لم تكن أنشئت بعد	٤٢٤٧	٦٧٦٠
١٩٣٦-٣٥	٧٠٢١	* ٤٩٤	لم تكن أنشئت بعد	لم تكن أنشئت بعد	لم تكن أنشئت بعد	٧٥١٥	٨٣٩٨
١٩٤١-٤٠	---	---	لم تكن أنشئت بعد	لم تكن أنشئت بعد	لم تكن أنشئت بعد	٨٥٠٧	٩٢٢٤
١٩٤٦-٤٥	١٠٥٣٤	---	٣٣٩٣	لم تكن أنشئت بعد	لم تكن أنشئت بعد	١٣٩٢٧	١٧٠٣٥
١٩٥١-٥٠	١٨٢٤٦	..	٥٩٨٧	٧٥٣١	لم تكن أنشئت بعد	٣١٧٤٤	٣٣٤٠٩
١٩٥٢-٥١	١٨٥٥٥	..	٦٤٥٧	٩٨٣٠	لم تكن أنشئت بعد	٣٤٨٤٢	٣٦٦٢٢
١٩٥٦-٥٥	٢٤٥٧٨	**٤٧٦٢	١٠٥٨٩	١٦٤٩٣	لم تكن أنشئت بعد	---	---
		+٢٦٨	**٢٥١٤	+٣٧٩٣	لم تكن أنشئت بعد	٣١٧٤٤	٧٠٠٥٦
١٩٥٩-٥٨	٢٦٠٢٣	**٧٧٥٠	١٣١٦٥	١٦٥٨٢	١١٠٥	٦٢٩٩٧	---
		+٨١٤	**٤٨٧٥	**٦٧٧٦	---	---	٨٨٣٥٦
١٩٦١-٦٠	٢٧٩٧٣	---	---	---	---	٧٧٠٩٠	١٠٦٧٨٧
١٩٦٦-٦٥	٤٧٤٦٣	---	---	---	---	---	---
١٩٧٠-٦٩	٤٩٠٦٥	---	---	---	---	---	---
١٩٨٢	١٥٠٠٠٠	طلاب نظاميون وطلاب من الخارج	---	---	---	---	٤٨٠٠٠٠

* المقيدون بالمعاهد التي انضمت بعد ذلك إلى جامعة القاهرة.

** طلاب من الخارج.

+ المقيدون بفرع الخرطوم.

المصادر :

Jacque Waardenburg, Les Universite dans le monde arab actuel .

الجزء الثاني، صفحات : ٧٨، ٧٩، ٨٢، ٨٥

، تقويم جامعة القاهرة ٦٩-١٩٧٠، صفحة غير مرقمة.

، الأهرام ٢٢ سبتمبر ١٩٨٢ صفحة ٨.

الدخل من تلك التي صورها أحدهم عشية الثورة : **"في كشك فوق سطح منزلنا، كان يعيش اثناء الشتاء جانب من أسرة ريفية، قدمت إلى القاهرة لكي يتلقى اثنان من أبنائها تعليمهما. وتكونت الأسرة من الولد الأكبر الذي يدرس بجامعة القاهرة، والأصغر بالمدرسة الثانوية، والجدّة التي جاءت لترعاها، ثم شقيقتهم الصغيرة التي أرسلت لاحقا للقيام بالمهام المنزلية والتخفيف عن كاهل العجوز. يعيش جميعهم على الفول والخبز وأنواع من الفاكهة، يقوم بإعالتهم الأب الغائب، وهو فلاح يعمل في أرضه"**

جدول (٢٠)

ميزانيات التعليم في مصر "بالآلاف جنيه مصري"

السنة	إجمالي موازنة الدولة	وزارة التعليم	نسبة ميزانية وزارة التعليم لإجمالي موازنة الدولة (%)	جامعة القاهرة	جميع الجامعات	النسبة المئوية لميزانية التعليم المخصصة للجامعات
١٩٢٦-٢٥	٢٦٢٨٨	٢٢٢٦	٦,٤	١١٠	١١٠	٤,٧*
١٩٣١-٣٠	٤٤٩١٥	٣٣٠١	٧,٤	٢٩٩	٢٩٩	٩,٠
١٩٣٦-٣٥	٢٢٨٤٦	٣٣٥٠	١٠,٢	٥٧٩	٥٧٩	١٧,٣
١٩٤١-٤٠	٤٧٧١٨	٤٦٤٣	٩,٧	٨٤٩	٨٤٩	١٨,٣
١٩٤٦-٤٥	٨٩٩٦٨	١١٦٣٦	١٢,٩	٩٥٠	١٤٥٦	١٢,٥
١٩٥١-٥٠	٢٠٥٩٨٩	٢٢٢٣٥	١٠,٨	١٥٩٩	٣٢٥٨	١٤,٦
١٩٥٢-٥١	٢٣١٤٤٧	٢٨٠٢٠	١٢,١	١٩٣٢	٣٩٨٢	١٤,٢
١٩٥٦-٥٥	٢٣٨٣٠٠	٣٢٥٣٥	١٣,٧	٣٠٥٣	٦٥٧٩	٢٠,٢
١٩٦٠-٥٩	٣١٨٢٧٠	٤١٤٢٣	١٣,٠	---	٨٧٦٩	٢١,٢
١٩٦١-٦٠	٣٧٠٨٨٠	---	---	٥٣٣١	١٣٢١٤	---
١٩٦٦-٦٥	---	---	---	٦١٢٨	---	---
١٩٧٠-٦٩	---	---	---	٧٩٨٩	---	---

* يعطي مصدر آخر رقم ١٩٠٩٩٧ جنيه مصرياً

المصادر: المصدر السابق، الجزء الثاني ص- ١٢٠، وقد جاء المصدر المختلف لعام ٢٥ - ١٩٢٦ في تقويم جامعة القاهرة ٦٩ - ١٩٧٠. وبمقارنة الأرقام المختلفة نوعاً في:

Matthews, Roderic D , and matta Akrawi Education In Arab countries of the Near East

ص- ١٦

ولويس عوض : الجامعة والمجتمع الجديد ص- ١٨، يتضح أن ميزانية التعليم الحكومي لم تتضمن الإنفاق التعليمي للمجالس المحلية حتى عام ٥١ - ١٩٥٢.

** المستوى الجامعي، لأن المرحلة الإعدادية لم تكن قد ظهرت بعد ضمن مراحل التعليم، فكانت مراحل للتعليم الثلاث : الابتدائي، والثانوي فالجامعي (المترجمة)

هل ضلت المفاهيم الديمقراطية طريقها^(١٢) ؟ :

في أوائل الستينيات، عندما اشتد زخم دعوة عبد الناصر من أجل الاشتراكية العربية، سعى إلى تعبئة الجامعات. وكان النقد الذي كتبه لويس عوض في كتابه "الجامعة والمجتمع الجديد" - الذي ظهر لأول مرة كسلسلة مقالات بالأهرام - لاذعا للغاية، من حيث أنه يأتي من تقدمي على شاكلة طه حسين، لا من رجعي معارض للتعليم العام. وتحدث عوض، بالقدر المسموح به من الصراحة، موضحا الثمن الذي تدفعه الجامعات بسبب فاشية عبد الناصر، وتفضيله للتعليم الفني على التعليم الليبرالي، وضالة ما ينفقه على دعوته الشعبية.

لقد أراد عوض - مثله في ذلك مثل طه - أن يصبح التعليم متاحا على نطاق أكثر اتساعا في كل المستويات، ولم يهتم كثيرا بالثمن الذي تدفعه مصر من أجل ذلك. فندد بالمتخصصين في علوم التربية الذين أغفلوا الجوهر من أجل التقنية، كما ندد بالمخططيين التكنوقراط الذين يفصلون التعليم على مقاس احتياجات القوة البشرية المخططة.

ولأنه أحد دعاة الفكر الإنساني، أصر على أن الوظيفة الأولى للتعليم هي تقديم البشر المبدعين، والمواطنين المفكرين، وليس مجرد الفنيين المدربين على وظيفة معينة.

ورأى عوض، أن تهنت الحكومة لنفسها على التوسع في التعليم الجامعي لم تكن عن حق؛ فوفقا لتقديره كان ٢٠ مواطنا من كل ألف في إنجلترا يواصلون تعليمهم العالي، وفي الولايات المتحدة ٢٥، أما بالنسبة لمصر فيحصل أربعة مواطنين فقط من كل ألف مواطن على تعليم عال. وبينما يتجادل المصريون فيما إذا كان من الواجب التوسع في التعليم العالي أم لا، فإن الأمريكيين يتناقشون فقط حول سبل واتجاه التوسع القائم. كما رأى أن مصر سوف تحتاج إلى عشرين معهدا جديدا، كل منها بحجم جامعة القاهرة، حتى يمكنها اللحاق بمعدل التعليم العالي الأمريكي^(١٣).

ويواصل عوض انتقاداته، فيشير إلى أنه منذ قيام الثورة، ضاعفت مصر نسبة المسجلين بالتعليم العالي فقط، التي بلغت ١,٩٥ لكل ألف مواطن مع نهاية النظام القديم. وكان التعليم العالي قد شهد بالفعل زيادة في العقد السابق على الثورة (بزيادة حوالى أربعة أمثال من ٠,٥١ - إلى ١,٥٩ لكل ألف من السكان) بصورة أسرع من العقد التالي لها، حيث بلغت الزيادة أقل من الضعف^(١٤).

أما أكثر ما يلفت النظر في أعداد المسجلين الموضحة في جدول (٢١) فهو أنه برغم ارتفاع معدل التوسع التعليمي عن معدل النمو السكاني في الفترة أثناء الحرب، إلا أنه تخلف عنه على نحو بالغ في الأربعينيات. وفي ظل آخر وزارات الوفد والسنوات الأولى من عهد عبد الناصر، استعاد التوسع في التعليم مكانته المفقودة وتجاوز معدلاته المرتفعة الأولى. ومن ناحية أخرى شهدت النسبة بين التوسع في الجامعة والنمو السكاني انخفاضا في أواخر الثلاثينيات، ثم زادت في الأربعينيات والخمسينيات. حيث كان المطالبون بالتوسع في التعليم الجامعي أكثر فعالية من أولئك الذين يضغطون من أجل التوسع في المستوى الابتدائي.

ويوضح جدول (٢٢) للوهلة الأولى بطء التقدم الذي حققته مصر في مواجهة الأمية. والأفضلية التي يتمتع بها الرجال في التعليم عن النساء، وكذلك الزيادة الكبيرة في أمية الريفيين. كما تظهر الإحصائيات المنشورة بمجلة "الطليلة" إلى أي مدى بلغت الفوارق الإقليمية في التعليم الثانوي. ففي القاهرة تحسنت نسبة طلاب المدارس الثانوية من ١٠,٦ لكل ألف من السكان في عام ١٩٥٩ - ١٩٦٠ إلى ٢٠ لكل ألف في عام ١٩٦٦ - ١٩٦٧. وعند الطرف الآخر من الصورة، زادت النسبة في قنا بصعيد مصر من ١,٦ فقط إلى ٢,٥ في كل ألف من السكان^(١٥)، ومن ثم كانت فرصة التحاق الطفل القاهري بالمدارس الثانوية تزيد عن فرصة طفل قنا ثماني مرات.

واستمر الانحياز السائد للحضر في التعليم الجامعي، رغم شعبية عبد الناصر. وأظهرت الدراسة التي أعدها "شفشق" عام ١٩٦٢، أن ٣٧% من عينة طلاب سنة التخرج بجامعة القاهرة جاءوا من القاهرة، وأن ١٩% غيرهم من مدن يتجاوز عدد سكانها مائة ألف وبلغ هذا التمييز أشد حالاته في كليات الصفوة العلمية؛ حيث ٤٥% من طلاب كلية العلوم، ٤٣% من طلاب الطب، ٤٠% من الهندسة جاءوا من القاهرة. وكانت النسبة أقل في التخصصات الأقل مكانة، فشكل أبناء القاهرة ٤٣% من طلاب الاجتماع، ٣٣% من طلاب الحقوق، ٢٨% من طلاب الدراسات الإنسانية^(١٦).

ويقدر "مور" أن ٧٢% من خريجي الهندسة المصريين فيما بين ٧١-١٩٧٣ جاءوا من الشريحة السكانية العليا التي تضم ٣% من المصريين، في حين كان ٢% فقط من هؤلاء الخريجين من أبناء صغار ملاك الأراضي أو الفلاحين الذين لا يملكون أرضا، وهم يشكلون ٦٦% من السكان^(١٧).

وتشير العينة التي اختارها "شفشق" من جامعة القاهرة (جدول ٢٣) إلى نفس الاتجاه ؛ فثلث أفراد العينة أبائهم من نخبة أصحاب الوظائف المهنية في الحضر التي يشغلها ٤% فقط من المصريين الذكور البالغين، في حين جاء ٦% من أفراد نفس العينة من أسر الزراعيين الذين كانوا يشكلون ٥٤% من المواطنين الذكور. أما الأزهر فكانت نخبويته طفيفة ؛ حيث جاء ١٨% من طلابه من أبناء الشريحة العليا في الحضر (٤% من السكان) ولكنه بدا كما لو أنه معقل للمساواة مقارنة بجامعة القاهرة، كما كان ٤٦% من طلاب الأزهر ينتمون لأسر يعمل عائلها بالزراعة.

جدول (٢١)

عدد المسجلين بالجامعة بالنسبة لإجمالي سكان مصر.

العلم الدراسي	عدد السكان (بالمليون)	المسجلون بالتعليم قبل الثقوي	المسجلون بالجامعات	إجمالي التسجيل بالتعليم العالي	نسبة المسجلين لكل ألف من السكان		
					التعليم الثقوي	التعليم الجامعي	التعليم العالي
١٩٢٦-٢٥	١٣,٨	١٩٣١٤٤	٣٣٦٨	---	١٤	٠,٢	---
١٩٣١-٣٠	١٤,٨	٣٧٣٨٨٨	٤٢٤٧	٦٧٦٠	٢٥,٣	٠,٣	٠,٥
١٩٣٦-٣٥	١٥,٨	٦٦١٠٢٥	٧٥١٥	٨٣٩٨	٤١,٨	٠,٥	٠,٥
١٩٤١-٤٠	١٦,٦	١٠٨٠٣٣٣	٨٥٠٧	٩٢٢٤	٦٥,١	٠,٥	٠,٦
١٩٤٦-٤٥	١٨,٥	٩٦٤٠٨١	١٣٩٢٧	١٧٠٣٥	٥٢,١	٠,٨	٠,٩
١٩٥١-٥٠	٢٠,٦	٩٩٦٦٧٦	٣١٧٤٤	٣٣٤٠٩	٤٨,٣	١,٥	١,٦
١٩٥٦-٥٥	٢٣,٣	٢٠٦٠١٧٢	٦٢٩٩٧	٧٠٠٥٦	٨٨,٣	٢,٧	٣
١٩٥٩-٥٨	٢٥,١	٢٣٨٦٧٢٨	٧٧٠٨٧	٩٧٧٣٠	٩٥,٣	٣,١	٣,٩

Wardenburg , les Universites dans les monde arab

المصدر :-

الجزء الثاني ص - ٧٨ - ٨٠

جدول (٢٢)

النسبة المئوية للأمية في مصر فيما بين ١٩٤٧ - ١٩٧٢

السنة	ذكور	إناث	إجمالي النسبة	الذكور في الريف	الإناث في الريف	الذكور في الحضر	الإناث في الحضر
١٩٤٧	٦٥	٨٤	٧٥	---	---	---	---
١٩٦٠	٥٦	٨٣	٧١	---	---	---	---
١٩٧٢	٤٥	٧٣	٥٩	٦١	٨٥	٢٦	٦١

المصدر :

- D. Panzac, "La population de L'Egypt contemporaine,"

في

- "L'Egypt d'aujourd'hui: Pemanance et changements 1805 - 1976, ed M.C. Aulas et al (Paris 1977) .

(بالنسبة لما بعد ١٩٧٣ قارن الأرقام المختلفة في Mead, Growth ص- ٣٠١)

جدول (٢٣)

النسبة المئوية لتوزيع طلاب القاهرة والأزهر حسب مهنة الأب

في عام ١٩٦٢

مهنة الأب	طلاب جامعة القاهرة	طلاب جامعة الأزهر	نسبة المهنة إلى السكان من الذكور البالغين في عام ١٩٦٠
مهني ، فني ، تنفيذي أو إداري	٣٣	١٨	٤
عمل كتابي	٢٣	٧	٤
صاحب مشروع خاص	٢٩	٢٠	٨
عامل يدوي	٦	٢	٢٨
مزارع	٦	٤٦	٥٤
غير مصنف	٣	٨	٢

المصدر * :

- Abdullah, Student Movement, P 110

* لما كنت شرفت بترجمة كتاب الدكتور أحمد عبد الله فقد لاحظت وجود تفاوت طفيف بين الأرقام هنا والأرقام في المصدر، لذا يرجى التكرم بالرجوع إلى : د. أحمد عبد الله - الطلبة والسياسة في مصر - ترجمة إكرام يوسف. دار سينا للنشر - الطبعة الأولى ١٩٩١ ص- ١٣٥ (الترجمة)

وكانت وظيفة الأستاذ الزائر إحدى نتائج التزايد في عدد الجامعات. فكتب أحد الأمريكيين العاملين بمؤسسة " فولبرايت " يقول عن زملائه بجامعة المنصورة :

"نظرا لجميع الاعتبارات العملية، يقضي عميد الكلية هنا يومين أسبوعيا، أما بقية هيئة التدريس فيمكنون هنا ثلاثة أيام من الأسبوع، ثم يذهب جميع زملائي ومعهم العميد إلى منازلهم في القاهرة والإسكندرية. وكان من المحيط أن تسمع إحدى الزميلات، وهي تقول : ' أنتى أكره هذا المكان، فهو قذيع، قذيع جدا'. وعلى الرغم من أن الزميلة التي أعمل معها، تعمل بالجامعة منذ أحد عشر عاما، إلا أنها لم تترك أبدا مدينة المنصورة، وهي لا تعرف ماذا يوجد بالمدينة ولن تسير في شوارعها. وليس من قبيل المبالغة أن أقول أن أعضاء هيئة التدريس يفرون من الحرم الجامعي بمجرد انتهاء آخر محاضرة لهم" (١٨).

وبالنسبة لموضوع التمويل، وجد لويس عوض أن حكومة الثورة خفضت ميزانية الجامعة في أول الأمر، ثم جمعتها لثلاث سنوات، برغم الزيادة الكبيرة في عدد المسجلين (جدول ٢٤). وكانت المخصصات الأخيرة أقل مما تبدو عليه، لأنها تعكس عملية دمج المعاهد العليا في النظام الجامعي. كما لم تكن زيادة نفقات التعليم الجامعي - من حوالى ١٠% من الموازنة العامة قبل الثورة إلى ١٣% في العقد التالي لها - مؤثرة، لأن الدخل القومي تضاعف في هذه الفترة، كما ارتفع عدد السكان من ٢١,٥ مليون إلى ٢٧ مليوناً. بالإضافة إلى أن أرقام ما قبل الثورة كانت منخفضة على نحو مضلل، حيث لم تشتمل على إنفاق المجالس المحلية (١٩).

وأبرز عوض أن الجامعات الأمريكية من الطبقة الأولى أنفقت على التعليم والأبحاث في العام ١٩٥٨ / ١٩٥٩ حوالى خمسة آلاف دولار في أقل تقدير، وتحتوى مكتباتها مليون كتاب على الأقل. أما جامعات الدرجة الأولى في بريطانيا فكانت تتفق حوالى ٥٠٠ جنيه إسترليني لكل طالب. في حين تتفق جامعات " الدرجة الثالثة " في الولايات المتحدة (مثل فورد هام، وفلوريدا، وفيرمونت) حوالى ألف وخمسمائة دولار لكل طالب، كما كانت نسبة أعضاء هيئة التدريس إلى الطلاب ١ : ٢٠ تقريبا ومن ثم كانت جامعة القاهرة في مرتبة أننى من القاع في هذه القائمة، من نواح عديدة؛ حيث تتفق حوالى ١٠١ جنيه مصرياً على التعليم والأبحاث لكل طالب، وبلغت نسبة أعضاء هيئة التدريس إلى الطلاب فيها ١ : ٢٥ أو ١ : ٣٥ (النسبة الأننى

تشمل المعيّدين باعتبارهم من هيئة التدريس) في حين تحتوى مكتبتها على ٠,٣ مليون كتاب فقط. بل أن حتى هذه الأرقام تعتبر مضللة لأن ما يتراوح بين ٢٠% - ٣٠% من مخصصات التعليم والبحث كانت تذهب فعلياً إلى الإدارة، وحوالي ٢٠% تذهب إلى وزارة المالية، فيصبح الإنفاق الفعلي على التعليم ما بين ٥٠-٦٠ جنيهاً مصرياً لكل طالب. وإذا افترضنا تغيب ٢٠% من أعضاء هيئة التدريس في أي وقت، تكون النسبة الفعلية لأعضاء هيئة التدريس إلى الطلاب، حوالي ١ : ٥٠، ويقول عوض أنه لا توجد جامعة حقيقية في أي مكان من العالم تسمع عن شيء كهذا^(٢٠).

وكانت النسبة بين أعضاء هيئة التدريس والطلاب في الكليات "العملية" مثل الهندسة والطب متدهورة، إلا أنها لم تكن بنفس درجة تدني هذه النسبة في الكليات "النظرية" مثل الحقوق، والتجارة والآداب. ويوضح جدول (٢٥) الانحدار الكئيب الذي كانت تشهده كلية الآداب. ويلاحظ عوض، في حزن، أن الوصول إلى النسبة المقبولة (١ : ١٠) يستلزم زيادة عدد أعضاء هيئة التدريس من ١٢٨ عضواً (من بينهم المعيدون) بمقدار سبعة أمثال هذا الرقم ليصل إلى ثمانمائة عضو.

جدول (٢٤)

ميزانيات الجامعات وعدد المقيدين بها

العام الدراسي	إجمالي ميزانيات الجامعات (بالمليون جنيه)	عدد الطلبة المقيدين	نصيب كل طالب من الموازنة (بالجنيه)
١٩٥٢-٥١	٤	٣٥٠٠٠	١١٤
١٩٥٣-٥٢	٣,٥	٤٢٥٠٠	٨٢
١٩٥٤-٥٣	٣,٥	٥٣٥٠٠	٦٥
١٩٥٥-٥٤	٣,٥	٥٤٥٠٠	٦٤
١٩٥٦-٥٥	٦,٥	٦٣٠٠٠	١٠٣
١٩٥٧-٥٦	٦	٦٥٠٠٠	٩٢
١٩٥٨-٥٧	٨	٧٤٠٠٠	١٠٨
١٩٥٩-٥٨	٧,٥	٧٧٠٠٠	٩٧
١٩٦٠-٥٩	٩	٨٣٠٠٠	١٠٨
١٩٦١-٦٠	١٣	٨٧٠٠٠	١٤٩
١٩٦٢-٦١	١٣,٥	٩٦٥٠٠	١٤٠

المصدر : لويس عوض، الجامعة والمجتمع الجديد ص - ٦٣.

جدول (٢٥)
ترتيب الكليات والمهن في مصر وفقا للمكانة الاجتماعية

الكلية	١٩٥٧	١٩٦١	١٩٧٠	١٩٧٦
الكليات العلمية:				
الطب	٢	٣	١	١
الصيدلة	١	٢	٢	٢
الهندسة	٣	١	٣	٤
طب الأسنان	٤	٦	٤	٣
العلوم	٥	٥	٦	٨
الزراعة	٦	٧	٩	١٠
الطب البيطري	٧	٩	٧	٦
العلوم الإنسانية:				
الاقتصاد والعلوم السياسية	—	٤	٥	٥
التجارة	٨	٨	٨	٩
الآداب	٩	١٠	١٠	١١
الحقوق	١٠	١١	١١	١٢
التربية	—	١٢	١٢	٧

المصدر :

Shafshak, "University : ص ١٨٠

و : Moore, Images ص ٤٤ - ٤٦

ويواصل لويس عوض ملاحظاته، فيشير إلى أن حوالي ١٢% فقط من الطلاب المقيدون من الخارج اجتازوا امتحاناتهم النهائية بنجاح فيما بين ١٩٥٩ و ١٩٦٢ مقارنة بحوالي ٤٤% من الطلاب النظاميين^(٢٢). وكانت "النزعات الديمقراطية" قد ضلت طريقها تماما. فمن بين الكليات الثلاث الرئيسية التي يلتحق بها الطلاب من الخارج انزلقت الآداب والحقوق إلى قاع التسلسل الهرمي للمكانة الاجتماعية. وكان وضع كلية التجارة أفضل قليلا في بادئ الأمر إلا أنه انحدر في أوائل السبعينيات^(٢٣). وعارض المحافظون نظام الدراسة من الخارج، على أساس أنه يؤدي لخفض مستوى الخريجين، إلا أن عوض كان ديمقراطيا إلى الحد الذي لا يسمح بإلغاء النظام تماما؛ فاقترح توسعا موجهها في أعداد المسجلين المنتظمين، بالإضافة إلى إنشاء جامعات ليلية منفصلة في القاهرة والإسكندرية للعاملين^(٢٤). وما زال نظام

الدراسة من الخارج قائما إلى الآن بسبب ما يرمز إليه من مساواة، إلى جانب ملائمة تكلفته المنخفضة لواضعي خطط التعليم ورجال السياسة.

وأبدى عوض استهجانه لقصر فترة السنة الدراسية، والتركيز على امتحانات نهاية العام. فكان يرى أن السنة الدراسية الفعلية في مصر أقل منها في الولايات المتحدة بشهرين حيث تمتد من أوائل نوفمبر، حتى منتصف مايو في أحسن الأحوال، يتخللها أسبوعان إجازة نصف العام^(٢٥).

كما لاحظ أن الطلاب يمضون شهرين في الاستعداد لامتحان نهاية العام في عشر مواد دراسية، وأن مثل هذه الامتحانات تنمي القدرة على الحفظ، بدلا من التفكير النقدي. وأعلن رغبته في توزيع الامتحانات على مدار العام، وتطوير وسائل اختبار القدرة على التفكير بدلا من الحفظ، بل وربما انتهاج نظام الفصل الدراسي الأمريكي^(٢٦). إلا أن نظام الامتحانات القديم استمر في طريقه. وكانت الخيام ذات الزخارف التي تعقد بها امتحانات نهاية العام في جامعة القاهرة إحدى العلامات المؤكدة على مجيء فصل الربيع مثلها في ذلك مثل إزهار الأشجار الياضعة! أما في جامعة عين شمس، فكان للامتحانات مظهر معماري تمثل في استخدام قاعات خاصة، لم تكن تستخدم أثناء بقية العام^(٢٧). ويعلق على ذلك أحد أساتذة "قولبرايت" فيقول: **أن امتحانات مايو (نهاية العام) في الإسكندرية غير إنسانية، وفي غير صالح الطلاب، وليس لها علاقة بالتعليم كما أفهمه، وهي تسبب الاضطراب العصبي وما إليه. كما أنها تشبه مسرح العبث كاحدى روايات كافكا، أو الخيال العلمي الذي يحتوى على مثل هذه القوى الغامضة والمجهولة التي تشبه قوى الضبط والربط. إلا أنني تحملت مع بعض تلاميذي - وليس جميعهم - مراثون تصحيح الدرجات المصري الكبير والعريق، بالرغم من عدم وجود جائزة في نهايته، ثم بقيت بعدهم^(٢٨).**

كما أسفرت الحاجة الملحة إلى التفوق عن ظهور سوق سوداء للدروس الخصوصية يعمل بها مدرسون وأساتذة جامعيون، رغم أن القانون يحظر عليهم ذلك من الناحية النظرية - الأمر الذي أضعف تماما من قوة الدفع الناصرية الرامية إلى تحقيق المساواة.. وفي عام ١٩٨٠، أصبح باستطاعة المدرس الخصوصي في التعليم الثانوي أن يحصل على ثمانية جنيهاً في الساعة لقاء درس الرياضيات، وستة جنيهاً في درس اللغات، وذلك بينما لم يكن المرتب الشهري لخريج الجامعة يتجاوز ٣٣ جنيهاً^(٢٩).

المهن المفضلة والاقتصاد :

كان معظم طلاب الجامعات على استعداد تام لتأييد تركيز ناصر على العلم والتكنولوجيا. فمع حلول عام ١٩٥٢ كانت تفضيلات الطلاب المهنية قد تحولت بالفعل في هذا الاتجاه، حيث تأتي كلية الطب في المرتبة الأولى (يوافقها الكليات المماثلة مثل الصيدلية وطب الأسنان) ثم تأتي الهندسة، لتسبق جميعها الحقوق في مقدمة اختيارات الطلاب. وأدى قضاء عبد الناصر على نفوذ السياسة القدامى من رجال القانون، وتأميمه للشركات الكبرى إلى إرساء علامة انحدار مهنة المحاماة التي شهدت تكالبا عليها فترة طويلة. وإذا عدنا للوراء.. إلى العشرينيات، لشهدنا غلبة الأطباء والمهندسين الأجانب في القطاعين الحكومي والخاص وهي تبدأ في الأفول، والفرص تتزايد أمام المصريين لدخول هذه المجالات. ففي ١٩٢٤ أدى ٤٠% من طلاب التعليم الثانوي امتحان نهاية العام في قسم العلوم والرياضيات، وفعل نفس الشيء ٦٥% من طلاب الثانوي عام ١٩٣٦، ثم ٧٥% منهم في ١٩٤٨ (٣٠).

وفيما بعد، ساهم التزام عبد الناصر بسياسة التصنيع في زيادة شعبية كلية الهندسة. ويقدم نظام الالتحاق بالجامعات الذي أوجده مكتب التنسيق بعد الثورة بقليل، مؤشرا جيدا عن وضع الكليات والمهن المناظرة لها (جدول ٢٥). حيث قام المكتب بتوزيع الطلاب على الكليات والجامعات وفقا لمجموع درجاتهم في امتحان الثانوية العامة؛ بحيث تكون أولوية الالتحاق بالكليات لأصحاب المجاميع الأعلى.

ويصف لويس عوض، ومعه آخرون - هذا النظام، بأنه مناف للعقل، ويطالبون بإلغاء مكتب التنسيق. فباستثناء طلاب كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، كان معظم أولئك الذين يلتحقون بدارسة العلوم الإنسانية من نوي المجاميع المتوسطة. فوضع نظام التنسيق أعدادا ضخمة من الطلاب أصحاب الدرجات المتوسطة في تخصصات ليس لهم أي اهتمام بها، ولا يتمتعون بقدرات خاصة تناسبها. فربما تذهب نسبة ٧٢,٥% من مجموع درجات الثانوية العامة بطلاب إلى كلية طب القاهرة، في حين قد ترسل به نسبة ٧٢% من المجموع إلى هندسة عين شمس، كما قد تهبط به نسبة ٧١% فقط إلى كلية الزراعة بجامعة القاهرة (٣١).

والأمر المثير، أنه على مدى عشرين عاما، حظيت الكليات العملية بتفضيل قوي عن كليات العلوم الاجتماعية والإنسانية؛ حيث يختار معظم الطلاب المتفوقين شعبة العلوم والرياضيات أثناء الدراسة الثانوية، ثم يواصلون دراستهم

في الكليات "العملية" بالجامعة. ولم يكن هناك سوى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، وحدها التي تمثل اختياراً جذاباً أمام خريجي القسم الأدبي بالمدارس الثانوية إلا أن هذه الكلية مازالت تلي كليات الطب والهندسة والصيدلة من حيث الحد الأدنى لدرجات الالتحاق بها. أما كلية الحقوق التي كانت مثار الفخر يوماً ما، فقد قُبعت في قاع القائمة مع التجارة والآداب.

وبالنسبة للقسم العلمي، لم تكن كليات العلوم، والزراعة والطب البيطري تحصل على صفوة الخريجين؛ حيث فضل الطلاب كليات الطب البشري، والصيدلة أو الهندسة، التي توفر فرصاً أفضل للعمل الخاص.

وفي عام ١٩٦٥، أوضحت دراسة تابعت مصير ألف و٧٣١ من خريجي كلية العلوم، التطور الفعلي في مساراتهم المهنية. حيث تبين أن ٢٨% منهم عملوا بالتدريس في إحدى الجامعات المصرية، و ٢٤% كانوا يعملون بالهيئات الحكومية أو إدارات البحوث التابعة لها، في حين التحق ٤٨% بالتدريس في المدارس الثانوية^(٤٨). وتميز الربع من الخريجين الذي يعمل بالتدريس في الجامعة، وأولئك الذين يعملون في معاهد البحث، بأنهم عادة من القادرين أو نوى الصلات أما أغلبية الباقيين فكان عليهم أن يقبلوا العمل بالتدريس في المدارس الثانوية، بما ينطوي عليه من مكانة اجتماعية أدنى نسبياً. وتشير المعلومات الشفهية التي تم جمعها من خريجي علوم القاهرة عام ١٩٨٣ إلى أن برامج التصنيع لم تغير جذرياً من الأنماط المهنية لخريجي كلية العلوم، على الرغم من زيادة فرص العمل في القطاعين العام والخاص.

كما يجب أن ندرك أن ترتيب الكليات، جاء مناقضاً للمفاهيم الاقتصادية والأداء الاقتصادي في مصر عبد الناصر. ففي أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات (عصر نهرو، وسوكرانو، وبن بيلا، ونكروما) كانت إمكانيات العالم الثالث تبدو براقاً؛ فصادرات المواد الخام تدر أسعاراً طيبة، كما كان من السهل الحصول على البترول بسعر منخفض في حالة الحاجة لاستيراده، وكان يمكن استخدام أي من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ضد الآخر، للحصول على المساعدات والأسلحة في بعض الأحيان^(٣٣).

ثم أدرك عبد الناصر، تدريجياً، أن المشروعات الخاصة لن تقود مصر إلى عصر التصنيع، فأمر جميع الشركات الكبرى. وكانت مصر قد نهضت من كبوتها في الفترة من ١٩٥٢ إلى ١٩٥٤، وقطعت نصف الطريق إلى عقد النمو الاقتصادي الكبير. واستهدف معدو الخطة الخمسية الأولى تحقيق

معدل نمو يتراوح بين ٣-٤% سنوياً، بما يضاعف الثروة القومية خلال عشرين عاماً. ولكن عبد الناصر رأى في ذلك بطناً شديداً، لأنه كان يريد مضاعفة معدل النمو في غضون عشر سنوات فقط، فhez خبراء الاقتصاد رعو سهم، غير أنهم عدلوا الخطة بما يتفق مع رؤيته، وبدأ تنفيذها في يوليو ١٩٦٠. بيد أن الخطة افتقرت إلى الواقعية لدرجة استدعت إغفالها قبل أن تبدأ فعلياً فقد قرر عبد الناصر، لاعتبارات سياسية في المقام الأول، بناء السد العالي في أسوان، وإنشاء مصنع للصلب في حلوان لم يكن ناجحاً من الناحية الاقتصادية. كما أغفلت الخطة الاستثمار الزراعي، واستتربت الصناعات غير الناجحة خلف جدران التعريفات الجمركية، ثم تعثرت في ظل الإدارة الحكومية. ووضع المستثمرون الأفراد أموالهم في الملكية العقارية. كما أدت زيادة الإنفاق العسكري مع قيام حرب اليمن إلى سحب الأموال بعيداً عن مجال الاستثمارات الإنتاجية.

وجاءت هزيمة ١٩٦٧، بمثابة القشة الأخيرة لتقصم ظهر الاقتصاد الآخذ في الغرق. ثم فرضت على البلاد فترة أليمة من التقشف والركود استمرت حتى عصر "الانفتاح" الساداتي، عندما ساعد تحسن المناخ السائد على بدء حقبة من النمو الاقتصادي في عام ١٩٧٤. وواجهت أزمات مماثلة عدداً من بلد العالم الثالث بعد ١٩٦٥، مما شكل بعض العزاء للمصريين.

ولعل سياسات التعليم في عهد عبد الناصر ساعدت أيضاً على تفاقم الوضع الاقتصادي؛ فقد جعل الجمود البيروقراطي في وزارة التعليم وفي الجامعات، من التغيير الحقيقي أمراً بالغ الصعوبة. وربما كانت اللجنة الوزارية للقوى العاملة تفكر في النموذج السوفيتي عندما أعدت عام ١٩٦٥ تقريرها الراديكالي حول السياسة التعليمية، وطالبت فيه بتحويل ٧٥% من طلاب التعليم الثانوي والعالي إلى مدارس فنية ومهنية. ولكن الضباط الأحرار لم يكونوا "بلاشفة"، فأهملت الخطة تماماً إزاء صيحات الاحتجاج الصاخبة في جامعة القاهرة، وغيرها (٣٤).

وبينما كان وزراء المعارف في العهد السابق مثل طه حسين، وعبد الرازق السنهوري، ولطفي السيد، ومحمد حسين هيكل من الأساتذة المشهورين أو المفكرين البارزين؛ كان للصاغ كمال الدين حسين رجلاً عسكرياً، تم اختياره لإجبار الجامعات والمدارس والجهاز الإداري والتعليمي على "الوقوف في الصف". وعندما نقله عبد الناصر عام ١٩٦١ ليصبح أحد نواب الرئيس، حل محله مدرسان مغموران تحولاً إلى العمل الإداري، هما: السيد محمد يوسف

وزيرا للتربية والتعليم، وعبد العزيز السيد في وزارة منفصلة للتعليم العالي (وكان يوسف متزوجا من شقيقة قرينة عبد الناصر) كما كان عبد العزيز السيد قد ساعد نصيره كمال الدين حسين أثناء تطهير الجامعة من اليساريين، ثم واصل تقدمه إلى أن تولى منصب مدير جامعة الإسكندرية^(٣٥).

وفي أوائل الستينيات، ألزمت الحكومة نفسها بتعيين خريجي الجامعات والمعاهد العليا الذين لم يحصلوا على عمل، وهي التجربة التي استمرت طويلا. حيث رفض عبد الناصر هجرة المتعلمين باعتبارها تضر بالاقتصاد؛ ونظرا لقلّة فرص العمل بالقطاع الخاص، كان ذلك هو البديل الوحيد لبطالة المتعلمين. وواصل الجهاز الحكومي والمدارس التي تغذيه التوسع المطرد، مما أسفر عن تبديد قدر أكبر من الموازنة. وأصبح ضمان الوظيفة، مثل دعم أسعار السلع الاستهلاكية، من المقدسات التي لا يمسه الوزراء، وإلا تعرضوا للخطر^(٣٦). وربما أسفرت الهجرة، الدائمة والمؤقتة، في السبعينيات عن تخفيف الوضع، بيد أنه بات على الخريجين الانتظار ثلاث سنوات أو أكثر بعد التخرج للحصول على الوظيفة^(٣٧).

وإذا كان التعليم في الستينيات يبدو كما لو أنه العلاج الناجع للتنمية، ففي السبعينيات سمعنا عن "مرض الشهادات"، وعن "الهند، الموطن الأصلي لمحصلي السيارات العامة الذين يحملون البكالوريوس"^(٣٨) وليست هناك علاقة مجردة بين التعليم والتصنيع، فبريطانيا بدأت التصنيع قبل حركة نشر التعليم العام، وألمانيا بدأت التصنيع بعدها، بينما حدث التصنيع في الولايات المتحدة أثناء هذه الحركة^(٣٩).

أما المسار المصري، فيشبه إيطاليا في أول الأمر، حيث واكبت الزيادة في أعداد المسجلين بالجامعات انتشار الأمية جنبا إلى جنب. وأدت المكانة الاجتماعية التي يتمتع بها التعليم الأكاديمي العام، ووظائف ذوي الياقات البيضاء، إلى إضعاف التعليم الفني والمهني. كما نجم عن بطء حركة التصنيع أن أصبحت الحكومة صاحب العمل الوحيد الباقي^(٤٠).

فمع أن اللورد كرومر آخر من وقف في وجه التوسع في التعليم، وكانت عواقب نجاح سياسته ضارة بمصر؛ إلا أن التوسع غير المنضبط في التعليم أضر بها أيضا. فقد وجد رجال السياسة بعد ١٩٢٢ أن إرضاء الطلب على التعليم أسهل من تحويل الاقتصاد تحويلا جذريا بحيث يخلق وظائف نافعة للخريجين. فمن المنظور الفردي، من ذا الذي يمكن أن يعنى بالتصدي

لإيمان أي من طه حسين ولويس عوض أن التعليم من الحقوق الأساسية للإنسان، مثل الهواء والماء ؟

السلك الأكاديمي والتعيين في الوزارة :

وبالرغم من جميع مشكلات الجامعة، أوضح مسح أجرى على ٣٤ ألف موظف حكومي من لمستويات العليا في عام ١٩٧٢ أن "مهنة أستاذ الجامعة تأتي في المرتبة الأولى باعتبارها المهنة " ذات الأهمية القصوى في المجتمع المصري المعاصر"، تليها مهنة الطبيب والمحافظ، ثم ضابط الجيش والمهندس^(٤١).

ويقارن (جدول ٢٦) بين متوسط أجور أساتذة الجامعات وبين أجور موظفي الحكومة. وكان حتى الحد الأعلى لهذه الدرجات يوفر بالكاد حياة مريحة، فقد استحدثت أجور إضافية "لأصحاب الكادرات الخاصة" مثل أساتذة الجامعة، والعاملين بمراكز البحوث، وضباط الجيش والشرطة، والقضاة، وأعضاء السلكين الدبلوماسي والقنصلي. بل أنه حتى بدون الأجور الإضافية، ربما يحصل أبناء الكادرات الخاصة على ضعف ما يتقاضاه زملاء الدراسة للعاملين في الوظائف الحكومية العادية. كما كان أساتذة الجامعات يحصلون على أجور إضافية مقابل الإشراف على الرسائل العلمية وتوجيه الطلاب، والتدريس لوقت إضافي، وتصحيح الامتحانات، ويقومون بتأليف الكتب التي يقررون تدريسها والحصول على حقوق طباعتها، وبيع مذكراتهم للطلاب ؛ والجمع بين وظائفهم الأصلية وبين العمل في معاهد أخرى، وإعطاء الدروس الخصوصية. فظهر "الأستاذ التكملي" الذي يتولى التدريس في معهدين أو ثلاثة معا.

وفي السبعينيات، أصبح التدريس في البلاد العربية الغنية بالبتروول يمثل أكثر الفرص تحقيقا للربح على الإطلاق.

وأصبحت الترقيات الجامعية تتم تلقائيا، حتى أن لويس عوض كتب مقالا أسماه : "الدكتوراه : الجواز المزيف للمرور إلى كرسي الأستاذية" بينما شكّا محمد حسين هيكل، في الثلاثينيات، من أن وزراء التعليم السابقين سمحوا بترقية صغار الأكاديميين، بصرف النظر عن أبحاثهم العلمية المنشورة، وطالب بتقديم دليل الأبحاث العلمية مع قرار الترقية. ولكن علي إبراهيم مدير الجامعة أشار إلى أن الجامعة يجب أن ترقّي الأساتذة وإلا خسرتهم، خاصة مع عدم وجود بدلاء لهم من بين المصريين، كما أن تعيين الأساتذة الأجانب يخلق مشكلات أخرى^(٤٢).

وظل عدد مناصب كرسي الأستاذية محدودا حتى الستينيات ؛ فكان على الأستاذ المساعد إما الانتظار إلى أن يتوفي أحد الأساتذة، أو يحال إلى التقاعد أو يستقيل. ثم زالت هذه العقبة بإنشاء منصب الأستاذ بدون كرسي^(٤٣).

ويلاحظ لويس عوض أنه عند المقارنة بالغرب، تبدو هيئة التدريس في مصر مكتظة عند القمة بسبب نظام الترقية الآلية، كما أنها مثقلة عند القاع بسبب الإفراط في الاعتماد على المعيين نوى الأجور القليلة^(٤٤)، بينما تعاني المستويات الوسيطة من الندرة.

ومثال على ذلك، شهدت السنوات العشر السابقة على ١٩٨٢، ترقية سبعة من المرشحين الثمانية للترقية في قسم المكتبات، رغم أن اثنين منهما فقط نجحا في المحاولة الثانية. ولم يقدم المرشح الراسب سوى خمسة أبحاث؛

جدول (٢٦)

الراتب السنوي لأساتذة الجامعات وموظفي الحكومة
في مصر بالجنيه المصري

المنصب الجامعي	١٩٥٠	١٩٦٤	الدرجة الوظيفية الحكومية	١٩٦٤
أستاذ	٤٨٠ - ١٥٠٠	٩٦٠ - ١٥٠٠	الممتازة	١٨٠٠ - ٢٠٠٠
---	---	---	وكيل وزارة	١٤٠٠ - ١٨٠٠
---	---	---	الدرجة الأولى	١٢٠٠ - ١٥٠٠
---	---	---	الدرجة الثانية	٨٧٦ - ١٤٤٠
---	---	---	الدرجة الثالثة	٨٧٦ - ١٢٠٠
أستاذ مساعد	٦٦٠ - ٨٤٠	٧٨٠ - ١٠٨٠	الدرجة الرابعة	٥٤٠ - ٩٦٠
مدرس	٣٦٠ - ٦٦٠	٤٨٠ - ٧٨٠	الدرجة الخامسة	٤٢٠ - ٧٨٠
---	---	---	الدرجة السادسة	٣٣٠ - ٦٠٠
---	---	---	الدرجة السابعة	٢٤٠ - ٤٨٠
معيد	١٨٠ - ٣٦٠	١٨٠ - ٤٨٠	الدرجة الثامنة	١٨٠ - ٣٦٠
---	---	---	الدرجة التاسعة	١٤٤ - ٣٠٠
---	---	---	الدرجة العاشرة	١٠٨ - ٢٢٩
---	---	---	الحادية عشرة	٨٤ - ١٨٠
---	---	---	الثانية عشرة	٦٠ - ٨٤

المصادر : عبد الفضيل، الاقتصاد السياسي ص-٥٠

و Qubain, Education, ص-٢١٢

ولائحة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٠ ص-٣٣.

ثلاثة منها كانت منقولة حرفيا من رسالتيه للماجستير و الدكتوراه، والرابع مجرد ملخص للمذاكرة أعده لطلابه^(٤٥).

ثم تحسنت فرص الترقى إلى الوزارة في ظل عبد الناصر (ومع ذلك، لم ينجح في دخول البرلمان سوى قلة فقط من الأساتذة، سواء في عصر عبد الناصر أو العهد السابق عليه^(٤٦)، وكان ضابط الجيش قد أراح جانبا المحامي/السياسي من منصب الوزير ليحل محله. وإذا لم يتوافر ضابط؛ يرشح للمنصب خبير فني، وبالطبع لا يكون ذلك الخبير سوى أستاذ جامعي. واتسمت وزارات عبد الناصر بملحميين بارزين هما: ارتفاع المستوى التعليمي للوزراء، بالإضافة إلى وجود عدد من الأكاديميين بينهم. ووفقا لما ذكر محمد حسنين هيكل كان الحاصلون على الدكتوراه يتطلعون إلى المركز السياسي، مثلما أراد الدكتوراه أصحاب المراكز السياسية^(٤٧). وبلغت الانتباه أن ٤٧% من وزراء عبد الناصر كانوا يحملون لقب دكتور (سواء الدكتوراه في الطب أو دكتوراه الفلسفة)، و ٢٢% من حملة الماجستير. وسجلت وزارة محمد نجيب في ديسمبر ١٩٥٢ رقما قياسيا، حيث ٧١% من أعضائها حاصلين على الدكتوراه، ربما لإضفاء الإحساس بالشرعية بعدما أطيح جانبا بالسياسة القدامى والأحزاب السابقة. ثم انخفضت هذه النسبة إلى ٣٠% في سبتمبر ١٩٥٤ (شهر حركة تطهير الجامعة) مع زيادة نسبة الضباط داخل الوزارة. ثم انخفضت النسبة المئوية للوزراء حاملي الدكتوراه إلى ٣١% بعد حرب يونيو ١٩٦٧، إلا أن الاضطرابات الطلابية في أوائل ١٩٦٨ أعادت أساتذة الجامعة إلى الوزارة، فأصبح ٥٢% من أعضاء الوزارة التالية من أصحاب الدكتوراه.

ومن بين وزراء عبد الناصر، بدأ ٢٣% حياتهم العملية في المناصب الأكاديمية، ولا يفوقهم سوى نسبة العسكريين منهم وتبلغ ٤٣%، أما المهندسون، فترتيبهم الثالث بنسبة ١٥% يليهم الحقوقيون بنسبة ١٣% ثم العاملون بالجهاز الحكومي ١٢%.

وفي وزارات السادات احتفظ الأكاديميون بمكانتهم، كما استردوا وزارة التربية والتعليم التي خسروها في عهد عبد الناصر، بينما انخفض تمثيل العسكريين. وانتقل ما يربو على نصف هؤلاء الأساتذة من الجامعة إلى الوزارة مباشرة، أما النصف الباقي فجاء عبر المناصب البيروقراطية.

وبعد ترك الوزارة، عاد إلى الجامعة ثلث الوزراء الذين جاعوا من السلك الجامعي^(٤٨).

وكما واجهت النظم الشيوعية مشكلة توفير الكوادر من بين "الحمير" وأصحاب الخبرة" في نفس الوقت؛ فإن مشكلة عبد الناصر كانت في كيفية الجمع بين الولاء للنظام العسكري وبين الخبرة الفنية في المجالات غير العسكرية. فوجد أحد حلول هذه المشكلة في الضباط / التكنوقراط (١٣% من وزرائه) الذين أضافوا درجات علمية عليا إلى مؤهلاتهم العسكرية^(٤٩).

ولم تكن التخصصات الدراسية لوزراء عبد الناصر مفاجئة، فالقلة من الوزراء بعد منتصف الخمسينيات ممن درسوا القانون، كما انكمش عدد المتخصصين في العلوم الإنسانية ثم تلاشى تماما، فلم يعد هناك أمثال طه حسين. وفضلا عن الضباط، أصبح لدي عبد الناصر ميل نحو المهندسين، والزراعيين، وعلماء الاجتماع والاقتصاد^(٥٠). وسوف يتضح السبب في ذلك، بعد إلقاء نظرة على رؤية عبد الناصر للتكنولوجيا في الفصل التالي.

المواش

- ١- التعليم العالي في ١٢ عاما (القاهرة ١٩٦٤) ص- ٨.
- ٢-
- Waardenburg, 1 : 240. and Shafshak, "University", p.103.
- ٣-
- Waterbury, *Egypt*, pp. 235 - 36.
- ٤-
- Marzio Barbagli, trans., Robert H. Ross, *Educating For Unemployment : Politics, Labor Markets, and the School System - Italy, 1859 - 1973* (New York, 1982) p. 332.
- ٥- تقويم جامعة القاهرة ١٩٧٩، ص- ٥٨. و: التقرير السنوي ١٩٥٧ - ١٩٥٨ ص- ١٣٧. والإيجيشيان ميل ١٨ سبتمبر ١٩٨٢، ص- ٣.
- ٦-
- Ismail El - Kabbani, *A hundred years of Education in Egypt* (Cairo, 1948) P. 22.
- ٧- عبدالمعتم الدسوقي "الجامعة المصرية" ص- ٥٩.
- ٨-
- Waardenburg 2 : 92.
- ٩- عبدالمعتم الدسوقي "الجامعة المصرية" ص- ٥٩.
- ١٠-
- Waardenburg 2 : 81.
- ١١- ورد في أحمد عبدالله : "الطلبة والسياسة" ص- ٤٧.
- ١٢- لويس عوض : "الجامعة والمجتمع الجديد" ص- ١٢١. وهو يصور نظام الدراسة من الخارج.
- ١٣- المرجع السابق ص ص ٣١ ، ٣٢. ولكن "كير" يقول في كتابة : " *Egypt*, p. 186 ان نسبة طلاب الجامعة إلى السكان في مصر ضعف نسبتهم إلى السكان في إنجلترا.
- ١٤- لويس عوض : "الجامعة والمجتمع الجديد" صص ٧٢ ، ٧٣.
- ١٥- مجلة الطلبة ٤ ، جزء ١٠ (أكتوبر ١٩٦٨) : ص- ٢٢.
- ١٦-
- Shafshak, "Universities," pp. 136 - 137.
- ١٧-
- Moore, *Images*, p. 112.

-١٨

- James L. Barth, March 17, 1982, Unpublished report, *Council for the International Exchange of Scholars*.

١٩- لويس عوض ، *الجامعة والمجتمع الجديد* " صص ١٧ ، ١٨ ، ٦٣ ، ٦٤ .

٢٠- المرجع السابق ص ص ٨٣ - ٩٦ .

٢١- المرجع السابق ص ١١٤ .

٢٢- المرجع السابق ص - ١٢٤ .

-٢٣

- Moore, *Images*, pp. 45 - 47 .

٢٤- لويس عوض ، *الجامعة والمجتمع الجديد* " ص ص ١٢٧ - ١٣٠ . أنظر أيضا :

- Qubain, *Education*, pp. 149 - 150.

٢٥- لويس عوض ، *الجامعة والمجتمع الجديد* " ص ص ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٢ .

٢٦- المرجع السابق ص ص ١٣٦ - ١٣٨ .

-٢٧

- Azmy "University tradition," p. 254.

٢٨- مرجع سابق :

- James L. Barth, March 17, 1982.

-٢٩

Waterbury, *Egypt*, p 236.

-٣٠

- Yusef Salah El - Din Kotb, *Science and Science Education in Egyptian Society* (Teachers - College, Colombia University, Contributions to Education, No. 967, New York, 1951), p. 122.

٣١- لويس عوض ، *الجامعة والمجتمع الجديد* " ص - ٤٣ .

-٣٢

- Shafshak, "University," p. 316.

٣٣- حول الأداء الاقتصادي لمصر في ظل عبدالناصر ، أنظر :

- Waterbury, *Egypt, Meed, Growth ; Mabro, Egyptian Economy*.

و:

Robert Mabro and Patrick O 'Brien, "Structural Changes in the Egyptian Economy, 1937 -, 1965," in M.A. Cook, ed., *Studies in the Economic History of the Middle East Form the Rise of Islam to the Present Day* (Landon, 1970), 412 - 27.

-٣٤

- Nojjar, *Review of Politics*, pp . 67 - 69.

-٣٥

- ٣٥- معلومات عن سيرته الشخصية من زعلوك - مقابلة ٩ يناير ١٩٨٣ و :
- Moore, *Images*, pp. 66 - 70.
- ٣٦-
- Abdel Fadel, *Political Economy*, p. 9, and Barikas C. Sandal et al.,
*University Education and the Labour Market in the Arab Republic of
Egypt* (Oxford, 1982) p. 63.
Waterbury, -- وهو يرجع هذه السياسة إلى ١٩٥١. بينما ترجع إلى ١٩٦٤ في :
Egypt, p 234.
- ٣٧- ويقول : Mabro, *Economy*, p. 157. - انها ١٩٦٢ .
- ٣٨-
- Sanyal, *Universtity Education*, p. 9.
- ٣٩-
- Ronald Dore, *The Diploma disease : Education, Qualification, and
Development* (Barkeley, California, 1976).
- وانظر أيضا :
Theodore Hanf, et, "*Education : An Obstacle to Development?*,"
Comparative Education Review 19(1975) : 68 - 87.
- ٤٠-
- Konard H. Jarausch, ed., *The transformation of Higher Learning
1860 - 1930 : Expansion, Diversification, Social Opening, and
Professionalization in England, Germany Russia, and the United
states*(Chicago, 1983), p. 10.
- ٤١-
- Borbagli, *Educating*.
- ٤٢-
- Waterbury, *Egypt*, p. 244.
- ٤٣- هيكمل : "مذكرات ... الجزء الثاني ١٩٢٩ .
- ٤٤- التعليم العالي في ١٢ عاما . ص - ١٨ .
- ٤٥- لويس عوض، الجامعة والمجتمع ... ص ص ١٠٤ - ١٠٧ ، - ١١ ، - ٢٠ .
- ٤٦- هجرسي، مقابلة ٢٥ فبراير ١٩٨٣ .
- ٤٧-
- Leonard Binder, in *Lapalombara and Weiner*, pp. 234 - 36.
- ٤٨-
- Dekmejian, *Egypt*, p. 186.
- وبالنسبة للأرقام في هذه الفقرة انظر الصفحات ١٨٤ - ١٨٦ ، ٢٠٣ .
٤٨- المرجع السابق صفحات ١٩٣ ، ٢٠٠ - ٢٠٣ ، ٢٠٥ - ٢٠٦ . وعن الوزارات
في ظل السادات انظر :

- Mark Cooper, *"The Demilitarization of the Egyptian Cabinet,"* *IJMES* 14 (1982) : 203 - 205; and Sharough Akhavi, *"Egypt : Diffused Elite in a Bureaucratic Society,"* in I William Zartman, ed., *Political Elites in Arab North Africa : Morocco, Algeria, Tunisia, Libya, and Egypt* (New York, 1982), pp 223 - 65.

-٤٩

- Dekmejian, *Egypt*, p. 181.

٥٠- المرجع السابق ص- ١٨٠ - ١٨٤ .

[١١]

تعبئة الجامعة ؟

حاول عبد الناصر تعبئة جامعة القاهرة، ومعها بقية النظام التعليمي في البلاد بطريقتين فهو أولا : كان يريد من الجامعة أن تقوم بتدريب الكوادر التي يحتاجها مجتمع التكنولوجيا الحديث، وثانيا : حاول أن يدفع الجامعة إلى نشر دعوته للاشتراكية العربية والمبادئ الاشتراكية والدعاية لها. إلا أن نجاحه كان محدودا على الصعيدين. ولم يكن عبد الناصر يولي الجامعات اهتمامه إلا على نحو متقطع، كما أن أسلوبه في الحكم حد من فعالية نوابه، بينما اصطدم بمقاومة من جمهور جامعي مختلف، ذي عقلية واهتمامات مستقلة.

التعليم الفني، أم الحر ؟

كان ناصر، وكمال الدين حسين، وغيرهما من الضباط الأحرار رجالا عسكريين عمليين، معظمهم ينتمي لأسر الطبقة المتوسطة الدنيا. وقد اعتبروا التعليم الحر نوعا من أنواع من ترف الطبقة العليا، لا يلائم العهد الجديد. كما رأوا أن ضباط الجيش التقدميين والخبراء الفنيين هم الذين سيقودون مصر لتصبح أرض الصناعة الموعودة، وليس دارسو العلوم الإنسانية أو المحامون السياسيون. وكان رجال من نوعية مختلفة (مثل محمد علي، واللورد كرومر، ودوجلاس دنلوب وإسماعيل صدقي، والسعديين في الأربعينيات) قد شجعوا أيضا التعليم الفني. أما في عهد عبد الناصر، فيتسابق خبراء التنمية السوفيت والأمريكيين على بيع تصوراتهم حول اليوتوبيا التكنولوجية لمصر.

وفي المعسكر الآخر، دافع أنصار العلوم الإنسانية مثل طه حسين ولويس عوض عن التعليم الحر ومبدأ "العلم للعلم"، الذي ولدت به الجامعة المصرية. ولم يكن طه وعوض يؤمنان بأن علم التربية وسوسيولوجيا التعليم يستحقان اهتماما أكاديميا كبيرا. كما أنهما ربطا هذين الفرعين من فروع الدراسة بكرومر ودنلوب، ومدرسة المعلمين العليا (والمعهد العالي للتربية الذي حل محلها) وكذلك دار العلوم. وألقى عوض مسئولية القضاء على

مفهوم الأدب الحر في مصر بعد الحرب العالمية الثانية على نظريات التربية الأمريكية وعلم النفس التطبيقي. واتهم القائمين على التعليم بأنهم يغرسون "العلم" فقط في الأذهان وليس "التفكير النقدي" أو "الثقافة العامة" (١).

أما أولئك الذين يؤكدون على أهمية التعليم الفني، فقد ادعوا أن شريحة أكبر من السكان سوف تستفيد في حالة زيادة الإنفاق على التعليم الابتدائي والثانوي، وخفضه بالنسبة للتعليم العالي. في حين أراد عوض في كتابه عن الجامعات، زيادة نسبة الإنفاق على التعليم دون أن يطرح مسألة الإنفاق على التعليم الابتدائي والثانوي في مواجهة الإنفاق على التعليم الجامعي.

ورغم الارتفاع السريع في عدد طلاب الجامعات في الخمسينيات، شهدت مخصصات الجامعة تخفيضا فعليا من أربعة ملايين جنيه مصري عام ١٩٥١-١٩٥٢ إلى ثلاثة ملايين وخمسمائة ألف في العام الذي تلاه، واستقرت عند هذا الحد لمدة ثلاثة أعوام، بينما ركزت الحكومة اهتمامها على التعليم الابتدائي والفني (٢).

وفيما يتعلق بالقضية الخالدة التي تطرح التعليم الأكاديمي مقابل التعليم الفني/المهني على كل المستويات، ذكر عوض أن الحكومات "غير الدستورية" (يعني غير الوفدية) كانت تركز على التعليم الفني والمعاهد العليا، بينما فضلت الحكومات "الدستورية" التعليم الأكاديمي والجامعات (جدول ٢٧). وعلى سبيل المثال كان الإنفاق على المعاهد العليا مساويا للإنفاق على الجامعات سنة ١٩٤٧-١٩٤٨ في ظل وزارة النقراشي الائتلافية المناهضة للوفد، بينما كان نصيب الجامعات هو الأكبر في ظل حكم الوفد من ١٩٤٢ إلى ١٩٤٤، ومن ١٩٥٠ إلى ١٩٥٢. ولم تكن زيادة النسبة المئوية للإنفاق على الجامعات فيما بين ١٩٥٢ و ١٩٥٤ (وهي حقبة يفترض أن عوضا - لو كانت لديه الحرية - لقال عنها "غير دستورية") سوى استثناء واضح، يرجع إلى أن المعاهد العليا السابقة أصبحت جزءا من جامعة عين شمس.

ومع ذلك، تبدو الأرقام التي أوردها عوض مؤيدة لرأيه بالنسبة لمستوى التعليم الثانوي فيما يتعلق بحكومة الوفد بين ١٩٥٠ و ١٩٥٢ فقط؛ ففي الفترة من ١٩٤٢ إلى ١٩٤٤، عندما كان الوفد في الحكم، تلقت مدارس التعليم الأكاديمي نصيبا من الموازنة أقل من المدارس الفنية بالمقارنة بما تلقت في ظل الوزارات "غير الدستورية" التالية.

كما تعكس زيادة الإنفاق على المدارس الأكاديمية فيما بين ١٩٥٢ و ١٩٥٤ تحول المدارس الفنية إلى مدارس أكاديمية - وهي عملية بدأت مع آخر حكومة وفدية - بأكثر مما تعكس التزاما من الحكومة الثورية التي لم تكن قد تأكد اتجاهها بعد. ثم تساءل عوض بعد ذلك عن مدى صحة ما يشاع عن أن النظام القديم كان يركز على "العلوم الإنسانية" على حساب الموارد العلمية، وأن النظام الجديد يفعل العكس. وقام بتجميع الإحصائيات (جدول ٢٨) التي تثبت أن الحكم الجديد فضل بالفعل العلم والتكنولوجيا، ولكن النظام القديم حافظ فعليا على التوازن بين "الثقافتين" حتى إنشاء جامعة إبراهيم باشا فمال التوازن ناحية العلوم الإنسانية^(٣).

جدول (٢٧)

النسبة المئوية لميزانية التعليم العالي في مصر
إلى المعاهد الفنية والأكاديمية

التعليم الثانوي		التعليم العالي		العام الدراسي
المدارس الثانوية الفنية	المدارس الثانوية الأكاديمية	المعاهد العليا	الجامعات	
٤٣	٥٧	٣٢	٦٨	١٩٤٣-٤٢ (و)
٤٣	٥٧	٣٣	٦٧	١٩٤٤-٤٣ (و)
٤٠	٦٠	٤٥	٥٥	١٩٤٥-٤٤
٣٧	٦٣	٤٣	٥٧	١٩٤٦-٤٥
٣٦	٦٤	٤٨	٥٢	١٩٤٧-٤٦
٣٧	٦٣	٥٠	٥٠	١٩٤٨-٤٧
٣٧	٦٣	٤٦	٥٤	١٩٤٩-٤٨
٤٣	٥٧	٢٠	٨٠	١٩٥٠-٤٩
٣٨	٦٢	١٠	٩٠	١٩٥١-٥٠ (و)
٢٨	٧٢	١٤	٨٦	١٩٥٢-٥١ (و)
١٧	٨٣	٢١	٧٩	١٩٥٣-٥٢
١٦	٨٤	٢٣	٧٧	١٩٥٤-٥٣
١٤	٨٦	٢٤	٧٦	١٩٥٥-٥٤

(و) تشير إلى سنوات حكم الوفد.

- المصدر : عوض، الجامعة والمجتمع الجديد ص ١٩، ٢٠، ٦٣، ٦٤

جدول (٢٨)
عدد المقيدین في کلیات العلوم الإنسانية والاجتماعية
مقابل المقيدین بالكلیات العلمية في الجامعات المصرية

العام الدراسي	کليات العلوم الإنسانية والاجتماعية	الکليات العلمية
١٩٢٦-٢٥	١٨١٠	١٥٥٨
١٩٣١-٣٠	٢٠٦٦	٢١٨١
١٩٣٦-٣٥	٤٠٤١	٣٤٧٤
١٩٤١-٤٠	٤٥٤٤	٣٩٦٣
١٩٤٦-٤٥	٦٢٤٤	٧٦٨٣
١٩٥١-٥٠	١٦٤٩٢	١٣٩١٠
١٩٥٢-٥١	١٩٦٧١	١٥١٧٤
١٩٥٦-٥٥	٤٢٢٧٩	٢٠٥٠٠
	(من بينهم ١١١١٩ طالبا من الخارج)	
١٩٦١-٦٠	٥١٣٤٠	٣٣٨٨٥
	(منهم ١٩٣١٨ طالبا من الخارج)	

المصدر : عوض، الجامعة والمجتمع ص- ٥٧، ٦٠

ولم تكن أعداد المقيدین بالجامعة بعد ١٩٥٢ (حيث تميل الكفة لصالح العلوم الإنسانية) هي التي وجد عوض فيها دليلا على تركيز النظام الجديد على العلم والتكنولوجيا، ولكنه وجد الدليل في حجم المال المستثمر في هذه الأفرع وعدد الأساتذة المتخصصين فيها. ففي ١٩٦٢-٦١ كان ٧٥% من بين الطلاب المصريين الذين يواصلون دراساتهم العليا بالخارج وعددهم خمسة آلاف و ٦٧٠ طالبا يدرسون موادا علمية.

كما كانت وظائف التدريس بجامعة القاهرة في عام ١٩٥٨-١٩٥٩ غير متوازنة بنفس القدر. حيث ضمت الكليات العلمية ٧٧% من أساتذة الجامعة، مقارنة بنسبة ٢٣% منهم في كليات العلوم الإنسانية. ولما كانت تلك الأخيرة تضم ٦٠% من الطلاب المقيدین و ٢٣% فقط من الأساتذة فقد أصبحت نسبة أعضاء هيئة التدريس بها إلى الطلاب، نسبة ضئيلة لا تتجاوز ١: ٧٥ (بحساب المعيدین ضمن أعضاء هيئة التدريس) مقارنة بنسبة ١: ١٠ في الكليات العلمية. ومنذ عام ١٩٣٩ لم يكن قد سافر من طلاب آداب القاهرة في بعثات دراسية إلى الخارج سوى بضع وثلاثين طالبا، بمتوسط ١,٥% سنويا. وحتى هذا العدد القليل من الطلاب لم يعد جميعه من الخارج. ومن ناحية أخرى، لم تمنح الجامعة نفسها سوى عدد محدود من درجات الدكتوراه في الآداب. وفي نفس الوقت ارتفع عدد المقيدین بكلية الآداب إلى

سبعة أمثاله تقريبا. كما تدهورت نسبة الأساتذة إلى طلاب الآداب، من المستوى الممتاز الذي سجلته عام ١٩٣٠ وهو ٧:١ لتصل إلى ١٦:١ في عام ١٩٥٠ ثم ١٠٧:١ في عام ٦١ - ١٩٦٢ (مالم نصف عدد المعيدين حتى تصل النسبة إلى ٥٧:١).

وتساعل عوض - في قلق - عما سيؤول إليه حال قسم مثل قسم التاريخ الذي بلغ عدد طلابه ألفا وسبعمائة طالب في عام ٦٢ - ١٩٦٣ ولكن لم يكن به مدرس واحد ولا معيد، كما لم يرسل بعثة دراسية واحدة إلى الخارج. ولم يعد من السهل تدبير المحاضرين اللازمين للتدريس إلا عن طريق الأساتذة المتعاقدين أو اللجوء إلى أساتذة من أقسام قريبة الصلة بالتاريخ لسد هذا النقص^(٤).

واتهم عوض الحكومة بأنها حولت الجامعات إلى مجرد معاهد فنية، لعدم اهتمامها بالمعرفة النظرية لذاتها^(٥). وكان العكس صحيحا أيضا، للأسف؛ فبدلاً من أن تركز المعاهد الفنية على تخريج فنيين أكفاء، تطلعت إلى التحول إلى كليات جامعية بإدخال منهج نظري ضمن مناهجها الدراسية. فأصبحت مصر لا تخرج عددا كبيرا من المتخصصين سواء في المواد الإنسانية والعلوم الاجتماعية، أو العلوم الطبيعية، كما لم تكن تقدم الكثير من الفنيين الأكفاء أيضا.

ضعف مركزية جامعة القاهرة :

بعد عام ١٩٥٠، تسببت معاهد التعليم العالي ومراكز البحث في أضعاف السيطرة المركزية لجامعة القاهرة على التعليم في مصر. وكانت الجامعة تفخر بأنها أمدت هذه المعاهد والمراكز بالأساتذة من خريجيها، إلا أنها لم تستطع الحيلولة دون منافسة هذه المراكز الجديدة لها، خاصة بالنسبة لأعضاء هيئة التدريس والموارد المخصصة لكل منها.

وأضعفت مراكز البحوث أيضا من السيطرة المركزية للجامعة على حقل الأبحاث^(٦). وتحطمت في مصر، كما في الغرب، الفكرة المثالية الألمانية القديمة حول وحدة التعليم والبحث؛ مع انتقال الأبحاث من الجامعة إلى المعاهد المتخصصة. وكان "تهرو" وصف مثل هذه المعاهد بأنها معابد الهند الحديثة، وقدمت معاهد الصفوة في الهند إسهامات هامة في تربية النباتات، والإلكترونيات، والطاقة النووية، وتكنولوجيا الفضاء^(٧).

وشارك عبد الناصر أصدقاءه الهنود إيمانهم بالعلم الحديث، فأنشأ "المجلس القومي للعلوم" بغرض إعداد سياسة علمية لخطته الخمسية، والتزم بتخصيص ١% من الناتج القومي الإجمالي للأبحاث العلمية^(٨). وقام أيضا بتوسيع نطاق النشاط البحثي في الوزارات، وبوجه خاص وزارتي الصحة والزراعة. وأنشئت "هيئة الطاقة الذرية" سنة ١٩٥٥، بينما كان "مركز بحوث الصحراء" قد ظهر إلى حيز الوجود قبيل الثورة بقليل.

وفي عام ١٩٥٥ بدأت أعمال البناء في الجيزة لإقامة مركز العلوم في مصر (المركز القومي للبحوث). وكان علي مشرفة قد طالب بإنشاء مثل هذا المعهد، مشيرا إلى المبالغ التي تتفقها الشركات الخاصة، الأوروبية والأمريكية، على البحوث العلمية^(٩). وترجع خطة إنشاء المركز القومي للبحوث - على الورق - إلى عام ١٩٣٩، عندما أصدرت الحكومة - تحت ضغط الاتحاد المصري للصناعات - قرارا بإنشاء "مجلس فؤاد الأول للأبحاث". ثم أقر قيام الحرب العالمية الثانية تعيين مدير المجلس والعاملين به حتى عام ١٩٤٧، وبعد عدة سنوات بدأ إجراء بعض الأبحاث على نطاق ضيق.

وفي ١٩٥٦، ترك الكيميائي أحمد رياض تركي عمادة كلية العلوم بجامعة القاهرة ليرأس المجلس، الذي اتسع نطاقه إلى حد كبير وأصبح اسمه "المركز القومي للبحوث". وكان تركي حاصلا على الدكتوراه من جامعة ميونيخ، مما دفعه لطلب المعونة الألمانية للمركز الذي اشتمل على أقسام للكيمياء، والفيزياء، والطب، والزراعة. ومن داخل المركز القومي للبحوث، ضم المركز القومي للمعلومات مكتبة توفر خدمة الاطلاع على المراجع. ومع أوائل الثمانينات أصبح المركز يصدر ثمانية ١٨ صحيفة^(١٠). كما ضم قسم النبات وحده ٢٠ أستاذا مساعدا، و ٧٠ مدرسا يعملون في الأبحاث بنظام الوقت الكامل، وتؤكد بيانات القسم أنه أنتج ما يزيد عن ٤٠٠ مطبوعة خلال أربع سنوات.

أما "المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية"، الذي أنشئ عام ١٩٥٥ باسم "المعهد القومي للبحوث الجنائية"، وكذلك "مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية" فكان لهما وظائف متشابهة في العلوم الاجتماعية.

وبينما خسرت جامعة القاهرة تركي العميد القدير لكلية العلوم، فاز به "المركز القومي للبحوث"، كما وجد شباب الحاصلين على الدكتوراه

فرصتهم للترقية في هذه المعاهد، بعد أن كانت فرص الترقى في الوظائف الجامعية مسدودة أمامهم.

وفي مصر، كما في الهند، سحبت المعاهد البحثية معظم العلماء الأكفاء من الجامعة، فأرهقت كاهل من تبقى منهم بأعباء التدريس الثقيلة مع عدم كفاية الدعم البحثي. ولعل من أفضل أنواع تنظيم الوقت ذلك الذي اتبعه أستاذ الفيزياء محمد النادى، حيث قسم وقته بين هيئة الطاقة الذرية وبين الجامعة، فاستطاع طلابه الاستفادة من صلاته بالهيئة. وفي أغلب الأحوال، كانت الاتصالات بين معهد الأبحاث والجامعة ضعيفة، فلجأ أساتذة المعاهد إلى الاستئناس بأراء بعضهم البعض، وتجاهلوا الأبحاث التي أعدت في الجامعات^(١١).

ويعتبر انفصال مرصد حلوان (ومرصد القطامية الجديد) عن جامعة القاهرة، مثلاً صارخاً يوضح كيف يمكن للمعاهد البحثية أن تضر بأقسام العلوم في الجامعة. فبعد إعادة التنظيم، أصبح قسم الفلك في كلية العلوم يضم محاضراً واحداً بالتحديد، واثنين من المعيدين، وثلاث مزوات وسدسيتين^{*}، ورفاً واحداً للكتب يستخدم كمكتبة للقسم^(١٢). ويتحسر أحد أساتذة الفلك بجامعة القاهرة، قائلاً "لقد خسرنا التليسكوب الخاص بنا، وأصبح علينا الآن أن نتسول استخدامه لبعض الوقت من أجل أبحاثنا، وعادة ما لا يمكن من ذلك".

وبحلول عام ١٩٨٣، تحسنت أحوال قسم الفلك والأرصاد الجوية، ولكن لم يكن به مخصصات تكفي سوى الحصول على دورية أجنبية واحدة في الأرصاد، وواحدة في الفلك تصلان إلى القسم دائماً بعد عام من صدورهما.

ولم يسفر تخريب قسم جامعي - على نحو بالغ لا يمكن إنكاره - عن ظهور معهد أبحاث من الطبقة الأولى؛ ففي عام ١٩٨٣ كان كل من مرصدى "حلوان" و"القطامية" يتعثران بفعل مشكلات التمويل و التجهيزات بالإضافة إلى المشكلات التنظيمية، الأمر الذي أعاق عملهما.

ولكن، رغم تراجع الريادة البحثية لجامعة القاهرة في بعض المجالات، إلا أنها ظلت الجامعة الرئيسية في مصر؛ فقد خصص المؤتمر

* المزوة آلة لقياس الزوايا يستخدمها المساحون، والسدسية آلة لقياس ارتفاع الأجرام السماوية من سفينة أو طائرة متحركة - (المترجمة)

الوطني للقوى التقدمية الذي عقد في ١٩٦٢، لأساتذة جامعة القاهرة ٧٧ مقعداً، مقارنة بثمانية عشر مقعداً فقط خصصت لأساتذة جامعة عين شمس، ١٧ مقعداً لأساتذة الإسكندرية، و ٦ لأساتذة جامعة أسيوط، و ٢٢ مقعداً لكافة المعاهد العليا. كما ضمت وزارات عهد عبد الناصر ٧٨ وزيرا من خريجي جامعة القاهرة، مقارنة بثمانية وثلاثين وزيرا من الكلية الحربية و ٢٩ من كلية أركان الحرب، واثنين فقط من خريجي الأزهر. وضمت الوزارات واحدا فقط من خريجي جامعة عين شمس، وكانت وقتها حديثة الإنشاء. والغريب أن تلك الوزارات لم تضم سوى وزير واحد فقط من خريجي جامعة الإسكندرية (١٣).

العلوم الأساسية، أم العلوم التطبيقية ؟

تركت سياسة تفضيل العلم والتكنولوجيا على الفنون العقلية باب التساؤل مفتوحاً حول ما إذا كان من الأفضل التركيز على العلوم التطبيقية أم العلوم الأساسية. وكان تركيز كرومر على تخريج الفنيين فقط، قد ساعد على دفع رجال مثل لطفي وطه نحو تفضيل "العلم لذاته" في المقام الأول. ورغم أن فكرة "العلم للعلم" تتلاءم مع الأفكار المحافظة للطبقة العليا كما في حالة لطفي السيد، فقد استطاعت أيضاً أن توافق هوى ذوى الاتجاهات الشعبوية، والأصول الأكثر تواضعاً مثلما حدث مع طه حسين. وفي الثلاثينيات والأربعينيات جاءت الدعوة المعارضة لفكرة "العلم من أجل العلم" من ملاك الأراضي وأصحاب الصناعات الذين كانوا يفضلون الأبحاث التطبيقية لتطوير مشروعاتهم.

وفي الثلاثينيات كتب العميد "بانجهام" مقدمة تقرير حول كلية العلوم بعنوان : "العلوم الخالصة والعلوم التطبيقية"، أقر فيها الانتقادات التي تلمح إلى أن العلم في مصر أصبح نظرياً إلى حد كبير، وأنه يتجاهل القضايا العملية للتنمية الصناعية. ولكن الجانب المقابل - المتمثل في الخطر الأمريكي - كان يثير قلقاً بصورة أكبر، فهو يقول، : "إن بعض جامعات العالم الجديد "ضحت" بالثقافة العامة "في سبيل التخصص والمنفعة، فلم يحقق التعليم الجامعي أهداف أي من التعليم النظري أو المهني. وكانت التخصصات المهنية شديدة التنوع إلى الحد الذي لا تستطيع الجامعة معه توفير تدريب عملي ذو قيمة تذكر". وذكر بنجهام أن كليته "تتولى تدريس

العلوم التطبيقية في مستواها الأكثر عمومية" وأن الباقي يتعين أن يترك للتعليم المهني فيما بعد المرحلة الجامعية^(١٤).

وبعد ذلك، أقر العميد على مشرفة رأي سلفه الإنجليزي. فاعلن أن البحث هو المهمة الأولى لأستاذ الجامعة، بينما يأتي التدريس والمسائل الإدارية في المرتبة الثانية^(١٥). كما أكد على استحالة فصل البحث في العلوم الأساسية عنه في العلوم التطبيقية، وأن البحث التطبيقي لا يزدهر في غياب نظيره النظري.

وعارض عبد الناصر مبدأ أن يكون العلم لذاته وأرجعه إلى افتقار النظام القديم إلى المسؤولية الاجتماعية والسياسية. وأسفرت سيطرة عبد الناصر على السلطة عن إضعاف أثر جماعات المصالح التي وقفت وراء العلم في ظل النظام القديم؛ مثل ملاك الأراضي الذين انشأوا الجمعية الزراعية وضغطوا لإنشاء وزارة للزراعة، ورجال الصناعة الذين ضغطوا لإنشاء مجلس فؤاد الأول للأبحاث، فضلا عن العلماء المستقلين بالجامعات^(١٦)؛ فقد سقطت عملية صنع القرار الآن في أيدي ضباط الجيش وخبراء السياسة المزعومين.

وكان الضباط الأحرار - مثلما كان محمد علي من قبلهم - عسكريين عمليين لا يلتفتون إلى التنظير المجرد. وكان يحلو لكمال الدين حسين أن يشير دائما إلى دراسة أعدت بجامعة القاهرة حول "أمعاء الصرصور" باعتبارها نوعا من الأبحاث لا تستطيع مصر أن تتحمله^(١٧). ولاشك أن الأستاذ كامل منصور - وكان قد أحيل إلى المعاش لتوّه - لم تعجبه هذه الإشارة إلى بحثه: "تطور الجزء الأوسط من القناة الهضمية للحشرات غير الطائرة وعلاقته بعلم تصنيف العضويات وعلم الأجنة"^(١٨).

وفي أواخر الخمسينيات، جمع عبد الناصر بضع آلاف من العلماء في مؤتمرات لإعداد المحتوى العلمي لخطة الخمسية الأولى. فوقف العلماء إلى جانب الاهتمام بالعلوم الأساسية وإرسال أعداد كبيرة من الطلاب إلى الخارج للحصول على دراسات متقدمة، غير أن "ناصر" أراد حلا أسرع؛ فعزل إبراهيم حلمي عبد الرحمن رئيس هيئة الطاقة الذرية لإصراره على أن الأهداف ذات العشرين عاما للخطة الخمسية لا يمكن تحقيقها خلال عشرة أعوام فقط، وأحل محله العقيد صلاح هدايت، الذي حدثه بما أراد أن يسمعه.

وكان هدايت ممن يتمتعون بحماية كمال الدين حسين، ولم يحصل إلا على درجة البكالوريوس في الكيمياء. وقد تخطى عن السياسة العلمية للخطة

الخمسية الأولى، وكانت في بداياتها، وأعطى أولوية واضحة للعلم التطبيقي باعتباره وزيراً للبحث العلمي. لكنه لم يستطع أن يحافظ على حظوته، التي فقدتها - مع راعيه كمال الدين حسين - عام ١٩٦٤.

ثم تولى الوزارة بعد هدايت، الكيميائي أحمد تركي، بعد رئاسته للمركز القومي للبحوث. وكان تركي يتمتع بالمؤهلات العلمية التي افتقر إليها سلفه، غير أنه لم يكن ذا ثقل سياسي. وسرعان ما ألغى عبد الناصر وزارة البحث العلمي، ليعيد إحياءها في أعقاب هزيمة ١٩٦٧ بهدف تهدئة الجامعات، ثم يلغيها السادات بعد ذلك في ١٩٧١ لينشئ الأكاديمية القومية للعلوم والتكنولوجيا. وبعد خمس سنوات يعيد وزارة البحث العلمي، ولكنه يترك الأكاديمية كما هي لتمثل نوعاً من أنواع المنافسة.

وتركت هذه الفوضى التنظيمية آثارها الصعبة على ميدان العلم في مصر. فلم يكن هناك ما يعيب العلماء المصريين كعلماء، ولكنهم حرموا الاستقلالية الكافية التي تمكنهم من إعمال خبراتهم في سياسة طويلة الأجل، سواء على صعيد العلوم الأساسية أو التطبيقية. وبينما افتقر الإداريون من العسكريين إلى المؤهلات العلمية، لم يعد العلماء المدنيون ذوو العقلية التكنوقراطية قادرين على فعل شيء يذكر بمجرد وقوعهم في شرك "الشلل" التي يتبع كل منها راع، وتتصارع دائماً على نيل رضا عبد الناصر.

وربما كان من المتوقع أن تتمتع كلية العلوم بمستوى عال من الدراسة النظرية، في حين تركز كليات الهندسة، والطب، والزراعة على المجالات التطبيقية، بينما تتولى المعاهد العليا تدريب الفنيين اللازمين للاقتصاد القائم على الصناعة، ولكن كلا من جامعتي القاهرة وعين شمس كانت قد أنشأت سابقة لتطوير المدارس العليا والمعاهد إلى كليات جامعية ذات شأن، ثم كررت العملية نفسها في ظل عبد الناصر. وأخذ الأساتذة الذين يعملون في المعاهد إلى جانب الجامعات، يكررون في الأولى المحاضرات النظرية المجردة التي يلقونها في الثانية. وفي كلية زراعة القاهرة عمد الأساتذة إلى تدريس العلم النظري لما له من مكانة مرموقة. وطالب كل من طلبتها وخريجي المعاهد العليا الزراعية بالاعتراف بهم بوصفهم "مهندسين زراعيين"، فلم يكن لديهم أي ميل لفلاحة التربة، وكثيرون منهم لم يكونوا يعرفون كيفية قيادة الجرار، ناهيك عن إصلاحه^(١٩).

وإبان القرن التاسع عشر، كانت المصالح الوظيفية قد أضعفت إرادة كل من المخططين للتعليم والسياسيين في فرنسا وألمانيا بنفس القدر؛ فكانت

الجامعة النموذجية في نظر "الكسندر فون همبولدوت" هي التي تتبع المعرفة الخالصة تاركة العلم التطبيقي لمعاهد فنية منفصلة. ولكن المعاهد تحولت إلى العلوم الأساسية بهدف ترقية مكانتها، وتجاوزت في نهاية الأمر الحاجز الفاصل بينها وبين الجامعات.

أما فرنسا، فقد تركزت الأبحاث النظرية خارج كليات العلوم، في "مرصد باريس"، و"متحف التاريخ الطبيعي"، و"الإيكول بوليتكنيك"، و"الإيكول نورمال سوبريير"، و"الكوليج دي فرانس". وكان المفترض في الكليات أن تقدم المحاضرات العامة وتعد الامتحانات لطلاب الليسيه. ولكن، بحلول عام ١٩٠٠ كان علماء جامعة باريس قد تخلوا عن المحاضرات العامة، وأصبح لديهم معامل وطلاب جادون، وأقاموا تقاليد بحثية قوية (٢٠).

وفي الثمانينيات، أصبحت دعوى المركز القومي للبحوث وأكاديمية العلوم المصرية من أجل البحوث التطبيقية "الموجهة لمصلحة علمية" بدلا من البحوث الأساسية "الموجهة لذاتها"، تبدو كما لو كانت تكراراً لما حدث من قبل. فهل كان هناك من يدفع العلماء الطموحين إلى التوقف عن البحث في العلوم الأساسية من أجل التطبيقات الواقعية التي تحتاجها مصر بصورة ماسة؟ وبينما يقول أحد أساتذة الطبيعة بجامعة القاهرة: "إن لدينا الشمس في مصر، فلماذا يجب أن نركز على الطاقة النووية؟... أن تدريس الفضاء والالتحام في الطاقة الذرية أمر طيب، ولكن ما هي أهمية القيام بذلك ما منا ببساطة لا نحتاجه؟ ليس هذا سوى عمل استعراضى" (٢١). ولكننا - إذا استرشدنا بخبرة الماضي - لوجدنا أن هذا الأستاذ سوف يلقي صعوبة في إقناع زملائه العلماء.

"أزمة المثقفين":

تعبئة الجامعة من أجل العلم والتكنولوجيا شيء، أما إدخالها في قضية الاشتراكية العربية فشيء آخر تماماً. وقد جاءت نقطة التحول في عامي ١٩٦١ و ١٩٦٢؛ عندما اعتبر عبد الناصر القوى الرجعية مسئولة عن انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة، فاتخذ منها موقفاً أيديولوجياً أكثر حدة في الداخل والخارج. وكان قد أجبر الجامعة على الإذعان له، فهل بإمكانه الآن أن يعتمد على حماسها في بناء مجتمعه الجديد؟.

وقبل الانفصال ببضعة أشهر، تبني محمد حسنين هيكل مناظرة صحفية حول "أزمة المثقفين"، في شكل تحقيق حول السبب في إحجام معظم المثقفين عن الاقتراب من النظام الثوري. وتورط بعض المشاركين في توجيه النقد الذاتي لأنفسهم لافتقارهم إلى الحماس الثوري، بينما ذهب آخرون إلى حد التجاسر على طلب إعادة الحريات المدينة والديمقراطية البرلمانية^(٢٢).

وكان عبد الناصر فاعلا أكثر منه مفكرا : "إنني لا أريد أو أدعي لنفسى مقعد أستاذ التاريخ، فذلك آخر ما يجري إليه خيالي"^(٢٣). إلا أنه كان بحاجة للمفكرين لإحاطة أفعاله بإطار أيديولوجي. فلم يكن بحاجة لأساتذة الجامعة كمجموعة متنافرة من الباحثين المختلفين فيما بينهم، الذين يقومون بنقل الأفكار إلى الطلاب. وإلقاء المحاضرات العامة أحيانا. وإنما أراد تعبئة الجامعة في صورة منظمة لغرس أفكار القومية العربية والاشتراكية كما حددها نظامه.

وكان العديد من أساتذة الجامعات رحبوا بالثورة، وبعضهم ظل يساندها حتى بعد أن اشتدت هيمنة الجيش سنة ١٩٥٤. ولكن أهداف النظام لم تكن واضحة، وتعرضت حريات التفكير والحديث والعمل للهدم. وامتلا الحرم الجامعي بمخبري الشرطة، ولم يعد الأساتذة يعرفون حدود الكلام المباح. فضلا عن أن المثقفين لم يستطيعوا صناعة أيديولوجيات بالأمر، على غرار ما كان يتوقع العسكريون.

ومع ذلك، لعب الأساتذة دورا في "تحيير" خطوط الناصرية الكلاسيكية في المناقشات التي دارت خلال ١٩٦٠ و ١٩٦١؛ فاخفت دعوة "الأمة المصرية" لتحل محلها "الأمة العربية"، وتحولت التطلعات نحو "العدالة الاجتماعية" لتصبح "الاشتراكية" الموجهة. واحتاج النظام إلى مناهج أيديولوجية يدرسها جميع الطلاب، فلم يكن أمام الأساتذة خيار سوى إعداد هذه المناهج و تدريسها.

لم تكن مصر سوى هدف مرحلي متواضع بالنسبة لعبد الناصر، فلعبت جامعة القاهرة و أساتذتها دورا في بسط النفوذ المصري على أنحاء العالم العربي.

العروبة وتصدير نموذج جامعة القاهرة :

عكس إنشاء فرع جامعة القاهرة بالخرطوم عام ١٩٥٥، قبيل تحول عبد الناصر إلى القومية العربية مباشرة، اهتمام مصر على نحو خاص بمناطق أعالي نهر النيل، واهب الحياة لمصر. فقد غزا محمد علي شمال السودان في العشرينيات من القرن التاسع عشر، ثم عاد الجيش المصري إلى المنطقة عام ١٨٩٨ بعد عهد المهديين، مع مجيئ كتشنر والقوات البريطانية. وأثناء المرحلة الغربية - من الحكم الإنجليزي/المصري المشترك - التي تلت ذلك، قيدت بريطانيا النفوذ المصري في السودان إلى أدنى مستوى ممكن. ولكن المصريين من جميع الاتجاهات تمسكوا بإيمانهم "بوحدة وادي النيل". وفضل بعض السودانيين الوحدة مع مصر (بدرجات متفاوتة)، في حين عمل آخرون مع البريطانيين واختاروا الاستقلال التام عندما استعدت بريطانيا للرحيل، أما سودانيو الجنوب وهم ليسوا عربا ولا مسلمين، فهم آخر من يستفيد من الارتباط بمصر^(٢٤).

وأضاف الملك فاروق إلى صورته المطبوعة على طوابع البريد عبارة "ملك مصر والسودان". وكان اللواء محمد نجيب (وهو نصف سوداني) ومن بعده عبد الناصر يأملان في ضم السودان في بادئ الأمر. وعندما استقل السودان عام ١٩٥٦، أصبح على مصر أن تعقد روابط ودية مع واحد من التيارات السياسية في السودان.

ويعكس التعليم في السودان الروابط مع الأزهر وبريطانيا، كما يعكس الروابط مع جامعة القاهرة. ففي عام ١٩٥٣ كان بالأزهر ٤٣٠ طالبا سودانيا فقط ولكن في ١٩٥٨ وقبل أن يتناقص العدد بسبب زيادة فرص التعليم في السودان، أصبح يدرس بالأزهر ١١٥ طالبا سودانيا^(٢٥). وكانت كلية "جوردون ميموريال" المشروع التعليمي الصغير الذي أقامته بريطانيا في السودان، وهي المدرسة الثانوية التي أصبحت فيما بعد كلية الخرطوم الجامعية في عام ١٩٥١، ثم جامعة الخرطوم بعد ذلك بخمس سنوات. ومع اقتراب استقلال السودان، لم يكن بمقدور بريطانيا أن تعارض افتتاح فرع جامعة القاهرة بالخرطوم في عام ١٩٥٥. ومازال هذا الفرع باقيا للآن كإبن العم الفقير لجامعة الخرطوم، التي تمثل جامعة الصفوة^(٢٦).

وفي عام ١٩٤٣، كانت جامعة فؤاد الأول تبحث بالفعل إنشاء معهد لدراسات السودان^(٢٧). وعكس افتتاح المعهد بعد أربعة أعوام اهتمام مصر

العريق، مع تحرك السودان في اتجاه الاستقلال. وكان الملك فؤاد بإنشائه للمعهد إنما يقتفي أثر جده إسماعيل الذي عززت الجمعية الجغرافية الخديوية التي أنشأها عام ١٩٧٥، من النفوذ الثقافي لمصر في السودان ومنطقة البحر الأحمر، مثلما ساعدت الجمعيات الجغرافية الغربية بلادها الأصلية على اكتشاف الأراضي المستهدفة في أفريقيا وآسيا والباسيفيك. وفي عام ١٩١٥ أحيا الملك فؤاد الجمعية الجغرافية كما وسع من أنشطتها بعد أن تولى الحكم. ويتحدث عبد الناصر في كتابه فلسفة الثورة عن أفريقيا باعتبارها الدائرة الثانية لتأثير مصر (بعد العالم العربي) فيقول :

"ولسوف أظل أحلم باليوم الذي أجد فيه في القاهرة معهدا ضخما لأفريقيا يسعى لكشف نواحي القارة أمام عيوننا، ويخلق في عقولنا وعيا أفريقيا مستتيرا ويشارك مع كل العاملين من كل أنحاء الأرض على تقديم شعوب القارة ورفاهيتها" (٢٨).

وعكس تعديل اسم المعهد إلى "معهد الدراسات الأفريقية" في عام ١٩٥٥ هذه الرؤية الأكثر اتساعا. وسواء طرحت مصر شعاراتها حول السودان بمفهوم وادي النيل، أو المفهوم الأفريقي، أو القومي العربي، أو الإسلامي، فلن تكون لهذه الشعارات نفس أهمية الروابط الاقتصادية والجيوبوليتيكية التي تربط على الدوام مصير كل قطر من القطرين على نهر واحد بمصير الآخر.

وفي الستينيات تحول معهد ديني عال إلى جامعة أم درمان الإسلامية، التي حصلت على المساعدة من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، إلى جانب مساعدة الأزهر. وفي ١٩٦٦ كان رئيس جامعة أم درمان من خريجي دار العلوم، فدعا زميل دراسته القديم، الدكتور أحمد شلبي الأستاذ بدار العلوم، إلى تأسيس قسم للتاريخ والحضارة الإسلامية بالجامعة، وسر شلبي بتقديم المساعدة لجامعة إسلامية كان يعتقد أنها سوف تنشر الإسلام في أفريقيا، ولم ير في انتقاله المؤقت إلى السودان انتقالا إلى بلد أجنبي، ولكنه مجرد انتقال إلى مدينة أخرى ضمن الأمة الإسلامية (٢٩).

وأدت القضية الفلسطينية وإنشاء الجامعة العربية، مع جعل مقرها في القاهرة، إلى زيادة انخراط مصر في الشؤون العربية منذ ما قبل الثورة. ووصلت الدعوة العروبية إلى نورتها في ظل عبد الناصر ؛ ووجدت التعبير الأكاديمي عنها في المعهد العالي للدراسات العربية التابع للجامعة العربية (١٩٥٣). وكان المعهد يقدم دراسات مسائية تؤدي للحصول على "دبلوم"

خلال عامين وعلى درجة الماجستير خلال ثلاث سنوات^(٣٠). ولأن المعهد لم يكن تابعا للحكومة المصرية، فقد حدث أحيانا أن عين أساتذة مصريين لا يفضلهم النظام. وفي عام ١٩٥٨، انضمت مصر إلى الجمهورية العربية المتحدة بحماس بالغ لدرجة أن اختفي اسم "مصر" تماما من طوابع البريد مع نهاية العام.

وساعد إنشاء جامعة بيروت العربية في عام ١٩٦٠ على مد نفوذ عبد الناصر ومناهج التعليم المصري إلى لبنان. وكانت جامعة بيروت فرعاً من جامعة الإسكندرية، وهي بدورها نتاج جامعة القاهرة.

وعكست المدارس اللبنانية تنوع التركيبة الدينية والاجتماعية والسياسية للشعب اللبناني. ولكن بينما تعود الجامعة الفرنسية الكاثوليكية "سان جوزيف"، وكذلك الجامعة الأمريكية في بيروت إلى القرن التاسع عشر، كانت الدولة في لبنان من الضعف بحيث لم تفتح الجامعة اللبنانية حتى أوائل الخمسينات. وبينما رحب الناصريون بجامعة بيروت باعتبارها خطوة نحو الوحدة العربية، تخوف منها - لنفس السبب - المارونيون المدافعون عن الهوية اللبنانية^(٣١).

كما كان الأساتذة من المصريين ومن العرب الذين درسوا في القاهرة، قد نقلوا معهم تقاليد التعليم المصري إلى الأراضي العربية الأخرى، قبل إنشاء فرعي الجامعة المصرية في الخرطوم وبيروت بزمان طويل. وكانت جامعة القاهرة تفتقر إلى الرابطة الإسلامية والإعانات الطلابية التي مكنت الأزهر من اجتذاب الطلاب من بلدان بعيدة مثل إندونيسيا ونيجيريا، ومع ذلك لم تكن نسبة الطلاب الأجانب في جامعة القاهرة عام ١٩٥٠ (٦%) بالنسبة القليلة.

ففي تلك السنة بلغ عدد الطلاب الأجانب ٩٣٩ طالبا بجامعة القاهرة، ٣٠% منهم من السودانيين و ٢١% فلسطينيين، ١١% من السعوديين ومثلهم من السوريين، و ٧% عراقيين، وكانت ٥% نسبة كل من الطلاب اللبنانيين والسوريين^(٣٢). وأرسل المغرب الذي كانت تحت الحكم الفرنسي أبناءه إلى الأزهر، والقليل منهم إلى جامعة القاهرة.

وفي الثلاثينيات، كانت جامعة القاهرة تصدر الأساتذة بالفعل إلى العراق، عندما ذهب عبد الرزاق السنهوري إلى بغداد كعميد لمدرسة القانون هناك بهدف إعادة تنظيمها، وبصحبه اثنان آخران من المصريين لتدريس القانون^(٣٣). وحمل الأساتذة المصريون معهم أينما ذهبوا تقاليد التدريس،

والعادات الإدارية، التي استقرت في وطنهم. وكان المصريون مطلوبين بوجه خاص في البلدان العربية من أجل تدريس المواد الإنسانية والعلوم الاجتماعية باللغة العربية، في حين كان أمام البلدان المضيفة مساحة أوسع في اختيار أساتذة العلوم التي تدرس عادة بالإنجليزية أو الفرنسية. وساعدت رابطة اللغة العربية والإحساس بصلة القرابة العربية، على مقاومة نزوع الدول الاستعمارية السابقة إلى الاحتفاظ بروابط مع المستعمرات القديمة بدلا من إقامة روابط مع جيرانها من بلدان العالم الثالث.

كما زاد الطلب على الأساتذة المصريين بعد إنشاء جامعة ليبيا (١٩٥٥)، وجامعة الملك سعود (١٩٥٩)، اسمها الآن جامعة الرياض)، وجامعة محمد الخامس (١٩٥٧)، وجامعة تونس (١٩٦٠)، وجامعة حلب (١٩٦٠) وجامعة الأردن (١٩٦٢) وجامعة الكويت (١٩٦٦) ^(٣٤). فعلى سبيل المثال كانت نسبة الأساتذة المصريين ساحقة بين أعضاء هيئة التدريس في جامعة الكويت (٧١%) عام ١٩٧٤ ^(٣٥). في حين كانت أهمية الوجود المصري في المغرب الناطق بالفرنسية أقل منها في ليبيا، والهلل الخصيب، والجزيرة العربية. وفيما بعد، كررت الأقطار العربية الأكبر مساحة، النموذج المصري بإنشاء جامعات إقليمية خاصة بها.

وحتى اندلاع حرب ١٩٦٧، كانت هجرة المصريين تتم على نطاق ضيق، فأنحصرت خسارة جامعة القاهرة من الأساتذة في إطار "استنزاف العقول نحو الداخل" - بمعنى انتقالهم إلى الجامعات المصرية الجديدة ومعاهد البحث - أكثر منها نحو البلدان الأخرى. وقد اشتهر المصريون "بالتصاقهم بوطنهم"، خاصة عند المقارنة باللبنانيين والسوريين واليونانيين المحبين للترحال. بالإضافة إلى أن عبد الناصر وقف ضد خسارة القوة البشرية الماهرة التي تحتاجها مصر داخل الوطن ^(٣٦). فكان المصريون الذين عملوا بالتدريس في الجامعات العربية الأخرى قبل ١٩٦٧ من المحالين إلى المعاش غالبا، أو من غير المرغوب فيهم في الداخل.

الجامعة والاشتراكية العربية :

وفي ٢٥ نوفمبر ١٩٦١، شن عبد الناصر هجوما عنيفا على الدراسة الأكاديمية في خطبته التي استغرقت أربع ساعات أمام اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية :

"أنكم تدرسون الاقتصاد السياسي في كلية الحقوق - نظرية آدم سميت حول العرض والطلب. وتقولون إن... مثل هذه النظريات نموذجية... وأنا أقول : لا، فالعملية (في مصر) ليست عملية عرض وطلب. فنحن نصوغ نظاما جديدا... لقد كتب بعض المؤلفين كتباً في الاقتصاد كانت مجرد نقل عن مؤلفي بلدان أخرى. فمن منهم كتب كتاباً عن الاقتصاد الذي نتعامل معه؟... وعندما أدركت أن كتب الاقتصاد هذه مجرد تكرار لما كنا ندرسه بكلية الحقوق في ١٩٣٦، ملأني شعور بالإحباط لانهاية له" (٣٧).

وباختصار، كانت الجامعة منعزلة عن احتياجات المجتمع المعاصر، فكان ذلك هو الوقت المناسب تماماً لأن تتحو نحو الخضوع، وأصبح لزاماً عليها أن تفسر القومية العربية والأهداف الاشتراكية للنظام، وتبررها وتعمل على نشرها. ومن بين ٢٥٠ شخصاً حضروا خطبة عبد الناصر، كان هناك أربعة وثلاثون أستاذاً جامعياً (٣٨).

كما كانت اللجنة التحضيرية جزءاً من مساعي عبد الناصر لتعزيد حكمه، بعد الانفصال السوري الذي وقع قبل أسابيع قليلة. وتقرر أن تبحث اللجنة إجراءات اختيار مؤتمر وطني للقوى الشعبية، يتولى إعداد ميثاق للعمل الوطني. ويمهد الميثاق بدوره الطريق أمام انتخاب اللجان المحلية للمؤتمر العام للاتحاد القومي، الذي سيقوم بوضع مسودة دستور جديد.

وفي مايو ١٩٦٢، وقف عبد الناصر تحت القبة الكبيرة لقاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة لمدة ست ساعات يقرأ مسودة ميثاق العمل الوطني. وحظى الأساتذة والطلاب بتمثيل جيد وسط جمهور الحاضرين من أعضاء المؤتمر الوطني للقوى الشعبية؛ فقد شغل الأساتذة ١٠٥ مقعداً بنسبة ٧% من إجمالي المقاعد، وحصل طلاب معاهد التعليم العالي الممثلين من خلال اتحاداتهم على نسبة مساوية (٧%) وتوقع وفد جامعة القاهرة المكون من ٢٧ أستاذاً وعشرين طالباً على وفد عين شمس الذي جاء في الترتيب الثاني مشكلاً من ١٨ أستاذاً و١٥ طالباً (٣٩).

وبدأت تعبيرات مثل "الاشتراكية العربية" و"الاشتراكية التعاونية الديمقراطية" تتردد في الدوائر الرسمية بعد حرب السويس. وفي صيف ١٩٦٠ ألزم الاتحاد القومي نفسه رسمياً بإقامة مجتمع اشتراكي. وشهد

الصيف التالي محمد حسنين هيكل وغيره من الكتاب منهمكين في رسم الخطوط العامة التي تميز الاشتراكية العربية عن الشيوعية. ولأن هيكل كان يعبر عما يريده عبد الناصر، فقد عارض المبادئ الشيوعية الخاصة بديكتاتورية البرولتارياء، وإلغاء الملكية الخاصة، ومصادرة الممتلكات دون تعويض والرغبة في التضحية بالجيل الحاضر من أجل الأجيال القادمة. وتحدث الميثاق الوطني عن "الاشتراكية العلمية" حتى ينأى بنفسه عن الشيوعية التي لم تذكر بالاسم. وقدم الميثاق أيضا الاتحاد الاشتراكي العربي كحزب واحد يحل محل الاتحاد القومي^(٤٠).

وسمح عبد الناصر للمؤتمر والصحافة بمناقشة الميثاق الوطني لما يربو على شهر كامل تحت شعار "دع مائة زهرة تتفتح". فاعترض اليمينيون على تخصيص نسبة ٥٠% من مقاعد المجالس المنتخبة للعمال والفلاحين. وطالب محمد الغزالي، الشيخ بالأزهر، بأن يعلن الميثاق أن الإسلام دين الدولة، وشجب العلمانية النابعة من الغرب، والتي رأى أنها متفشية في مصر. وحشد الغزالي علماء الأقاليم في الأزهر؛ فاضطر عبد الناصر إلى التصرف بحرص. وبعد أن استمع عبد الناصر مليا، أوضح أن المؤتمر لم يكن مقصودا منه تعديل "مسودة" الميثاق فعليا. وبناء على ذلك، أقرها المؤتمر الوطني فوراً^(٤١).

واعتمدت الاشتراكية، في الميثاق الوطني - إلى حد كبير - على الفكر الماركسي وغيره من الفكر الأوروبي، إلا أنه تعين أن تطرح باعتبارها فكرة قومية. وواكب اعتناق عبد الناصر للاشتراكية فترة قمع قاسية للشيوعيين المصريين، ففي عام ١٩٥٩ ساقهم عبد الناصر، ليلاقوا معاناة رهيبية في السجون ومعسكرات الاعتقال، مثلهم في ذلك مثل الإخوان المسلمين. حتى تساءل البعض، كيف يمكن بناء الاشتراكية بدون الاشتراكيين؟. وفي ربيع ١٩٦٤، قرر عبد الناصر أن اليسار لم يعد يمثل تهديدا، فأطلق سراح الباقين منهم على قيد الحياة أثناء زيارة رئيس الوزراء السوفيتي "خروتشوف". وحصل اليساريون الراغبون في العمل مع الحكومة على مناصب في الصحافة والمصالح الحكومية. وكتب بعضهم في مجلة الطليعة التي كانت تصدر من مؤسسة الأهرام تحت رعاية هيكل^(٤٢).

وساعد اليساريون عبد الناصر في تفصيل أيديولوجيته الاشتراكية وشكلوا وزنا خفيفا لا يمكن إنكاره في مواجهة الثقل الذي يتمتع به عبد الحكيم

عامر في الجيش، وجماعات الضغط المتنافسة الأخرى، والإخوان المسلمين الذين هلك القسم الأعظم منهم.

وفي ١٩٦٥ أنشأ عبد الناصر "منظمة الشباب الاشتراكي"، فانضم إلى فروعها بالجامعات قلة من الطلاب المتحمسين، غير أن غالبية الطلاب بقيت بعيدا عنها. وأجبرت مظاهرات فبراير ١٩٦٨ عبد الناصر على سحب المنظمة، التي لم تكن تتمتع بالشعبية، من الحرم الجامعي^(٤٣).

وعرف رجال "العلاقات العامة" بالجامعة كيف يوجهون مراكبهم مع التيار. فنقل تقرير "عين شمس في ظل الثورة" عن الميثاق الوطني، فصوله وتعبيراته. وحمل أحد فصوله بوضوح عنوان: "الجامعة في خدمة الدولة" (لا في خدمة "المجتمع" أو "الشعب")؛ ويبين الكتيب عدد الأطباء والمهندسين وغيرهم من الخريجين الذين يسهمون في بناء المجتمع "الرائع" الجديد ونوه إلى جامعة بيروت العربية، وجامعة الكويت، وكان رئيساهما من جامعة عين شمس. وردد الجزء الخاص بالبحث العلمي: "إن العلم هو سلاح النصر للثورة". وتفاخر التقرير بما قدمته جامعة عين شمس للصحة والتعليم و"الكفاح المسلح" ومثل أي مؤسسة اشتراكية طيبة، اهتمت الجامعة بصالح طلابها^(٤٤).

ولم تخذع هذه الألفاظ المنمقة عبد الناصر، الذي كان يعلم أن الجامعات ليست بوثقة للحماس الاشتراكي، وضغط على رجاله للقيام "بعمل ما" حيالها. وفي إحدى أمسيات يونيو ١٩٦٤، التقى كمال الدين رفعت نائب رئيس الوزراء للتعليم العالي والبحث العلمي، وكان يرأس أيضا قطاع الجيزة في الاتحاد الاشتراكي العربي، بأساتذة من كلية الآداب - جامعة القاهرة، لبحث المشكلة. وكمال الدين رفعت من الضباط الأحرار وله ماضٍ ماركسي، وبرز باعتباره أحد أيديولوجي النظام. ونشر نص مناقشات هذه الأمسية فيما بعد بعنوان "دور الجامعات في بناء المجتمع الاشتراكي".

وافتح أحمد بدوي رئيس الجامعة الجلسة، فقدم عميد كلية الآداب رفعت باعتباره "أحد أبطال ثورة ٢٣ يوليو" وطرح رفعت سؤال الأمسية: ماذا فعلت الجامعة لبناء مجتمعنا الجديد؟ فأجاب الدكتور محمد عثمان نجاتي بوابل من الشكاوى؛ وذكر أن القول بأن الجامعات في المجتمع الاشتراكي يجب أن تفتح أبوابها على مصاريعها، وتلغى أي تفاوت في الفرص أمر حسن وطيب للغاية، ولكن كيف يمكن للجامعات أن تقوم بهذه المهمة إذا كانت مكدسة بالطلاب؟ وكيف يمكن للأساتذة أن يتفوقوا في التدريس والبحث

وهم مضطرون لأن يعملوا في وظائف إضافية لإعالة أسرهم؟ بينما تفتقر المعامل إلى المعدات، والمكتبات إلى الكتب والدوريات الضرورية. كما أن الأساتذة ليس لديهم الوقت للاتصال الشخصي بالطلاب. ومكتب التنسيق مستمر في إيداع أعداد كبيرة من الطلاب بكليات ليس لديهم أدنى اهتمام بها. واختلف الدكتور محمد أنيس، أستاذ التاريخ، مع نجاتي؛ فاعلن إن المشكلة الحقيقية ليست في العدد، ولكن في انعدام الالتزام الأيديولوجي التقدمي من جانب الأساتذة. ونكر أنه يعتقد أنها أزمة في الفكر التقدمي، فنحن نحتاج إلى الأستاذ الذي يجمع بين العلم والثورة، المعرفة الأكاديمية والميول التقدمية... فالاشتراكية ليست مسألة سياسية تمارس خارج أسوار الجامعة، بل قضية فكرية ترتبط بفروع المعرفة الإنسانية^(٤٥)، والمهمة الأولى للجامعة هي تنمية التفكير التقدمي بين الأساتذة، أما المهمة الثانية، فتطوير المنهج الدراسي المبني على المنظور الاشتراكي.

وتدخل كمال رفعت نائب رئيس الوزراء، معتذرا بأنه ليس رجلا جامعا، وراجيا تصويب ملاحظاته إن كانت خاطئة (ولم يكن أحد منهم من الغباء بحيث يصدق كلامه حرفيا). وسلم بالنقاط التي نكرها نجاتي، ولكن السؤال الحقيقي هو كيف يمكن أن تحل هذه المشكلات إذا ظلت الجامعة بمعزل عن المجتمع ككل؟. "لقد ذهب بعض المضللين إلى ادعاء أنه طالما أن الاهتمام الرئيسي للجامعة هو العلم، فينبغي أن تظل الاشتراكية خارجها".

والنقط الأستاذ الدكتور التهامي عبد الرحمن موسى الفكرة الأساسية في كلام رفعت، فأوضح أن نجاتي تحدث فقط عن التدريس والبحث، وأغفل الرسالة الثالثة للجامعة - وهي خدمة المجتمع. وأنه من الممكن أن تقدم أقسام الكليات محاضرات مسائية، وتنتشر كتباً شعبية عن الاشتراكية. كما دعا إلى أن تركز كلية الزراعة على البحوث التطبيقية وتشجع الفلاحين على الاستفادة من الاكتشافات الناتجة عنها. وأشار إلى أنه في الصيف "الماضي" ذهب قليل من طلبة الزراعة إلى الريف لمقاومة الآفات الضارة، ولكن ذلك الجهد كان تافها بالنسبة لجامعة تضم ٥٠ ألف طالب. ولعل موسى ظن في هذه اللحظة أنه امتلك سمع رفعت، فتحول إلى نكر شكاوى مثل التي أشار إليها نجاتي: نسبة الأساتذة إلى الطلاب غير المعقولة في كلية التجارة (١:٤٥٠)، وأهمية التوسع في المعاهد الفنية لتخفيف الضغط عن الجامعات.

كما تحدث أيضا احمد فؤاد الأهواني أستاذ الفلسفة فعلق على ما قيل من أن جامعة القاهرة لم تؤد واجبها؛ وتساءل ألم تقدم الجامعة الزعماء، وتنتشر الثقافة الرفيعة لمصر؟ لننظر إلى جميع خريجي الجامعة في مناصب القيادة، أننا نعلم الأفراد، الذين يقدمون بعد ذلك إسهامات للمجتمع. ويتدخل رفعت مرة أخرى قائلاً أن الجامعة بالفعل علمت العديد من الأفراد الذين كانوا يسهمون في تطور المجتمع، ولكن القضية تكمن في دور الجامعة باعتبارها مؤسسة.

واستمر الحوار على هذا المنوال بين النظام والأساتذة، مع الإحباط على الجانبين حتى حرب ١٩٦٧. وفي نفس الوقت دار جدل مشابه في الدوائر الأدبية حول "الالتزام" الاشتراكي.

ثم وصلت العلاقات بين النظام والجامعة إلى نقطة الغليان، عندما دعا محمد عزت سلامة وزير التعليم العالي إلى عقد مؤتمر حول التعليم العالي في جامعة القاهرة، فبراير ١٩٦٧. وانضم الوزراء، وأعضاء مجلس الأمة ومسئولو الاتحاد الاشتراكي العربي إلى الجلسة الافتتاحية. إلا أن الأساتذة ثاروا عند اكتشافهم أن المؤتمر عقد بغرض الاستعراض، وأن الوزير اعترّم إعادة تشكيل المجلس الأعلى للجامعات، بما يزيد من القيود على الاستقلال الضئيل الذي كانت الجامعة ما تزال تحتفظ به. واستمرت المعركة خلال الربيع؛ فاختر محمد أنيس، وشقيقه عبد العظيم أنيس (أستاذ العلوم من جامعة عين شمس) ورشدي سعيد أستاذ الجيولوجيا، جانب الوزير باسم الاشتراكية، وأبدى حلمي مراد نائب جامعة القاهرة بعض التحفظات في حذر، في حين أعلن رشاد رشدي أستاذ اللغة الإنجليزية رفضه للمشروع منذ البداية.

ثم أجهضت الحرب الفعلية في يونيو ١٩٦٧ حرب الكلمات هذه، بيد أن القضايا نفسها بقيت كما هي. ولم يكن أمام عبد الناصر في سنواته الأخيرة خيار سوى أن يسترضي الجامعات، فعين حلمي مراد نائب رئيس الجامعة وزيرا للتعليم العالي. وسوف يهتم السادات أيضا بالتودد إلى أساتذة الجامعات في أوائل عهده^(٤٦).

مقرر "التربية الوطنية": دعاية أم تدريب على المواطنة:

في نوفمبر ١٩٥٨، كانت الجمهورية العربية المتحدة بلغت تسعة أشهر من عمرها، عندما قررت الحكومة إنشاء كرسي جامعي في "تاريخ الأمة العربية"، فأبدى الأساتذة امتعاضهم لعدم استشارتهم في ذلك على أساس أن تغيير المقررات يجب أن ينبع من بين المتخصصين داخل الجامعة، وأنه سوف تحدث مشكلات إذا اضطر الأساتذة لتدريس موضوعات لا يؤمنون بها^(٤٧).

ومضى عبد الناصر في طريقه؛ وفي العام الدراسي ١٩٦٣ - ٦٢ أدخل مادة التدريب العسكري للطلبة والطالبات ضمن مواد الدراسة في السنوات الثلاث الأولى من الجامعة^(٤٨)، كما تم وضع منهج "المجتمع" للمدارس الثانوية، و"التربية القومية" للجامعات. وعقد كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم مؤتمرين بالإسكندرية لصيفين متتاليين من أجل إعداد منهج "التربية القومية"^(٤٩). فدرس جميع طلاب السنة الأولى بالجامعة "المجتمع العربي"، ودرس طلاب السنة الثانية "ثورة ٢٣ يوليو" وطلاب السنة الثالثة "الاشتراكية العربية" أما طلاب السنة الرابعة فلم يتلقوا أبدا المقرر المقترح تدريسه عليهم.

واشترك أساتذة من كلية الآداب، وكلية الاقتصاد والعلوم السياسية في إعداد أحد كتب المراجع، وهو "دراسات في المجتمع العربي"؛ ففي الجزء الأول شرح أستاذ في الجغرافيا كيف تجاهل الاستعمار الأوروبي العوامل الجغرافية واللغوية، والتاريخية والسياسية التي تصنع وحدة الوطن العربي. ثم تبع ذلك قسم شرح فيه محمد أنيس فكرة القومية، وصور اثنان من أساتذة التاريخ الجذور التاريخية للقومية العربية، فأكدوا على أن الوطن العربي كان موحدًا في ظل "محمد" والخلفاء الراشدين، وأن الوحدة الثقافية والدينية استمرت برغم الانقسام السياسي في ظل العباسيين، ثم تحت حكم أسر تركية متعددة. واشترك أنيس مع مؤلف آخر في إعداد بحث من ٧٥ صفحة. حول "تهضة العرب المحدثين ونضالهم" متجاهلا عدة قرون من الحكم العثماني في فقرة واحدة، واصفا إياها بالحقبة الكئيبة التي فقد فيها العرب استقلالهم. وسئل مؤلف مرجع آخر، عن السبب في أنه تجاهل فعليا أربعة قرون من الحكم العثماني في المشرق العربي، فقال إن العصر العثماني كان عصرا مظلما بالنسبة للعرب، وأنه قرر التعامل مع الجانب المضيء فقط^(٥٠). وفي

"رواية" أنيس يعود الشرير التركي مع عبد الحميد الثاني، ويتلو الانقسام المأساوي للأراضي العربية على يد البريطانيين والفرنسيين. وبعد ذلك، يظهر التفاؤل في القصة مع معارك الاستقلال المتواكبة في عدة بلدان عربية، والجامعة العربية وغيرها من المعالم التي تشير نحو الوحدة العربية، ومثلها الأعلى في "الوقت الحالي" هو الجمهورية العربية المتحدة. ثم، تحطمت الجمهورية العربية المتحدة في نفس العام الذي صدر فيه الكتاب^(٥١).

ويعتبر "دراسات في المجتمع العربي" نقيضا صارخا للبحث الذي كان فريق من أساتذة جامعة القاهرة قد كتبه لطلاب السنة الأولى بقسم التاريخ قبل عشرين عاما، ففي "البحث في التاريخ المصري" ركز علماء في المصريات ومتخصصون في العصور الوسطى الإسلامية، والتاريخ الحديث، اهتمامهم عبر خمسة آلاف عام من التاريخ المصري. فعالج الفصل الأول (الجغرافي)، النيل باعتباره الخيط المركزي، وتلا ذلك بحث في تاريخ مصر القديمة حسب تسلسل الأسر، ثم حصلت الفترات الإغريقية والرومانية، والبيزنطية - القبطية على حقها من البحث. وفند الفصل الخاص بالحقب الإسلامية قبل العثمانيين مقولة أن مصر فقدت استقلالها في الفترة من ٥٢٥ قبل ميلاد المسيح وحتى ١٩٢٢ ميلاديا، مشير إلى أن الاستقلال لا يتوقف على أن يكون الحكام من نفس جنس الشعب. فهل يقول أحد أن إنجلترا لم تكن مستقلة بعد عام ١٠٦٦؟ وعلى الرغم من أن الأيوبيين والمماليك لم يكونوا مصريين بالدم، إلا أن انتصاراتهم على الصليبيين تعتبر في هذه الدراسة انتصارات مصرية^(٥٢).

وكان المنهج المفرط في التركيز على المصرية، وتمجيد أسرة محمد على بالتحديد يطغى على الكتب الدراسية في ظل النظام القديم. فأصبح اهتمام هذه الكتب فيما بعد ١٩٥٢ بمحيط العالم العربي، وتضمين الأفكار الاقتصادية والاجتماعية خطوات في الطريق الصحيح، غير أن الكتب الجديدة استبدلت ببساطة مجموعة من الأساطير الوطنية والشعارات الأيديولوجية بمجموعة أخرى. فجاءت النتيجة عبارة عن "بروباجندا" محض، ويقول لويس عوض: "تبحث عبثا عن رجل حكم مصر أمدا طويلا اسمه الخديوي عباس حلمي أو عباس الثاني فلا تعثر على أثر. فإذا أراد التلميذ أن يعرف من جلس على عرش مصر منذ ثورة ١٩ حتى معاهدة ١٩٣٦ لما وجد اسم الملك فؤاد فيما يدرس من صحائف، ولولا أن ثورة يوليو ١٩٥٢ خلعت الملك فاروق لتحلل السادة مؤرخو الأطفال من ذكر اسمه أيضا... التلميذ

الفرنسي لا يتعلم رأي وزارة التعليم في لويس فيليب أو في نابليون الثالث. أما التلميذ المصري المسكين، فلا يقرأ في كتابه اسما من أسماء الأعلام إلا مقرونا بالتمجيد أو بالشتيمة وكأنه يقرأ مقالا في جريدة أو يسمع حديثا في الإذاعة أو التليفزيون" (٥٣).

وكان المغزى واضحا، على الرغم من أن عوض ربما قلل من قدر الموقف الأيديولوجي للكتب الدراسية الفرنسية. كما علق إبراهيم عبده على الميثاق الوطني بسخريته اللاذعة كالعادة:

"... كتاب مقدس هو "الميثاق" كتاب الفكر الثوري الذي بلغ عدد النسخ التي طبعت منه فيما يقال أكثر مما طبع من القرآن و الإنجيل في عدة أجيال، ودرس في المدارس والجامعات، وأصبح مادة للسقوط والنجاح، ولم يحظ القرآن الكريم بهذه الميزة" (٥٤).

وكان اليساريون يشعرون بالإحباط بسبب ما تحمله جميع الكتب الدراسية من ولاء كاذب للاشتراكية. فقد اتهمت مجلة الطليعة للكتب المقررة بأنها لا تحوي بحثا جديرا بالثقة عن الاشتراكية أو التحليل الطبقي الجاد (٥٥). ولم يكن السبب بعيدا عن الأذهان؛ فقد لاحظ أنور عبد الملك أن الاثنى عشر أستاذًا الذين اختيروا لوضع منهج التربية القومية للنظام الاشتراكي العربي، لم يكن من بينهم: "أستاذ اشتراكي واحد، نون الحديث عن الماركسيين... بينما نلاحظ أسماء معروفة بأفكارها اليمينية أو جهلها التام بهذا النوع من المشاكل" (٥٦).

وأسفر ذلك عن فوضى ضخمة، حيث سارع كل أستاذ ليدفع إلى المطبعة بكتابه الخاص؛ فصدر ما يربو على ثلاثين كتابا عن "المجتمع العربي" وحده، مع تسابق الأساتذة للحصول على حق طبع الكتاب المدرسي. وكان بعض الكتاب يكاد لا يخفي امتعاضه من الاشتراكية، بداية من التأكيد على أن الاشتراكية العربية تختلف عن الشيوعية، إلى إدانة الأخيرة بالكامل وبذلك يتجاهل العودة إلى الحديث عن الأولى (٥٧).

فماذا استفاد الطلاب من منهج التربية القومية؟.. أوضح بحث أجري بين عامي ١٩٦٩ و ١٩٧١ في جامعات القاهرة، والإسكندرية وأسيوط أن ثلث الطلاب مستاءون من المقرر، وحوالي نصف الطلاب ومايزيد عن ثلث الطالبات يشعرون بعدم الارتياح بسبب فشل المحاضرات الاشتراكية في تحقيق أهدافها (٥٨). ويتذكر أحد المخضرمين في هذه المحاضرات أن أساتذته

كانوا مرعوبين من أن يؤخذ عليهم أنهم غير ملتزمين بخط ثورة ٢٣ يوليو، فكانوا يتحدثون في محاضراتهم عن نابليون أو ثورة ١٩١٩، أو عن أي شيء آخر ما عدا ثورة عبد الناصر. أما الطلاب نوو التوجهات الدينية فكانوا يريدون مقررات إجبارية في الإسلام بدلا منها، وما زالوا حتى الآن يطالبون بذلك.

وبمرور الوقت، طالب حلمي مراد بعقد سلسلة من الاجتماعات من أجل إصلاح مقرر التربية القومية، في أعقاب ١٩٦٧، ولكن الوقت كان قد تأخر جدا. بعد أن تلقت دعوة عبد الناصر للاشتراكية العربية والحافظ الأيديولوجي الذي دفع إلى وضع مقررات حول هذا الموضوع ضربة قاضية. وقبل وفاة عبد الناصر بوقت قصير كانت هذه المقررات ألغيت^(٥٩).

بيد أن تشجيع النظام للفكر الاشتراكي - في حدود - سهل ازدهار مدرسة من المؤرخين نوى الميل اليساري الذين كشفوا عن أبعاد جديدة في التاريخ المصري الحديث. فمحمد أنيس بقسم التاريخ - جامعة القاهرة - حاصل على الدكتوراه من جامعة لندن، ومع أواخر الخمسينيات كان يستخدم منهاجا ماديا للتحليل، ويشجع طلابه على إعداد أبحاث حول النقابات العمالية، وغيرها من الموضوعات المهمة المتعلقة بالناس العاديين. فأبدى تلميذه عبد العظيم رمضان وصغار الباحثين - الذين شاركوا في حلقة البحث التي أجرتها جامعة عين شمس حول التاريخ المصري الحديث - اهتماما قويا بالبعد الاجتماعي الاقتصادي. (وربما سبب انضمام محمد أنيس لحزب "الوفد الجديد" المحافظ في عهد السادات إحساسا بالدهشة، كما أن هناك بعض المشكلات فيما يتعلق بمنهجه في التحليل الطبقي، ولكن أعماله وأعمال تلامذته أثرت علم التاريخ المصري الحديث)^(٦٠).

"تأميم" الأزهر^(٦١)

ولم يكن عبد الناصر ليغفل عن الأزهر، وهو يحكم قبضته على القوى الوطنية في عامي ١٩٦١ و ١٩٦٢. وكان الأزهريون قد جربوا عصا الحاكم من قبل، غير أن تلك حدث على نحو متفرق وفردى فحسب. فقد تجاهل محمد علي الأزهر، عندما اقتطع من مخصصاته المالية، وحاول خلفاؤه معالجة ذلك دون طائل يذكر، أما عبد الناصر، فأمره فعليا!

وتكتسب الدراسة التي أعدها محمود شفشق عن طلاب السنة النهائية بالأزهر، قيمة خاصة ؛ لأنها أعدت في أكتوبر ١٩٦٢ قبل أن تترسخ الإصلاحات التي أدخلت في العام السابق، ولأنه بحث أيضا جامعة القاهرة وعقد مقارنة بين الاثنين. ففي الأزهر، بحث شفشق كليات أصول الدين، والشريعة، واللغة العربية، في حين غطى بحثه كليات الآداب والعلوم والطب والحقوق والهندسة بجامعة القاهرة. واختار في كل من الحالتين عينة تضم ٢٠% من طلاب السنة النهائية، وبلغت نسبة الإجابات ١٣% من إجمالي عدد طلاب نفس السنة. واشتملت عينته عن جامعة القاهرة على ١٦% مسيحيين، إلا أنها لم تضم طالبات. ولم يكن بالأزهر مسيحيون، كما لم يكن بسنواته النهائية طالبات وقت إجراء البحث^(٦٢).

وتكاد تكون النتائج التي لخصت في جدولي (٢٩)، (٣٠) غاية في الدقة. فهي توضح أن الطالب الأزهرى العادي يكبر نظيره من جامعة القاهرة بست سنوات، كما أنه أكثر ريفية منه، واحتمالات كونه متزوجا أكبر؛ نظرا لأن حفظ القرآن يستغرق وقتا طويلا، كما أن الشاب يتزوج مبكرا في الريف. وكانت احتمالات أن يكون الأزهرى من أبناء القاهرة أقل، وأسرته عادة أكثر فقرا، ووالده أقل تعليما، والأرجح أن يكون والده مزارعا أو إمام جامع أكثر منه تاجرا أو موظفا مكتبيا. وقيم الأزهرى عادة أبعد ما تكون عن "الليبرالية" أو "الحداثة" (وفق تعبيرات شفشق).

وكان الأزهر يوفر دائما فرص التعليم للفقير الكفاء، أما ما تغير فهو أنه لم يعد يجتذب أبناء النخبة بنفس القدر.

ورغم نزعات المساواة التي لمسناها في جامعة القاهرة، إلا أنها ظلت نخبوية أكثر من الأزهر ؛ حيث تقترب نسبة الأزهريين ذوى الأصول الريفية (٦٢%) ومن أبناء الفلاحين (٤٦%) من نسبة السكان الذكور البالغين في مصر ككل (٦٣% و ٥٤% على التوالي). وعلى الرغم من أن الأزهريين كانوا يفوقون المتوسط القومي من حيث مستوى تعليم آبائهم ودخولهم، إلا أن هذا المستوى يبدو متواضعا إذا قورنوا بطلاب جامعة القاهرة.

ولم يذكر شفشق ما إذا كانت الأصول الاجتماعية للطلاب تتفاوت بين كليات الأزهر الثلاث، ولكن استجاباتهم لأسئلته التي تتضمن تحديد موقف لم تكن متفاوتة. وعلى العكس من ذلك تبأينت الأصول الاجتماعية لطلاب العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية في جامعة القاهرة عن طلاب الطب والهندسة والعلوم على نفس النحو الذي اختلف فيه طلاب جامعة

القاهرة ككل عن الأزهريين: فكان طلاب المواد الإنسانية والعلوم الاجتماعية في أغلب الأحوال من غير أبناء القاهرة أو أي مدينة كبيرة أخرى، كما أنهم أكثر فقرا، وينتمون لأسر أقل تعليما، ومن المرجح أكثر أن يكون أبائهم مزارعين.

وفي القضايا الاجتماعية فإن طلاب طب القاهرة هم الأكثر "ليبرالية" أو "حدائثة"، بينما كان طلاب العلوم الإنسانية أكثر قربا للأزهريين المحافظين، في حين تأرجح طلاب التخصصات الأخرى بين الجانبين^(٦٣). وعلى غير المعتاد جاء شيخ الأزهر في الفترة من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٣ - الشيخ محمود شلتوت - ليبراليا، بعكس سابقه الذين تركوا المنصب احتجاجا على تدخل الحكومة^(٦٤). ففي شبابه، أيد إصلاحات الشيخ المراغي، وبعد ذلك، أصيب بخيبة أمل عندما اتفق أستاذه مع المحافظين. كما اتخذ شلتوت نفسه العديد من المواقف التقدمية؛ فحبذ ترجمة القرآن، والتقارب مع الشيعة، وإرسال الأزهريين إلى أوروبا للحصول على دراسات عليا، وقبول الطالبات بالأزهر وإضافة الدراسات العلمية والفنية إلى مناهجه. ولكنه استمر كرجل إصلاح داخل الأزهر، بعكس دعاة التحديث من الأزهريين السابقين مثل طه حسين، وعلي عبد الرازق، ومصطفى عبد الرازق، الذين انتهى بهم المطاف إلى خارجه. ونظرا لأن شلتوت لم يكن على علاقة طيبة بالملك فاروق، فقد أسعده الارتباط بالضباط الأحرار بعد الثورة، وساهم في تأييد الأزهريين لعبد الناصر في مواجهة الإخوان المسلمين^(٦٥).

ورغم الاختلافات الواضحة بين شلتوت وطه حسين، إلا أن كفاح الأول حمل بعض الشبه من نضال الأخير؛ فكلاهما اتصل بالأحرار الدستوريين (رغم أن طه تحول بعد ذلك إلى الوفد). وفي أوائل الثلاثينيات أطاحت وزارة صدقي القوية بكل من الرجلين. وكان شلتوت واحدا من بين حوالي سبعين أزهريا كلفهم تأييدهم للمراغي الطرد من مناصبهم، فلجأ إلى الكتابة في الصحف - مثل طه - ومارس المحاماة لبعض الوقت مع عبد الرازق، وهو واحد أيضا من ضحايا التطهير. وفي عام ١٩٣٥ تمكن المراغي ولطفي السيد من العودة إلى منصبيهما السابقين بفضل ضعف الملك فؤاد، وما لبث أن تبعهما شلتوت وطه. وفي الستينيات، عندما أشرف شلتوت على إلحاق البنات بالأزهر، أثارت صورة صحفية له مع الطالبات حملة من

الاحتجاج، وهو تكرر غريب لتجربة طه حسين في إلحاق البنات بكلية الآداب قبل ثلاثين عاما^(٦٦).

جدول (٢٩)

مقارنة بين طلاب جامعة القاهرة وطلاب الأزهر (نسب مئوية)

القاهرة	الأزهر		القاهرة	الأزهر	
١ (**)	٢٠ (*)	متزوج	٢٢ سنة	٢٨ سنة	متوسط المس
٨٤	١٠٠	مسلم	١٧ سنة	٢٣ سنة	متوسط الالتحاق
١٦	-	مسيحي	٢٧	٢	من أبناء القاهرة
١٥	-	قبطي	١	١	من الإسكندرية
		<u>الدخل المئوي للأب :</u>			من مدن عدد سكانها يتراوح بين
٣	١٥	أقل من ٢٠٠ جنيها مصريا	١٨	٩	١٠٠ ألف و ٥٠٠ ألف نسمة
٢١	٤٦	٢٠٠-٤٠٠ جنيها			من أصول ريفية (أقل من ٢٠
٤٧	١٧	٤٠٠-٨٠٠ جنيها	٢٤	٦٢	ألف نسمة)
١٠	٢	أكثر من ٨٠٠ جنيها			<u>مهنة الأب :</u>
		<u>مستوى التعليم الرسمي للأب :</u>	١٤	١	مهني
٧	٢٦	منعدم	٦	٧	مدرس
٧	٣٠	قسط من التعليم الابتدائي	٨	-	وظائف إدارية عليا
١٩	٢٠	الابتدائية	٢٣	٢	وظائف كتابية وإدارية دنيا
٩	١	قسط من التعليم الثانوي	٢	١٠	رجل دين
١٦	-	الثانوية	٢	-	ضابط جيش أو بوليس
٣	٣	دار المعلمين	٢٣	١٥	رجل أعمال
٣	١٣	معهد ديني أ. الأزهر	٧	٥	مالك عقارات أراضى
٢١	صفر	جامعي	٦	٤٦	مرارح
		<u>مستوى التعليم الرسمي للأم :</u>	٤	٢	عامل ماهر
٢١	٦١	منعدم	٢	٥	عالة غير ماهرة
١٦	١٥	قسط من التعليم الابتدائي	٣	٨	لا إجابات
٢٥	١٥	الابتدائية			
١٢	١	قسط من التعليم الثانوي			
٧	-	الثانوية			
١	-	قسط من التعليم الجامعي			
١	-	الجامعة			
١٠	١٨	لا إجابات			

(**) عدد الأفراد

(*) تقديرا

- المصدر : (بيانات مجمعة من "University", Shafshak)

جدول (٣٠)
التوجهات الاجتماعية لطلاب جامعتي القاهرة والأزهر
(النسبة المئوية للموافقين)

الأزهر	جامعة القاهرة	
٣١	٧٨	مطلوب تنظيم النسل للتغلب على المشكلة السكانية
١٠	٤٣	ينبغي إدخال نظام الاختلاط في المدارس الثانوية
٢٩	٨٠	يجب أن يتم الطلاق في المحكمة ، وليس بإرادة الزوج المنفردة
٧٠	٢٨	افضل أن يكون معلمي أطفالى من نفس ديني
٥٣	٨٢	في الانتخابات العامة يجب النظر إلى جدارة المرشح الفردى بصرف النظر عن ديانتة

المصدر " University " , Shafshak : ص ص ٢٢٨ ، ٢٧١ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠

ولأن عبد الناصر كان يعلم تماما أن معظم الأزهريين غير متفقين مع شلتوت، فقد جعل الضباط الأحرار يفرضون الإصلاح على الأزهر من خلال مجلس الأمة، في هجوم مفاجئ مساء ٢٢ يونيو ١٩٦١. فأنجز المهمة أنور السادات رئيس مجلس الأمة بمساندة كمال الدين رفعت، وحسين الشافعى وكمال الدين حسين. وثلت ذلك حملة صحفية معادية لرجال الدين دمغت العديد من علماء الأزهر بأنهم رجعيون "منعزلون عن المجتمع". وأعلن مانشيت أخبار اليوم "الدين ليس حرفة" ^(٦٧).

وشمل الإصلاح كليات الأزهر القديمة الثلاث، بإضافة كليات أخرى من بينها الطب، والزراعة، والهندسة، وكلية البنات الإسلامية. وتم الفصل بين منصبى شيخ الأزهر ورئيس جامعة الأزهر، كما أدى تعيين أشخاص من الخارج ضمن المجلس الأعلى للأزهر إلى إحكام السيطرة عليه، كما أضعف من سلطة الشيوخ.

والتزم الميثاق الوطني بنبرة العلمانية دون التعرض للإسلام، فتحدث عن الاشتراكية وأحجم عن إعلان أن الإسلام دين الدولة. وبطبيعة الحال، كان ناصر يعرف كيف يستخدم الإسلام حينما تسنح الفرصة. ولكن إلى أي مدى جاء "كتاب الأزهر في ١٢ عاما"، الصادر ١٩٦٢، مقنعا، وغلافه الداخلى يحمل صورة عبد الناصر وهو يؤدي الصلاة ^(٦٨)؟. ويمكن استنتاج رأي عبد الناصر في الأزهر من خلال النسبة التي حددها لمشاركة أساتذته

في اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية: أربعة أساتذة أزهريين غير ظاهرين إلى جانب ٢٧ زميلا لهم من جامعة القاهرة. (كان للجامعات العامة الأخرى ٤١ ممثلا من الأساتذة موزعين بينها، في حين كان للمعاهد العليا ٢٢ ممثلا) ^(٦٩).

ثم أقيم حرم جامعي جديد للأزهر، بعيدا عن الحرم القديم وعن الجامع الأزهر المهيب؛ حيث كانت الكليات الثلاث الأصلية (بالإضافة إلى كلية التجارة الجديدة) مقامة في الحرم على بعد جغرافي واضح خلف الجامع. وكان أساتذة المواد العلمية والفنية ينتدبون إلى كليات الأزهر من الجامعات الأخرى، فلم يكن لهم صلة بالحرم القريب من الجامع. وارتاب المخضرمون بالأزهر في أن يكون الواقفون الجدد غير متحمسين لقضية الدين؛ بل أن التعليم في كليتي الطب والهندسة، يجري باللغة الإنجليزية كما هو الحال في الجامعات الأخرى. وكان خريجو المدارس الثانوية الذين لم يستطيعوا الالتحاق بالجامعات العامة يذهبون إلى الأزهر وهم متضررون من السنة الزائدة التي سيمضونها في دراسة المقررات الدينية اللازمة قبل أن يستطيعوا بدء الدراسة في تخصصاتهم. وتكشف درجات الامتحان عن تسلسل في المكانة الاجتماعية للكليات يشبه تسلسلها في الجامعات الأخرى؛ حيث تأتي كليات الطب، والصيدلة، وطب الأسنان، والهندسة في القمة ^(٧٠)؛ بينما انضمت الكليات الدينية - التي شكلت قلب وروح الأزهر على مدى ألف عام - إلى كليات الدراسات الإنسانية عند قاع التسلسل.

بل أن الدراسة حتى في كليات أصول الدين، والشريعة، واللغة العربية أصبحت أكثر علمانية. وحصل عدد أكبر من الأساتذة على درجات الدكتوراه من الجامعات الغربية. ثم شجع ضم المحاكم الشرعية إلى نظام المحاكم الوطنية عام ١٩٥٦ كلية الشريعة على إضافة مقررات في القانون المدني، وتسمية نفسها بكلية الشريعة والقانون. وفي عام ١٩٦٨، أصبح ٤٧% فقط من ساعات المحاضرات لطلاب تلك الكلية مخصصة للمواد الدينية ^(٧١). بل أنه حتى كلية أصول الدين، آخر ملجأ لأولئك الذين يرغبون في أن يسلكوا مسلكا وظيفيا دينيا، أصبحت تشترط الآن دراسة لغة أجنبية.

ولم يعد أمام الأزهريين سوى أمل واحد؛ هو أن تسفر التعديلات المؤلمة عن مستقبل أكثر إشراقا ^(٧٢)؛ وبدلا من الاستمرار في إغراق سوق الوظائف بالمتخصصين في الدين ليشغلوا وظائف هامشية، ربما يصبح الأزهر مصدرا للأطباء والمهندسين والعلماء ورجال الأعمال الأكفاء،

والملتزمين بالقيم الإسلامية؛ ولعل الأزهر أن يخرج في يوم من الأيام أساتذة من أبنائه في المجالات الفنية والعلمية، ولا يحتاج بعد ذلك إلى تعيين أشخاص من الخارج يشك في التزامهم العقائدي؛ كما قد يستطيع الأزهر إعادة بناء عالم يتخلل الإسلام جميع مجالات المعرفة فيه، من خلال تطوير المجالات التي أهملها الأزهر طويلاً باعتبارها مجالات غير ملائمة.. وعسى أن تحمل الخريجات من الطالبات رؤية الإسلام إلى قلب المجتمع بشكل أعمق من ذي قبل.. ولعل أبناء الموسرين يعودون إلى الالتحاق بالأزهر، وربما يستطيع الزهر - بعد ما عاناه طويلاً - أن يحل محل جامعة القاهرة في قيادة مصر حتى تصبح الأرض الموعودة.

الموامش

- ١- لويس عوض ، *الجامعة والمجتمع* ... ص - ٧ - ١٢ . وجاءت تعليقاته على النفوذ الأمريكي من مقابلة معه - ٢٠ إبريل ١٩٨٢ .
- ٢- لويس عوض ، *الجامعة والمجتمع الجديد* " ص ص ١٩ ، ٢٠ ، ٦٣ ، ٦٤ .
- ٣- بخصوص هذه الفقرة والتالية لها انظر : لويس عوض : *الجامعة والمجتمع* ... " ص ص ٥٧ - ٧١ .
- ٤- المرجع السابق ص ص ٧٠ - ٧١ .
- ٥- المرجع السابق ص ص ٢٩ - ٥٣ .
- ٦- بخصوص هذه المعاهدة انظر :
- A.B. Zahlan, *Science and Science Policy*, pp. 44- 51.
- وقد استقيت المعلومات عن المركز القومي للبحوث من مقابلة مع د. طلعت حجازي ، قسم النبات بالمركز القومي للبحوث - ٥ يناير ١٩٨٣ .
- ٧
- Susantha Goontilake, *Aborted Discovery, Science and Creativity in the third World* (London, 1974) pp. 98 - 104.
- ٨
- Clement Henry Moore, *Images of Development : Egyptian Engineers in Search of Industry* (Cambridge Massa Chusetts, 1980), p. 85.
- ٩- محمد محمود الجراي "مشرقة .." ص ص ١٨٤ - ٢٠٨ .
- ١٠
- Sardar, *Science and Technolog*, pp. 58, 143.
- ١١- محمد النادي ، مقابلة ١٦ يونيو ١٩٨٣ . و : Moore, *Imges*, pp. 87 . 96 .
- ١٢
- A. Aiad, *"Education" in Astronomy in Egypt*, p. 16.
- ١٣- أنور عبدالمك ، "المجتمع المصري والجيش" . و :
- R. Hrair Dekmejian, *Egypt under Naser* (Albany, New York, 1971), p. 187.
- ١٤- D.H. Bangham في : *التقرير السنوي لكلية العلوم لسنة ١٩٣٤ - ١٩٣٥* (القاهرة ١٩٣٨) الفصل الإنجليزي الصفحة الأولى.
- ١٥- مشرفة ، *مطالعات* ص - ١٣٥ .
- ١٦
- Moore, *Engineers*, pp. 86 - 87.
- يعتمد هذا الفصل أساسا على :
- Moore, esp. pp. 82 - 92, and Zahlan, *Science and Science Policy*, pp. 163 - 169.

- ١٧- د. كمال رمزي ستينو - مقابلة - ٤ ابريل ١٩٨٣.
- ١٨-
- The Egyptian University, *Faculty of Science, Bulletin 2* (1934).
- ١٩- رمزي ستينو - مقابلة.
- ٢٠-
- Peter Lundgreen, "The Organization of Science and Technology in France : A German Perspective," in Fox, ed., *Organization*, pp. 311-32,. Harry Paul, in *ibid.*, "Apollo courts the Vulcans: The Applied Science Institutes in Nineth - Century French Science Faculties," pp. 155 - 81.
- ٢١-
- Rafat Kamel Wassef, quoted in "Big Brother in the Science League, "The Middle East, July 1982, p. 39.
- ٢٢- أنور عبد الملك "المجتمع المصري والجيش". انظر أيضا :
- Rejwan, Nissim, *Nasserist Ideology : It's Exponents and Critics*, (New York, 1974) pp. 143 - 146.
- ٢٣-
- Gamal Abdul Nasser, *Egypt's Liberation : The Philosophy of the revolution* (Washington, DC, 1935), p. 18.
- جمال عبدالناصر، *فلسفة الثورة* - مصلحة الاستعلامات ص - ٣٧ - (المترجمة).
- ٢٤-
- P.M. Holt and M.W. Doly, *The History of the Sudan From the Coming of Islam to the Present Day* (Boulder, Colorado, 3 rd edn, 1979).
- وهو يقدم خلفية تاريخية عن السودان وعلاقاته بمصر .
- ٢٥-
- Eccel, Azhar, p. 302.
- ويتضمن هذا الرقم طلاب التعليم ما قبل الجامعي.
- ٢٦-
- Waardenburg 1 : 267 - 72.
- وتقرير مدير جامعة القاهرة عن السنة الجامعية ١٩٥٧ - ١٩٥٨ (القاهرة ١٩٥٩) الصفحات ١٥٨ وما بعدها.
- ٢٧-
- FO 371 / 35576 / J1530, *Lampson to Eden*, March 17, 1943.
- ٢٨- عبدالناصر ، *فلسفة الثورة* ص - ٦٨ . وبخصوص تاريخ المعهد ، انظر : محمد السيد غلاب "الدراسات الأفريقية" ، مجلة الدراسات الأفريقية العدد الأول (١٩٧٢) ص - ١ - ٨.
- ٢٩- أحمد شلبي "رحلة حياة" ص - ص - ٢٥٣ - ٢٥٩.

-٣٠-

- Waardenburg 1 : 82, 250, 251.

-٣١- حول التعليم العالي في لبنان ، انظر :

- Waardenburg 1 : 175 - 210.

-٣٢- تقويم جامعة القاهرة فؤاد الأول ١٩٥٠ ، ص - ١٩٦ . و : 97 : 2 W.

-٣٣-

Fo 371 / 2080 / E 1055, Iraq - Annual Report 1936, Kerr to Eden, January 30, 1937, p. 18.

-٣٤-

- Waardenburg 1 : 10 - 11.

- الذي يسجل إنشاء الجامعات في منتصف الستينيات.

-٣٥-

- Hassan Al- Ebraheem and Samir N. Anabtawi, "Patterns of Faculty Recrvitment in a Development Setting: Some Preliminary Findings at Kawait University," in Antoine Zahlan ed., *The Arab Brain Drain*, p. 60.

-٣٦-

- Ali E. Hillal Dessouki, "The Shift in Egypt's Migration Policy," *Middle East Studies* 18 (1982) : 53 - 63.

-٣٧- ورد في Kerr, "Egypt", p. 182.

-٣٨- أنور عبدالمك المجمع المصري والجيش" ص - ١٩١.

-٣٩- المرجع السابق ، ص - ١٩٥.

-٤٠- المرجع السابق / الضصفحات ٣٤٥ - ٣٥٠ ، ٢٨٤ - ٢٩١.

-٤١- المرجع السابق ، و : 193 - 456 pp. *Rejwan, Nasserist Ideology*.

-٤٢- أنور عبدالمك الجامعة والمجمع الجديد" .

-٤٣- أحمد عبدالله الطلبة والسياسة .. ص - ص - ٢٢٢.

-٤٤- عين شمس في ظل الثورة (القاهرة ١٩٦٣).

-٤٥- نور الجامعة في بناء المجمع الاشتراكي ، الندوة الأولى بكلية الآداب، يونيو ١٩٦٤ (القاهرة ١٩٦٤) ص - ١٢.

-٤٦-

- Najjar, "state", pp. 69 - 86.

-٤٧- المرجع السابق ص - ٦١.

-٤٨- وزارة التعليم العالم (مصر). التعليم العالي ١٢ عاما ص - ٣٥.

-٤٩- صلاح العقاد - مقابلة - ١٩ ابريل ١٩٨٣. وعن منهج التربية القومية أنظر :

أحمد عبدالله : الطلبة والسياسة ... ص ص ١٤٠ - ١٤٣. و : أنور عبدالمك :

المجمع المصري والجيش" ، و :

Rejwan, *Nasserist Ideology* pp. 60 - 61

-٥٠-

- Kerr, "Egypt", p. 182.

٥١- بخصوص هذه الفقرة بوجه عام انظر : دراسات في المجتمع العربي (القاهرة ١٩٦١).

٥٢- "المجمل في التاريخ المصري" (القاهرة ١٩٤٢).

٥٣- الأهرام ١٩ مارس ١٩٧١ كما ورد في أحمد عبدالله : "الطلبة والسياسة" ص ١٤١.

٥٤- المرجع السابق ص ١٦٤ - حاشية (٥٨).

٥٥- الطلبة ٤ أكتوبر ١٩٦٨ ص ٣٥ - ٣٧.

٥٦- أنور عبدالملك "المجتمع المصري والجيش" ص ٣٠٥ - ٣٠٦.

٥٧-

- Rejwan, *Nasserist Ideology*, pp. 60, 82, 83, 100 - 104.

٥٨- أحمد عبدالله "الطلبة والسياسة" ص ١٦٥ ، حاشية (٦٩).

٥٩- صلاح العقاد - مقابلة - ١٧ أبريل ١٩٨٣.

٦٠- حول مصر منذ الخمسينات ، انظر : تاريخ مصر بين المنهج العلمي : الصراع

الحربي : أعمال ندوة الالتزام والموضوعية في كتابة تاريخ مصر المعاصر ١٩١٩

- ١٩٥٢ ، القاهرة ١٩٨٧ (القاهرة ١٩٨٨) . و : عاصم الدسوقي : "تحوفهم تاريخ

مصر الاقتصادي الاجتماعي" (القاهرة ١٩٨٠) . و : تاريخ مصر المعاصر في

دراسات المؤرخين المصريين : دراسة في الكم والكيف (القاهرة - مقدمة ١٩٧٦) .

و :

- Peter Gran, "Modern Trends in Egyptian Historiography : A Review Article, "IJMES9 (1978): 367 - 71.

٦١- التعبير مقتبس من :

- Daniel Crecelius, "Al- Azhar in the Revolution", The Middle East Journal 20 (1966): 44.

٦٢- وردت نتائج البحث في أكثر من موضع في : Shafshak, "University"

٦٣-

- Shafshak, "University", pp. 136 - 37, 240 - 42.

٦٤-

- Crecelivs, "Ulama", p.345.

٦٥-

- Midhat David Abraham, "Mahmoud Shaltut (1933 - 1963), A Muslim Reformist : His Life, Works and Religious Thought", unpublished PhD dissertation, Hartford Seminary Founation, October 1976.

٦٦- المرجع السابق ص ٥٥ . و : Cachia, Taha, pp. 61 61 - 62.

٦٧-

- Crecelius, "Azhar," pp. 37 - 40.

٦٨- الأزهر في ١٢ عاما ١٩٦٤ (القاهرة ١٩٦٤) و : تقويم جامعة الأزهر ١٩٦٤ /

١٣٨٣ هـ .

المساعدة العملية في مواجهة المشكلات اليومية. ووفرت "الجماعات" الكتب المقررة بأسعار مدعومة وكذلك "النزي الإسلامي"، وأعد القائمون عليها حلقات دراسية ومعسكرات صيفية. ووفروا الحماية للفتيات، من مضايقات الرجال لهن في الأتوبيسات المزدحمة، وقاعات المحاضرات؛ عن طريق تدبير سيارات خدمة منفصلة * "مينى باص"، ووضع مقاعد منفصلة داخل قاعة المحاضرات.

ولكن الجماعات الإسلامية أصبحت تمثل تهديدا حقيقيا للطلاب والأساتذة من أصحاب المعتقدات الأخرى، كما شكلت تهديدا للسلطات الجامعية. فقد انتقل أسلوبها تدريجيا من الإقناع إلى الترهيب، ومن الترهيب إلى استخدام العنف بالكلمات، والمدى، والسلاسل الحديدية، والهرافات وتلقى رئيس جامعة أسيوط تهديدا بختف ابنه، فلجأ إلى حمل مسدس معه أينما ذهب^(٢٩). وكان الإسلاميون يقاطعون سير المحاضرات بالدعوة للصلاة، واضطروا حتى من لا يشاركونهم في الرأي إلى الالتزام بالفصل بين الجنسين أثناء الجلوس في المحاضرات، كما فرضوا بالقوة إلغاء النشاط المسرحي والعروض السينمائية، والحفلات الموسيقية، والرحلات المختلطة. وعارضوا إطفاء الأنوار أثناء عرض الشرائح التوضيحية في المحاضرات التي يحضرها الطلاب والطالبات معا.

وتقدم جيهان السادات، أشهر طالبة في ذلك الوقت، رؤية من أعلى، فقد كتبت تحت عنوان: "تأخرت عن الدرس مرة أخرى":

"هرعت من خلال بوابات جامعة القاهرة نحو قسم الأدب الإنجليزي، إلا أن حائطاً من البشر اعترض طريقي. وهمس أحدهم "انهم الأصوليون، يصلون في الفناء الأوسط".. يصلون في الفناء الأوسط؟ أنها العاشرة صباحاً، ولن يحين موعد الصلاة التالية قبل الثانية عشر. علاوة على أن الفناء الأوسط هو الطريق إلى قاعات المحاضرات، وليس مسجداً.

لم أستطع المرور، كما لم يستطع أحد أن يمر. وعندما انضمت إلى جمهور الطلاب رأيت حوالي مائة من الشباب في أريضة بيضاء وهم يستقيمون ويسجدون في صلاة. أقل من مائة يحولون بين الآلاف وبين محاضرتهم...

* لم نسمع عن سيارات ميني باص تابعة للجماعات الإسلامية وربما يقصد المؤلف أن ضغوط أنصار هذه الجماعات داخل جهاز الحكومة كانت وراء تيسير هذه الخدمة التي لقيت شعبية كبيرة وقتها - (المترجمة)

القسم الرابع

الجامعة بعد عهد عبد الناصر

[١٢]

سياسة الانفتاح والتحدي الإسلامي

هبت رياح سياسة الانفتاح في عصر الرئيس السادات على جامعة القاهرة، كما هبت على الاقتصاد الوطني والحكومة والمجتمع. ورغم أن السنوات الثلاث الأخيرة من عهد عبد الناصر شهدت تلميحات عن الانفتاح، إلا أن تمهيد الطريق من أجل التحولات الكبرى في السياستين الخارجية والداخلية، استلزم من السادات التخلص من خصومه الناصريين في ١٩٧١، ثم دخول حرب أكتوبر عام ١٩٧٣.

وبعد ذلك استبدل السادات الولايات المتحدة كقوة عظمى مناصرة بالاتحاد السوفيتي، وحقق تقارباً مع المملكة السعودية المحافظة بهدف الحصول على مساعداتها المالية، كما عقد اتفاقية سلام مع إسرائيل بينما رفضت الدول العربية الأخرى أن تحذو حذوه. إلا أن المعاهدة مع إسرائيل حطمت التحالف السعودي - المصري الوليد، وأجبرت مصر على الاعتماد بالكامل على الولايات المتحدة من الناحية المالية، كما عزلتها عن العالم العربي دبلوماسياً.

وفي المجال الاقتصادي الذي ينطبق عليه مفهوم الانفتاح في المقام الأول، فتح السادات مصر أمام التجارة والاستثمار الأجبيين، وشجع المشروعات الخاصة، في حين أبقى على القطاع العام الكبير. وحاول إرضاء فقراء المدن من خلال دعم السلع الأساسية وإغراق السوق بالسلع الترفيحية المستوردة.

وسعى السادات في بادئ الأمر، ومن بعده مبارك، لإتاحة حرية أكبر للصحافة، واستقلال أكبر للقضاء والسماح بأحزاب المعارضة. وفي الجامعات؛ مثلت العودة لانتخاب مرشحين لمنصب العميد، وإلغاء الحرس الجامعي لبعض الوقت، وتخفيف القيود على الأنشطة الطلابية رموز سياسة الانفتاح.

وجاءت مظاهرات يناير ١٩٧٧، احتجاجاً على خفض دعم السلع الغذائية لنتهي بهجة الليبرالية. وعجزت عمليات القمع المتكررة التي أعقبت ذلك عن السيطرة على المتطرفين داخل الحركة الإسلامية، وكان السادات قد شجعها من أجل الوقوف في وجه اليسار.

وشملت إجراءات السادات الصارمة في سبتمبر ١٩٨١، إلقاء القبض على منتقديه في شتى أنحاء الساحة السياسية، ونقل عدة عشرات من أساتذة الجامعة خارج مناصبهم الجامعية، وكذلك التخلص من التنظيمات الطلابية. وأسرف بذلك على نفسه، ثم في ٦ أكتوبر أوداه المتطرفون الإسلاميون قتيلا برصاصهم.

ثم أفرج حسنى مبارك - البراجماتى المعتدل الذي تولى الحكم بعده - عن معتقلي سبتمبر، وفرض إجراءات صارمة رمزية على الفساد ضمن دائرة المقربين للسادات، ثم عاد إلى مناخ أكثر حرية دون التخلي عن سلطات الطوارئ المخولة له. وتجنب مبارك كلا من التحولات الحادة في السياسات الكبرى، والأخطاء الشكلية التي وقع فيها سلفه المحب للظهور. وتتفلس كل من الجامعة والمجتمع بحرية أكثر رغم أن المشكلات الأساسية بقيت كما هي.

الذهب الأسود في السعودية :

عندما فتح باب سياسة الانفتاح اندفع العديد من أساتذة جامعة القاهرة للخروج. وكان عبد الناصر، عقب حرب ١٩٦٧، قد تراجع عن سياسته المناهضة للهجرة، الأمر الذي سمح للمثقفين الساخطين، والباحثين عن الثروة، بالرحيل^(١). ولكن القفزة في أسعار البترول اثر حرب ١٩٧٣، هي التي تسببت في حجم الهجرة غير المسبوق لكل من العمالة الماهرة وغير الماهرة من بين المصريين، المفترض فيهم الالتصاق بالوطن. وتدافع الأساتذة للحصول على عمل بالخارج يمكنهم من الحصول في شهر واحد فقط على ما كان يستغرق الحصول عليه في الوطن العمل طيلة عام كامل. وكانت ليبيا ودول الخليج تتطلع لشراء البنية الأساسية الحديثة ومن ضمنها النظم التعليمية من الابتدائي إلى الجامعة.

واختلفت الهجرة إلى البلدان العربية عن عملية "استنزاف العقول" نحو الغرب، والتي استمرت طويلا عندما كان العلماء والخبراء والفنيون من المصريين يتمتعون بمهارات سهلت لهم الهجرة إلى الغرب، ونادرا ما كانوا يعودون. ويقدر "زحلان" أن ٥٠% تقريبا من جميع العلماء والمهندسين العرب الحاصلين على درجة الدكتوراه نزحوا إلى الخارج في تلك الفترة إلا أن الهجرة إلى الدول العربية كانت مؤقتة، وتضم أساتذة الدراسات والعلوم الاجتماعية والاقتصاد والقانون والتجارة. وترجع قلة الطلب العربي على

الأساتذة المصريين في المجالات العلمية والفنية - جزئيا إلى أن بعض الجامعات الجديدة أرجأت تدريس المناهج التي تحتاج لمعامل ومعدات مرتفعة التكاليف، كما يرجع جزئيا إلى أن هذه المواد تدرس عادة باللغة الإنجليزية، مما جعل من الممكن تعيين أساتذة أجانب بالإضافة إلى الأساتذة المصريين^(٢).

وتفاوتت آثار هجرة الأساتذة إلى البلدان العربية المجاورة، على كل من الخليج ومصر. فيتذكر أحد أساتذة جامعة القاهرة البارزين، في فخر، السنوات التي قضاها بجامعة الكويت الوليدة في أوائل السبعينيات حيث بدت المحاضرات الثماني التي كان يلقيها أسبوعيا عبئا خفيفا، فنصف هذه المحاضرات مكرر يلقيه على قسم منفصل خاص بالطالبات، وفي أثناء الفصل الثاني من العام الدراسي يكرر تدريس نفس المقررات مرة أخرى. وكانت المكتبة تتمتع بمخصصات مالية مقررّة، على عكس ما هو موجود في وطنه فأصبح لديه متسع من الوقت للبحث. وأفضل ما في الأمر أنه كان بمقتوره أن يضع جانبا المال اللازم لشراء وتأثيث شقة بالقاهرة تنفعه عند عودته.

أما أحمد أبو زيد، وهو أستاذ آخر من جامعة السكندرية، فكان "مستشار التحرير" والشخصية المحركة خلف "عالم الفكر" المجلة البارزة التي تصدرها وزارة الإعلام الكويتية، وتزخر بكتابات الأساتذة المصريين. ومع ذلك ظل هناك شيء مصطنع يكتنف حياة الأكاديميين المصريين في المهجر العربي. واعتاد المصريون، سواء اصطحبوا معهم عائلاتهم أم تركوها، على تمضية إجازة الصيف في الوطن، فلم يمدوا لأنفسهم جنورا في البلاد مقر عملهم. بل أن الأستاذ الذي لم نشر إلى اسمه في الفقرة السابقة، وجد أنه من الصعب إقامة علاقات تعارف مع الكويتيين، ومن ثم فلم يعقد سوى صداقات قليلة مع بعضهم (وليس ذلك غريبا لأن أنداده من أساتذة الجامعة لم يكونوا كويتيين). وكان المصريون يذهبون إلى هناك بموجب دعوة، يساعد على ذلك مشاعر الأخوة العربية والإسلامية. ولكن - فيما بينهم - كان المصريون يحطون غالبا من شأن مضيفيهم باعتبارهم "عربان"، بمعنى "بدو" بلا حضارة. وبدا انزعاجهم من وقاحة الشباب الكويتي الذي يعود إلى بلاده حاملا درجة الدكتوراه مفهوما، ولكنه كان يماثل أيضا موقف الأساتذة البريطانيين والفرنسيين في جامعة القاهرة إبان الثلاثينيات والأربعينيات. ومن ناحية أخرى، شعرت السلطات في البلد المضيف بالقلق إزاء وجود

قاهريين على مستوى رفيع من الثقافة يتولون التدريس لطلاب انتزعوا من الصحراء قبل جيل واحد أو أقل.

ولقيت أجور الأساتذة وغيرهم من العاملين بالخارج، وهي بالعملة الصعبة، ترحيبا كبيرا عند عودتها إلى مصر. وقفزت التحويلات من ١٠ ملايين دولار في عام ١٩٧٠ إلى ١,٤ مليار دولار في عام ١٩٧٧^(٣).

وشعر العديد من الأساتذة بالارتياح المادي للمرة الأولى في حياتهم. ولكن حياة المغترب، من شأنها أن تعطل الإنتاج البحثي وتضر بالتفاعل بين الأساتذة والطلاب في جامعة القاهرة. ويسلم أحد الأساتذة بأن مصر عليها التزام بمساعدة العرب الآخرين "ولكن المهمة الحضارية لمصر شيء، أما أن نرى الجامعات المصرية تتحول إلى معاهد تحرم من صفوتها الذين استولت عليهم البلدان البترولية دون أي اعتبار آخر عدا المال، فذلك شيء آخر تماما"^(٤). وانتقلت نسبة عدد الأساتذة إلى الطلاب من سيئ لأسوأ. في حين تفاقم سوء الحالة المعنوية للأساتذة الذين بقوا في الوطن.

وصف مصر أمريكيا :

واكب خروج الأساتذة من باب مطار القاهرة المفتوح، دخول الخبراء الأمريكيين. وعلى الرغم من حاجة مصر الماسة إلى تدفق الأمريكيين والمعونات الأمريكية في أوائل السبعينيات، إلا أن ذلك الأمر أثار أيضا تساؤلات موجعة حول الاستقلال الوطني.

فهل كانت مصر، وهي تصد الغزل الروسي إنما تستبدل فقط الحكم البريطاني بالتبعية الاقتصادية والعسكرية والثقافية للولايات المتحدة؟. وقد أثرت قضية التبعية الثقافية علنا في خريف ١٩٨٢، عندما صدر مقال في الأهرام الاقتصادي بعنوان : "وصف مصر بالأمريكانى : دعوة للكشف عن وقائع خطيرة" فلمس المقال عصبا ملتها في جامعة القاهرة وفي أنحاء المجتمع الثقافي^(٥).

وتركز الاتهام المثار في أن الخبراء الأمريكيين إنما ينفذون برنامج أبحاث متعدد المجالات، مشابه لما قام به الفرنسيون أثناء محاولتهم احتلال مصر فيما بين ١٧٩٨ - ١٨٠١، يساعدهم في ذلك باحثون مصريون سواء عن دراية أو عن عدم دراية بأهدافهم. ونكر موجهو الاتهام أن البحوث تتم للمصلحة الأمريكية وليست المصرية، وإنها في متناول وكالة المخابرات

الأمريكية. وشملت الضجة الصحفية التي أعقبت ذلك أصوات الباحثين من جامعة القاهرة إلى جانب باحثي جامعة عين شمس، والجامعة الأمريكية في القاهرة ومعهد التخطيط القومي، والمركز القومي للبحوث الجنائية والاجتماعية، وأكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا، وهيئة التعبئة العامة والإحصاء. وأصبح مركز البحوث الاجتماعية التابع للجامعة الأمريكية في القاهرة هدفا واضحا ؛ فقدم المدافعون عنه كل ما أمكنهم من حجج دفاعية. وعلى الرغم من قدرة المشاركين في مشروعات البحث ذات التمويل الأمريكي على إظهار أن المصريين هم الذين صمموا هذه الدراسات ونفذوها، وإن مصر استفادت منها، إلا أن الشعور بعدم الارتياح إزاءها ظل قائما. ولأن الأمر يتعلق إلى حد كبير بالبناء الأكاديمي والسياسي، لم يكن من الممكن أن يحقق المهاجمون انتصارا إلا أنهم استطاعوا رفع درجة الوعي بالمشكلة من خلال فرض مناقشتها علنا، حتى أن الرئيس مبارك نفسه تدخل بتعيين لجنة وزارية مهمتها التحقق من أن جميع مشروعات البحث تتم من أجل المصلحة القومية.

الاستقلال في مواجهة سيطرة الدولة :

باستثناء قرارات السادات الأخيرة، شعر الأساتذة والطلاب بقدر أكبر من الحرية في ظل السادات ومبارك، عما كانوا يعيشونه في عهد عبد الناصر. ومع ذلك، استمرت المشكلة القديمة المتعلقة بالتدخل السياسي في شئون الجامعة، وهو يتم في معظم الأحيان بعلم رؤساء الجامعات، وعمداء الكليات، والأساتذة ومن بين أكثر ما أثار الجدل، قضية المعاملة الخاصة التي تمتع بها كل من جيهان قرينة السادات، وابنها جمال في جامعة القاهرة. فقد أثارت جريدة الأهالي - لسان حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي - هذا الأمر بعد عام من وفاة السادات. واتهمت الصحيفة صوفي أبو طالب رئيس الجامعة، وعميد كلية الهندسة، بأنهما نقلوا رئيس قسم الهندسة الكيميائية خارج الجامعة احتجاجا على أنه أعطى جمال السادات درجة الرسوب في الامتحان. وكان جمال قد تغيب عن حضور المحاضرات والمعامل وامتحانات نصف العام - بسبب مرضه، كما أكد - ولكنه حصل على درجة "امتياز" بطريقة ما. فأرسل الدكتور محمد علي صالح خطاب احتجاج إلى الرئيس السادات مباشرة، وبعد أسبوع تم فصله من الجامعة. ومن ناحية أخرى، سرعان ما أصبح صوفي أبو طالب رئيسا لمجلس

الشعب، وفي يناير ١٩٨٣، كان أبو طالب مازال رئيسا للمجلس عندما أثارت المعارضة المشكلة في جلسة برلمانية مغلقة، كان من نتائجها التذكير بأن هناك حدودا لحملة مبارك على الفساد. فتغيب أبو طالب عن المناقشة البرلمانية التي استغرقت أربع ساعات، كان فيها أحد أعضاء "الحزب الوطني" الحاكم من الصفاقة بحيث يدعى أن ما أثير في هذه القضية سوف يؤدي إلى بلبله الشباب ويعرض استقلال الجامعة للخطر^(٦). وجاءت نتيجة التصويت على الثقة لصالح أبو طالب، الذي عاد ليستقبله المجلس بالتصفيق المتواصل. وفقد مدير تحرير "مايو" جريدة الحزب الوطني، الذي كان يتابع القضية، منصبه. ولكن مجلس الدولة، أعاد صالح إلى وظيفته السابقة، في استعراض لاستقلال القضاء.

وورد اسم جمال السادات أيضا في علاقته بثغرة قانونية، تتيح للطلاب الضعاف في مادتي اللغة العربية والرياضيات فرصة تجنب امتحان "الثانوية العامة" المرعب، والالتحاق بالكليات التي يفضلونها : حيث يمنح المجلس البريطاني شهادة ال- "GCE" البريطانية لأولئك الذين يجتازون امتحان المستوى "O" ولم تكن هذه الشهادة بالطبع تؤهل الشخص للالتحاق بالجامعات البريطانية، ولكن الجامعات المصرية أذعنت للضغوط السياسية وقبلتها. وأشار الدكتور عبد العظيم أنيس - أستاذ الرياضيات بجامعة عين شمس - في "الأهالي" إلى أن جمال كان مستواه الدراسي سيئا في إحدى المدارس الثانوية الخاصة عام ١٩٧٤، عندما بدأت الصحف فجأة ومعها إحدى اللجان الوزارية في استتكار الصعوبة غير المبررة لامتحان الثانوية العامة. وتلقى أنيس دعوة ملحة للذهاب إلى قصر الرئاسة "للإجابة عن بعض الأسئلة" التي يحتاجها جمال في الرياضيات. وتلقى تفسيراً لذلك، بأن الرئيس السادات كان مشغولا للغاية بحرب أكتوبر عن متابعة ولده دراسيا؛ فرفض أنيس، ومن ثم دخل جمال كلية الهندسة رغم القوانين الصارمة، عبر الباب الخلفي لشهادة ال- "GCE" البريطانية السهلة نسبيا^(٧).

واتخذت السيدة الأولى، جيهان السادات، أيضا "GCE" طريقا إلى جامعة القاهرة في عام ١٩٧٤^(٨)، وهناك كان أداؤها مثيرا للدهشة! فقد حصلت على الليسانس من قسم اللغة العربية عام ١٩٧٨، وواصلت إلى أن حصلت على الماجستير في عام ١٩٨٠، والدكتوراه عام ١٩٨٦ من نفس القسم. وكان موضوع تخصصها عن أثر الرومانسية الإنجليزية في القرن

التاسع عشر على الأدب المصري في القرن العشرين، وكانت سهير القلماوى هي المشرف على الرسالة.

وقدمت جيهان السادات "روايتها" حول دراستها وامتحاناتها :
"التحقت بجامعة القاهرة في سن الواحدة والأربعين، لأؤكد على أهمية تعليم المرأة..."

كنت أتمنى كثيرا لو استطعت الاندماج مع الطلاب الآخرين في الجامعة ولكن ذلك كان مستحيلا بالطبع. وقد توقع لي أساتذتي وزملائي الطلاب التفوق في جميع امتحاناتي وأبحاثي.

وكان ثلاثة من أبنائي - لبنى وجمال ونهى - يدرسون معي بالجامعة في نفس الوقت، وكانت لهم أيضا توقعات كبيرة بالإضافة إلى المنافسة. فكان أولادي يسألون باستمرار "ما الدرجة التي نلتها في الامتحان؟"، ويعملون على أن يفوقوني. فكنت أستيظ في الساعة الثالثة صباحا للاستعداد قبل أي امتحان. وقد شعرت أن علي أن أضرب المثل للجميع ومن بينهم أولادي.

وتخرجت عام ١٩٧٨، ثم واصلت الدراسة للحصول على درجة الماجستير. وعندما جلست لمناقشة رسالة الماجستير في عام ١٩٨٠، وافقت مع ما بي من الرعب الهائل، أن يتم نقل الساعات الثلاث كاملة على الهواء في التلفزيون المصري...

كنت قلقة للغاية بشأن خوض الامتحان أمام التلفزيون. لكنني كنت راغبة في أن أقوم بما هو ضروري لتشجيع النساء الأخريات على تعليم أنفسهن. بالإضافة إلى أنني أردت أن يعرف الناس أنني أستحق درجتي بالفعل، ولم تعط لي على طبق من الفضة لمجرد أنني زوجة رئيس الجمهورية^(٩).

ولكنه لم يكن موقف فوز؛ فقد حضر مناقشة رسالتها المنقولة لتلفزيونيا أسرتها، ورئيس الجامعة، وعميد كلية الآداب، وعدد من الوزراء ولم يكن هناك سبيل لمعرفة إلى أي حد كان تحصيلها، فمن ذا الذي يجرو من بين الأساتذة على منحها درجة منخفضة؟

أصبح صوفي أبو طالب، رئيس الجامعة، رئيسا لمجلس الشعب في نوفمبر ١٩٧٨، بعد فترة وجيزة من حصول جيهان السادات على الليسانس كما لاحظنا^(١٠). ثم أصبح صبحى عبد الحكيم عميد كلية الآداب بعد ذلك رئيسا لمجلس الشورى الذي تشكل مؤخرا. وقد عرف عن صوفي أبو طالب

وصبحى عبد الحكيم أنهما من "الرجال الطيعين" الذين حصلوا على مكانتهم المرموقة بالانتهازية السياسية. ويهاجم عبد العظيم أنيس المحسوبية التي أفرزت رئيس جامعة في الستينات (لم يذكر اسمه) أثرى عن طريق الدروس الخصوصية، وآخر (من الواضح أنه صوفي أبو طالب) كان "مفتى السادات في الفتاوى القانونية التي يريدها، ثم أحد رؤساء جامعة المنصورة الذي اضطر للاستقالة بسبب سرقة لأعمال زملائه" (١١).

وبعد أن أصبح السلك الأكاديمي، على نحو مؤكد، طريقا إلى الظهور السياسي، بات من الصعب مقاومة الرغبة في التسلق. ففي عهد السادات، كان السلك الأكاديمي يسهم عادة بحوالي الخمس أو الربع من أعضاء الوزارات، بل والثلث إذا وضعنا في الاعتبار المحامين والأطباء والمهندسين الذين تولوا التدريس بالجامعة لبعض الوقت على الأقل (١٢). وكان من المفيد بالطبع أن ينصب الطلب بوجه خاص على أساتذة الكليات الملائمة من خبراء الاقتصاد والزراعة والهندسة والعلوم. وفي عام ١٩٨٣ ذكر كتاب اليوبيل الماسي لجامعة القاهرة أسماء ١٣ من خريجي كلية العلوم الذين تولوا مناصب وزارية، جميعهم - باستثناء واحد فقط - في الثلاثين عاما التالية على الثورة. كما زهت كليات الزراعة والتجارة والاقتصاد والعلوم السياسية بأنها قدمت ٢٢ و ١٩ و ١٠ من الوزراء على التوالي، وجميعهم بعد الثورة. أما كلية الحقوق، فقد انخفض بالطبع عدد من تولوا الوزارة من خريجها في عهد الثورة، فالعشرات من خريجها الذين تولوا مناصب وزارية ختم معظمهم قبل الثورة، حيث تقلد عشرة من بين أحد عشر وزيرا من أبنائها رئاسة وزارات. وجنبت كلية الآداب نفسها الحرج في عام ١٩٨٣ بعدم تسجيل خريجها من الوزراء (فطه حسين كان الوحيد تقريبا). أما كليات الطب البيطري، وطب الأسنان، ودار العلوم، والآثار، وكلية الإعلام الجديدة فلم يكن لديها من تسجله في قائمة الوزراء على الإطلاق (١٣).

وألقي مصطفى أمين، الصحفي المعروف، باللوم على حسن حمدي رئيس جامعة القاهرة بسبب إذعانه لقرار السادات بنقل ٦٤ أستاذا من جامعة القاهرة نقلا تأديبيا ضمن إجراءات سبتمبر، وقد أعلن حمدي أن استقالته لم تكن لتعيد الأساتذة. وأكد على أن بعض أساتذة الجامعة احتجوا على القرار،

* التعبير الأصلي في النص "Yes men" ومعناه القاموسي "الإمعات" إلا أننا فضلنا استخدام تعبير أخف في الترجمة لاعتقادنا أنه أقرب إلى قصد المؤلف - (المترجم)

وأن السادات وعده شخصيا بإعادة الأساتذة المنقولين في شهر نوفمبر. فتساءل مصطفى إذا كان ذلك هو الحال، فلماذا انتظر حمدي مرور عام على وفاة السادات قبل أن يعلن الحقيقة. وأين ذهبت استقامة الماضي، عندما أجبرت استقالة لطفي السيد، مع إضرابات الطلاب، الحكومة على احترام شرف الجامعة^(١٤).

الكم والنوع :

استمرت القصة الكئيبة الخاصة بتكس الطلاب، وتدهور المستوى التعليمي في جامعة القاهرة حتى عهد السادات ومبارك، بينما تفتتح في كل من طنطا والمنصورة والزقازيق وحلوان والمنوفية وقناة السويس وأسوان، كليات جديدة تعاني من ضعف التمويل وقلة الأساتذة. وكان التعليم المجاني قد أصبح "عقدا اجتماعيا" يعرض من يقترب منه من السياسيين للتهلكة. وتحملت المدارس الابتدائية المتداعية ثلاث فترات دراسية يوميا. ويعلق أحد أعضاء مجلس الشعب في حديث شخصي عام ١٩٨١ على ذلك قائلا : "هناك ثلاثة أمور لا يمكننا أن نتحدث عنها ونظل بعد ذلك في مواقعنا : تنظيم الأسرة، وتعديل الأحكام الشرعية، وتغيير التعليم"^(١٥). حتى أن ذكر الإصلاح التعليمي أثار المخاوف من أن يتم تقييد فرص الالتحاق بأنماط التعليم، التي كانت قد أتاحت - حتى ذلك الحين - إمكانية الحراك الاجتماعي الصاعد.

وفي ١٩٨٣، ذكرت دراسة أجريت بإشراف "اليونسكو" أن جامعة القاهرة بها ١٥٠ ألف طالب في حين أن مبانيتها تكفي ٣٥ ألفا فقط. وحتى كلية الطب - وهي كلية الصفوة - يدرس بها ألف و ٧٠٠ طالب في مساحة ثلاثم ٢٠٠ طالب فقط. وكانت مصر تتفق ١٢ جنيها مصريا على كل طالب بالهندسة مقارنة بما قيمته ألف جنيه مصري في الولايات المتحدة. وكانت السنة الدراسية، ومدتها ٢٦ أسبوعا تصل إلى ٢٠ أسبوعا فقط بعد استقطاع الإجازات وامتحانات نصف العام، في حين يبلغ المعدل العالمي للعام الدراسي ٣٦ أسبوعا. كما أشارت الدراسة إلى أن المقررات الدراسية تخلفت عن العصر بحوالي عشرين عاما، وأن الجامعات المصرية بها أستاذ لكل ٦٦٦ طالبا مقارنة بسبعة طلاب في إنجلترا، وستة في الاتحاد السوفيتي^(١٦).

وكانت الكتب المقررة تصل متأخرة كل عام، وبكميات أقل من المطلوب وسعر بالغ الارتفاع. وتنتشر الصحف سنويا رسوما كاريكاتورية، ومقالات نقدية مثل مقال "آفة الكتاب:"

"إن أرخص طبعة من الروايات الإنجليزية التي كانت تباع بما لا يزيد عن ثلاثة جنيهات في العام الماضي، أصبحت تباع الآن مقابل ما يتراوح بين عشرة جنيهات وأثنى عشر جنيها وفقا لعدد صفحاتها. وهو ما يعني أن طالب قسم اللغة الإنجليزية في أي من كليات الآداب أو التربية، الذي يفترض أنه سيقرا بين أربع إلى خمس روايات سنويا يجب أن يدفع ما لا يقل عن خمسين جنيها حتى يستذكر الروايات المقررة..."

وعندما يصل الأمر إلى كتب النقد الأدبي أو كتب اللغويات، وهي أيضا مقررات يتعين أن يدرسها الطالب، يصبح الموقف أكثر سوءا فالكتاب المؤلف في مثل هذه المقررات "الخاصة" يكلف ما بين عشرين إلى ستين جنيها وفقا لحجمه وندرته...

ويقدم أصحاب المكتبات حجبا قوية لرفع أسعار الكتب المستوردة... والنتيجة، أن الكتاب الذي يباع في إنجلترا مقابل ثلاثة جنيهات إسترلينية يباع هنا مقابل خمسة عشر جنيها مصريا.

إن معظم الطلاب الذين يواجهون هذا المأزق، لا يقرأون النص الأصلي للروايات أو المسرحيات، وإنما يتحولون لدراسة الملخصات التي كتبها الباحثون البريطانيون أو الهنود^(١٧).

واستمرت الامتيازات قائمة، كما هي دائما، فالموسسون يلتحقون بمدارس اللغات الخاصة، التي تدرس فيها بعض المواد الدراسية بالإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية. وفي أوائل عام ١٩٧٣ برزت فجأة مقترحات بأن يمتد هذا النظام حتى التعليم الجامعي، وذلك بإنشاء جامعة خاصة بمصروفات وانفقت هذه المقترحات مع ظهور النفوذ الأمريكي وسياسة الانفتاح. وتزعم الدعوة لهذه الجامعة الخاصة مصطفى كامل مراد رئيس "حزب الأحرار" اليميني، مشيرا إلى أن الأموال التي تتفقها الأسر على إرسال أبنائها للتعليم في الجامعات العربية والغربية من الممكن أن تتفق داخل البلاد^(١٨)، وأن أمريكا مشهورة بجامعاتها الخاصة، وفي مصر نفسها أثبتت الجامعة الأمريكية بالقاهرة استعداد أولياء الأمور لتحمل نفقات تعليم خاص رفيع المستوى، فلماذا إذا لا تكون هناك جامعة مصرية مماثلة^(١٩)؟

وحارب الفكرة كل من اليساريين والناصريين، بالإضافة إلى الديمقراطيين أمثال لويس عوض، الذين رأوا في الجامعة الخاصة تراجعاً عن مبدأ التعليم المجاني للجميع. واحتج عوض بأن مصر جربت بالفعل الجامعة الخاصة من قبل وثبت عجزها عن تمويلها على نحو سليم، بعكس الحال في الغرب الرأسمالي؛ فالولايات المتحدة بتركيزها الهائل للثروة الخاصة، ورغبة بعض مليونيراتها في تمويل الجامعات ذات المستوى الرفيع من الصعب أن تكون نموذجاً مناسباً تحتذيها مصر. وبدلاً من ذلك، ينبغي توجيه الموارد لتحسين الجامعات القائمة^(٢٠).

وربما يكون المصريون قد استشفوا مستقبلاً غير مرض يشبه ما حدث في المكسيك، عندما أدت الأفكار الثورية إلى إقامة الجامعات المجانية التابعة للدولة، التي تدهور مستواها إلى أن أصبحت درجاتها العلمية بلا قيمة تقريباً. فأرسلت أسر الطبقة العليا المكسيكية أبناءها إلى الجامعات الخاصة داخل المكسيك أو خارجها، كما تجنب أصحاب العمل تعيين خريجي الجامعات العامة بقدر المستطاع.

وحاول وزراء التعليم المتتابعين إيجاد مخرج من المأزق؛ ففي عام ١٩٨٨، اقترح محمد فتحي سرور إنشاء "جامعة مفتوحة" على الطراز البريطاني، وأكد على أن الدولة لن تلتزم بتعيين خريجها. كما أعلن سرور، متحدياً، أنه ليس من المعقول أن يرفض الآباء، الذين كانوا يدفعون ألفاً أو ألفين من الجنيهات المصرية رسوماً دراسية لأبنائهم في المدارس الثانوية، الإسهام في نفقات تعليم هؤلاء الأبناء بالجامعة. واقترح أن يدفع الطلاب للجامعة الحكومية نفس المبلغ الذي تكلفته دراستهم في السنة الأخيرة من تعليمهم الثانوي^(٢١).

واستمرت نطاقات النخبة بجامعة القاهرة في التخصصات المرموقة. فاحتفظت كليات الاقتصاد والعلوم السياسية، والصيدلة، والطب، والهندسة بسمعتها ككليات الصفوة، على الرغم من أن مستواها التعليمي ينوء بالأعداد المتكدسة فيها. وصار الالتحاق بالكليات المرموقة يتحقق عادة عبر مدارس اللغات، والدروس الخصوصية، أو النفوذ الشخصي، أو مجموعة عوامل من هذا القبيل. وأصبح فرع الخرطوم التابع لجامعة القاهرة، وكذلك جامعة بيروت العربية من ضمن الأبواب الخلفية الأخرى، حيث يسهل الالتحاق بأي منهما، كما أن التحويل منهما إلى جامعة مصرية بعد ذلك ممكناً. ومع تدهور مستوى المدارس الحكومية، أصبحت الدروس الخصوصية إحدى سمات

الحياة بالنسبة لمن يستطيعون احتمال أعبائها، بل والعديد ممن لا يستطيعون. فقد بات على معلمي المدارس وأساتذة الجامعات العمل لتحسين مستوى أجورهم الهزيلة بطريقة ما، وشعر الآباء بأنه لا يكاد يوجد خيار آخر، وكانت أسعار الدروس الخصوصية تصل إلى ما بين ٥٠٠ وألف جنيه مصري لمادتين أو ثلاث في مستوى التعليم الثانوي، وقد تصل إلى ما يزيد عن ذلك في التعليم الجامعي. واتهم الآباء المدرسين بأنهم ينطوون على نفوس جشعة، بل ولا يقومون بواجبهم كما ينبغي في الفصل حتى يضطر التلاميذ إلى اللجوء للدروس الخصوصية بعد مواعيد الدراسة^(٢٢). بل أن الدروس الخصوصية أثرت حتى على وقت وجهد معلم الفصل صاحب الضمير الحي. ويظهر بحث أجرى على خمس كليات بجامعة المنصورة أن ٧٩% من إجمالي الطلاب يتلقون دروسا خصوصية^(٢٣). فأصبح التعليم العام مثارا للسخرية، بسبب نظام التعليم الموازي (عبر الدروس الخصوصية)، في حين احتفظ الأول بالشكل الخارجي.

وبحلول عام ١٩٨٨، كانت الحكومة قد عجزت عدة سنوات عن توفير فرص عمل لعشرات الآلاف من خريجي الجامعة الذين لا تحتاج إليهم. وأراد خبراء الاقتصاد إلغاء الالتزام الحكومي بضمان وظائف للخريجين، إلا أن الحكومة لم تجرؤ على ذلك. وبدلا منه، تحدثت عن توزيع الأراضي الصحراوية المستصلحة على خريجي الجامعات^(٢٤)، وهو محاولة واضحة لإعطاء دواء مسكن في وقت كانت فيه المدن الصحراوية الجديدة نصف خاوية ونقص مياه النيل ينذر بشر مستطير.

التحدي الإسلامي :

تظهر الصفحات الأولى للكتاب الصادر عام ١٩٨٣ بمناسبة العيد الخامس والسبعين لإنشاء جامعة القاهرة، النجاح الجزئي الذي حققه التحدي الإسلامي أمام المؤسسة التي ظلت حتى ذلك الحين علمانية الهوية. فقد اشتمل عنوان الكتاب على التاريخ الهجري - وهو أمر ربما لم يحدث حتى في عهد الملك فؤاد أو لطفي السيد - وفي موضع يسبق التاريخ الإفرنجي. وزينت الصفحة الأولى "بالبسمة" مكتوبة بخط اليد الجميل. بيد أن الإسلاميين لم يستحوذوا على العيد فعليا؛ فالصفحة التالية لها توضح ختم الجامعة القديم الذي يحمل صورة "تحوت" إله الحكمة والمعرفة الفرعوني، وتفسر دلالاته

كرمز للتعليم، ويلي ذلك "بورتريه" ملون للرئيس مبارك على مساحة صفحة كاملة.. فربما يذهب كل من الخليفة، والسلطان، والملك، ولكن سمات الحكم الملكي المصري تظل باقية. أما التحية التي كتبها حسن حمدي* بعد ذلك، فلمست جميع المنطلقات الأيديولوجية، إذ أشادت بما قدمته الجامعة "لمصر" و"الوطن العربي" و"العالم الإسلامي" (٢٥).

وكان ناصر قد منح العلمانية فرصة جديدة للحياة، عندما كانت صورتها ذات الطابع المصري في ظل النظام القديم في طريقها للزوال. فسحق الإخوان المسلمين واعتنق أفكارا علمانية تلائم العصر، مثل القومية العربية، والاشتراكية. ولكن أيديولوجيته انهارت بفعل الإحباطات الاقتصادية، بالإضافة إلى حرب يونيو؛ فأفسحت الطريق لرد فعل إسلامي بالغ النشاط بسبب القمع الذي تعرض له طويلا. فإذا بالإيمان الذي ثبت في زلزلة سيد قطب بسجن طره، وبين الباقين من الإخوان الذين تناقلوا كتابه "معالم على الطريق" من يد ليد، يبرز إلى ضوء الشمس في نهاية الأمر.

أما المعارضة الطلابية اليسارية، في جامعة القاهرة وغيرها من الجامعات، فقد تضاعلت على نحو سريع بعد تحديها لعبد الناصر عام ١٩٦٨، والسادات حتى قيام حرب أكتوبر. وفي منتصف السبعينيات انتقلت المبادرة إلى الجماعات الإسلامية، واستمرت معهم منذ ذلك الحين (٢٦).

ووجدت الحركة الإسلامية أرضية خصبة بشكل خاص في الجامعات الإقليمية الجديدة، التي نشرت النشاط الطلابي خارج مراكزه التقليدية في جامعتي القاهرة والإسكندرية. وأصبحت جامعتا أسيوط والمنيا بوجه خاص مركزين دائمين للنشاط الإسلامي. وبشكل عام، انتشر بين أهل الصعيد الأكثر فقرا وأدنى تعليما من أبناء الوجه البحري في مصر، كما أنهم مشهورون بالعناد، والعنف في العداوات، وهم دائما مثار للنكات التي تصورهم في صورة الريفيين السذج. وربما ساعد في إثارة رد الفعل الإسلامي هناك؛ ارتفاع نسبة الأقباط في أسيوط والمنيا، وشهرة أسيوط كمركز سابق للإرساليات التبشيرية الأمريكية. وتولى محمد عثمان إسماعيل - أحد مساعدي السادات المقربين، ومحافظ أسيوط قرابة عشر سنوات - تشجيع الجماعات الإسلامية بصورة فعالة.

* الدكتور حسن حمدي رئيس جامعة القاهرة وقتها - (المترجمة)

وعلى مستوى الرمز، اختارت جامعة أسيوط في الخمسينيات وجامعة المنيا في السبعينيات شعارين لا يتفقان مع الإسلاميين: قرص شمس إخناتون للأولى، والتمثال النصفي الشهير لزوجته نفرتيتي للثانية (أنظر الرسم التوضيحي رقم ٦)، حيث تقع آثار تل العمارنة، عاصمة إخناتون ما بين أسيوط والمنيا. كما كره الإسلاميين في المنيا أيضا احتفال المحافظة بابنها الشهير طه حسين.

ولم تكن الحركة الإسلامية من خلق السادات، ولكنه استمر سنوات يشجعها لمناهضة اليسار. وفي عام ١٩٧٦، سمح لعمر التلمساني والباقيين من الإخوان المسلمين المستأنسين باستئناف إصدار مجلة "الدعوة"، كما ألقى باللوم على اليسار بسبب مظاهرات يناير ١٩٧٧، ولم يعارض استيلاء الإسلاميين على الاتحادات الطلابية بالجامعة. وشجع السادات، صوفي أبو طالب ومجلس الشعب على صياغة مجموعة نصوص في القانون المدني وقانون العقوبات، والقانون التجاري، وقانون الإجراءات، مستمدة من الشريعة الإسلامية. (ومع ذلك، فإن هذه النصوص لم تتحول إلى قانون أبدا، لأن مبارك أهملها دون ضجة) (٢٧).

ولم تكن الحركة الإسلامية ككل كيانا واحدا؛ فهي تضم المحافظين والراديكاليين، والمسلمين والنشطين حركيا، ورجال الحكومة والمتطرفين الذين يدبرون عمليات الاغتيال والتمرد. وباستثناء أسيوط، كانت الجماعات الإسلامية داخل الحرم الجامعي أقل تطرفا من الجماعات خارج الجامعة مثل "جماعة المسلمين" بزعامة شكري مصطفى (وأسمتها الحكومة والصحافة بجماعة التكفير والهجرة) التي قامت باختطاف وزير الأوقاف السابق في عام ١٩٧٧، وجماعة الجهاد التي قتلت السادات. وقد تلقى شكري مصطفى تعليمه بكلية الزراعة في أسيوط، كما أن ٦٤% من فرع الصعيد في تنظيم الجهاد كانوا من الطلاب. واتخذ خالد الإسلامبولي قراره باغتيال السادات إثر القبض على شقيقه، أحد قيادات "الجماعات" في جامعة أسيوط. كما أن معظم أعضاء فرع القاهرة التابع لتنظيم الجهاد، لم يكونوا من الجامعة، وإنما من الأحياء البائسة الجديدة المكتظة بالمهاجرين حديثا إلى المدينة (٢٨).

وفي العقد السابق على قرارات السادات في سبتمبر ١٩٨١، زاد نفوذ الإسلاميين في جامعة القاهرة باضطراد. فقد وفرت "الجماعات" للطلاب القادمين من الأقاليم، والذين يعيشون في الأحياء القذرة، مع انسداد أبواب العمل في وجوههم؛ إيمانا ساميا، وإحساسا بالحياة المشتركة، بالإضافة إلى

المساعدة العملية في مواجهة المشكلات اليومية. ووفرت "الجماعات" الكتب المقررة بأسعار مدعومة وكذلك "النزي الإسلامي"، وأعد القائمون عليها حلقات دراسية ومعسكرات صيفية. ووفروا الحماية للفتيات، من مضايقات الرجال لهن في الأتوبيسات المزدحمة، وقاعات المحاضرات؛ عن طريق تدبير سيارات خدمة منفصلة * "مينى باص"، ووضع مقاعد منفصلة داخل قاعة المحاضرات.

ولكن الجماعات الإسلامية أصبحت تمثل تهديدا حقيقيا للطلاب والأساتذة من أصحاب المعتقدات الأخرى، كما شكلت تهديدا للسلطات الجامعية. فقد انتقل أسلوبها تدريجيا من الإقناع إلى الترهيب، ومن الترهيب إلى استخدام العنف بالكلمات، والمدى، والسلاسل الحديدية، والهرافات وتلقى رئيس جامعة أسيوط تهديدا بختف ابنه، فلجأ إلى حمل مسدس معه أينما ذهب^(٢٩). وكان الإسلاميون يقاطعون سير المحاضرات بالدعوة للصلاة، واضطروا حتى من لا يشاركونهم في الرأي إلى الالتزام بالفصل بين الجنسين أثناء الجلوس في المحاضرات، كما فرضوا بالقوة إلغاء النشاط المسرحي والعروض السينمائية، والحفلات الموسيقية، والرحلات المختلطة. وعارضوا إطفاء الأنوار أثناء عرض الشرائح التوضيحية في المحاضرات التي يحضرها الطلاب والطالبات معا.

وتقدم جيهان السادات، أشهر طالبة في ذلك الوقت، رؤية من أعلى، فقد كتبت تحت عنوان: "تأخرت عن الدرس مرة أخرى":

"هرعت من خلال بوابات جامعة القاهرة نحو قسم الأدب الإنجليزي، إلا أن حائطاً من البشر اعترض طريقي. وهمس أحدهم "انهم الأصوليون، يصلون في الفناء الأوسط".. يصلون في الفناء الأوسط؟ أنها العاشرة صباحاً، ولن يحين موعد الصلاة التالية قبل الثانية عشر. علاوة على أن الفناء الأوسط هو الطريق إلى قاعات المحاضرات، وليس مسجداً.

لم أستطع المرور، كما لم يستطع أحد أن يمر. وعندما انضمت إلى جمهور الطلاب رأيت حوالي مائة من الشباب في أريضة بيضاء وهم يستقيمون ويسجدون في صلاة. أقل من مائة يحولون بين الآلاف وبين محاضرتهم...

* لم نسمع عن سيارات ميني باص تابعة للجماعات الإسلامية وربما يقصد المؤلف أن ضغوط أنصار هذه الجماعات داخل جهاز الحكومة كانت وراء تيسير هذه الخدمة التي لقيت شعبية كبيرة وقتها - (المترجمة)

ومرت ساعتان تقريبا قبل أن أتمكن من الوصول إلى مقعدي في قاعة الماجستير. ولكن عمليات المقاطعة استمرت أيضا هناك، حيث دوى صوت دقات بقبضة اليد على باب قاعة المحاضرات المجاورة للقاعة التي أجلس بها. فتوقف الأستاذ عن حديثه، ثم واصله. واستمرت الدقات تطلو على الباب.. دوم.. دوم.. دوم إلى أن عجز الأستاذ عن مواصلة المحاضرة.

وصرخ المتطرفون الدينيون عبر الباب "أوقفوا الدراسة الآن، حان وقت الصلاة"، وكانت الأصوات رجالية ونسائية معا. ورغم أن الأستاذ لم يفتح الباب، إلا أنني رأيتهم بعقلي رجالا ملتحين يرتدون الجلباب، أما النساء فمحجبات ويرتدين ملابس طويلة، والجميع عيونهم تقدح شررا^(٣٠).

وحدثت القطيعة المحتومة بين الجماعات الإسلامية والسادات في عام ١٩٧٩ مع توقيع اتفاقية السلام مع إسرائيل. وهو أيضا عام "قوانين جيهان" التي خصصت ثلاثين مقعدا للمرأة في مجلس الشعب، كما دعمت من حقوق المرأة في حالة طلاقها^(٣١). ثم أدى قبول قدوم الشاه - الذي كان يحتضر - إلى مصر، بعد ذلك بعام إلى زيادة غضب الإسلاميين الذين أعجبوا بالثورة الإيرانية. وبعد ثلاثة أشهر من توقيع اتفاقية كامب ديفيد، حل السادات الاتحاد العام لطلاب مصر، كما حظر الأنشطة الطلابية فوق مستوى الكلية الواحدة. وتقرر تعيين ستة أساتذة ضمن مجلس اتحاد الكلية الذي يضم ١١ عضوا، وأصبح لعمداء الكليات سلطة رفض قرارات مجلس الاتحاد^(٣٢).

ووجد السادات في حسن حمدي رئيسا للجامعة، ينفذ أوامره ويكون حازما مع الإسلاميين. وكان حمدي سلك طريقه للصعود أستاذًا بكلية الطب جامعة القاهرة، ثم أصبح عميدا لها فنائبا لرئيس الجامعة، ثم استطاع أن يعبر الأزمة عام ١٩٧٩ - ١٩٨٠ عندما كان رئيسا لجامعة أسقوط وقت الاضطرابات، فأعاده السادات رئيسا لجامعة القاهرة. وفي حديث صحفي له قبل اغتيال السادات بيوم واحد، استنكر حسن حمدي إلغاء عروض الأفلام والمناسبات الاجتماعية، وغيرها من أسباب الفوضى داخل الحرم. واتفق مع غيره من رؤساء الجامعات على ضرورة عودة الحرس الجامعي، فلم يكن "بوابو الجامعة الذين يرتدون الجلابيب" كافين في اعتقادهم^(٣٣).

ثم أعدم مبارك الذين اغتالوا السادات، وأبقى على القيود المفروضة عام ١٩٧٩ على الأنشطة الطلابية، كما أبقى حالة الطوارئ التي فرضت منذ سبتمبر ١٩٨١. ولكنه أطلق سراح معارضي السادات من غير الإسلاميين

تدريجياً، وكذلك الإسلاميين الذين لم يشكلوا تهديداً مباشراً لسلطته. كما سمح لجماعة الإخوان المسلمين المحظورة رسمياً بدخول الانتخابات التشريعية، تحت راية الوفد في أول الأمر، ثم حزب العمل الاشتراكي بعد ذلك، وسعى لتخفيف الضغوط الخطيرة، عن طريق إتاحة فرصة أكبر من الحرية للمناقشات في الصحافة والبرلمان.

ورغم انحسار موجة الغليان التي سادت السنوات الأخيرة من عهد السادات، ظلت الملتصقات، ومعارض الكتب وزعي المحجبات، والمظاهرات المتكررة، دليلاً على استمرار النفوذ الإسلامي في جامعة القاهرة. وعندما هزم حسن حمدي في انتخابات نادي أعضاء هيئة تدريس جامعة القاهرة أمام قائمة مستقلة يؤيدها الإسلاميون، رأت الحكومة أنه لم يعد منه فائدة ترجى، ومن ثم، عينت رئيساً آخر للجامعة بدلاً منه.

ولعب الإسلاميون دوراً رئيسياً في المظاهرات الضخمة التي جرت عام ١٩٨٤ في جامعات المنصورة والقاهرة والإسكندرية، ومن بين مطالبها سحب الحرس الجامعي، وإلغاء لائحة الاتحادات الطلابية لعام ١٩٧٩ التي تقيد النشاط الطلابي.

وفي قسم الفلسفة، شجع أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، وكان نائباً لرئيس الجامعة، على إحياء الحركة الصوفية المعتدلة. ثم رأس اتحاد عموم مشايخ الطرق الصوفية، نظراً لانتمائه إلى عائلة توارثت الزعامة الصوفية. أما الدكتور حسن حنفي، الحاصل على دكتوراه الفلسفة من السوربون، فهو يتبنى حركة "اليسار الإسلامي"، ويقتدى بأفكار جمال الدين الأفغاني ويرى أن كتابات سيد قطب الدينية السابقة على "معالم في الطريق" قد تكون مرشداً ممكناً. وحتى زكي نجيب محمود، أستاذ الفلسفة المتقاعد، والذي كان رائداً للوضع المنطقية فترة طويلة، كما كان هدفاً لهجوم الإسلاميين مراراً، يقول الآن أنه قد أبخس قدر أهمية الإسلام. وهو يقوم حالياً بتأليف كتب شعبية حول موضوعات إسلامية، كما فاز بجائزة من السعودية^(٢٤).

وفي كلية العلوم، يتحرك اليوم خلفاء علي مشرفة في حذر، حيث يثنى أساتذة الفلك على الأزهر بسبب الإسهامات التي قدمها في الماضي للعلم الذي يعملون به، ويتحدثون عن "علم فلك الشريعة"، ثم يلتزمون بالاستفادة

* صدرت الطبعة الإنجليزية الأولى من الكتاب الذي بين يديك عام ١٩٩٠ قبل وفاة د. زكي نجيب محمود في سبتمبر ١٩٩٣ - (المترجمة)

بخبرتهم في تحديد مواعيد الصلاة، والتقويم الهجرى^(٣٥) . ويقول أحد أساتذة العلوم بجامعة القاهرة في لقاء معه : **"أن العبد يقع على كاهلنا للتغلب على تشكك الشيوخ الذين لم يقتنعوا بقيمة علم الفلك بعد. فعلى سبيل المثال، يمكن أن نأخذهم في رحلة بالطائرة، ونريهم هلال الشهر الجديد إذا كانت السحب متكاثفة بحيث تتعذر الرؤية من على الأرض"**^(٣٦) .

إلا أنه من الصعب تخيل أي التقاء حقيقى بين عقول أولئك الذين يطالبون **"بعلم كيميائ إسلامي"** وبين عالم كيميائ متمرس من جامعة القاهرة، مثلما يصعب تصور اتصال بين عالم وراثه أمريكى وبين الأصوليين من البروتستانت الذين يؤمنون **"بعلم الخلق"** . وربما يكمن الخلاف بين الموقف في البلدين، في القوة النسبية للقوى المتعارضة والرؤى العالمية.

وفي جامعة القاهرة، كما في كل مكان في مصر، أثارت الحركة الإسلامية في السنوات الأخيرة مخاوف الأقباط. فالإسلاميون يعاملونهم باعتبارهم من **"أهل الكتاب"** وسواء فسر هذا التوصيف على نحو كريم سمح، أو بصورة ضيقة متشددة، فهو لا يمكن أن يعني المساواة الكاملة. وكانت لغة الإسلاميين المعادية للمسيحيين تتحول حيانا إلى عنف ضدهم، وبدأ الأقباط أنفسهم ينتهجون سياسة الإحياء الديني، كما أجاز البابا شنودة اتخاذ تكتيكات للمواجهة. فكانت الاضطرابات التي وقعت في ضاحية الزاوية الحمراء بالقاهرة، ومظاهرات الأقباط أثناء زيارة السادات للولايات المتحدة مقدمات للإجراءات التي اتخذها في سبتمبر.

ورغم أن العلمانية في مصر كانت في موقف الدفاع إلا أنها لم تنح جانبا تماما. فقد اتخذ شعار السادات **"العلم والإيمان"** طريقين : إضفاء الشرعية على الدولة والعلم باسم الإسلام، ولكنه كان يتضمن أيضا الفصل بين الدين ومجال آخر. وبدأت قلة قليلة من العلمانيين وعدد أكبر من المعتدلين الإسلاميين في التعبير عن آرائهم بجرأة أكبر مؤخرا، وأحيانا ينضم إلى هذه القائمة كتاب من أمثال يوسف إدريس^{*}، وتوفيق الحكيم (حتى وفاته عام ١٩٨٧) ونجيب محفوظ^{**}. كما فصل كتاب المستشار سعيد العشماوى **"الإسلام السياسي"** بين الدين والسياسة بنفس الحزم الذي فصل به بينهما كتاب علي عبد الرازق عن الخلافة الإسلامية قبل ستين عاما : ويستدعي

* توفي أول اغسطس ١٩٩١ بعد صدور هذا الكتاب باللغة الإنجليزية - (المترجمة)

** توفي ٣٠ أغسطس ٢٠٠٦ -

ظهور السفير حسين أحمد أمين - ابن أحمد أمين - ومحمد أحمد خلف الله بين معارضي الإسلاميين، إلى الذهن، المجادلات التي دارت في جامعة القاهرة إبان الثلاثينيات والأربعينيات. كما نادى - في جراحة - كل من فؤاد زكريا أستاذ الفلسفة - الذي ترك جامعة عين شمس منذ بضع سنين ليترأس قسم الفلسفة بجامعة الكويت - والمهندس الزراعي فرج على فودة، والمحامي محمد نور فرحات بإقامة دولة علمانية. وأتاحت لهم مجلة "فكر" منبرا لآرائهم، تحت رعاية رعوف عباس أستاذ التاريخ بجامعة القاهرة نائب رئيس تحريرها^(٣٧).

وفي ربيع عام ١٩٨٨، أوقف الإسلاميون باستخدام الجنازير حفلا موسيقيا بجامعة أسيوط، باعتباره أمرا منافيا للإسلام، ومن "عمل الشيطان"، فاستسلمت جامعة القاهرة وألغت الحفلات المماثلة في بقية العام الدراسي. كما أعلن الإسلاميون عن رفضهم لبرامج تليفزيون القاهرة، فرد عليهم وزير سابق للأوقاف مستخدما عددا كبيرا من الأحاديث النبوية التي توضح أن الموسيقى والغناء لا يتعارضان مع الإسلام. وانهال ماهر - رسام الكاريكاتير بالأهرام - بالنقد على "الإرهاب الديني" والجاهلية الدينية. كما استشهد أحمد بهاء الدين في عاموده بالأهرام برأي محمد عبده في استخدامهم للقرآن والأحاديث ضد الإسلام. وأعلن مصطفى أمين:

"نحن نرفض أن نعود القهقري إلى العصور الوسطى. نرفض الذين يقولون أن الموسيقى حرام، والمسرح حرام، والفن حرام. كما رفضنا الذين كانوا يعارضون دخول التليفونات في بلادنا، لأنها رجس من عمل الشيطان، وكما رفضنا الذين عارضوا دخول السيارات واعتقدوا أن إبليس هو الذي كان يقود هذه السيارات"^(٣٨).

"الزي الإسلامي في حرم الجامعة"^(٣٩)

كانت الجلايب البيضاء واللحي داخل الحرم الجامعي رموزا لطلاب الجماعات الإسلامية الأكثر التزاما، إلى أن قرر السادات حظر الدخول بها إلى الكليات في عام ١٩٨١. ولكن زي النساء أصبح أكثر الرموز المظهرية للحركة الإسلامية تعرضا للهجوم. وظاهرة الزي الإسلامي الشرعي أو الحجاب، ظاهرة معقدة وغامضة؛ ففي مصر المعاصرة يشمل الزي الإسلامي الأكمات الطويلة، والثوب أو التتورة التي يصل طولها إلى الكاحل

ثم غطاء للشعر، وهو يعني زى نساء المدن الحاصلات على قسط من التعليم، وليس الزى التقليدي للفلاحات أو نسوة الطبقة الدنيا في المدينة، الذي يغطي أيضا الشعر والذراعين والساقين، فهو يخرج عن إطار النقاش. كما أن هناك أقلية صغيرة تضيف غطاء للوجه "نقاب"، وقفازات للكفين إلى زى النساء الإسلامي.

وأصبح الزى الإسلامي موضة في الجامعات إبان السبعينيات مع انتشار الحركة الإسلامية. ومن الممكن أن يسمع المرء تفسيرات متشابهة ومتناقضة لارتداء النساء للزى الإسلامي: منها أنه مريح، أو لإظهار التقوى والطهر، أو للتأكيد على القيم الأصيلة في مواجهة القيم الغربية، أو مسايرة للموضة، أو الخضوع لإرادة الوالدين (أو التمرد عليها)، وكذلك لتجنب مضايقات الرجال أو توفير المال. بل أن بعض المعارضين يرون في الإعانة الشهرية الضئيلة التي تدفعها بعض الجماعات الإسلامية (لعلها جماعات سعودية أو ليبية) رشوة لتشجيع النساء على التحجب. كما لا تنطوي جميع الحالات على التقوى أو التواضع؛ فمرتديات الحجاب ربما يلفتن النظر أكثر بارتداء الأقراط (في حالات كثيرة) والكعوب العالية ومساحيق الوجه، أو ارتداء الثياب ذات الألوان الزاهية أو التي تنزلق على الجسم.

ويوضح ظهور الزى الإسلامي في كليات النخبة بجامعة القاهرة، وكذلك شكوى الأمهات المثقفات من بناتهن المحجبات، أن الإسلاميين يتمتعون بقدر من الإعجاب لدي فئات تعلو الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى^(٤٠). وتقول جيهان السادات: "لقد أدهشني أن الكثيرات، ومن بينهن أفضل الفتيات في صفى الدراسي وأكثرهن تألقا يخترن ارتداء الحجاب"^(٤١).... كما يشير الزى الإسلامي في الجامعة الأمريكية بالقاهرة إلى نفس التوجه. وتستطرد جيهان السادات، لإظهار عمق الشعور الذي أثاره الحجاب. "ولكن أخريات في الجامعة كن يمثلن تعبيرا سياسيا على نحو أبعد، خاصة أولئك اللاتي يرتدين النقاب، وهو حجاب ثقيل يشبه القناع تقريبا، يغطي وجه المرأة كلية ويترك فقط فتحتين لعينيها. وهؤلاء الفتيات الأكثر تطرفا، يخفين أجسادهن كلية، فيغطين أكفهن بالقفازات ويرتدين الجوارب الثقيلة، حتى في أيام الصيف الحارة. وكانت رؤيتهن سائرات في أروقة الجامعة تثير في نفسي الغثيان. فليس هذا هو الإسلام".

وقد انتقد الأصوليون، بدورهم، ملابسهم. وأرسلوا لي مرة إثر أخرى فتيات بارعات في الحديث لإقناع بارتداء الحجاب على الأقل. فتحتني

الموفدات قائلات: "لماذا لا ترتدين الزي الشرعي؟" وهن يستخدمن الاسم الذي أطلقته الجماعات الإسلامية على الحجاب والرداء الطويل اللذين يعتبرونهما أساسيين للمرأة.. "ألا ينبغي وأنت زوجة رئيس مصر، ونموذج تحتذيه النساء أن تضربي المثل؟". فكنت أرد بحسم: "ولكن أعمالكن أكثر أهمية من ملابسكن. وعندما يأتي يوم الحساب، فلن يدخلكن الله الجنة أولا لأن الرداء الذي ترتدينه أطول" (٤٢).

وتؤكد الأبحاث ما هو متوقع من تمسك المحجبات بالمعتقدات المحافظة؛ فمن بين أولئك اللاتي يرتدين هذا الزي وافقت ٧٠% على أن الغرض الأساسي من تعليم المرأة هو إعداد الزوجات الصالحات، بينما وافق على هذا الرأي ٥٤% فقط من غير المحجبات. وتعتقد نسبة ٣٣% فقط من المحجبات أن المرأة لها الحق الكامل في العمل مقارنة بنسبة ٦٩% من زميلاتهن غير المحجبات اللاتي لديهن نفس الاعتقاد. ولو استطاع قاسم أمين العودة إلى الجامعة التي ساعد في إنشائها، فسوف يسره أن لم يعد هناك من يعارض تعليم المرأة من حيث المبدأ، ولكنه سوف يقع في الحيرة؛ فقد أدانته نسبة ساحقة من فتيات الجامعة المحجبات اللاتي سئلن عنه (٩٢%)، وهو ما يعكس تشويه الإسلاميين الحاليين له باعتباره من دعاة البدع الحديثة والهرطقة، مع أن المحجبات اللاتي يكشفن وجوههن إنما يرتدين الزي الذي أوصى به، دون أن يدركن ذلك. أما أولئك اللاتي يرتدين ثيابا على الطراز الغربي فأشاد ٥٩% منهن به باعتباره محرر المرأة في حين أدانته ٤١%، ويرجع ذلك غالبا إلى تصديقهن أنه خرج عن الشرع (٤٣).

وفي العام الدراسي ١٩٨٧ - ١٩٨٨ تركزت مناقشة الزي في جامعة القاهرة على النقاب، وكان السادات قد حظره داخل الحرم الجامعي قبيل وفاته بقليل. وترددت شائعات حول فتيات منقبات تؤدين الامتحانات بدلا من أخريات، بل وعن رجال يتخفون بالنقاب أيضا لنفس الغرض، إلا أن ما يرمز إليه النقاب من تحد هو الذي أثار قلق النظام. ففي مارس ١٩٨٧ انتظر خمسة آلاف طالب لمدة ثلاثة أيام وتعدوا بالسباب على عميد كلية الطب لمنعه إحدى المنقبات من دخول الكلية. وفي خريف نفس العام أفتى مفتي الديار المصرية بأن حظر ارتداء النقاب داخل الحرم الجامعي لا يتعارض مع الإسلام. ولكن في مارس ١٩٨٨ أسقط حكم القضاء الإداري بمجلس الدولة قرار الحظر (٤٤).

ومن خلال الملاحظة الشخصية لمؤلف الكتاب عن جامعة القاهرة في ١٩٨٧ - ١٩٨٨، يتبين أن حوالي نصف الطالبات كن يرتدين "الزّي الإسلامي"، وهو ما يمثل اختلافاً بينا عن عام ١٩٥٠ أو ١٩٦٠، عندما كان جميع طالبات جامعة القاهرة يرتدين الملابس الغربية. وبالنسبة للوقت الحالي، على الأقل، فإن معارضي هذه الظاهرة المنزعجين يحذرون من أن الزّي الإسلامي يكاد يكتسح كل شيء في طريقه. ولكن رغم أن نسبة طالبات الجامعات المرتديات للزّي الغربي تناقصت، إلا أن عددهن يزيد كثيراً الآن عن أي وقت مضى. فإذا كان حوالي ألفي طالبة يفعلن ذلك في عام ١٩٥٣ (١٠٠% من الطالبات)، فربما يكون عدد من يفعلنه بعد ثلاثين عاماً قد وصل إلى ٢٥ ألفاً (٥٠% من طالبات الجامعة^(٤٥)). وأصبح دخول الجامعة متاحاً الآن أمام فتيات الفئة الدنيا من الطبقة الوسطى وبعضهن حديثات العهد بالقاهرة، ويشعرن بعدم الارتياح إلى الصيحات الغربية في الملابس، ومن ثم يتيح لهن الزّي الإسلامي تغطية نفس أجزاء الجسم التي تغطيها ملابس أمهاتهن الأميات، فضلاً عن أنه يدل على تقواهن كما يظهر المركز التعليمي الذي وصلن إليه حديثاً.

وعندما يرد ذكر الزّي الإسلامي، تزداد المشاعر اهتياجاً. فالنساء اللاتي لا يرتدين هذا الزّي يتعرضن للإهانات، بل وللأغتصاب. إلا أنه ليس مستغرباً أن تشاهد امرأتين من نفس العمر، إحداهما بالزّي الإسلامي، والأخرى في ثوب غربي تتمشيان وزيّار إحداهما في زيّ الأخرى، تتصاحبان وتتحدثان بأسلوب يكذب أي إحساس بأن واحدة تعيب على الثانية اختيارها. ومن ثم، فإن الدوافع لاختيار أو عدم اختيار الزّي الإسلامي تتفاوت بشكل كبير ومن الواضح أن الكلمة الأخيرة لم تطرح بعد في هذه القضية.

الهوامش

- ١- Ibrahim M. Oweiss, "The Migration of Egyptians", in : Antoine Zahlan, ed., *The Arab Brain Drain* (London, 1981), p. 165.
- ٢- Antoine Zahlan, *The Arab Brain Drain*, ed. (London, 1981), p. 2; saad Eddin Ibrahim. *The New Arab Social Order. A study of the Social Impact of Wealth* (Boulder, Colorado, 1982), pp. 58, 80 - 85; Saad Eddin Ibrahim, "Oil Migration and the New Arab Social Order, "in Malcolm H. Kerr and El Sayed Yassin, eds., *Rich and Poor states in the Middle East: Egypt and the New Arab Order* (Boulder Colorado, 1982), p. 46.
- انظر أيضا :
- Nazih Ayubi, "The Egyptian "Brain Drain" A Multidimensional Analysis", *IJMES* 15 (1983), 431 - 50.
- ٣- Ibrahim "Oil", in Kerr and Yassin, *Rich and Poor States* p. 39.
- ٤- Muhamed Nur Farahat, "La Faute a L' Infitah" *Revue de la Press Egyptienne* 13 (July 1984). ١٩٨٣ أكتوبر
- ٥- بخصوص الجدل حول القضية انظر : الأهرام الاقتصادي ٤ أكتوبر - ديسمبر ١٩٨٢.
- ٦- الاجيشيان جازيت ١٤ يناير ١٩٨٣، واعتمدت هذه الفقرة بوجه عام على مختارات من الأهالي وصحف أخرى في :
- *Revue de la Press Egyptienne* 8 (March 1983) : 122 - 28 .
- ٧- الأهالي ٢٠ ابريل ١٩٨٣.
- ٨- الأهرام ١٨ يناير ١٩٨٣ - الصفحة الأولى.
- ٩-
- Jehan Sadat, *A woman of Egypt* (New York, 1987), 208 - 209.
- ١٠- العيد الماسي ص ص ٣٨٢ - ٣٨٣.
- ١١- الأهالي ٩ فبراير ١٩٨٣، ص ١٠.
- ١٢-
- Raymond A. Hinnebusch Jr., *Egyptian Politics under Sedat: The Past - Populist Development of an Authoritarian - Modernizing State* (Cambridge, 1985), pp. 102 - 03.

- ١٣- العيد الماسي. وقد اعتبرت على ماهر من رؤساء وزارات النظام القديم على الرغم من أنه رأس أيضا أول وزارة أعقبت انقلاب عبدالناصر.
- ١٤- أخبار اليوم، ٢٧ نوفمبر ١٩٨٢.
- ١٥-
- Anderea Rugh, *Family in Contemporary Egypt* (Cairo, 1985), p. 239.
- ١٦- محمد عثمان "الجامعة تنظف" روزاليوسف ٢٤ يناير ١٩٨٣ ص ١١ - ١٣. وجمال الدين موسى "من الحرم الجامعي" (القاهرة ١٩٨٨) وهو "بكائية" على انحسار أحوال الجامعات.
- ١٧- الاجيشيان جازيت - أول نوفمبر ١٩٨٧. ص- ٣.
- ١٨-
- Mohmoud Nafadi, "Calls for Private University", Middle East Times, October 12 - 18, p. 8.
- ١٩- فيما يتعلق بهذه القضية انظر أيضا :
- Waterbury, *Egypt*, p. 241;
- وأنظر أيضا : أحمد عبدالله "الطلبة والسياسة" ص ٢٧٠.
- ٢٠- لويس عوض "الجامعة الأهلية"، الأهرام ١٨ أكتوبر ١٩٨٦ ص ١٥.
- ٢١-
- Revue de La Press Egyptienne 27 (2 eme Trimestre, 1987): pp. 66, 78.
- ٢٢- بورصة الدروس الخصوصية . الأهالي ٢٠ ابريل ١٩٨٣.
- ٢٣-
- Revue de La Press Egyptienne 13 (July 1984): 151.
- ٢٤-
- Hassan El Kadi, "Economy Unable to Absorb Egypt's Graduates into Work - Force", "Middle East Times, February 28- March 5, 1988, p. 7.
- ٢٥- العيد الماسي : سجل تاريخي بمناسبة ١٦ ربيع الأول ١٤٠٤ هـ، ٢١ ديسمبر ١٩٨٣ م.
- ٢٦- أحمد عبدالله "الطلبة والسياسة" يسرد تفاصيل الحركة الطلابية منذ ١٩٦٨ حتى ١٩٧٣، ثم يورد فصلا ملحقا عن الفترة من ١٩٧٤ - ١٩٨٤. وحول الجماعات الإسلامية انظر بوجه خاص :
- Giles Kepel, *Muslim Extremism in Egypt: The Prophet and Pharaoh*, trans. Jon Rothscild (Berkeley, California, 1986, pp. 129 - 71.
- ٢٧- حول مجموعة القوانين انظر :
- Richard Jacquemond, "Un Projet de code penale islamique egyptien", "Bulletin de CEDEJ 20 (2) (1986) : 185 - 223.

- ٢٨ -
- Keppel, *Muslim Extremism*, pp. 205 - 06.
- ٢٩ -
- Revue de la Press Egyptienne Cdecember 1981): 148.
- ٣٠ -
- Jehan Sadat, *Woman*, pp. 410 - 11.
- ٣١ -
- Mervat Hatem, "Egypt's middle Class in Crisis: The Sexual Division of Labor," MEJ 42 (Summer 1988), 415 - 16.
- ويلخص قوانين الأحوال الشخصية لعام ١٩٧٩، والتراجع عنها جزئيا في ١٩٨٥.
- ٣٢ -
- Revue de La Press Egyptienne, 13 (July 1984), 155 - 59.
- ٣٣ -
- Labib al- Sibai "La Garde universitaire est une necessite in RPE (December 1981) : 150 - 51.
- نقلا عن الأهرام الاقتصادي ٥ أكتوبر ١٩٨١. وبيانات شخصية عن حسن حمدي في : العيد الماسي.
- ٣٤ - انظر مجلة التصوف الإسلامي التي يرأس التفتازاني مجلس إدارتها . و: حسن حنفي - مقابلة ١٦ ١٦ فبراير ١٩٨٨. و: زكي نجيب محمود مقابلة ٢٠ مارس ١٩٨٣.
- ٣٥ - عياد في "عالم الفلك والفضاء" العدد الأول (١٩٨٣) ص ص ٣٣-٣٤ ، ٣٦.
- ٣٦ - مقابلات خاصة مع مؤلف .
- ٣٧ - على سبيل المثال :
- "Les Voix de Tawfiq al- Hakim", PRE 8 (March 1988), 9 - 40.
- و: نجيب محفوظ : "الإسلام السياسي" الأهرام ٢٥ فبراير ١٩٨٨ ص ٧. و:
- Yusuf Idris, "L' Apostat", PRE8 (March 1983) : p. 23-25.
- و: محمد سعيد عشاوي: "الإسلام السياسي" (القاهرة ١٩٨٧). و: حسين أحمد أمين: "ليل المسلم الحزين" (القاهرة ١٩٨٣). و: فؤاد زكريا: "الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة" (القاهرة وباريس ١٩٨٦). أنظر أيضا: صحيفة فكر (١٩٨٤). وتحليل :
- Alexander Flores, "Egypt : A New Secularism ? Middle East Report No. 153 (July - August 1988) pp. 27-30.
- ٣٨ - مصطفى أمين، الأخبار ١٧ ابريل ١٩٨٨. وفيما يتعلق بالفقرة عموما، انظر: عبدالمعزم النمر "الإسلام وموقفه من الغناء والموسيقى" - الأهرام ٨ مايو ١٩٨٨ ص ٨. و: أحمد بهاء الدين، الأهرام، ١٣ مارس ١٩٨٨ ص ١٣. وكاريكاتير ماهر في الأهرام ١٤ مايو و ٦ يونيو ١٩٨٨ ص ٦.
- ٣٩ - حول الزبي الإسلامي المصري عموما انظر :

- Andrea B. Rugh, *Reveal and Conceal: Dress in Contemporary Egypt* (Cairo, 1986); Valerie J. Hoffman. (add, "Polemics on the Modesty and Segregation of Women in Contemporary Egypt, "IJMES 19 (1987) 23 - 40.

-٤٠

- Hinnebusch, *Egyptian Poetics*, p. 205.

-٤١

- Jehan Sadat, *Woman*, p. 413.

-٤٢ - المرجع السابق .

-٤٣ - زينب رضوان ، بحث ظاهرة الحجاب بين الجامعات (القاهرة ١٩٨٢) كما ورد في:

- Mervat Hatem "Egypt's Middle Class " MEJ 42 (Summer 1988) : 417 - 18.

- ويلاحظ : المفارقة في الآراء حول قاسم أمين:

- Hoffman Ladd, IJMES 19 (1987) : 27

-٤٤ - أحمد بهاء الدين، الأهرام ٢٢ مارس ١٩٨٨ ص ١٣. و:

- Imam Ahmad, "Court Decision to Permit Veils on University Campus Draws Praise, Ire, "Middle East Times, March 27 - April 2, 1988, p. 3.

-٤٥ - ورد في الرقم الخاص بعام ٥٣ - ١٩٥٤ في : Waardenburg 2:84 . وتقدير

الرقم في ١٩٨٣ بناء على : عثمان، روزاليوسف ٢٤ يناير ١٩٨٣، ص ١١ - ١٣، الذي ذكر أن إجمالي عدد المسجلين في جامعة القاهرة ١٥٠ ألف وأن الطالبات يمثلن حوالي ثلث عدد المسجلين في الثمانينيات.

خاتمة وتوقعات

"انتبهوا أيها السادة" .. اسم فيلم سينمائي مصري حديث، يدور حول أستاذ جامعي يدعى "جلال"، و"عنتر" جامع القمامة وهو يعمل على عربة كارو.. يخطئ عنتر فيحسب أن شقيقة جلال هي الخادمة ويطلب يدها من والدها. ثم يرث عنتر امتياز جمع القمامة من إحدى الضواحي الكبرى إثر وفاة والده، فيصل دخله إلى ٦٠٠ جنيه شهريا؛ ويصبح في طريقه بالفعل لأن يصبح ثريا عن طريق بيع المخلفات المعاد تصنيعها، وعقد الصفقات المشبوهة. ويرفض الأب عرض الزواج، أما جلال نفسه فهو يجد في البحث مع خطيبته عائدة عن شقة منذ فترة طويلة، ثم يعثران في النهاية على واحدة في عمارة يمتلكها عنتر؛ كما يمتلك سيارة فارهة يصطحبهما فيها إلى الفيلا حيث يعيش مع زوجته وأربعة أطفال. ويرفض جلال دفع مبلغ خمسة آلاف جنيه - خلو رجل - لأن ذلك غير قانوني، ثم يراجع ناشر كتبه الأكاديمية الخمسة، فيكتشف أنها ستعود عليه بمائتي جنيه فقط، ويرفض عرض الناشر منحه عمولة كبيرة مقابل كتابة أدب هابط بدلا منها.

ثم يضعف جلال، ويتنازل عن مبادئه، ويجمع بطريقة ما مبلغ "الخلو" لعنتر الذي يأخذه وعائدة إلى ملهى ليلي، ثم يرمى بالمبلغ كله على إحدى الراقصات؛ فيشرب جلال حتى السكر ثم يتشاجر مع عائدة، التي تقرر الزواج من عنتر من أجل أمواله. وفي مشهد الختام نرى جلالا وهو يحاضر في الجامعة ثم يفقد تسلسل أفكاره أثناء المحاضرة، فيغمغم قائلا: "الحقيقة هي عنتر" .. ويسقط مترنحا^(١).

ويعتبر فيلم "انتبهوا أيها السادة" تعبيراً واضحاً عن عالم انقلب رأساً على عقب. ولكن ذلك ليس هو القضية كلها. ولا هي تلك السجل المضىء لجامعة القاهرة في الكتاب الصادر احتفالاً بالعيد الخامس والسبعين عام ١٩٨٣، فالحقيقة تقع في مكان ما بين الصورتين.

أن جامعة القاهرة لم تحسم حتى الآن أيًا من قضايا التجاذب أو الاستقطاب الرئيسية الأربع التي تتبعناها في هذا الكتاب : الإمبريالية الغربية في مواجهة النزعة القومية المتأصلة.. استقلال الجامعة في وجه سيطرة الدولة.. التعليم المقيد مقابل التعليم المفتوح.. الفكر العلماني إزاء الفكر الديني. وليس من المحتمل أن تحسم الجامعة ذلك وهي تتطلع نحو القرن الواحد والعشرين. ويبدو أن الميل الشديد ناحية أحد هذه الأقطاب ينشئ تحركا مضادا. فالانتصارات النهائية أمر نادر في الأمور الإنسانية مهما كان التوق إليها.

وقد حقق المصريون انتصارا في المعركة القومية طويلة الأمد من أجل التعيين في هيئة تدريس الجامعة وإدارتها، بعد أن انتهى عهد الاحتلال البريطاني، ولم يعد للبريطانيين ولا خصومهم الأضعف - الفرنسيين - نفوذ كبير، ومع ذلك، فلا يبدو أن لمعركة استقلال المثقفين نهاية قريبة. وما زال الأساتذة الأمريكيون يجيئون ويروحون، بدعوة مصرية. وإذا وضعنا في الاعتبار حقائق السياسة والاقتصاد الدوليين، بالإضافة إلى ظروف حقل التعليم، فكيف يمكن أن يكون لدى جامعة القاهرة الحرية في الاستغناء عنهم إن هي رغبت في ذلك ؟

وربما يجد المصريون المحبطون، بسبب استمرار اعتمادهم على التعليم المستورد، عزاء في المدى الأبعد، حيث أن السيطرة والتبعية لا تنومان إلى الأبد، وقد أخذت أوروبا من قبل علومها عن العالم الإسلامي. وفي القرن التاسع عشر، أنهى المثقفون الألمان بشكل حاسم تبعيتهم الثقافية التي دامت طويلا لفرنسا. وقبل ذلك بقرن من الزمان، بات على الولايات المتحدة، بل وإلى حد ما فرنسا وإنجلترا، أن تتعلم من ألمانيا، مركز الثقافة الجديد في ذلك الحين. والآن، يتطلع الأمريكيون، في ترقب، نحو اليابانيين، بعد أن حقق كل من الروس واليابانيين تقدما علميا ملحوظا في القرن الماضي، ربما كان من الأصعب الآن على المجتمعات البعيدة عن المراكز أن تلحق به. ومصر الآن، أكثر من أي دولة عربية أخرى، لديها قاعدة راسخة للتعليم الجامعي، يمكن أن تقيم فوقها البنيان، كما يمكن لجاراتها البترولية الغنية - برغم ما تعانيه من صعوبات اقتصادية حالية - أن تسهم في تمويل هذا المشروع. ولكن، يبقى على مصر أن تسيطر بإحكام على القيود السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي عرقلت محاولتها الثقافية في القرن الماضي، حتى تستطيع أن تستفيد من هذه القاعدة على نحو فعال.

أما بالنسبة للقضية الخالدة.. قضية استقلال الجامعة في مواجهة سيطرة الدولة، فلم تكن الاعتداءات الواضحة التي قام بها كل من الملك فؤاد وعبد الناصر على الإدارة الذاتية للجامعة، سوى أكثر الحالات إثارة لتدخل الدولة في شئون الجامعة، إلا أنه تعين على كل من الحاكمين أن يقدم بعض التنازلات قبيل نهاية حياته، فقد تحطمت محاولة عبد الناصر - التي افتقرت إلى الحماس - من أجل تعبئة جامعة القاهرة وغيرها من الجامعات، على صخرة مخاوفه من التعبئة الحقيقية، بالإضافة إلى ما لقيته سياسيا من معارضة فردية ومؤسسية. وفي عهدي السادات ومبارك، ظلت جامعة القاهرة ساحة اختبار هامة للقيود الضخمة التي لا يزال النظام يفرضها على حرية الاعتقاد والعمل.

ومع أن ظهور جامعات ومعاهد جديدة أضعف من مركزية جامعة القاهرة في الحياة الثقافية والسياسية والمصرية، إلا أن ذلك لم يقلل من إغراء التدخل في شئون الجامعة لدى مسئولى الحكومة، كما لم ينقص من رغبة الأساتذة والعمداء ورؤساء الجامعات في التقرب من السلطة لنيل مآرب شخصية. فجامعة القاهرة، كما كانت دائما، من المستحيل - بل وربما لا يكون من المطلوب - أن تكون نموذجا للبرج العاجي الذي يضم المعرفة البعيدة عن الواقع.

وفيما يتعلق بالتجانب بين قيمة النخبة وقيمة المساواة، أسفر قبول التحاق الطالبات، وإلغاء الرسوم الدراسية بالإضافة إلى افتتاح فروع جديدة للجامعة، بل وجامعات جديدة، عن توسيع فرص التعليم الجامعي. ومع ذلك، ظلت الأغلبية الساحقة داخل جامعة القاهرة للطلاب من الذكور، مثلها في ذلك مثل نظيراتها من الجامعات الأوروبية، كما ظلت بعيدة المنال بالنسبة للطبقات الشعبية التي تمثل أغلبية المصريين. ورغم هذا، فقد فتح عبد الناصر أبواب الجامعة إلى الحد الذي أضعف مستوى التعليم بها في غياب التوظيف الملائم لكل من الأساتذة والمنشآت المادية.

ومع عجز الدولة عن توفير مستوى تعليمي متميز للأعداد الضخمة في جامعة القاهرة وغيرها من الجامعات، ظهر الاقتراح البديل بإنشاء جامعة خاصة وظلت الجامعة، حتى الآن، غير راغبة في الاعتراف بإخفاق حلم المساواة، على الرغم من أن التعليم الخاص بالمصروفات قضى عمليا على التعليم المجاني في جامعة القاهرة وعبر مختلف أنحاء النظام التعليمي.

وأخيراً، ماذا عن قضية الفكر العلماني في مواجهة الفكر الديني بجامعة القاهرة وفي المجتمع بشكل عام ؟.. كان للجامعة سمة علمانية منذ أول عهدها، إلا أن القضايا الدينية لم تغب عن ساحتها. وقد ساعدت الوقائع المؤلمة التي كان أبطالها زيدان، ومنصور فهمي، وطه حسين وخلف الله، في تعيين حدود الجدل العلماني - الديني إبان النظام القديم. وفي ١٩٥٤ دفع القمع بالطلاب الإسلاميين - ومعهم جميع العناصر النشطة سياسياً - إلى العمل السري، وبقيت النغمة العلمانية سائدة في سنوات عبد الناصر. ثم عادت المعارضة اليسارية للظهور العلني في جامعة القاهرة عقب حرب ١٩٦٧. وبعد عدة سنوات تبعها الإسلاميون في الظهور، وسرعان ما حلوا محل اليساريين كأكثر القوى السياسية فعالية واستمروا كذلك حتى الآن.

وخلال السنوات العشر الماضية*، كان كل من المؤيدين والمعارضين للحركة "الإسلامية" يتحدثون أحياناً كما لو كانت سوف تكتسح جميع ما في طريقها. ولكن، رغم أن المسلمين ينفرون دائماً من وضع حد نظري بين الشئون الدنيوية والأمر الديني، فهناك دائماً نوع من العلمانية الواقعية في دنيا الإسلام. وعلى الرغم من أن علماء الإسلام لا يمثلون كهنوتاً بالمفهوم الديني، إلا أنهم غالباً ما يتصرفون كما لو كانوا كياناتاً واحداً في المفهوم الاجتماعي؛ حيث يميزون - إلى حد ما - أنفسهم عن الحكام والعسكريين، وموظفي الحكومة، والتجار والفلاحين وغيرهم ممن قد يكونون أقل التزاماً بالدين.

لقد زخرت الدراسات الغربية مؤخراً بالحديث عن "الصحة الإسلامية" و"الأصولية الإسلامية" ! وهو اتجاه مفيد من حيث تصويب ما حدث سابقاً من تأكيد مبالغ فيه على العلمانية، ونزوع البعض إلى التقليل من شأن الإسلام إلى حد اعتباره أثراً زائلاً. وقد لقي "دعاة التحديث" أمثال الطهطاوي، ومحمد عبده، وطه حسين أكثر من حقهم من ناحية اهتمام الأبحاث الغربية إلا أن هناك خطورة من المبالغة في التصويب، وافترض أن حسن البناء، وسيد قطب، وآية الله الخميني مسلمون ثقافة أكثر من الطهطاوي وعبده وطه حسين. فعلى الصعيد الديني، يمكن للمسلمين وحدهم تقرير ذلك، وهو ما يختلفون فيما بينهم بشأنه.

* نعيد التذكارة ان الطبعة الإنجليزية الأولى من هذا الكتاب صدرت عام ١٩٩١ - (المترجم)

ومن منظور مؤلف الكتاب - المؤرخ غير المسلم - فإن الاستجابة المرنة "لدعاة التحديث" - الذين يتسمون بالانتقائية، والبراجماتية، والتحرر، والتوفيقية - تبدو كما لو كانت قد تأصلت في التاريخ الإسلامي باعتبارها الرؤية الضيقة للإسلاميين؛ فقد وقع منصور فهمي، الشاب، في فخ تكرار التشهير الغربي "بمحمد" دون إدراك للمضمون الكلى لهذا التشهير، فدفع ثمنا باهظا. وعلى الرغم من أن طه حسين ربما كان قد غالى في التأكيد على انتماء مصر لمنطقة البحر المتوسط وأوربا، إلا أن معالجته لذلك كانت أكثر نجاحا، فتعليمه الأزهرى جعله راسخا في الثقافة الإسلامية قبل أن يصطدم بالغرب. كما أتاحت له جامعة القاهرة الفرصة والبيئة الملائمة لممارسة أنشطته طوال حياته. وهو يظل رمزا ملائما لها، وأن كان بالضرورة رمزا لا يقاس عليه. وتشهد الأعداد الكبيرة من الكتب والمقالات التي كتبها كل من مهاجميه ومؤيديه بما يمثلته حتى الآن من جاذبية للمسلمين المصريين.

ويستمر الاستقطاب بين جامعة القاهرة والأزهر، رغم أن الأولى لم تعد بأي شكل من الأشكال تمثل العلمانية البحتة ولا عاد الأزهر يمثل وجهة نظر الدين الخالصة. وهناك الكثير من الأمور المشتركة بين المؤسستين: اعتمادهما على الدولة - رغم نفورهما من إعلان ذلك - والجماهير الطلابية التي تستطيع غالبا إحباط التغييرات التي تشجعها سلطات الدولة أو الجامعة، والتجاوب مع الإسلاميين المعتدلين الذين يؤكّدون على التقوى الشخصية، والإقناع السلمى مع مواجهة الإسلاميين الثوريين بشدة.

* * *

في أحد أيام الربيع عام ١٩٨٣، ارتفع صوت الأذان لصلاة الظهر عبر المكتبة الرئيسية لجامعة القاهرة .. كان ما يقرب من نصف الطالبات يرتدين الزي الإسلامي (وربما يرى المرء أن الزي نفسه ينم عن توجهات اجتماعية وفكرية شتى) .. ترك بعض الطلاب الذكور كتبهم وخرجوا للصلاة، ولكن الأكثرية منهم استمروا في القراءة أو الحديث.

وبعد مرور خمسة وسبعين عاما على إنشاء جامعة القاهرة، لا يوجد بها حتى الآن مسجد رئيسي، رغم تصريحات النوايا المتكررة. ولكن هناك مسجدا صغيرا أو اثنين، كما أقيمت أماكن مؤقتة للصلاة في بعض أركان المباني فيما يبدو كما لو أنه نوع من التنازلات التي قدمت

للإسلاميين على مضض. أما في المكتبة فقد انحسر المصلون في ركن تحت السلم.

* * *

جامعة القاهرة علمانية.. وإسلامية. وبعد مرور ثمانين عاما على إنشائها أصبحت راسخة في التربة المصرية، وتجاوزت الإعجاب غير المتزن بالغرب الذي أبداه مؤسسوها. وأصبحت مصرية أصيلة كالأزهر، وسوف تواصل - مثل الأزهر - أداء دور حيوى في سعى مصر للبحث عن هويتها الحديثة.

المواامش

—١

- Andrea B.Rugh, *Family in Contemporary Egypt* (Cairo, 1985), pp. 261 - 62.

الفهرس

صفحة	الموضوع
١١	مقدمة المترجمة
١٥	تقديم
٢٧	القسم الأول : الجامعة الأهلية ١٩٠٨ - ١٩١٩
٢٩	- الفصل الأول : نظرة تاريخية
٥٧	- الفصل الثاني : تنفيذ المشروع
٨٧	- الفصل الثالث : التحديات ومواجهتها
١٢٥	القسم الثاني : الجامعة والنموذج الإمبريالي ١٩١٩ - ١٩٥٠
١٢٧	- الفصل الرابع : التحول إلى الجامعة العامة
١٥٣	- الفصل الخامس : الإمبرياليات المتصارعة والتمصير
١٧٥	- الفصل السادس : قضايا التكافؤ : جامعة لمن ؟
٢٠٧	- الفصل السابع : الجامعة والسياسة ١٩٣٠ - ١٩٥٠
٢٤٧	- الفصل الثامن : قضية الدين

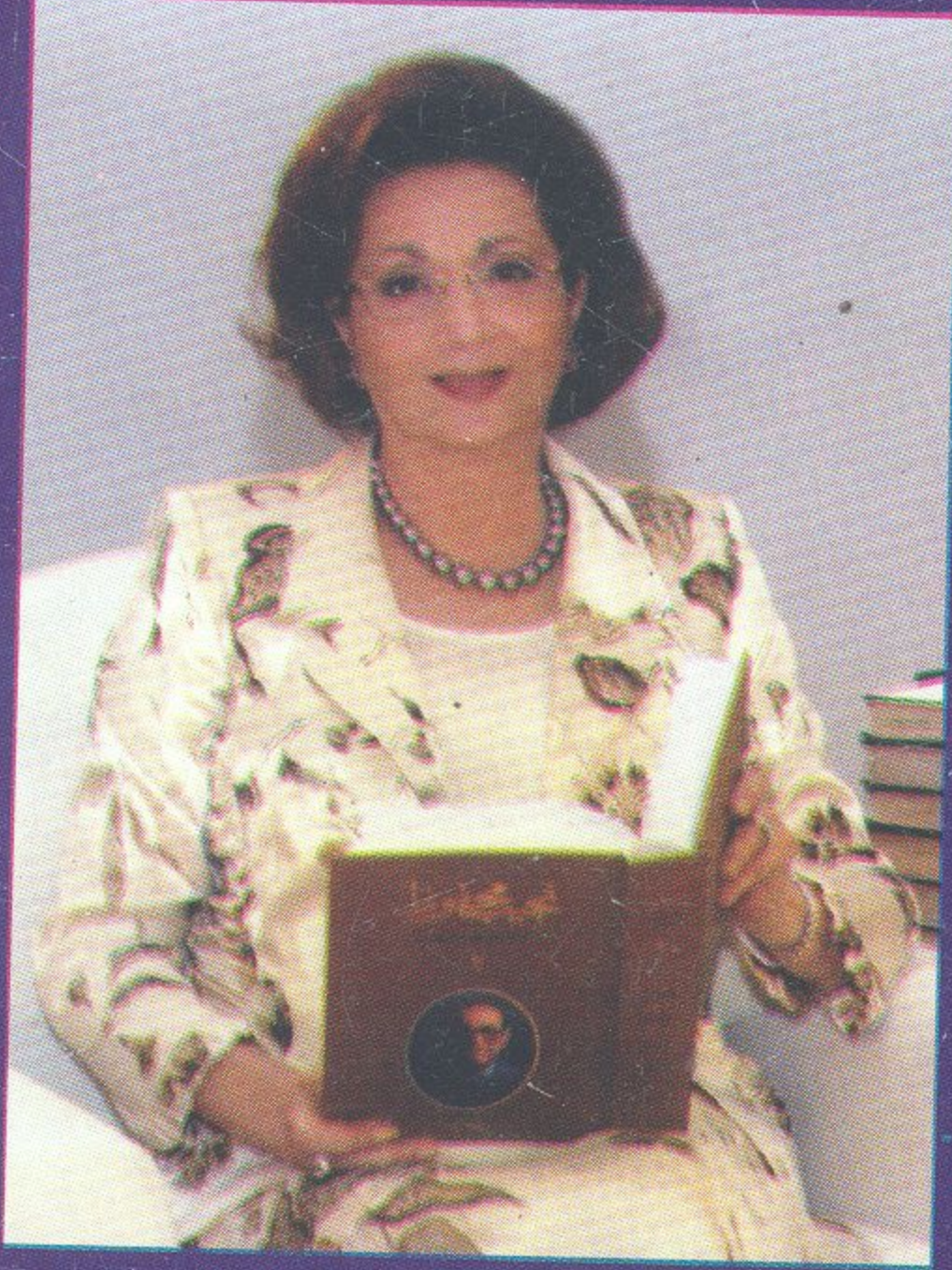
صفحة	الموضوع
٢٧٩	القسم الثالث : فى ظل جمال عبد الناصر ١٩٥٠ - ١٩٦٧
٢٨١	- الفصل التاسع : نهاية النظام القديم
٣٠٩	- الفصل العاشر : الكيف، والكم، والوظائف
٣٣٥	- الفصل الحادى عشر : تعبئة الجامعة
٣٧١	القسم الرابع : الجامعة بعد عهد عبد الناصر
٣٧٣	الفصل الثانى عشر : سياسة الانفتاح والتحدى الإسلامى
٣٩٩	خاتمة وتوقعات

فهرس الجداول

صفحة	الموضوع
٦٦	جدول (١) الطلاب المصريون الدارسون بالخارج على نفقة الدولة
٨٩	جدول (٢) عدد المقررات والأساتذة والطلاب في الجامعة المصرية
٩٢	جدول (٣) جنسيات طلاب الجامعة المصرية
٩٣	جدول (٤) الوظائف التي يعمل بها طلاب الجامعة المصرية
٩٤	جدول (٥) تصنيف طلاب الجامعة المصرية وفقاً للديانة
٩٥	جدول (٦) عدد الأئندية والمشايخ (وفقاً للزى أو اللقب)
١٠٣	جدول (٧) جنسيات وديانات طالبات الجامعة المصرية
١٤٠	جدول (٨) معاهد وكليات جامعة القاهرة
١٥٨	جدول (٩) جنسيات أساتذة الجامعة المصرية عام ١٩٢٩
١٩٥	جدول (١٠) عدد المقيدين بالمدارس واجمالى عدد السكان في مصر
١٩٦	جدول (١١) معدلات القيد
١٩٧	جدول (١٢) ميزانيات وزارة المعارف والتعليم الجامعي في مصر
١٩٧	جدول (١٣) النسبة المئوية للأمية في الفترة من ١٩٠٧ - ١٩٥٢
٢٠١	جدول (١٤) المقيدون بالجامعات وغيرها من معاهد التعليم العالي
٢٥١	جدول (١٥) الرواتب الشهرية للمدرسين ١٩٣١

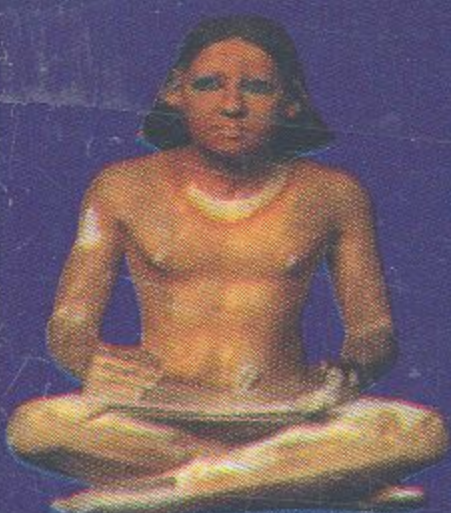
الموضوع	صفحة
جدول رقم (١٦) النسبة المئوية للطلاب المسيحيين بكلية جامعة القاهرة	٢٦٥
جدول (١٧) بيان الانتماء الدينى لخريجى أقسام كلية الآداب (جامعة القاهرة)	٢٦٦
جدول (١٨) البلدان المضيغة للطلاب المصريين المبعوثين للدارسة في الخارج	٢٩١
جدول (١٩) المقيدون بالجامعة والتعليم فوق الثانوي	٣١٢
جدول (٢٠) ميزانيات التعليم في مصر	٣١٣
جدول (٢١) عدد المسجلين بالجامعة بالنسبة لإجمالى سكان مصر.	٣١٦
جدول (٢٢) النسبة المئوية للأمية في مصر فيما بين ١٩٤٧ - ١٩٧٢	٣١٧
جدول (٢٣) النسبة المئوية لتوزيع طلاب القاهرة والأزهر حسب مهنة الأب في عام ١٩٦٢	٣١٨
جدول (٢٤) ميزانيات الجامعات وعدد المقيدين بها	٣١٩
جدول (٢٥) ترتيب الكليات والمهن في مصر وفقا للمكثاة الاجتماعية	٣٢٠
جدول (٢٦) الراتب السنوى لأستاذة الجامعات وموظفي الحكومة في مصر	٣٢٧
جدول (٢٧) النسبة المئوية لميزانية التعليم العالي في مصر إلى المعاهد الفنية والأكاديمية	٣٣٧

الموضوع	صفحة
جدول (٢٨) عدد المقيدین في كليات العلوم الإنسانية والاجتماعية مقابل المقيدین بالكليات العلمية في الجامعات المصرية	٣٣٠
جدول (٢٩) مقارنة بين طلاب جامعة القاهرة وطلاب الأزهر (نسب مئوية)	٣٦٢
جدول (٣٠) التوجهات الاجتماعية لطلاب جامعتی القاهرة والأزهر (النسبة المئوية للموافقين)	٣٦٣



مازلت أحلم بكتاب لكل مواطن. ومكتبة في كل بيت. لأن الثقافة هي وسيلة الشعوب لتحقيق التقدم والتنمية بما لها من قدرة على تحويل المعارف المختلفة إلى سلوك متحضر وإعلاء المثل العليا. وقيم العمل. وإشاعة روح التسامح والحرية والسلام التي دعت إليها جميع الأديان. وتكوين ثقافة المجتمع يبدأ بتأصيل عادة القراءة وحب المعرفة. وستظل وسيلة المعرفة الخالدة هي الكتاب الذي يساهم في إرساء دعائم التنمية وتحقيق التقدم العلمى المنشود.

سوزانه مبارك



٣ جنيهات

